يوسف ميخائيل أسعد

رعاية الشيخوخة



رعاية الشيخوخة

يوسف ميخائيل أسعد



الـكـتـاب : رعاية الشيخوخة

المؤلـف : يوسف ميخائيل أسعد

تاريخ النشر : ٢٠٠٠

رقم الإيداع : ١٠٠٨٩

الترقيم الدولى : I. S. B. N 977 - 215 - 435 - 8

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

لا يختلف أثنان على أهمية هذا الموضوع؛ وذلك لأنه من الموضوعات العامة التى لا تهم فئة من الناس دون باقى الفئات، بل إن الناس الواقعين فى جميع الأعمار يتطلعون إلى الشيخوخة باعتبارها نهاية المطاف وآخر محطة فى رحلة العمر.

ولكن على الرغم من إحساس جميع الناس بأهمية مرحلة الشيخوخة، فإن معظم الناس يشيحون بوجوههم عن تلك المرحلة، بل لقد يسقطونها من حسابهم تماما، ولكأنها شىء مستبعد الوقوع بالنسبة لهم، وبخاصة إذا كانوا شبابا مفعمين بالحيوية والنشاط والصحة والأمل. أضف إلى هذا أن الكثير من المفكرين والكتاب يعتبرون الشيخوخة مرحلة نضوب المعين الصحى والفكرى والأدائى، ومن ثم فهى مرحلة غير مغرية لهم بالبحث كما تغريهم مراحل نمو أخرى كمرحلة الطفولة أو مرحلة المراهقة. وعلى هذا فإنك تجد أن إسهامهم بالكتابة عنها قليل وعابر، بحيث لا تكاد تجد كتبا تتناسب كمًا وكيفًا مع أهمية هذا الموضوع وخصوبة مناحيه وكثرة مشكلاته النفسية والاجتماعية والصحية والاقتصادية وغير ذلك من مشكلات.

من هنا كان حماس المؤلف لهذا الموضوع، وبخاصة لأنه أخذ يحس بالمشكلات التى ينوء الشيوخ تحتها. ولقد كان أمامه منهجان: منهج استعراضى، ومنهج توجيهى. أما المنهج الاستعراضى فبمقتضاه يقوم الكاتب باستعراض ما سبقه غيره إلى كتابته أو بحثه، كما يقوم باستعراض نتائج البحوث الميدانية والاستفتاءات والمقابلات ودراسة الحالات الفردية إلى غير ذلك من معلومات حية مستقاة من واقع الحياة. أما المنهج التوجيهى فبمقتضاه يتناول الكاتب المشكلات التى يحس بها ويوجه الرأى العام بإزائها. وطبيعى أن الأخذ بهذا المنهج الأخير لا يغض نظر الكاتب عن الحقائق العلمية والمعلومات المنظمة، بل هو يعمد إلى تطويع وترويض المعلومات والحقائق لخدمة سياق الموضوع .

وعلى هذا فإن مثل هذه المعالجة التى أخذنا بها هنا لا تعترف بالفصل بين العلوم المختلفة، بل بالعكس فإنها تأخذ بالنظرة التكاملية التى تركز على الموضوع المعروض بغير تجزىء أو فصل، حتى وإن بدا من الفهرس أن هناك تخصيصا وتفريدًا وتركيزًا للبصر فى علم ما من العلوم الإنسانية. ومعنى هذا أن من الصعب أن تحصر هذا الكتاب فى نطاق علم واحد. فإذا قلت إنه يقع فى نطاق علم النفس، فإنك سرعان ما تجد بعض فصوله توحى لك بأنه يقع فى نطاق الاجتماع أو غيره من علوم إنسانية، بل إنك تجد أحد فصوله يتناول الرعاية الصحية.

وباستعراضك لمضمون الكتاب فإنك ستجد أربعة فصول تدور حول جوانب الرعاية التى ينبغى أن يحظى بها الشيوخ، وهى الرعاية الصحية والرعاية النفسية والرعاية الاجتماعية والرعاية الاقتصادية. ولقد اقترحنا إنشاء أندية العمر الثانى وجمعية أصدقاء الشيخوخة وأسبوع الشيخوخة وعيد العمر الثانى، وهى بمثابة حلول عملية للمشكلات الواقعية فى حياة الشيوخ.

ولقد بدأنا الفصل الأول بمحاولة إرساء قاعدة عامة ينخرط تحتها جميع الناس، وركزنا على الشباب والشيوخ، محاولين إثبات أن حياة الإنسان متصلة. وأن شباب اليوم هم شيوخ الغد بما يحمله هذا العنوان التطبيقى من معنى واقعى ومن مغزى نفسى اجتماعى يجدر بالشباب أن يستوعبهما ويضعوهما نصب الأعين باستمرار.

وفى الفصل الثانى قمنا بعرض المشكلة التى يرزح الشيوخ تحت نيرها، وهى مشكلة اليأس، وما يمكن أن يستبدل به من أمل، وذلك بالبرهنة مباشرة على أن اليأس الذى يحس به معظم الشيوخ ليس قدرًا كتب على الشيخوخة أن تخضع له، بل هو وضع اجتماعى يمكن التخلص منه أو التخفيف من حدته على الأقل.

وكان لابد لنا أن نعرض بالفصل الثالث لسيكولوجية الشيخوخة، وذلك لأن الوقوف على الواقع النفسى لدى الشيوخ مسألة أساسية؛ ولأن الوقوف على ما هو كائن يسبق بالتأكيد ما يجب أن يكون. أما فى الفصل الرابع فإننا تعرضنا لمتاعب الشيخوخة، وهى تشكل الجانب الاجتماعى من المشكلة مضافا إليه الصلة بين

المتاعب النفسية والمتاعب الاجتماعية. فهذا الفصل الرابع متمم للفصل الثالث ولكنه يركز على الجانب الواقعى.

ولم يفتنا أن نسأل بالفصل الخامس عن المسئول عن رعاية الشيوخ. وكان لابد لنا من تحديد المسئولية أو توزيعها بالأحرى، وذلك حتى لا تظل تلك المسئولية ضائعة بين أيد كثيرة، فتساءلنا عن مدى مسئولية الأبناء والبنات، ثم عن مسئولية الدولة ثم المؤسسة الخاصة ثم المؤسسة التعاونية ثم أخيرًا أكدنا على مسئوليتنا فى المرحلة الحالية من التطور الاجتماعى الذى نعيش فى إطاره.

ونستطيع أن نعتبر الفصول الخمسة الأخيرة، أعنى الفصل السادس والفصل السابع والفصل الثامن والفصل التاسع والفصل العاشر بمثابة الجانب العملى من الكتاب. وبتعبير آخر فإننا نستطيع أن نقسم هذا الكتاب إلى قسمين : القسم الأول يشتمل على الفصول الخمسة الأولى. أما القسم الثانى فهو يشتمل على الفصول الخمسة الأخيرة مشكلاً القسم التطبيقى العملى.

ومهما كان حكم القارئ فى النهاية على هذا العمل، فنرجو أن يحكم لنا على الأقل بأن بين يديه مبادرة اجتهادية تجمع بين الزاوية الشخصية والزاوية الموضوعية فى مركب ثقافى متجانس لا يشوبه تفكك ولا تندس فيه معلومات مفتعلة أو معلومات يمكن استبعادها أو الاستغناء عنها. فكل معلومة وردت بهذا الكتاب كان لها وظيفتها التى ينبغى أن تؤديها فى تآزر مع أخواتها المعلومات الأخرى .

يوسف ميخائيل أسعد

يناير ١٩٩٩

الفصل الأول

شباب اليوم هم شيوخ الغد

تداخل مراحل النمو وتكاملها :

على الرغم من أن علماء النفس يعمدون إلى تقسيم حياة الإنسان إلى مراحل فى ضوء الخصائص البارزة التى تتسم بها كل مرحلة والتى تتميز بها من المراحل الأخرى، فإن هذا لا يعنى أن كل مرحلة من مراحل النمو تقوم بذاتها ولا تشترك مع المراحل الأخرى فى الكثير من الخصائص، أو أن الإنسان ينتقل فجأة من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وإنما الواقع أن حياة الإنسان بمثابة سلسلة متصلة الحلقات، وأن كل حلقة تؤدى إلى الحلقة التالية بحيث تتداخل دوائر الحلقات المتباينة بعضها فى بعض، بل وتتفاعل كل حلقة مع الحلقات الأخرى.

وأكثر من هذا فإن كل حلقة من حلقات النمو لا تلغى الحلقات التى سبقتها بل تتضمن كل حلقة جميع الحلقات السابقة. فالشباب يجمع فى نطاقه الحلقات المتعلقة بالمراهقة والطفولة الثانية والطفولة الأولى، وكذا يجمع الشيخ فى نطاقه جميع الحلقات السابقة من حلقات النمو ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الشيخوخة. فتلاشى خصائص مرحلة سابقة هو فى الواقع تلاش ظاهرى وليس تلاشيا جوهريا، بدليل أن الشيخ أو الشاب قد يرضع أصبعه إذا وجد نفسه فى مأزق شديد وكأنه يبحث عن ثدى أمه ليمتصه وحضنها ليرتمى فيه هربا من الموقف المزعج. وفى المواقف التى تهدد بالخطر حيث يجد الإنسان نفسه قاب قوسين أو أدنى من الهلاك فإنه يجد نفسه وقد استحال إلى طفل، فتأتى حركاته

أشبه ما تكون بحركات طفل صغير. وقد تجد مثل ذلك الشخص وقد أخذ يصيح كالطفل وقد يلقى بنفسه أرضا ثم يأخذ فى الرفس، بل وقد يتبول أو يتبرز مثلما يفعل الطفل الصغير جداً فى الأحوال العادية.

ولقد تجد بعض الطاعنين فى السن من الرجال وقد وقع الواحد منهم فجأة فى حب فتاة مراهقة وأخذ به الحب كل مأخذ بحيث لا يختلف سلوكه بإزائها عن سلوك احد المراهقين الواقعين فى الحب. ولقد تجد امرأة فى الخمسين تعلق قلبها بأحد المراهقين، وأخذت تنتظر مَقْدمه والهيام بطلعته كما تفعل الشابة التى فى سن بناتها. فمثل هذا السلوك وإن كنا نعده سلوكا شاذا عن السوية، فإنه يدل من جهة أخرى على أن الإنسان فى أية سن إنما يحمل بين أضلعه حلقات العمر السابقة، بل وخصائص جميع تلك الأعمار.

ولكن كيف نفسر عدم ظهور صفات الأعمار السابقة فى حياة الأسوياء من الناس؟.. الإجابة ببساطة أن الصفات المتعلقة بالحلقة العمرية الأخيرة التى يمر بها الشخص السوى تتغلب على صفات الأعمار السابقة، فتظل سمات الحلقة العمرية الحالية طافية على السطح، بينما تكون صفات الحلقات العمرية السابقة غائصة تحت السطح. ولكن ليس معنى غوصها تحت السطح تلاشيها واختفاءها إلى الأبد، بل معناه أنها سوف تظل مختفية عن الأعين مادامت الظروف المحيطة بالشخص ظروفاً عادية. ولكن إذا ما تغيرت الظروف المحيطة فجأة بحيث يفقد المرء قدرته على التكيف والتواؤم السريع المفاجئ، فإن تلك الخطائص المتعلقة بالمراحل العمرية السابقة تجد عندئذ فرصتها السانحة للظهور والطغيان على خصائص المرحلة العمرية الراهنة. وإذا ما كان التغير البيئى قويا جداً بحيث يعجز الشخص عن لم شتات نفسه ومجابهة الواقع البيئى الجديد والتكيف له والتواؤم معه، فإن تلك الخصائص المتعلقة بمراحل عمرية سابقة سرعان ما تستأثر بالسيطرة على مجال الطفو بحيث تقوم بخنق الخصائص المتعلقة بالمرحلة العمرية الراهنة، فترى أن خصائص جميع الحلقات العمرية السابقة وقد أخذت تتنافس على الإمساك بمقاليد الأمور بالشخصية والسيطرة على السلوك، أعنى التفكير والوجدان والتصرفات المتباينة. وتوصف حالة مثل ذلك الشخص بالجنون.

ويعرف علماء الصحة النفسية السوية بأنها النجاح فى المرور من خصائص المرحلة السابقة إلى خصائص المرحلة العمرية الراهنة. فعندما نرى واحداً من الشيوخ وقد أخذ ينتحل لنفسه مشية أو وقفة تتعلق بمرحلة الشباب أو المراهقة مثلا - لا لأن صحته وحيويته تدفع به إلى ذلك، بل لأنه مرتد إلى مرحلة المراهقة أو الشباب وتلبسه بسلوك المراهقة أو الشباب برغم إفلاس جسمه ونضوب حيويته فإننا نحس عندئذ بأن سلوك مثل هذا الشخص المسن مشوب بعدم السوية، بينما نحس بالاحترام تجاه الشيخ الرزين الذى يسلك فى إطار سنه وعلى قد عمره.

ولكن على الرغم من أن خصائص المراحل العمرية السابقة يجب أن تظل غائصة تحت السطح. فإن هذا لا يعنى أنها يجب أن تقتل أو أن تتمحّى من حياة الشخص. ذلك أن تفاعل الإنسان لا يتم بين مقومات حاضرة وما يحيط بالشخص من مقومات بيئية فحسب؛ بل يتم التفاعل أيضاً بين المقومات الحالية وبين المقومات المتعلقة بالأعمار السابقة. ولقد عمدت مدرسة التحليل النفسى إلى إبراز أهمية خبرات الأعمار السابقة فى حاضر الإنسان؛ واهتم فرويد زعيم هذه المدرسة بإبراز أهمية خبرات الطفولة المكبوتة فى ظهور الأمراض النفسية والعقلية. ولكن هل هذه هى كل القصة؟ وهل الخبرات السلبية غير المواتية هى وحدها الخبرات التى تتفاعل مع حاضر المرء الواقع أن جميع المقومات المتعلقة بجميع الأعمار السابقة تستمر فى تفاعل مستمر وبعيد المدى مع المقومات الحاضرة.

فمن حيث الناحية الجسمية نجد أن الخبرات الحركية التى اكتسبناها فى طفولتنا تتفاعل مع الخبرات الحركية الجديدة التى تكتسبها فى المراحل العمرية الحالية والسابقة. خذ مثالا لذلك المشى والجرى. لقد اكتسبنا هاتين الخبرتين الحركيتين فى طفولتنا، ثم قد يتعلم بعضنا طرقا جديدة للمشى (فى الجيش مثلا) أو الرقص (وهو حركات جديدة مصاحبة لعملية المشى)، كما قد يتعلم بعضنا لعب كرة القدم أو رياضة الجرى. فنجد أن ما نتعلمه من طرائق جديدة للمشى أو الرقص أو الجرى إنما هو فى الواقع تفاعل بين خبرات اكتسبناها خلال طفولتنا وبين خبرات جديدة نكتسبها فى مراحل عمرية تالية.

وهكذا يقال أيضاً عن الناحية الوجدانية، ففى الطفولة تعلمنا إظهار فرحنا

بالضحك وإظهار حزننا بالبكاء. وبعد أن قيض لنا مستوى عال من النضج الوجدانى، صرنا نبكى إذا حزنا ولكن بطريقة مغايرة للطريقة الفجة التى كنا نبكى بها فى طفولتنا، وصرنا نعبر عن سرورنا بالضحك ولكن بطريقة مباينة للضحك الذى كنا نستخدمه فى طفولتنا. ولكن البكاء والضحك ونحن فى مرحلتنا العمرية الحالية له صلة وثيقة بالضحك والبكاء اللذين تعملناهما فى الطفولة.

والشىء نفسه بالنسبة للغة الكلام، بل ولغة الكتابة. ناهيك عن حركات التعبير بالإيماءات والإشارات باليدين. فعلى الرغم من أننا فى مستوانا العمرى الحالى نتكلم ونكتب ونومئ ونشير بأيدينا بطريقة ملائمة للمستوى النمائى الذى وصلنا إليه، فإن وسائل التعبير التى نستخدمها حاليا ذات صلة وثيقة بوسيلة التعبير الأولية التى اكتسبناها خلال طفولتنا.

والواقع أن مرحلة الشيخوخة مرحلة عمرية حتمية بالنسبة لمن يقيض لهم البقاء ولا يتوارون عن الحياة وهم بعد فى مرحلة الطفولة أو الشباب أو الكهولة. ولكن الواقع أن الشيخوخة لا تخضع لقانون واحد هو قانون الوهن والذبول، بل هناك ضروب كثيرة من الشيخوخة، ويتباين الواحد منها عن الأخرى، بحيث لا نستطيع أن نزعم أن هناك تطابقا بين شيخين تشير شهادة ميلاد كل منهما إلى نفس العمر. ومن الممكن أن ينتهى عمر الشخص بعد شيخوخة متينة البنية متزنة الوجدان صاحية العقل وسديدة المنطق. ومن الخطأ الفاضح أن نربط فيما بين الشيخوخة وبين الذبول الجسمى والاضطراب الوجدانى والتفكك العقلى. فهناك أعراض أصلية وهناك أعراض جانبية. فإذا قلنا مثلا إن المصاب بالحمى قد يغيب عن الوعى وينخرط فى مجموعة من الهلوسات، فليس معنى هذا أن الحمى تفضى حتما إلى ذلك، أو أنه يتعذر تجنب الهلوسات فى حالة الإصابة بالحمى. فالهلوسة فى حالة الحمى عرض ثانوى وليست من الأعراض الأصلية كارتفاع درجة حرارة الجسم مثلا. ونفس الشىء بالنسبة للربط بين الوهن الجسمى والاضطراب الوجدانى والتفكك العقلى وبين الشيخوخة. إننا إذا لاحظنا أن نسبة كبيرة من الطاعنين فى السن يعانون من تلك الأعراض الجسمية والوجدانية والعقلية، فيجب ألا نذهب إلى اعتبار الشيوع قاعدة، وإنما يجب أن نعتبر أن ذلك الشيوع نتيجة لإهمال هذه الفترة الخطيرة من حياة الإنسان.

ولعلنا لا نخطئ إذا شبهنا الشيخوخة بالطفولة. فإذا قلنا مثلا إن جميع الأطفال يصابون بمرض الحصبة، فلا يعنى هذا فى الواقع أن من المحتم فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد أن يمرض كل طفل من أبناء الأجيال القادمة بالحصبة. قد يتوصل الطب إلى عقار (أو توصل بالفعل) بحيث سوف تستقر أوصاف مرض الحصبة بكتب تاريخ الطب باعتبار أنها كانت ضمن الأمراض التى كان أطفال الأجيال الماضية يصابون بها. وعلى نفس النحو فإذا ما وجهت العناية إلى الشيخوخة، فلسوف يتخلص الشيوخ من الأعراض الجسمية والوجدانية والعقلية التى يتعرض لها شيوخ اليوم، ولسوف يقوم أبناء الأجيال القادمة بدراسة تلك الأعراض لا باعتبارها واقعا آنيًا، بل باعتبارها تاريخا طواه الزمان فى لفائفه.

ولسنا نخطئ إذا قلنا إن مرحلة الشيخوخة تقع ضمن مراحل النمو. ذلك أن النمو ليس عملية زيادة فى الحجم فحسب كما قد يخطر ببال البعض. إن للنمو معانى متعددة من بينها ذلك المعنى الشائع فى الأذهان وهو الامتداد الجسمى من حيث الطول والعرض والوزن. أما المعنى الثانى وهو المعنى الأدق فهو التجدد. فجسم الطفل والرجل والمرأة البالغين يخضع لعمليتى الهدم والبناء. فثمة خلايا تموت وخلايا أخرى تولد. وكلما كان هناك توازن بين عمليتى الهدم والبناء كان الجسم أكثر تماسكا وقدرة على مقاومة عوامل الفناء. ولكن عندما تنتصر عوامل الهدم على عوامل البناء، فإن الهلاك يكون متربصا إذن بذلك الإنسان، ويكون حتفه على الأبواب.

أما المعنى الثالث للنمو فهو تفتيق الإمكانيات. فثمة إرثات تجل عن الحصر بداخل الإنسان، إما أن تظل فى حالة كمون إلى أن يوارى الشخص قبره، وإما أن تخرج إلى حيز الوجود. وهناك مقومات وراثية يتسنى لها الخروج إلى حيز الوجود خلال الطفولة، بينما هناك مقومات موروثة لا يتسنى لها الخروج إلى حيز الوجود إلا فى المراهقة أو الشباب أو الشيخوخة. فالشيخوخة لا تغلق الأبواب أمام تفتيق الإرثات بالشخصية، بل شأنها شأن جميع المراحل العمرية السابقة. وإذا كانت الغالبية العظمى من الشيوخ لا يستثمرون ما فى جعبة شخصياتهم من إرثات ومقومات يمكن أن تخرج إلى حيز الوجود، فليس هذا إلا لعدم تهيئتهم نفسيًا

واجتماعيا لذلك. ولكن إذا ما تغيرت النظرة إلى الشيخوخة، فسوف لا تختلف عندئذ فى نظر الناس عن سائر مراحل النمو الأخرى، وسوف يظل الإنسان يستثمر إمكاناته طوال حياته ولا يتوقف عن العملية الاستثمارية حتى فى الشيخوخة المتأخرة جدًا. وليست الحالات التى يقدمها لنا التاريخ بإزاء شيوخ ظلوا يستثمرون إمكاناتهم من قبيل الشذوذ عن القاعدة أو الخروج عن قوانين الطبيعة البشرية، وإنما الصحيح والسوى وما يجب أن يشكل القاعدة وأن يعتبر معيارًا للسوية هو أن يصير جميع الشيوخ على وتيرة أولئك الشيوخ المفعمين بالحيوية من أمثال برناردشو وبرتراند رسل وطه حسين وتوفيق الحكيم.

الشباب الشيوخ والشيوخ الشباب:

سبق أن قلنا إن النمو له معان متعددة من بينها «التجدد». والتجدد معناه استمرار البناء لمغالبة الهدم. فكلما استمر التوازن بين عمليتى الهدم والبناء قائما استمر النمو. وحتى فى حالة تعادل الهدم والبناء بغير أن يطغى الهدم على البناء فإننا نعتبر عندئذ أن النمو مستمر. فالنمو معناه إذن إما استمرار المحصلة بين البناء والهدم ثابتة، وإما زيادة تلك المحصلة لصالح البناء.

والسؤال هو: هل اختلال التوازن بين البناء والهدم أمر حتمى خلال مرحلة الشيخوخة وهل المراحل السابقة على الشيخوخة معصومة من اختلال التوازن بين عمليتى الهدم والبناء، وأيضاً من تغلب عملية الهدم على عملية البناء؟ مما لاشك فيه أن تغلب الهدم على البناء أمر لا مناص منه خلال الشيخوخة، ولكن المؤكد هو أن زحف الهدم يمكن أن يكون بطيئًا جدًا خلالها، إذا ما كانت البنية متينة، إذا كانت العناية مكفولة للشخص فيما قبل الشيخوخة وفى أثنائها.

ونستطيع القول فى الواقع إن الهدم قد يكون قليلا جدًا بحيث تكون غلبته على البناء غلبة لا تذكر، وبحيث يمكن التجاوز عن الزيادة التى يحرزها الهدم على البناء.

ولكن من جهة أخرى فإننا قد نجد أن الهدم يزحف بشدة متغلبا على البناء فى المراحل السابقة على الشيخوخة بما فى ذلك مرحلة الطفولة ذاتها، وهى أكثر

المراحل حظا فى إحراز البناء وأكثر المراحل حظا فى تجنب الهدم. فلقد تجد أطفالا أو مراهقين أو شبابًا ينحدرون فى بنيتهم الجسمية انحدارًا رأسيًا شديد الوعورة حيث تزيد نسبة الهدم لديهم على نسبة البناء بدرجة أكبر كثيرا عما يحدث لدى كثير من الشيوخ.

ومعنى هذا بتعبير آخر أن هناك من الشباب من يتصفون بالصفات الشائعة لدى الشيوخ، كما أن هناك من الشيوخ من يتصفون بالصفات التى تشيع لدى الشباب. ففى الحالة الأولى وهى حالة الشباب الشيوخ تكون نسبة الهدم إلى نسبة البناء كبيرة، بينما تكون نسبة البناء إلى الهدم فى الحالة الثانية نسبة كبيرة أو معقولة على الأقل.

وإذا كنا قد حصرنا حديثنا حتى الآن فى نطاق البنية الجسمية، فلأن تلك البنية تعد بمثابة البناء الذى تمارس بداخله جميع الأنشطة المتباينة. فبغير وجود مثل ذلك البناء لا يمكن إذن ممارسة أى من الأنشطة الوجدانية والعقلية والاجتماعية. وأكثر من هذا فإذا كان ذلك البناء متصدعًا أو ضعيفا، فإن المناشط التى تمارس بداخله تكون إذن مناشط هزيلة واهنة.

ولكن يجب ألا يفهم من حديثنا عن متانة البنية الجسمية أننا نقتصر على الناحية العضلية دون سائر المناحى الجسمية. فثمة إلى جانب الجهاز العضلى الجهاز الدورى والجهاز الهضمى والجهاز التنفسى والجهاز التناسلى والغدد الصم والغدد المقناة والهيكل العظمى وغير ذلك. وأهم من ذلك كله - ومن غيره - ثمة الجهاز العصبى المركزى، وهو يشمل المخ والمخيخ والنخاع الشوكى ثم الجهاز العصبى السمبتاوى. فلابد لكى تكون البنية الجسمية سليمة أن تكون جميع هذه المناحى صحيحة ومتينة وأن تكون عوامل الهدم فيها أقل شدة من عوامل البناء.

ولقد ينظر إلى المناشط الوجدانية والعقلية والاجتماعية باعتبارها صدى أو انعكاسا للنشاط الجسمى. ولكن يجب ألا ينظر إلى الوجدان أو التفكير أو العلاقات الاجتماعية باعتبارها إفرازا جسميا كإفراز العرق مثلاً ، بل يجب أن ينظر إلى هذه النوعيات الثلاث من الأنشطة باعتبارها طوابق تبنى بالشخصية فوق أساس لا مناص منه هو الأساس الجسمى. فكل طابق من تلك الطوابق

الثلاثة وإن كان مرتبطا بالأساس الجسمى ومنبثقاً عنه، فإنه يشكل نوعية تختلف اختلافا جوهريا عن نوعية ذلك الأساس الجسمى.

وعلى الرغم من أن كل طابق من هذه الطوابق الثلاثة: الوجدان والعقل والعلاقات الاجتماعية، تتمايز بعضها من بعض، فإنها تخضع جميعاً لقانون واحد هو القانون الذى تخضع له البنية الجسمية. والقانون هو قانون الهدم والبناء. فبالنسبة للطابق الوجدانى، فإنك تجد عواطف تنهدم وعواطف أخرى تنبنى وبالنسبة للطابق العقلى تجد أفكارًا تموت وأفكارًا أخرى تنبت، وبالنسبة للطابق الاجتماعى فإنك تجد علاقات اجتماعية تذبل وعلاقات اجتماعية جديدة تنشأ.

وما سبق أن قلناه بإزاء البنية الجسمية والمحصلة المتأتية عن البناء والهدم، ينسحب أيضاً بإزاء الطوابق الثلاثة التى ذكرناها. فلكى تظل الحياة الوجدانية سليمة وصلبة يجب أن تزيد عوامل الحب عن عوامل الكراهية، إذا كان لنا أن نعتبر أن الحب بناء والكراهية هدم، وأنك لتجد الشخصية التى تزيد فيها عوامل الكراهية فجأة تحس بما يشبه الانهيار الداخلى المقوض لأركانها. ولكن تسرب عوامل الكراهية بداخل الجهاز الوجدانى أمر لا مناص منه، ولا يكون فى ذلك أى خطر مادامت عوامل حب جديدة تنشأ وتترعرع فى نطاق ذلك الجهاز الوجدانى .

وبالنسبة للجهاز العقلى وما يتضمنه من إدراك وتخيل وتذكر وتصور، فإننا نجد أن الإدراك بمثابة المورد للخبرات العقلية التى تختزن بالذهن. ولكن ما يدخل إلى المخ من انطباعات لا يظل كما هو بل يتعرض للذبول والتلاشى وهو ما يسمى بالنسيان. وما يبقى عالقاً بالذاكرة يعد بمثابة المحصلة المتأتية عن الوارد والمنصرف من الخبرات التى يتلقاها الذهن من الخارج عن طريق الإحساس أولاً ثم الإدراك والتى يفقدبعضها بعد ذلك بالنسيان .

وفى علاقتنا الاجتماعية تنبت علاقات جديدة مع أشخاص ومجموعات لم تكن تجمعنا بهم أية علاقة سابقة، وأيضا تذبل بعض العلاقات الاجتماعية التى كانت وطيدة. ولقد يكون الذبول الذى يصيب تلك العلاقات الاجتماعية نتيجة البعد وانقطاع الصلة ، كما قد يكون نتيجة خصومة وقطيعة ، كما قد يكون نتيجة تغلب علاقة اجتماعية جديدة على علاقة اجتماعية قديمة .

والواقع أن قانون الهدم والبناء الذى يسود جميع طوابق الشخصية يختلف فى تطبيقه من سن لأخرى. ولكن ليس شرطا أن يكون معول الهدم أقوى من قوة التشييد فى الشيخوخة ،وأن يكون العكس هو الصحيح فيما قبل الشيخوخة من مراحل عمرية. فليس شرطا أن تكون عوامل الحب وعوامل التذكر وعوامل الارتباط الاجتماعى أقوى خلال الطفولة والمراهقة والشباب من عوامل الكراهية وعوامل النسيان وعوامل تفكك الارتباطات الاجتماعية .

وبتعبير آخر نقول إن من الشيوخ من تتأكد لديهم عوامل الحبّ والتذكر والعلاقات الاجتماعية بحيث لا يكون ما يفقدونه من المقومات الوجدانية والعقلية والارتباطات الاجتماعية مؤثراً بشدة فى المحصلة النهائية التى يخرجون بها من تلك القطاعات الثلاثة. وعلى العكس من ذلك فإنك قد تجد من بين الأطفال والمراهقين والشباب من تزيد لديهم عوامل التفكك الوجدانى والعقلى والاجتماعى بحيث يحق لك أن تصف الأولين وهم فئة الشيوخ بالشباب، وأن تصف الآخرين وهم الأطفال والمراهقون والشباب بأنهم شيوخ، وذلك إذا كنا نعتبر أن الشباب هو رمز البناء والقوة والحيوية، وإذا كنا نعتبر أن الشيخوخة رمز للهدم والضعف والذبول جريا وراء الرأى الشائع والحالة الشائعة فى واقع الحياة، حيث نجد أن نسبة الحيوية والقوة والبناء أكثر ارتفاعًا بوجه عام لدى الشباب منها لدى الشيوخ.

ولكن قد ننظر إلى الشباب والشيخوخة من زاوية أخرى هى زاوية الإرادة والإنتاجية. فالمفروض أن يتمتع الشباب بقوة الإرادة وبالإنتاجية العالية لما يتمتعون به من حيوية متدفقة. والواقع أن هذا المعيار يرتبط بالفرد وما يكتسبه من عادات أكثر من ارتباطه بفترة عمرية معينة. فثمة كثير من الشباب لا يتمتعون بالإرادة القوية، كما أن إنتاجيتهم تتسم بالضعف الشديد إن كان لهم إنتاجية على الإطلاق. ونستطيع أن نقول إن الإرادة القوية تتسم بالتعبير عن الذات وبتحويل الفكر إلى تخطيط والتخطيط إلى واقع عملى. ومجرد أن تواتيك فكرة وتبحث عن وسيلة للتعبير بها عنها ثم تقع بالفعل على تلك الوسيلة وتبدأ فى استخدامها بحيث تخرج الفكرة من ذهنك إلى الواقع الخارجى سواء بالتعبير عنها بالقلم أم حتى باللفظ المنطوق أم بالخامات أم بالتصرفات، فإنك تكون صاحب إرادة. والواقع أن

الشخصية إذا ما دربت على إخراج ما يدور بخلدها إلى الواقع الخارجى فإنها بذلك تكون قد دربت على الإرادة القوية .

أما الزاوية الثالثة التى يمكن أن ننظر منها إلى كل من الشباب والشيخوخة فهى زاوية استثمار الوقت والإحساس بقيمته. ولا شك أن هذه الزاوية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالزاوية السابقة. فصاحب الإرادة القوية يحس دائمًا بقيمة وقته، بل ويحس بغاية الضيق عندما تحول ظروف معينة بينه وبين استثمار كل دقيقة من دقائق وقته المتاح له للعمل والاستثمار. ولسنا نبالغ إذا قلنا إن رأس مال الإنسان الذى لا يتغير عبر الزمان وفى كل مكان، والذى لا يقبل الفناء ولا يتأثر بالتقلبات الاقتصادية هو الوقت. فاستثمار الوقت أهم بكثير من استثمار أى شىء. والذى لا يستثمر وقته لا يعرف إلى استثمار الإمكانيات المادية سبيلاً، لأن الوقت هو القالب الذى تنصب فيه جميع الجهود البشرية على اختلاف أنواعها. ولعلنا نجد كثيرا من الشباب يضيعون الوقت سدى بلا استثمار، بينما تجد كثيرا من الشيوخ حريصين على وقتهم ويبخلون به على الضياع، بل إنهم يأسفون على الوقت الضائع من حياتهم بغير استثمار بسبب الوقوع تحت وطأة المرض أو الوهن. ونستطيع أن نعتبر الشباب المضياع للوقت شيوخا. بينما نعتبر الشيوخ من النوع الثانى شبابا إذا افترضنا فى الشباب الحرص على الوقت واستثماره بصفة عامة، وإذا افترضنا فى الشيوخ العجز عن استثمار وقتهم.

أما الزاوية الرابعة التى يمكن أن ننظر منها إلى كل من الشباب والشيوخ فهى زاوية اكتساب الخبرات الجديدة. فلقد شاع فى الأذهان أن الشباب أكثر قابلية للاكتساب من الشيوخ. ولكنك قد تجد من بين الشباب من يجمدون فى فكرهم وخبراتهم بحيث لا يرغبون فى التحرك إلى آفاق جديدة يكتسبون منها خبرات جديدة ينشطون بها حياتهم أو يوسعون بها أرزاقهم أو يرتفعون بواسطتها بمستوى إنتاجهم أو يزيدون من كميته. وفى نفس الوقت قد تجد من الشيوخ من يتشوف إلى الخبرات الجديدة باحثين عن مصادرها وغير عابئين بفترة العمر المتبقية لهم والتى يتوقع أن تكون قصيرة. إنهم ينظرون إلى الخبرة الجديدة كمصدر لتخصيب حياتهم بغض النظر عن المدة التى ستتاح لهم على هذه البسيطة.

وإذا صح هذا بإزاء الخبرات الجديدة فيصح بإزاء تعديل السلوك الشخصى. فهناك من الشباب من جمدوا على نوعية معينة من السلوك بحيث يرزحون تحت نير العادات السلوكية التى اعتادوا عليها وتمرسوا بها ولا يقبلون عنها بديلاً. ومن جهة أخرى فإنك قد تجد من بين الشيوخ من يبحثون عن وسائل جديدة لتنقية سلوكهم وتعديله، بل إنهم كثيرا ما يعمدون إلى غربلة فلسفاتهم فى الحياة علهم يستبدلون ببعض خطوطها خطوطا جديدة أفضل منها وأكثر مواءمة مع روح العصر. إننا نعتبر أمثال أولئك الشيوخ أصحاب قلوب شابة بينما نعتبر الشباب الذين تجمدت شخصياتهم وتحجر سلوكهم شيوخًا هرمت شخصياتهم قبل أن تهرم أجسادهم .

ثنائية الجسم والنفس :

لقد ظل علم النفس فترة طويلة – تحت تأثير الاتجاه الواقعى المادى – يؤكد أن ثنائية الجسم والنفس ليس لها أساس من الصحة، وأن الإنسان ليس سوى كائن حى بيولوجى، وأن العواطف والأفكار ليست سوى أشكال من المادة التى هى الجسم الحى. فالعاطفة والعقل بالنسبة للجسم كالنار بالنسبة للخشب المشتعل. ولكن على الرغم من ذلك فإن ثمة اتجاهات نفسية معاصرة تذهب إلى الاعتراف بالثنائية القديمة التقليدية التى تقول بالجسم من ناحية وبالنفس أو الروح من ناحية أخرى. وأكثر من هذا فإن تلك الاتجاهات المعاصرة تذهب إلى تأكيد المفارقة بين الجسم والروح وإن كان هناك تأثير متبادل فيما بينهما. فالتأثير بين الجسم والنفس كالتأثير بين الملابس وبين الشخص الذى يرتدى تلك الملابس. فلا شك أن هناك تأثيرا متبادلاً بين تأثير الشخص فيما يرتديه من ملابس، كما أن هناك من جهة أخرى تأثيراً للملابس التى يرتديها الشخص فى كيانه النفسى. فالشخصية الشهيرة إذا ما ارتدت نوعا من القماش فإن ذلك القماش يكتسب قيمة فى نظر الناس، كما أن السجين الذى كان يحتل مكاناً مرموقا بالمجتمع ثم زج به فى السجن وأجبر على ارتداء ملابس السجن، فإن تلك الملابس تؤثر فى نفسيته إلى أبعد الحدود.

فإذا ما أخذنا بالثنائية التقليدية التى تقول بوجود الجسم من ناحية والروح

أو النفس من ناحية أخرى، وإذا ما اعترفنا بوجود علاقة متبادلة فيما بينهما، فإننا نستطيع القول إذن إن لهذين القطبيين أكبر تأثير على استمرار أو عدم استمرار حالة النضارة والحيوية بالشخصية. فالبنية تؤثر فى الوجدان والعقل وفى مدى قدرتهما على التماسك والتكامل والانتظام فى أداء وظائفهما، كما أن الروح بما تتضمنه من وجدان وعقل تؤثر بدورها فى البنية وتعمل على الحفاظ على الحالة الصحية للشخص .

وليس هناك من ينكر تأثير البنية فى الحالة الوجدانية للإنسان. وشاهد ذلك أن الحالة الصحية العامة تؤثر إلى أبعد مدى فى مزاج الشخص وفى سعادته. فإذا ما ألمَّ مرض عضال بشخص كان ينحو إلى المرح وكان دائم الانشراح، فإنك سرعان ما تلاحظ عليه أنه قد بدأ يعيش فى وجوم وقد تلاشت من آفاق حياته تلك السعادة التى كان ينشرها من حوله والتى كانت تنبثق فى تدفق من أعماقه .

ومن الملاحظ أيضًا أن الأشخاص الذين يصابون فى حوادث مفاجئة يصابون أيضا بحالات نفسية انقباضية بحيث يكونون بحاجة إلى رعاية نفسية طويلة تخرجهم من حزنهم المتأصل فى قلوبهم وتعيدهم إلى سابق صحتهم النفسية وإلى سويتهم الوجدانية .

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن الكثير من المواد التى تدخل الجسم يكون لها تأثير بالغ فى الحياة الوجدانية للشخص. فالخمور والمخدرات والشاى والقهوة والسجائر وغيرها تؤثر وجدانيًا فى نفسية المتعاطى لها بدرجات متباينة وبآثار متباينة أيضا، كما أن المعتاد عليها ثم تمنع عنه يحس بتوعك شديد أو خفيف من الناحية الوجدانية حسب الحالة وبقدر إدمانه على تناولها .

ولا يخفى أن التعب والجوع والعطش والأرق أو الحرمان من النوم لفترة طويلة والنزيف وغير ذلك من حالات طارئة أو متواترة إنما تؤثر فى الحالة المزاجية للشخص بحيث يحس بأنه غير سعيد وبأنه مفتقر إلى الاتزان الوجدانى .

والواقع أن الجهاز العصبى بما قد يعتوره من أمراض أو إصابات، والغدد الصم وماقد يحدث بها من خلل يؤدى إلى زيادة إفراز الهورمونات أو إلى نقص فى

إفرازها عن المطلوب إنما ينتهى بالشخص إلى كثير من الانحرافات الوجدانية فيحس بالانقباض أو التشاؤم أو يحس بأن أخطارًا غامضة تتهدده أوبالكراهية تملأ قلبه بتجاه جميع الناس، وأنه قد صار يائسًا من الحياة وقد صار يرى أشباح اليأس تخيم على المستقبل .

وإذا كان هذا هو حال الجسم بالنسبة لتأثيره فى الوجدان، فإننا نرى من جهة أخرى أن الوجدان يؤثر تأثيرا بالغا فى الجسم. فلقد عمد علماء الطب إلى تحديد العدد العديد من الأمراض الجسمية التى تنجم عن الاضطرابات الوجدانية أو التى تحدث كنتيجة للمخاوف أو الأحزان. من بين تلك الأمراض قرحة المعدة وبعض أمراض القلب واضطرابات الجهاز الهضمى وخلل الجهاز التناسلى وبعض حالات الربو وبعض الأمراض السرطانية.

ومن الحقائق المعروفة أن الحالة الوجدانية لها أبعد الأثر فى بذل الطاقة الجسمية. فرضاء العامل عن عمله وسروره به يجعله مقبلاً عليه باذلا جهده وطاقته الحيوية المناسبة لإنجازه على خير وجه. والواقع أن علم النفس الصناعى يركز جل اهتمامه على هذه الناحية، حيث يبحث حالة العاملين النفسية ويعمل على الارتفاع بمستوى سعادتهم حتى يرتفع مستوى إنتاجهم وتتحسن إنتاجيتهم من حيث النوعية أيضا. وأكثر من هذا فقد وجد أن إشاعة جو من المرح والسعادة فى نطاق العلم يؤدى إلى إنتاجية أفضل وإلى قدر أكبر من التعاون وإلى نقص ملحوظ فى الخلافات والمشاحنات التى يمكن أن تقع بين العمال .

وحتى بالنسبة للحيوانات وجد أن توفير الجو المناسب وجدانيا لها فى بيئاتها التى تعمل بها إنما يحملها على بذل جهد أكبر، كما وجد أنه بالنسبة للأبقار فإنها تدر لبنا أكثر وأجود، وبالنسبة للدجاج فإنه يبيض عددا أكبر من البيض بأحجام كبيرة. ولقد وجد أن العلاقة التعاطفية بين الفارس وحصانه تجعل الحصان أكثر إقبالاً على تحمل المشاق، بل إنه يكون شاعرًا بالسعادة وهو يحمل صاحبه على صهوته ولا يحس بالتعب إذا حمله إلى مسافات بعيدة .

وإذا نحن اعترفنا بأن الحالات الجزئية تتجمع وتتراكم فى شخصية الإنسان بحيث يتأتى عنها محصلة تتبدى فى حالته الراهنة وفى المرحلة العمرية التى يمر

بها، فإننا نستطيع أن نقول إن التأثيرات المتبادلة بين الجسم وبين الوجدان حيث يؤثر الجسم فى الحالة الوجدانية من جهة ثم الوجدان فى الحالة الجسمية من جهة أخرى - لابد مفضية إلى وضع معين بالنسبة للشخص على مر السنين. فإذا ما نظرت فى حالة شخص فى الستين ووجدته يبدو وكأنه فى الأربعين، فاعلم أن تلك التأثيرات المتبادلة بين جسمه وبين وجدانه منذ الطفولة كانت تأثيرات مواتية فى عمومها، وأن الفضل فى ظهوره بمظهر الشباب والفتوة إنما يرجع إلى حسن العلاقة بين جسمه ووجدانه، على مر الأيام .

ولكأن هناك علاقة جوار بين الجسم والوجدان. وهذا الجوار قد يكون جواراً حسناً مشفوعا بالتعاون والمودة، كما قد يكون جوارًا مشفوعاً بالعداء والتربص. فإذا ما كان الود قائما بين هذين الجارين : الجسم والوجدان، فإن كلا منهما يعيش فى سعادة وطمأنينة. ولكن إذا كانت المنازعات مستمرة فيما بينهما، فإن الضرر يلحق بكل منهما وينتهى بهما الأمر إلى الذبول والانهيار .

ونستطيع أن نقول إن الشيخوخة المبكرة تقع لبعض الأشخاص كنتيجة حتمية لهذا العراك بين الجسم والوجدان أو لعدم توافر الاتساق والانسجام بينهما. وإذا كان لنا أن نعترف بأن بعض حالات السكتة القلبية أو الشلل المفاجئ وغير ذلك من حالات إنما تقع نتيجة حدوث صدام مفاجئ بين الجسم والوجدان، فإننا نستطيع القول من جهة أخرى أن هناك صدامات خفيفة تحدث بين الجسم والوجدان لا ينجم عنها انهيار كامل مفاجئ كما هو الحال فى الأمثلة السابقة، بل ينجم عنها تصدع داخلى يتراكم بعضه فوق بعض بحيث تحدث الشيخوخة قبل الأوان .

وإذا كان الوجدان يعد أحد جارى الجسم، فإننا نجد أن الجار الآخر هو العقل. فالعقل بدوره يتأثر بالجسم ويؤثر فيه. ويكفى أن نقول إن المخ - وهو جزء من الجسم - هو المسئول عن العمليات العقلية بأسرها. فكل عملية عقلية لها مركز محدد بالمخ. فنحن نستقبل بواسطة الحواس الخمس المؤثرات الحسية التى ترسل الأحاسيس إلى المراكز الخاصة بها، وتقوم تلك المراكز بعملية الترجمة بحيث تستحيل الأحاسيس إلى مدركات عقلية. وهناك مراكز بالمخ تعد بمثابة مخازن للمدركات. وكل مخزن من تلك المخازن يسمى ذاكرة. وهناك عدة ذاكرات بالمخ.

وهناك أيضا أجهزة بالمخ مسئولة عن تركيب صور ذهنية تستقيها من مخازن الذاكرة ولكن تقوم بتركيبها بطرق جديدة وفى أشكال مبتكرة. وتلك الأجهزة هى أجهزة الخيال. ثم هناك أجهزة بالمخ مسئولة عن التجريد، فبعد أن يتلقى المخ عدة صور إدراكية متكررة، فإن تلك الأجهزة التجريدية تقوم بتلخيصها ووضعها تحت مسمى واحد، فنقول مثلاً «كرسى» للإشارة إلى كل مقعد نجلس عليه، مهما اختلفت أشكاله والمواد المصنوعة منه .

والتأثير التبادلى بين الجسم والعقل لايقل صلابة وتأثيرا عن التأثير المتبادل بين الجسم والوجدان. فإذا كان الجسم يؤثر فى العقل بوظائفه المتباينة، فإن كل وظيفة من وظائف العقل تؤثر بدورها أيضا فى الجسم. والواقع أننا لا نستطيع أن نفصل العقل عن الوجدان. فهما يعملان فى غالبية الحالات فى تآزر فيما بينهما. فالرسالة التى يتلقاها الشخص حول فقدان عزيز لديه فى حادث تترجم فى المخ إلى أفكار ثم تتلبس الأفكار بوجدانات معينة، ثم تؤثر بعد ذلك فى الجسم بطرائق متباينة ومعقدة للغاية .

والواقع أن الاقتناع يعد المرحلة الأولى والأساسية من مراحل علاج كثير من الأمراض النفسجسمية. وحتى عندما يقبل الطبيب على إجراء عملية جراحية لأحد المرضى، فإنه يعمد إلى إقناعه بضرورة مساعدته -أى مساعدة المريض له- على إجراء العملية وهو بروح عالية. وبهذه المناسبة نذكر أن هناك رسائل ذهنية تصدر عن الشخص إلى قلبه بالتوقف فى حالات اليأس من الشفاء أو فى حالات اليأس من الاستمرار على قيد الحياة. ويقال أن الكثير من حالات الوفاة بعد وقوع الحوادث إنما تكون نتيجة لفقد المصاب لثقته فى إمكان استمراره حيا، وبالتالى فإن عقله يأمر القلب بالتوقف هربا من الموقف الميئوس منه .

وما سبق أن قلناه عن الشيخوخة كنتيجة للتأثيرات المتبادلة المتراكمة بين الجسم وبين الوجدان، فإننا نكرره هنا ولكن بصدد العلاقة بين الجسم والعقل. فالبنية الجسمية لها أكبر الأثر فى الشيخوخة العقلية. فكثير من حالات ضعف الإدراك والذاكرة والخيال والتصور إنما تنشأ عن حدوث خلل أو ضعف فى أنسجة المخ، كما أن الكثير من الضمور والوهن الجسمى وأمراض الشيخوخة إنما تنشأ عن

الأفكار التى تسيطر على الشخص وتستحوذ على نشاطه العقلى وبخاصة تلك الأفكار الثابتة التى ترزح بكلكلها على ذهن الشخص وتظل تمثل محورًا وحيدًا يدور حوله فكره ونشاطه العقلى بأسره.

ونستطيع القول بعد كل ما سقناه هنا أن الشيخوخة حالة تقع نتيجة ظروف معينة وليست قدرًا لا يمكن التخفيف من وطأته. فإذا كانت حياة الإنسان محدودة على هذه الأرض، وإذا كان الإنسان يبدأ طفلا ثم شاباً ثم شيخًا ثم يموت، فليس شرطا أن تكون شيخوخته محفوفة بالخفوت ومحوطة بالأمراض، بل يمكن أن يمتد الشباب بحيث تختفى الشيخوخة بالمعنى السائد للكلمة، وهو معنى الوهن والذبول والتدهور من قاموس الحياة.

الشباب يعلنون الحرب على الشيخوخة:

لسنا نقصد بهذا العنوان أن الشباب قد عقدوا العزم على محاربة الوهن والضعف اللذين يصاب بهما الشيوخ عادة، وإنما نعنى به أن الشباب يقفون موقفًا عدائيا من الشيوخ، وأن جيل العاملين المثمرين ينظر إلى جيل الطاعنين فى السن بنظرة امتعاض إن لم يكن بنظرة حقد وضيق وتبرم. ذلك أنهم يشعرون بأن أولئك الشيوخ لا يعملون، ومن ثم فهم عالة عليهم. وأكثر من هذا فإنهم يحسون بأن أولئك الشيوخ بحاجة إلى رعاية صحية وإلى مساندة مستمرة، وأن أمل المستقبل مغلق أمامهم، ولذا فإنهم يتجهون من سيئ إلى أسوأ، ومن حالة صحية واهنة إلى حالة صحية أكثر وهنا وضعفا وخفوتا. ولذا فإنهم يحسون بأن كل مساعدة يقدمونها إلى أولئك الشيوخ إنما هى مضيعة لأموال كان يمكن أن تستثمر فيما هو أحسن، وأن كل مساندة صحية يمكن أن تسدى لهم سوف تبوء بالفشل إن آجلا أم عاجلا. ولذا فإن الأحرى بهم – حسب منطقهم – أن توجه تلك العناية إلى المرضى من جيل الشباب الذين يمكن أن يبرأوا مما رزحوا تحته من أمراض، وما ابتلوا به من أدواء.

والواقع أن مشاعر أجيال العاملين الشابة تجاه أجيال الشيوخ الواهنة قد وجد ويجد له ترجمة عبر التاريخ وفى الوقت الحاضر. ففى سجلات التاريخ نجد أن كثيرًا من القبائل البدائية كانت تقوم ببيع الطاعنين فى السن من أبنائها من

الجنسين إلى القبائل الأخرى التى تأكل لحم البشر لالتهامهم. وكانت بعض القبائل تقوم بعملية مقايضة مع القبائل الأخرى بإزاء الشيوخ، لأنهم كانوا يحرمون على أنفسهم أن يأكلوا لحم أبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم. ولكنهم كانوا يستبيحون أكل لحم آباء وأمهات وأجداد وجدات القبائل الأخرى، بل إنهم لم يكونوا يجدون شيئا من الامتعاض أو الغضاضة فى أن يلتهم أبناء القبائل الأخرى آباءهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم مادامـوا قد باعوهم بإرادتهم أو قايضوا عليهم برغبتهم ومعرفتهم.

وفى التاريخ أيضا الكثير من الشواهد التى تشير إلى أن بعض الدول كانت تتخلص من الشيوخ لكى توفر الغذاء وسبل الحياة أمام أجيال الشباب العاملين المثمرين. ويقال إن هتلر اتجه إلى شىء من ذلك فى ألمانيا النازية حتى تصير ألمانيا شابة قوية بشبابها، وقد تخلصت من أسباب الضعف المتمثلة فى الشيوخ وغيرهم من مرضى وأطفال مشوهين أو ضعاف عقل.

أما فى الوقت الحاضر فإنك تجد كثيرا من أجيال الشباب يضيقون ذرعا بالآباء والأمهات والأجداد والجدات. وإذا أنت تصفحت ظروف الحياة الحضارية الراهنة وما يعتورها من أزمات فى الإسكان وضيق فى المتوافر منها للسكنى، وإذا ما تأملت ظروف الحياة الصعبة وإرتفاع الأسعار، ورغبة الأجيال الشابة فى الاستمتاع بحياة مشمولة بالحرية وقد تقلصت فيها المسئوليات، وخفت فيها الأعباء العائلية بسبب اشتغال المرأة وخروجها إلى العمل ثم بسبب حاجتها إلى الراحة بعد العودة إلى البيت، فإنك سوف تدرك بجلاء أن الأجيال الشابة ترفض السكنى مع أجيال الشيوخ، بل إنها لا تطيق الإصغاء إلى النصائح تسدى إليها بوجوب تحمل عبء ورعاية الشيوخ؛ لأن لأولئك الشيوخ أفضالا عليهم فى رعايتهم أيام كانوا بعد فى عهد الطفولة، وقد كانوا بحاجة إلى الرعاية وإقامة الأود.

ومما لاشك فيه أن أجيال الشباب لا تطيق رعاية الشيوخ لعدم الإيمان بقيمة الشيخوخة. فلقد دأبت الأجيال الحديثة على قياس كل شىء من حولها فى ضوء مبدأ الفائدة والضرر. فكلما كان الشىء أكثر فائدة وأقل ضررًا كان أكثر قيمة. والأشياء التى لا تتأكد فائدتها المحسوسة يجب النأى عنها أو الضرب بها عرض

الحائط. والواقع أن الإنسان ينزع دائمًا إلى التعميم بعد أن تكون أحكامه قاصرة على مجال محدود. فبعد أن كان الإنسان يقيس الأشياء المادية من حوله بمقياس الفائدة والضرر، أخذ يقيس الناس أنفسهم بنفس المقياس. فبقدر ما يستطيع الشخص تقديمه من نفع إلى الآخرين ويقدر ما تكون الأضرار التى يلحقها بغيره قليلة كان أكثر قيمة. وبهذا فقد انقشع المعيار القديم الذى كان الإنسان يقيس به غيره من الناس وهو قياس القيمة الذاتية فى ضوء قيم مطلقة للشخص بغض النظر عن فائدته أو ضرره. لقد كان الشاعر قديمًا أكثر قيمة من التاجر؛ وذلك فى ضوء قوانين ذلك المعيار القديم الذى كان يعترف بوجود قيم مطلقة بعيدة عن الفوائد والأضرار. ولكن بعد أن انقشعت قيمة المعيار القديم، أعنى المعيار المطلق، واحتلال معيار الفائدة والضرر محله، فقد صارت قيمة التاجر أعلى بكثير جدًا من قيمة الشاعر، بل إن الشاعر نفسه صارت قيمته تقاس بين الشعراء بقدر ما يحوزه من فوائد مادية مقابل ما يقرضه من شعر. فالشاعر الذى يربح من شعره أكثر تكون إذن شاعريته أعظم وموهبته أنضج وأفضل. أما الشاعر الذى يظل مغموطا من الناحية المادية ولا يربح من أشعاره الطائل من الأموال، فإنه ليس بالشاعر النجيب وليس باللوذعى الماهر.

وعلى نفس النحو فإن الأجيال الحديثة من الشباب أخذوا بالمعيار المادى المتعلق بالفائدة والضرر فى قياسهم للشيوخ. فما دام الشيوخ لا يفيدون بل إن الأضرار الناجمة عن استمرار وجودهم تتزايد، إذن فليست لهم قيمة، بل يجب القضاء عليهم، أو على الأقل يكون للشباب العذر فى التبرم بهم والضيق ذرعا بالعيش معهم وعدم القيام بخدمتهم.

والواقع أن المعيار المادى الذى يقيس كل شىء بل وكل إنسان بما يمكن أن يتأتى عنه من فائدة وما لا يتأتى عنه من ضرر إنما يرتبط بموقف آخر من قبل الأجيال الشابة هو قلة الإيمان بالقيم الروحية أو انقشاع الإيمان بتلك القيم وهو الإيمان الذى كان سائدًا على سلوك الأجيال القديمة. لقد كان تغلغل الشعور الدينى فى نفوس الأجيال القديمة حافزا لهم على التضحية، بل كان دافعا لهم على التضحية والعطاء دون انتظار مقابل. كانت قيمة البذل والتضحية من القيم التى

يتسابق أبناء الأجيال الماضية على الأخذ بها وتطبيقها فى الحياة العملية وفى العلاقات الاجتماعية. كان الكبير يحنو على الصغير، كما كان الصغير يحترم ويساعد الكبير بغير انتظار لفائدة تتأتى، أو ضرر يدرأ، بل كنتيجة لإحساس متغلغل فى النفس بأن التضحية التى يقدمها الإنسان فى الدنيا سوف يلقى عنها جزاء مضاعفا فى الآخرة، بل أكثر من هذا فإن الشخص الذى يقدم التضحيات فى الدنيا يفتح الله عليه أيضا فى مستقبل أيامه على الأرض ويبارك فى رزقه وعياله ويوسع فى مستقبله ومستقبلهم. ولكن مع انتشار الاتجاهات المادية وتقلص الإيمان فى قلوب الناس تقلص أيضًا الأخذ بالتضحية وتقلصت لدى كل إنسان الروح الدينية المشمولة بحب التضحية فصار يتجه إلى الاستئثار بأكبر قدر من الفائدة والتنحى عن كل عمل يكلفه تقديم تضحية أو معاناة أو تعب أو تحمل مشقة.

ومعنى هذا بتعبير آخر أن الأجيال القائمة من الشباب قد اختارت طريق الأنانية وفضلته على طريق الغيرية والتضحية. والواقع أن العصور الحديثة انتحت أيضا إلى الفردية بدلا من الجماعية. فبعد أن كانت الجماعية هى القاعدة وهى نمط الحياة السائد بالمجتمع، صار الأخذ بما يهم الفرد هو القاعدة والنمط السائد. لقد كان المجتمع الزراعى متواكبا مع نمط الحياة الأسرية واسعة النطاق، وقد كان قبله مجتمع القبيلة الضارب بأطنابه فى الجماعية الشاملة عندما كانت القبيلة تشكل أسرة كبيرة وكان عملها الأساسى متمثلا فى الرعى. وفى المجتمع الرعوى ثم فى المجتمع الزراعى كانت الغيرية والتضحية من أجل المجتمع القبلى أو الأسرى هى القاعدة العامة، بل كانت تشكل القيمة العليا التى كان على الفرد أن يتشربها فى حياته ويحيلها إلى سلوك ينهجه بينه وبين نفسه، ثم بينه وبين غيره من أبناء القبيلة أو من أبناء الأسرة. بيد أن المجتمع الحضارى المتمثل فى مجتمع المدينة لم يعد يعترف بالنظام الأسرى القديم الذى كان يجمع الأسرة عبر جيلين أو أكثر فى نفس المقام وبنفس الدار (حيث كانت الدور واسعة لتستوعب الأعداد العديدة من أبناء الأسرة الواحدة إلى جانب الأجداد والجدات).

وإلى جانب القيم المعتملة فى القلوب والسائدة على السلوك، نجد أن الظروف الحضارية بالمدينة قد أخذت تساعد على شيوع الاتجاه نحو الأنانية

والفردية. فلقد خرجت المرأة إلى الحياة العملية تسعى وراء رزقها، وصار الأطفال منذ نعومة أظفارهم ينخرطون فى ركاب المدرسة، ولم يعد المنزل سوى مقر للراحة بعد يوم مشحون بالعناء والجهاد فى سبيل لقمة العيش، ولم يعد أحد من أفراد الأسرة يلتقى بالآخر أو يجالسه إلا لمامًا، بل إن العلاقات الأسرية صارت علاقات سطحية، ولم تعد المرأة العمود الذى تستند إليه الأسرة فى شئونها المنزلية، بل صار البيت كمؤسسة تعاونية يشارك كل عضو فيه بنصيب من الخدمة العامة، بل - وبتعبير أدق - من الخدمة الخاصة المتعلقة به شخصيا. فصار الزوج والأولاد لا يعتمدون على المرأة (الزوجة أو الأم) فى قضاء حاجاتهم، بل صار كل فرد فى الأسرة يعتمد على نفسه.

وطبيعى أن يتواكب مع هذا النمط من الحياة اتجاه نحو الأنانية ونحو الاستئثار بأكبر قسط من المنافع وتحمل أقل قدر من التضحية. وحتى الزوجة التى كانت فى العصور القديمة ذائبة فى فلك الزوج ، وكانت متعلقة به؛ سواء من حيث رزقها أو مستقبلها أو آمالها، صارت فى الحياة الحضرية بالمدينة غير دائرة فى فلك الزوج، بل صار لها فلك مستقل خاص بها، وصارت آمالها فى الرزق والمستقبل مباينة لآمال زوجها وأحلامه. ومن ثم فإن الزوجة تعلمت أن يكون لها كيان مستقل تدافع عنه، وصارت تنأى بنفسها عن التضحية من أجل غيرها. وطبيعى أن مثل تلك الزوجة التى تتأبى على الذوبان فى غيرها صارت تأبى أيضا على الذوبان فى فلك أمها أو أبيها أو فى فلك حماتها أو حماها. فالأنانية والجرى وراء المصلحة الفردية الذاتية صارت المعيار والنبراس الذى تهتدى به المرأة فى حياتها الأسرية، بل وفى حياتها خارج الأسرة أيضا.

ومما يزيد من تبرم الشباب بالشيوخ عدم الإلمام بأصول رعاية الشيوخ. ذلك أن رعاية الشيوخ فن وعلم لا يقلان دقة وتعقيدا عن رعاية الطفولة وعن رعاية المراهقين. فالواقع أن الشيخوخة مرحلة عمرية لها سماتها التى تميزها والتى تحتاج معرفتها والوقوف عليها إلى دراسة متأنية، وكذا فإن رعاية الشيوخ صارت علما وفنا لهما أصولهما بحيث لا يتسنى لأى شخص أوتى حظًا من العاطفة أن يضطلع بها. فلا يكفى أن يفعم قلبك بالعطف والحدب لكى تكون جديرا برعاية

الشيخوخة. فالحال هنا كالحال بالنسبة للتدريس. فلا يكفى أن تحوز المعلومات التى ترغب فى نقلها من ذهنك إلى ذهن غيرك لكى يتسنى لك تعليمها لغيرك. فلابد لك من الإلمام بأصول التربية وعلم النفس ومناهج التعليم وطرائق التدريس لكى تصير معلما قديرا، ولكى يتسنى لك النجاح فى نقل خبراتك من شخصك ومن الكتب التى بين يديك إلى عقل غيرك من الناشئة أو من الكبار. فلابد إذن من الإلمام بسيكولوجية الشيوخ والوقوف على أصول رعايتهم حتى يتسنى لك النجاح فى تلك الرعاية.

فإذا ما أضفت إلى هذا تلك الأعباء التى يتحملها من ينهض برعاية الشيخوخة. وهى أعباء متنوعة وكثيرة، إذن لتصورت لماذا يتجنب الشباب خدمة الشيخوخة بل وإعلان امتعاضهم من المشاركة فى تلك الخدمة. فثمة أعباء تتعلق بصحة المسن ثم هناك أعباء تتعلق بمراعاة حالته النفسية والعقلية، ثم هناك أعباء تتعلق بالناحية المالية وما يتكلفه المسن من نفقات تتزايد إذا ما أريد النهوض برعايته على خير وجه، ثم أخيرًا هناك الأعباء الاجتماعية والمضايقات التى تتحملها الأسرة نتيجة وجود المسن فى نطاقها.

ماذا أعد الشباب لشيخوخة الغد؟

لقد صدرنا عنوان هذا الفصل بأن شباب اليوم هم شيوخ الغد، والواقع أن هذا العنوان قد يثير أعصاب الكثير من الشباب؛ لأنهم يغمضون أعينهم ملحين فى الإغضاء عن المستقبل الذى ينتظرهم مؤكدين لأنفسهم أنهم سيظلون فى طور الشباب إلى الأبد، وأن الشيخوخة لن تعرف إلى كيانهم سبيلا. ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يقنع نفسه بحقيقة وواقع ما يرغب فيه. فالفقير قد يقنع نفسه فى أحلام يقظته بأنه أغنى أغنياء العالم، والأمى قد يقنع نفسه بأنه الفيلسوف العالم بكل خفايا الحقيقة، والمرأة الدميمة تستطيع بخيالها أن تؤكد لنفسها أنها فينوس زمانها وأن ليس من بنات حواء فى الأمس واليوم والغد من تستطيع أن تدانيها فيما حباها الله به من فتنة وروعة وجاذبية وجمال. وكما يستطيع الإنسان أن يقنع نفسه بأن الموت كتب على جميع الخلق عداه وأنه من المخلدين، فإنه يستطيع أن يقنع نفسه أيضا بأنه سوف يظل شابا لا تعرف

التجاعيد طريقا إلى وجهه ولا يستطيع الوهن أن يستولى على عضلاته وأعصابه، ولا يتسنى للترهل أن يرين على مقوماته وأنحائه، بل سيظل أبدًا من الشباب الأشداء المتدفقين حيوية وحماسًا ولمعانًا .

بيد أن على الشباب أن يكون واقعياً، وأن يكفكف من غلوائه، وأن يجعل الغد قبل اليوم نصب عينيه، لا لكى يرتمى كما يفعل القانطون فى حمأة اليأس، بل لكى يدخر لغده ليكون ذلك الغد مشرقًا كاليوم. ولسنا هنا لكى نبث فى الشباب إيحاءات فجة لا طائل تحتها، وإنما نرنو بذلك إلى ما هو أهم من الإيحاءات ووسائل التشجيع ولم الشمل وتجميع شتات القوى النفسية. إننا نرمى إلى واقعية يستعين بها الشاب كخطة للحياة لكى يجد فى شيخوخته ابتسامة حلوة كتلك التى ترتسم اليوم على وجهه فى شبابه اليافع.

وهناك فى الواقع عدة نواح يستطيع الشباب ادخارها للشيخوخة أهمها الجانب المادى والجانب الصحى والجانب العقلى والجانب الثقافى والجانب النفسى والجانب الاجتماعى والجانب الأسرى.

أما بخصوص الجانب المادى فمن اللغو أن نتوسع فى الحديث عنه. ذلك أن وسائل الإعلام قد قتلت كل ما يقال بصدده بكثرة ترديده على الآذان واللوك فيه لدرجة أن الحديث فى هذا الجانب صار تحصيل حاصل أو قد يكون له عكس ما يراد إرساله إلى أذن السامع أو عينيه بقراءته واستيعابه. بيد أننا نستطيع القول بأن من لا يعمل لغده ولا يعيش إلا ليومه لا يمكن درجه فى قائمة المتحضرين. فلابد من النظر إلى الأمام والحرص على توفير مستقبل أكثر ضمانًا من الحاضر، ولا يقنع الشخص بما يوفره له الحاضر من إمكانات، بل لابد له من استثمار إمكانات الحاضر المالية لكى تتفتق عن ثمار تجنى سهلة فى المستقبل.

على أن الجانب المادى ليس أهم الجوانب فى الواقع فى قضية الادخار للمستقبل. ولعل الجانب الصحى للشخص أهم ما قد يتوافر له من مال فى الشيخوخة. وما فائدة أموال طائلة تكون فى حوزه إنسان لا سبيل إلى الإفادة منها بسبب مرض يقعده أو علة تحول بينه وبين العيش كباقى الناس فى استمتاع بما جمع.

ولعل السؤال الذى يدور بخلد من يقرأ هذا الكلام هو: وهل الصحة تدخر كما تدخر الأموال؟.. نقول نعم، ولهذا النوع من الادخار جانبان: إيجابى وسلبى. أما الجانب الإيجابى فإنه يتأتى بتوفير الحاجات الجسمية وإعطاء تلك الحاجات الأولوية على الرغبات. ذلك أن الرغبة الجسمية قد تتعارض تعارضا تاما مع الحاجة الجسمية. فالإقبال بنهم على الأكل قد يشكل رغبة جسمية ولكنه لا يشكل حاجة جسمية، لأن المعدة التى تثقل بالطعام تجهد ولا تستطيع أن تستمر فى العمل بنشاط لسنين كثيرة، بل تجد نفسها كسيحة لا تستطيع مواصلة السير فى طريق هضم الطعام. وواضح أننا نبسط الأمور هنا. فالطعام الكثير لا يجهد المعدة وحدها، بل يجهد سائر أنحاء الجهاز الهضمى والجهاز الدورى والتنفسى. وما يقال عن الطعام ينسحب أيضا على النشاط الجنسى. فثمة فارق جوهرى بين الرغبة الجنسية وبين الحاجة الجسمية إلى الاضطلاع بالنشاط الجنسى. والغريب أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يستثير فى نفسه الشهوة الجنسية على الرغم من أن جسمه قد لا يكون مستعدًا أو قادرًا على ممارسة الجنس بل يكون فى أشد الحاجة إلى التقاط الأنفاس، بل والابتعاد لفترة تطول أو تقصر عن ممارسة أى نشاط جنسى إلى أن يصير الجسم فى حالة تسمح له باستئناف نشاطه الجنسى.

ولقد تجد بعض الناس تفرض عليهم ظروفهم الصحية وبعض ما ألم بهم من علل أن يمتنعوا تمامًا عن ممارسة أى نشاط جنسى مهما جمحت بهم الرغبة إلى الممارسة الجنسية، ذلك أن فى كيانهم النشاطى تعارضا على طول الخط بين قوة الأجهزة التناسلية وبين قوة دوراتهم الدموية. فبينما يستطيع الجهاز التناسلى النهوض بواجباته على خير وجه، فإن أى نشاط يبدر منه يهدد القلب بالتوقف. وما دام منع الجهاز التناسلى من ممارسة نشاطه لا يهدد الشخص بالموت، وأن منع القلب من ممارسة نشاطه أو مناهضة ذلك النشاط فيه القضاء التام على حياة الشخص، لذا فمن الحكمة الوقوف ضد الجهاز التناسلى ومناصرة القلب والوقوف فى صفه.

وإذا عدنا إلى الحديث عن الإيجابى والسلبى فى الادخار الصحى، فإننا

نستطيع القول بأن ما يقدم إلى الجسم من مقومات مفيدة هو ادخار صحى إيجابى، وأن ما يمنع الجسم من ممارسته حرصا على سلامته هو ادخار سلبى. فالطعام والجنس إذا كانا من حيث الكم والكيف بحيث يدعمان الجسم ويلبيان احتياجاته فإنهما يشكلان إذن نوعًا من الادخار الصحى الإيجابى، وكذا فإن الامتناع عن تناول الطعام بكثرة أو تجنب بعض الأطعمة أو المشروبات الضارة أو المواد المؤذية كالدخان والمخدرات فإن هذا يعد ادخارا سلبيا. ونستطيع القول بأن المبدأ الذى يستهدى به الادخار الصحى هو ترجيح كفة الحاجات على كفة الرغبات. فإذا ما تطابقت الرغبة مع الحاجة فبها ونعمت. ولكن فى حالة تعارضهما بعضهما لبعض، عندئذ يجب على الشخص أن يتحيز للحاجة وأن يخاصم الرغبة.

وإلى جانب الادخار المادى والادخار الصحى هناك من جهة ثالثة الادخار العقلى. وهذا النوع من الادخار يتمثل فى مجموعة الأفكار الأساسية وطريقة التفكير التى يمرن عليها الشخص فى طفولته ومراهقته وشبابه. فالنشاط الذهنى يتشكل من مضمون وطريقة. والمضمون هو مجموعة المفاهيم التى يدخرها الذهن، والطريقة هى القوالب العقلية التى يستعين بها الشخص فى ترتيب أفكاره. فهناك من الناس من يتذرعون بالتحليل وآخرون يتذرعون بالتركيب. وهناك من يستعينون بالقصة أو بالمثل السائر، وهناك من يستشهدون بأقوال الفلاسفة والحكماء. وهناك من الناس من يلجأون إلى الدين يستشهدون بالآيات الواردة بالكتب المقدسة، بينما هناك من يلجأون إلى الفكر النقدى غير المستند إلى شواهد دينية يرتكزون عليها. وهناك من الناس من يلجأون إلى الأساليب اللغوية بما تحمله من موسيقى لفظية تخلب الألباب بينما هناك فى مقابلهم أناس يهتمون بالمنطق واستخدام الأساليب المنطقية الجافة التى لا تحمل شيئًا من موسيقى اللغة.

ولسنا فى الواقع نستطيع أن نغطى جميع المجالات التى ينتحى إليها الناس بل نكتفى بأمثلة من حالات كثيرة يصعب حصرها. ولكن يكفى أن نشير إلى نقطة هامة هى أن الفكر له مضمون وله أيضا طريقة يساق فيها ذلك المضمون. ولسنا هنا لكى نفاضل بين المضمون والطريقة، وإنما يكفى أن نؤكد أن مضمونا بغير

طريقة يكون كبضاعة فى مخزن بغير ترتيب أو تصنيف. ومن جهة أخرى فإننا لا نستطيع أن نتخيل طريقة التفكير بغير أن يكون هناك مضمون لذلك التفكير. فكما أننا لا نستطيع أن نتخيل محلا تجاريًا خاليا من البضائع ونصفه فى نفس الوقت بأنه مرتب ومصنف ترتيبا وتصنيفا جيدين، وذلك لأن الترتيب والتصنيف لايتمان فى فراغ، فإننا لا نستطيع أيضا أن نتخيل شخصا يفكر بطريقة جيدة وقد خلا عقله من المضمون الذهنى . أى المعلومات.

والشاب الذى يعد نفسه بمجموعة من الخبرات العقلية المهضومة وبطريقة يسوس بها تلك الخبرات ويصنفها ويرتبها، إنما يكون قد أعد عدته لقضاء شيخوخة مثمرة من الناحية العقلية. ذلك أن المتأصل من المفاهيم وطرائق التفكير يظل يعمل عمله فى فكر الشخص وتأملاته وفى أنحاء سلوكه الذهنى.

ومن الطبيعى أن تكون الثقافة متآخية مع العقل وما يشتمل عليه من مفاهيم وطرق تفكير. بيد أن الثقافة تتمايز من التفكير فى أنها تشكل مواقف الشخص من الميادين الثقافية المتباينة. فالشخص المثقف يتخذ له موقفا واضحا من نفسه ومن مجتمعه ومن العالم بأسره، ويتخذ له موقفًا واضحًا محددًا من القيم والعقائد، ويكون له رأى فى السياسة والاقتصاد والتربية والعلاقات الاجتماعية وأصول التعامل مع الناس، بل ويكون له موقف محدد بتجاه المسائل الصحية والأخلاقية والعلمية والفنية، فالثقافة هى مجموع المواقف التى يتخذها الشخص من مجالات الحياة المادية والمعنوية والإنسانية.

أما الادخار النفسى، فإنه يتمثل فى مجموع العادات الوجدانية التى يمرن عليها الشخص فى شبابه بحيث تصير من لحم سلوكه ومن صلب كيانه النفسى. والواقع أن العادات التى يتمرس بها الشخص تنقسم إلى عدة أقسام يمكن تلخيصها فى العادات الحركية والعادات العقلية والعادات الاجتماعية والعادات اللغوية، وأخيرا العادات الوجدانية. فالشخص يمكن أن يتلبس بعادة التشاؤم أو عادة التفاؤل، ويمكن أن يتلبس بعادة حب الآخرين أو كراهية الناس، ويمكن أن يتمرس بعادة تمنى الخير للآخرين وعدم الحقد بإزاء نجاحهم فى مجال أو آخر من مجالات الحياة، وقد يتمرس بالحقد على الآخرين وبالغيرة مما قد يحرزونه من

نجاح فى ضروب الحياة. وقد يتمرس الشخص بعادة الخوف من أية مشكلة أو موقف حرج يجابهه فى الحياة، وقد يتمرس بالشجاعة فى مجابهة المواقف الخطرة أو المحرجة، إلى غير ذلك من عادات وجدانية. والواقع أن الشاب الذى يمرن نفسه على العادات الوجدانية المواتية والطيبة إنما يكون قد ادخر لنفسه استثمارا نفسيا طيبًا للشيخوخة.

أما الادخار الاجتماعى فيتمثل فى محصلة العلاقات الاجتماعية التى يوفرها الشخص لنفسه بحيث يترك انطباعًا فى نفوس معارفه وأصدقائه فى صورة معينة. ذلك أن لكل منا انطباعا عاما أو محصلة خبرية يتركها فى نفوس معارفه وأقربائه. وطبيعى أن تلك المحصلة لا تتوافر للشخص فجأة، وإنما تتأتى شيئا فشيئًا. وهناك من الأشخاص من تكون محصلته الخبرية التى تركها فى نفوس الناس طيبة، وهناك من تكون محصلته رديئة. وهذا يتوقف على نوعية العلاقات الاجتماعية وطرق تعامله مع الآخرين. وعلى أية حال نستطيع القول بأن هناك نوعا من الادخار الاجتماعى يختزنه الشخص فى قلوب الأفراد الذين يتعامل معهم، وهو الادخار الذى يحصده فى شيخوخته.

وطبيعى أن يكون هناك ادخار أسرى يتمثل فى العلاقات الأسرية التى وفرها الشخص لنفسه فى شبابه، وبخاصة فيما يتعلق بالزوجة والأبناء والبنات الذى أنجبهم. ففى الشيخوخة يرى ثمار زرعه الذى غرسه فى شبابه، ويجد أن حصيلة العلاقات الأسرية التى ظل يرويها بالحب قد أثمرت حبًا فى قلوب كل فرد من أفراد أسرته، فيجد أن كل واحد منهم حريصًا على راحته ومسرعا إلى تلبية احتياجاته. ولسنا نبالغ إذا قلنا إن ما نقوم بزرعه وغرسه من علاقات أسرية فى صدر شبابنا نحصده فى شيخوختنا. فإذا كنا قد زرعنا حنطة فإننا نجنى حنطة، وإذا كان ما زرعناه زَوَانا فإن ما نحصده لا يكون حنطة بل زوانا.

★ ★ ★

الفصل الثانى

مرارة اليأس وبهجة الأمل

اليأس والأمل فلسفتان وليسا واقعين :

إن القول بأن فترة الشيخوخة هى فترة اليأس وأن فترة الشباب هى فترة الأمل هو قول مناف للحقيقة. ذلك أنه لا يوجد فى النطاق الموضوعى بين الأشياء موجود واقعى محسوس اسمه اليأس ولا موجود واقعى آخر يمكن إدراكه بإحدى الحواس اسمه الأمل. والواقع أن الأمل واليأس حالتان نفسيتان تلمان بالشخصية وتملكان عليها ناصيتها.

ولقد يقول قائل: إن الحالة النفسية التى تعترى الإنسان إنما هى نتيجة لواقع خارجى أو لظروف محيطة به. فالواقع الخارجى يطبعنا بطابع معين لا نستطيع الفكاك منه. فعدم وجود الطعام - والطعام واقع خارجى - يحدث الجوع، والجوع يسبب اليأس. ووجود المال - وهو واقع خارجى - يحدث الرخاء، والرخاء يشيع الأمل والبهجة فى النفس.

وهذا القول صحيح إلى حد ما، ولكنه ليس صحيحا على طول الخط. فقد يتوافر الواقع الخارجى ولكنه لا يحدث التأثير المتوقع منه. فمن الحقائق المؤكدة فى ضوء الدراسات النفسية أن الإنسان ليس مجرد مرآة عاكسة لما يقع فى مجابتها، وإنما الإنسان فاعل ومنفعل فى نفس الوقت. فهو وإن كان يتأثر بما يحيط به من أشياء وواقع وعلاقات، فإنه يتخذ موقفا من الأشياء المحيطة به ومن الوقائع التى تحدث من حوله والعلاقات التى تنشأ بينه وبين غيره أو بين الآخرين

بعضهم وبعض. فلدى كل شخص فلسفة حياتية يستهدى بها فى حياته وفى تحديد علاقته بالعالم الخارجى المحيط به، أو قل إن لدى الإنسان عالمين: عالما داخليا وعالما خارجيا. وثمة كينونة مستقلة وقائمة بذاتها لكل من هذين العالمين. فالإنسان يطل على العالم الخارجى بواسطة حواسه الخمس، ولكنه لا يستطيع أن يطل على كل أنحاء ذلك العالم إما لاتساعه وإما القصور فى الحواس التى يستخدمها فى هذا الإطلال، وإما لأنه لم يوهب سوى خمس حواس فحسب، وكان من الممكن أن يوهب عددا أكبر من الحواس إلى جانب البصر والسمع واللمس والشم والتذوق.

وحتى عندما نطل على العالم من حولنا وندرك بعض أنحائه، فإننا نطل عليه بتلك الإنيِّة الموجودة فى حالة تبلور بين أضلعنا. فلسنا نتقبل ما تقع عليه حواسنا، بل نتفاعل معه. والتفاعل يعنى أشياء كثيرة منها التقبل أو الرفض أو تقبل جانب ورفض جانب آخر، ومنها الوقوف موقفا محايدا أو اتخاذ موقف المتفرج والمدرك بغير تأثر بما يدرك، أو غير المتقبل أو الرافض فى نفس الوقت، بل موقف اللامبالى تجاه ما يقوم بإدراكه.

ومعنى هذا فى الواقع أن الجهاز النفسى لدى الشخص ومدى تبلوره وتعين ملامحه له أكبر الأثر فى تحديد موقفه من العالم المحيط به. فنحن نقف على ما حولنا وعلى ما يصادفنا فى حياتنا بما تبلور فينا من جهاز نفسى له ملامح معينة. فإذا كان جهازنا النفسى هشًا واهنا، كان تغلب الخارج على الداخل سهلا ميسورا، وكان إذن لأية مشكلة فى الواقع المحيط بنا أبعد الأثر فى تحطيم البقية الباقية من جهازنا النفسى الواهن.

وعلى العكس من ذلك فإذا كان الأساس الذى ينبنى عليه الداخل فى شخصياتنا متينا وقائما على أرض صلبة، فإن الأحداث والوقائع والعلاقات الخارجية لا تستطيع زعزعتنا ولا تستطيع أن تناول من ركائزنا الداخلية.

ولكأن هناك صداما مستمرًا يحدث بين الخارج والداخل. فبقدر قوة ذلك الصدام تكون النتائج المتأتية. ولكن لدى قوة كل من الخارج والداخل أهمية فى تحديد نتائج الصدام. فإذا كان الخارج أقوى من الداخل كانت نتيجة الصدام

لصالح الخارج وتضعضعت الشخصية وانهارت تحت ضغط الخارج وقوته الكبيرة. أما إذا كان الداخل أقوى من الخارج فان نتيجة الصدام تكون لصالح الداخل.

ولكن فى جميع حالات الصدام لا يبقى الوضع كما كان قبل الصدام. فإذا كان المنتصر فى عملية الصدام هو الخارج فإن الانهيار يكون من نصيب الداخل، وتنهار الشخصية تحت معوله، بل ويقوم الخارج بدوسها بعجلاته التى لا ترحم. ولكن إذا كان المنتصر فى عملية الصدام هو الداخل فإن الشخصية تظل متماسكة على الرغم من تأثرها نتيجة الصدام الحادث. بيد أن التأثر الحادث هو تأثر لصالح دخيلة الشخصية، وذلك لأنه بدلا من تصدع الداخل فإنه يزداد تماسكا وصلابة ونموا. ذلك أن الصدام فى الحالة الأخيرة يكون بمثابة تفاعل بين الحالة القديمة والحالة الجديدة، أعنى بين المقومات الداخلية وبين المقومات الخارجية الملائمة لعملية التفاعل وهى المقومات التى أحدثت التصادم الخفيف.

والواقع أن الذاتية الشخصية تبدأ فى النشوء منذ الطفولة وتستمر فى النمو حتى نهاية المراهقة وتتبلور فى الشباب؛ وتستمر فى التماسك والتبلور إلى ما بعد الشباب. بيد أن عملية التبلور لدخيلة الشخصية لا تتم بنفس الطريقة ولا بنفس الدرجة فى جميع الحالات، بل هناك فروق فردية من شخص لآخر بهذا الخصوص. فثمة أشخاص تتكون لديهم أجهزة نفسية غاية فى المتانة والتماسك، بينما توصف الأجهزة النفسية لبعض الأفراد الآخرين بأنها هشة ضعيفة. فأصحاب الأجهزة النفسية التى قيض لها التبلور والتماسك الشديدان خلال الشباب وما بعده يكون تأثرهم بالواقع الخارجى غير المواتى أقل بكثير من أولئك الذين لم يحظوا إلا بأجهزة نفسية واهنة هشة. وشاهد ذلك أنك تجد شخصين طاعنين فى السن وظروف كل منهما مشابهة لظروف الآخر إلى حد بعيد، ولكنك تجد أحدهما ضاربًا فى أعماق اليأس ولا يخيم على سماء فكره إلا شبح الموت الوشيك، بينما تجد الثانى وقد رفرفت على سماء نفسيته ألوية السعادة والبشر والأمل. فكيف نفسر هذا الخلاف البادى بين الاثنين؟. لا يمكن تفسير مثل هذا التباين إلا فى ضوء ما سبق أن قلناه من وجود جهاز نفسى متين لدى الشيخ الأول ووجود جهاز نفسى ضعيف مفكك عند الثانى.

ولعلنا نتساءل بعد هذا عما يقوم بسياسة ذلك الجهاز الداخلى للإنسان؟ إنه الفلسفة الحياتية. ولكن ما معنى الفلسفة الحياتية؟ إنها مجموعة المبادئ التى يستهديها الشخص فى تسيير حياته. ذلك أن الإنسان يخالف الكائنات الحية الأخرى فى أنه يستطيع أن يضع نصب عينيه شعارا أو مجموعة من الشعارات التى تضىء له طريق الحياة والتى تجعل أسلوب حياته متسما بالثبات والاتساق وعدم التضارب. فالواقع أن الحياة مضطربة كأشد ما يكون الاضطراب، وإذا لم يستهد الإنسان بمجموعة من المبادئ التى تتشرب بها شخصيته والتى تسيطر على جماع فكره ووجدانه وتتسلم مقاليد الحكم بداخل نفسيته، فإنه يكون عرضة لأعاصير الحياة تقذف به مرة إلى يمين ومرة أخرى إلى شمال، فيكون كمعصوب يقودونه إلى حيث يشاءون بلا خيار فيما يقع عليه ولا اختيار له فى أن يرفض أو أن يقبل . أما إذا ارتكز الشخص إلى مجموعة من المبادئ الأخلاقية فى الحياة لا يخالف عنها، فإنه عندئذ يكون قد أخضع الخارج للداخل ويكون قد جعل حقيقة وجوده نابعة من دخيلته لا من الانطباعات الخارجية.

ومادامت فلسفة الحياة ثابتة لا تتغير من سن لأخرى، لذا فإن الشخص الذى اختار لنفسه فلسفة حياة فى صدر شبابه سوف يظل مستمسكا بها لا ينأى عنها فى الشيخوخة. ومعنى هذا فى الواقع أن الشخص الذى تفوته فرصة بلورة فلسفة حياتية له فى شبابه سوف يظل محروما من الاستهداء بفلسفة أخلاقية فى شيخوخته. وبتعبير آخر فإن مثل ذلك الشخص سوف يكون عرضة لأن يتغلب الخارج من حوله على الداخل فى باطنه.

وليس من الغريب أن تجد مثل هذا الشخص وقد ارتمى فى حمأة اليأس فى شيخوخته لأنه لم يعد لنفسه العدة لكى يقف صلب العود فى الفترة الأخيرة من عمره، وقد كان بمقدوره أن يجعل منها فترة مليئة بالأمل والبشر لو أنه كان قد سلح نفسه بمثل تلك الفلسفة الحياتية التى تضىء له الطريق.

وقبل أن نعرض لمثال أو مثالين من الفلسفة الحياتية التى يجب أن يتسلح بها الشخص منذ شبابه لكى تنير له الطريق فى شيخوخته، علينا أن نسبر أغوار تلك الفلسفة من حيث مقوماتها والأسس التى تقوم عليها. والواقع أن أية فلسفة حياتية

تتضمن شيئين: فكرة وإيمانا بتلك الفكرة. فليست الفلسفة الحياتية مجرد تعبير بارد عن واقع، وإنما هى فكرة متلبسة بوجدان، أو هى إحساس وجدانى مستنير بفكرة. خذ مثالا لذلك فكرة إمكان استثمار ما فى جعبة الشخص مهما قل، وأن حسن استثمار القليل يظهره بأنه كثير. هذه الفكرة تتسم بالبرود فى عرضنا لها على هذا المنوال. ولكن إذا تأملت المثل العربى القائل: «قليل دائم خير من كثير منقطع» فإنك سوف لا تجد هنا مجرد فكرة، بل تجد فى هذا المثل شعارًا للحياة. فهذا المثل يحض على الاستمرار ولو بالقليل، كما يحض على الدأب واستثمار الإمكانيات مهما قلت وعدم التوانى عن استثمارها. ذلك أن القليل إذا ما أضيف إلى القليل السابق عليه يكون المتحصل كثيرا وكثيرا جداً.

لقد تجد شابا تأثر بهذا المثل وجعله شعارًا أو فلسفة له فى الحياة، واستمر فى مراحل عمره يستثمر القليل الذى بين يديه سواء كان ذلك القليل شيئا ماديا أم وقتا أم أفكارا أم علاقات اجتماعية أم أصدقاء. فماذا تكون النتيجة المترتبة على استهدائه بهذا المثل؟ لاشك أنه فى شيخوخته سيجد أنه قد استطاع أن يجمع الكثير من الكميات القليلة التى أتيحت له خلال عمره، فيسعد بما جمعه وحصله واستثمره. ومثل هذا الشخص سوف يظل مستمسكا بشعاره هذا حتى فى شيخوخته. ذلك أن العمر القليل المتاح له وقد طعن فى السن يمكن أن يخضع لمثله أو شعاره الذى وضعه نصب عينيه، فيستثمر السنوات القليلة المتبقية له على هذه البسيطة وهو يقول لنفسه: «قليل دائم خير من كثير منقطع». لقد يقوم ذلك الشخص وقد صار شيخا بمقارنة سنواته القليلة التى سيدأب على استثمارها بسنوات كثيرة لا يستثمرها أحد الشباب بل يعبث بوقته ويقذف به ويعمد إلى قتله، فيجد الشيخ أن القليل المكفول له من الزمان أكثر من الكثير لمثل ذلك الشاب المستهتر بوقته والذى لا يقيم وزنا لحياته وأيامه.

ولقد نجد شابا آخر وقد أخذ يستهدى بمثل آخر جعل منه شعارًا لحياته كلها، وهو «الغنى من استغنى عن الناس». إنه جعل فلسفته تقوم على أساس العمل على الاستقلال عن الآخرين والاكتفاء الذاتى بما بين يديه. إنه اعتاد أن يعتمد على نفسه وأن يكتفى بأقل القليل لأنه يرى الغنى فى الاستغناء وهو يرغب فى أن

يكون غنيا بهذا المعنى الاستغنائى. إنه حقق هذا الشعار الفلسفى فى حياته. وعندما وصل إلى الشيخوخة وجد أنه مرفوع الرأس طوال حياته وأنه يستطيع أن يعتمد على نفسه وألا يلجأ إلى غيره إلا فى أضيق الحدود الممكنة وأنه بهذا الشعار الفلسفى قد أخذ يحافظ على ماله وصحته حتى يظل فى غنى عن الناس من حوله، فكان شعاره أو فلسفته مفيدة له سواء فى شبابه أم فى شيخوخته.

وطبيعى أن تجد أشخاصا آخرين يلتمسون لأنفسهم فلسفات هدمية بحيث يدب اليأس فى قلوبهم حتى منذ شبابهم. من ذلك مثلا الشعار القائل «أحينى اليوم وأمتنى غدا» إن مثل ذلك الشعار يخدم الشاب فى حاضره أو يمهد لهدمه مادام ينكر الغد ولا يفكر إلا فى حاضره ضاربا بالمستقبل عرض الحائط. إن مثل ذلك الشاب عندما يتقدم به العمر يجد نفسه مفلسًا من جميع الأنحاء. ماليا وصحيًا ومعنويًا، وبالتالى فإنه يكون عرضة للانهيار الداخلى بحيث تكون الضغوط الخارجية مسيطرة عليه وقد هتكت أستاره الداخلية وشلت قواه الذاتية، وبالتالى فإنه يرتمى فى حمأة اليأس وتكون فلسفته إذن فلسفة اليأس والقنوط فى الشباب والشيخوخة على السواء.

لماذا يرتمي الشيوخ في حماة اليأس؟:

سبق أن قلنا إن مسألة اليأس والأمل بالنسبة للشباب والشيوخ مسألة نسبية، وأن من الممكن أن يتردى الشباب فى حمأة اليأس، بينما يتعلق الشيوخ بأطواق الأمل ويتوقف انسراب اليأس فى النفس أو رفرفة الأمل عليها بفضل الفلسفة التى يتخذها الشخص لنفسه ويدير عليها حياته ويتخذ بواسطتها موقفا من العالم حوله، بل ومن نفسه فى دخيلته.

بيد أن الملاحظ بصفة عامة أن الغالبية من الشيوخ يستسلمون لليأس ولا يرون فى مستقبل حياتهم أية بارقة من أمل، ولا يلتمسون فى مقومات وجودهم ما يحملهم على الاحساس بالسرور والبهجة. والواقع أن هذا إنما يعزى فى المقام الأول إلى أن الشيوخ يعتبرون أيام البهجة قد ولت وأن ربيع العمر قد فات وأن خريفه قد أقبل عليهم يجثم بكلكله فوق صدورهم ولا يتركهم إلا وقد وورو الثرى بعد أن يكونوا قد ذاقوا من كأس الأمراض المر شر مذاق، وقد أوجعتهم العلل، وأخذت

جذوة الصحة فى أبدانهم تخبو شيئا فشيئا مما يجعلهم فى موقف من حكم عليه بالموت البطىء إمعانا فى تعذيبه والتنكيل به.

ومما يجعل الشيوخ ينحون إلى اليأس بدلا من الأمل ما يسود المجتمع من رأى يقول إن الشيخوخة هى نهاية الشوط المفضى إلى الموت. والواقع أن الإنسان يضرب فيما يضرب فيه مجتمعه ويتأثر بالفلسفة التى تسوده. فإذا كان المجتمع يقول إن المرأة أقل عقلا وأقل مقاما بالطبيعة من الرجل أو أنها شيطان متلبس بصورة إنسان، فإن نساء ذلك المجتمع يشعرن إذن بالضعة وبأنهن بالفعل أقل مقاما من الرجال. والمجتمع الذى يعترف بأن لأطفاله حقوقًا اجتماعية أساسية ينبغى عدم الاعتداء عليها، فلا يجوز مثلا تشغيل الطفل فى عمل مرهق، ولا يجوز للوالدين أو للمدرس أن يضربه، فلابد أن أطفال مثل ذلك المجتمع يحسون بالثقة بالنفس والكرامة، ولا يحس أى طفل بالمجتمع الذى يوفر له الشعور بالكرامة والعزة بأنه أقل قيمة من أى فرد به كبر أم صغر. وكذا فإن فرصا متكافئة أمام القضاء والقانون، إنما تشعر جميع المواطنين به بكرامتهم وعزتهم، ولا يحس أى مواطن فيه بأن ثمة طبقة أو فئة لها امتياز خاص تستأثر به دون الفئة التى ينتمى إليها.

ونفس الشىء بالنسبة لفئة الشيوخ. فإذا ما أحس الواحد من الطاعنين فى السن بأن المجتمع الذى يعيش فى ظله ينظر باستهانة إلى الشيوخ ويعتبرهم عالة عليه، فإنه يحس بأنه قليل القيمة وأنه أقل درجة بالفعل من سائر المواطنين الواقعين فى نطاق أعمار ما قبل الشيخوخة. فلضغط الرأى العام بالمجتمع الذى يعيش فيه الشخص أكبر الأثر فى تحديد ملامح الشخصية النفسية وفى مدى ثقته فى نفسه ومدى قيمته الذاتية.

والواقع أن مجتمعنا متأثر أشد التأثر بالنزعات الاقتصادية التى تقيس الأمور فى ضوء مدى فائدتها كما سبق أن ذكرنا. ومن ثم فإن الشيوخ يعتبرون فئة عاطلة غير منتجة أو عالة على مجتمع المنتجين. ففى ضوء هذا المقياس نستطيع القول بأن المجتمع يستهين بفئة الشيوخ ما دام قد عمل على إزاحة الغالبية العظمى منهم من مجالات العمل ليحل محلهم أفرادًا من الشباب. ومما لا شك فيه أن كثيرا من الشيوخ الذين يزاحون عن أعمالهم لا يزاحون عنها برغبتهم الشخصية، ولا

يزاحـون فى وقت يكون الوهن قـد دب فى أجسـادهم، بل إن الكثـيرين منهم يكونون متمتعين بوافر الصحة والفتوة والنشاط والخبرة. ولكن ثمة قانونًا عاما يقضى بإزاحة الشيخوخة من الطريق لإحلال الشباب محلهم.

والواقع أن مثل هذه الإزاحة الجبرية تنتهى بالشيخ إلى الحزن واليأس؛ ذلك أن المجتمع يقول له بطريقة ضمنية «إنك شخص ليس منك نفع وبالتالى فيجب أن تتـوارى عن الأنظار لكى يحل مـحلك من هو أصلح منك للعـمل والإنتـاج». ولماذا لا ييأس الشيخ وهو لا يستطيع أن يدافع عن نفسه وإثبات أنه مازال ممتلئا فتوة وأن الخبـرة التى يمتلك ناصيتها تعوض ما قـد يكون زايله من عـافية يتمتع بها الشباب.

ومما يدعم يأس الشيوخ وارتماءهم فى حمأة القنوط أن الغالبية العظمى من العـاملين يجدون أنفسـهم فجأة عندمـا يصلون إلى سن الستين وقـد صـاروا غير قادرين على فتح آفاق جديدة لأنفسهم يعملون فيها بعد أن نبذهم عملهم الذى دأبوا على الامـتـهـان به. وحـتى أولئك الذين يعـملون فى التـدريس يجـدون أنهم لا يستطيعون العمل فى المدارس الخاصة إذا ما بلغوا سن الخامسة والستين. فقانون العمل قد تلبس بالرحمة بينما هو فى الواقع مجحف بمشـاعر الشيوخ، لأن أحدًا من الناس لا يريد أن يقول له المجتمع: «إنك لم تعد صالحا للعمل والأحرى أن يزج بك فى ركن بعيدا عن الأنظار. وأن يستبـدل بك غيـرك ممن يقدرون على العمل وبذل الجهد».

والواقع أن كثيرا من الشيـوخ قد أفعمـوا بالنشاط والخيال الواسع وأخذوا يرسـمـون لأنفسـهم الآمـال فى سبـر أغوار أعمـال مـريحـة ومـحـققـة لأمـالهم فى المستقبل. ولكنهم ما يكادون يجدون أنفسهم فى مجابهة الواقع بعد الخروج إلى المعاش حتى يجدوا أنفسهم وقد خلا وفاضهم من جميع المحاولات التى كان يمكن بذلها بحيث تحقق ولو البعض من آمالهم. ذلك أنهم يجدون أن جميع مجالات العمل قد سدت أبوابها دونهم، وأن المجتمع بأسره ينكر عليهم الاستمرار فى الضوء، وأنه ليس من سبيل أمامهم إلا الانزواء بعيدا عن الأنظار. فالشيخ يلعن ويسخط على

مجتمع أشاح عنه بعد أن امتص دمه واستغل شبابه ثم تنكر له واستنكر استخدامه والإفادة من جهوده.

والأدهى من التنكر للجهود التى يمكن أن يبذلها الشيوخ، ذلك المعاش الثابت الذى يتقاضاه الشيوخ بعد إحالتهم إلى المعاش (*). فمهما كان ذلك المعاش كبيرا نسبيا، فهو أقل مما اعتاد الشخص أن يتقاضاه فى أثناء اشتغاله بالوظيفة قبل إحالته إلى المعاش. أضف إلى هذا أن الأسعار فى الارتفاع باستمرار على مستوى العالم. ومن ثم فإن القيمة الشرائية لما يتقاضاه الشخص من معاش آخذة باستمرار فى القلة والتدهور. من هنا فإنك تجد الشيوخ الذين كانوا يحتلون وظائف إشرافية عالية ثم أحيلوا إلى المعاش بعد بلوغهم الستين، ثم مر على إحالتهم إلى المعاش مدة طويلة وقد ظهروا فى ملابس رثة ورانت على سيماهم علامات اليأس والتدهور النفسى، وخلت جيوبهم أو كادت من النقود التى كانت تزخر بها أيام كانوا يمسكون بصولجان الوظائف العالية المرموقة. ولاشك أن هذا حرى بأن يجعلهم ينتظرون لحظة الانصراف من الدنيا وهم على مضض من كل يوم يستمرون فيه وهم فى حالة من المهانة بعد أن كانت الأعناق تدين لهم بالولاء ويخشى المرءوسون من صغار الموظفين سطوتهم.

والواقع أن كثيرا من الموظفين يتنكرون لرؤسائهم بمجرد إحالة أولئك الرؤساء إلى المعاش. ذلك أنهم كانوا يبدون الكثير من الاحترام والاعتزاز لهم خوفا من بطشهم أو طمعا فى مرضاتهم وإحراز الفائدة من وراء ذلك الرضى. ولقد حسب أولئك الرؤساء أنهم كانوا يحتلون مكانة مرموقة فى قلوب مرءوسيهم ، وأن العلاقة فيما بينهم كانت تقوم على أساس من الصداقة الخالصة وأنهم قد آثروهم بالحب والمودة ليس بسبب ما فى حوزتهم من سلطة بل لأنهم وجدوا فى أشخاصهم وتصرفاتهم ما يجعلهم فى مقر القلب حيث يحظون بالمودة. ولكن ما يكاد الواحد من أولئك الرؤساء يخرج إلى المعاش حتى يجد الوجوه التى كانت تبتسم فى استحياء منه وقد التوت بالتنكر له والامتعاض منه . وقد يجد مرءوسه وقد أخذ

(*) لقد رفع الظلم عن كاهل المحالين إلى المعاش، وذلك بزيادة المعاش والمنح، بعد نشر هذا الكتاب فى طبعته الأولى.

يدير ظهره له فى لا مبالاة أو فى ازدراء. ولقد يتعمد بعض المرءوسين إبداء عدم الاكتراث بالرئيس السابق عندما يقبل عليهم فى محل العمل فلا يردون التحية، وإن ردوها فبغير ذلك الشوق والتلهف الذى كان يبدو فى سلوكهم فى سابق العهد قبل إحالته إلى المعاش. وعندما يسلمون على أولئك الرؤساء السابقين فإن تلك الانحناءة التى كانوا يبدونها تتزايل من سلوكهم وقد صارت قاماتهم منتصبة، بحيث يصير الرئيس السابق فى المقام الأدنى إذ إن ظهره قد انحنى بفعل الزمن.

ولقد تصل الوقاحة ببعض المرءوسين السابقين إلى حد تعطيل صرف الاستحقاقات المالية للرؤساء السابقين . فيتعمد بعض صغار الموظفين الذين كانت لهم مواقف فيها مهانة لهم فى يوم من الأيام من جانب أولئك الرؤساء السابقين إلى إخفاء بعض المستندات الهامة من ملفات أولئك الرؤساء التى يستحيل فى حالة غيابها تسلمهم لمعاشهم فى الموعد المقرر. ولقد يتعمد البعض منهم دس المعلومات أو أرقام كاذبة تنقص مستحقات المعاش. وقد يصل الأمر ببعضهم إلى حد إحاكة المؤامرات ضد رؤسائهم السابقين بحيث يستمر تعطيل المعاش مدة طويلة من الزمن تقصر أو تطول. وكل ذلك وغيره يضرب الشيوخ بالإحساس العميق باليأس فيأخذون فى لعن الدنيا الغرور التى لا ترفق بهم وقد أخذت فى إذلالهم بعد أن كانوا يتربعون على عروش السيادة والجبروت.

ومما يزيد الطين بلة أن الكثير من الشيوخ لا يجدون فى أبنائهم وبناتهم الوفاء والطاعة التى كانوا يجدونهما أيام أن كان أولئك الأبناء والبنات فى حاجة إليهم. وقد بلغ أولئك الأولاد والبنات السن والمكانة الاجتماعية التى تسمح لهم بالاعتماد على النفس والاستغناء عن خدمات الأب أو الأم. لقد صار الكبار هم المحتاجين إلى خدمة الصغار ولكن الأبناء والبنات لا يقيمون الاعتبار إلا لمصالحهم الخاصة وما يتعلق بالأزواج والزوجات والأبناء والبنات الجدد أى أحفاد أولئك الكبار من شئون . فإذا ما طالبهم الشيوخ بقضاء مصلحة هنا أو هناك لأن صحتهم لا تسمح لهم بالتزاحم فى وسائل المواصلات المكتظة بالركاب أو بالوقوف لمدد طويلة فى الطوابير أو فى انتظار الموظف المختص بالجهة التى لهم فيها مصلحة، فإنهم يعتذرون أو يسوفون أو يَعِدون بغير أن تكون لوعودهم أصداء أو فاعلية.

عندئذ يحس الشيخ (أو الشيخة) بأن الدنيا قد ضاقت فى عينيه وأنه لا يجد لمحة من الوفاء فى أولئك الذين طالما ضحى من أجلهم وطالما قضى لهم المصالح منذ نعومة الأظفار إلى أن دب الضعف فى أوصاله وجف معين النشاط فى بنيانه.

وثمة أخيرًا سبب ذاتى يدفع بالشيوخ إلى الارتماء فى حمأة اليأس وهو عدم تجديد أهدافهم فى الحياة وعجزهم عن ملء الوقت . فهم فجأة يجدون أنفسهم أحرارًا فى شغل كل الوقت بالطريقة التى يرغبون فيها. والواقع أن الحرية قد تؤدى أيضًا إلى اليأس شأنها فى ذلك شأن العبودية . ذلك أن الأشخاص الذين اعتادوا أن يأتمروا بأوامر غيرهم والذين اعتادوا أن يصبوا حياتهم فى قوالب روتين يومى لا يحيدون عنه ، يجدون أنفسهم وقد خرجوا من إطار ذلك الروتين لكى يرسموا لأنفسهم روتينا خاصا بهم، وأن يخططوا لحياتهم بما يستهويهم هم. ولكن أولئك الذين اعتادوا تنفيذ ما يرسم لحياتهم من خطط وأن يضربوا فى الخطوط التى تخط لهم ، يجدون المشقة كل المشقة فى أن يكونوا سادة الموقف وأن يفلسفوا حياتهم وفق مشيئتهم . وبإزاء تلك الحرية المفاجئة ، فإنهم يعجزون عن التصرف ولا يجدون أمامهم من سبيل سوى الارتماء فى حمأة اليأس.

الشيخوخة ليست مرادفا لليأس :

سبق أن قلنا إن اليأس الذى ينسرب إلى نفوس الشيوخ إنما يتأتى عن واقعين: واقع نفسى داخلى وواقع موضوعى خارجى ، وأن هذين الواقعين يدعمان بعضهما بعضا، ويتفاعلان بعضهما مع بعض . فالواقع النفسى يؤثر فى النظرة إلى الواقع الخارجى، كما أن الواقع الخارجى والظروف المحيطة بالشخص المسن تؤثر فى واقعه النفسى. وما نرغب فى تأكيده هو أن الواقع النفسى للشخص يمكن أن يُرّجح واقعه الخارجى. وبوجه عام فإن الواقع النفسى لدى أى شخص يُرّجح واقعه الخارجى ويؤثر فى مشاعره وحياته الوجدانية أكثر مما يؤثر فيه واقعه الخارجى وظروفه التى تحيط به. وشاهد ذلك أنك قد تجد بعض الناس الذين ليس لديهم سوى الكفاف وقد ظلوا يحسون بالطمأنينة ولا يجثم عليهم شبح الجوع يتهددهم ، بينما قد تجد أحد الأغنياء دائم الشعور بخطر الجوع أو الفقر مع أن ما فى

خزائنه يضمن له عيشا رغدا ويضمن له الشبع هو وكل من يسيرون فى ركابه . ولكن الواقع النفسى فى الحالتين يتحكم فى المشاعر الداخلية سواء بالنسبة للفقير المطمئن أو بالنسبة للغنى القلق على مستقبله.

ونستطيع فى الواقع أن نتخيل شيخوخة خالية من المرض ومن الضعف، بل ونستطيع أن نتخيل شيخوخة مفعمة بالصحة والقوة. ونستطيع أيضًا تخيل شيخوخة مفعمة بروح الجد بل وتشع بالإنتاجية. وهناك من الشيوخ من يظلون ذوى عقول راجحة وتفكير سديد، بل إنك تسمع عن الكثير من المفكرين والفلاسفة وقد ظلوا أصحاب أقلام نابضة بالحيوية والسخاء فى التأليف إلى ما بعد الثمانين، ولم يلاحظ قراؤهم أن أقلامهم قد جفت أو أن منطق تفكيرهم قد أصيب بالفساد أو الوهن. وبالنسبة للنشاط العام الذى يمكن أن يتمتع به الشخص فإنك قد تجد أناسا فى الشيخوخة يتمتعون بنشاط عام أعلى درجة وأكثر فيضا مما يتمتع به كثير من الشباب.

ويمكن على عكس ذلك أن نتخيل شبابا مصابين بكل ما يقال من أن الشيخوخة تصاب به أو تتردى فيه من ضعف جسمى ومن نضوب فى الحيوية ومن تدهور فى التفكير ومن اعوجاج فى المزاج. ولعلنا نستطيع أن نخرج من الملاحظات الجزئية بقاعدة عامة تقول إن الإنسان فى أية سن يمكن أن يصيب قدراً كبيراً من النشاط والحيوية جسميا ووجدانيا وعقليا واجتماعيا، وأنه يمكن أن يتدهور فى تلك المناحى فى أية سن . فلا فرق فى ذلك بين طفولة ومراهقة وشباب وشيخوخة. ونستطيع أيضًا أن نقول إن الإنسان إذا ما لاقى ظروفا معينة فإنه يخرج من تلك الظروف بحصيلة معينة . والظروف المعينة التى نعنيها قد تكون ظروفا داخلية تتعلق بالوراثة والواقع النفسى للشخص من ناحية ، وقد تكون ظروفا خارجية تتعلق بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية التى ينخرط فى نطاقها.

والواقع أن ما تعانى منه الشيخوخة حاليا من أوضاع متدهورة إنما هو نتيجة لفلسفة الإهمال التى يأخذ بها المجتمع نفسه بإزاء الشيوخ، ونتيجة أيضًا لإهمال الشيخوخة والتقصير فى رعايتها وعدم الأخذ بيدها. فإهمال الشيخوخة من جانب المجتمع ومن جانب الأسر التى تضمهم يؤثر فى نفوسهم أردأ تأثير

وأبعده مدى . فالنظرة السائدة تقول إنه لا فائدة من رعاية الشيخوخة، وأنه لا محالة من إهمال الشيخوخة لأن رعايتها سوف لا تؤدى إلى شىء. فالشيخ إذن محكوم عليه باليأس. ولكن الواقع أن مثل هذه الفلسفة مشوبة بالكثير من البهتان. وليس من سبيل إلا تغيير الفلسفة التى يسير عليها المجتمع والتى ينظر بها إلى الشيخوخة ، لأن فى تغيير هذه الفلسفة وإحلال فلسفة متفائلة محلها بإزاء الشيخوخة هو الأمل الوحيد لإحلال الأمل محل اليأس فى قلوب الشيوخ.

ولكن المسألة ليست مجرد فلسفة تتبع بالمجتمع أو لدى الأفراد أو لا تتبع، وإنما المسألة تصل إلى أبعد من ذلك من مجال الفكر إلى مجال العمل. فيجب أن تفتح مجالات رحبة أمام الشيوخ وألا تغلق أمامهم مجالات العمل أو فرص المشاركة فى النشاط الاجتماعى، وألا يحكم على الشيخ فى سن معينة أن يتوارى عن الأنظار وأن ينزوى فى مكان قصى بغير إيجابية يبديها وبغير مشاركة فعلية فى جانب أو أكثر من جوانب الحياة العملية . فحرمان الشيخ من المشاركة فى الحياة يضربه باليأس، وعلى العكس من ذلك فإن إتاحة الفرص أمامه للإسهام فى مناشط المجتمع وإطلاق الحرية أمامه للعمل حتى يرغب هو بنفسه فى الانزواء أو تغيير العمل أو النشاط وأن يستبدل به عملا أو نشاطا آخر يفعمه بالنشاط والحيوية ويلاشى ما كان يمكن أن يلم به من إحساس باليأس قبل أن يتبلور حول وجدانه وقبل أن يستولى على مشاعره ويأخذ بناصيته.

والواقع أن بمقدور المجتمع أن يكون مرنا بحيث لا يحرم أبناءه الشيوخ من المساهمة فى سد احتياجاتهم والاضطلاع بالمناشط المناسبة لهم، وألا يحرموا من الجهود التى يمكنهم المشاركة فيها بغير إرهاق أو بغير أن يقصروا فى حق العمل. ولسنا نشك لحظة فى أن المجتمع يتضمن من الأعمال ما هو كثير ومتنوع أشد الكثرة وأشد التنوع. ولسنا نشك أيضًا أن المجتمع ليس حصيفا فى إسناد العمل إلى الأشخاص المناسبين لتلك الأعمال. فلقد تجد بعض الشباب القادرين يضطلعون بأعمال لا تحتاج إلى بذل أية مشقة. فمثل تلك الأعمال يمكن فى الواقع أن تسند إلى الشيوخ وأن تناط الأعمال التى يعتقد أنها صعبة الاضطلاع بواسطة الشيوخ إلى الشباب.

ومن الواجب أن نميز بين ما هو جائز وبين ما هو واجب أو ملزم. والخطأ أن نحيل ما يجوز إلى ما يجب. فمن الممكن أن نقول مثلا إن من الجائز أن يعفى المسن من العمل ، ولكن من الخطأ أن نقول يجب أن ينحى المسن عن العمل. والواجب أن يترك الجواز إلى إرادة الشخص كما يجب أن يترك الإلزام للجهات الصحية التى تقرر الحالات التى يجب أن يلزم فيها الشيخ بترك العمل . وفى جميع الحالات يجب عدم الحكم على أى إنسان بأى عمر بالانقطاع عن الناس وإزاحته عن مجالات النشاط الاجتماعى ما دام يرغب فى المشاركة فى مثل ذلك النشاط الاجتماعى ، ومادام لا يطلب لنفسه الراحة. والواقع أن الغالبية العظمى من الشيوخ يطلبون الراحة من الأعمال التى يضطلعون بها وأن تسند إليهم أعمال أخرى أخف منها لا ترهقهم. ولكن الغالبية العظمى من الشيوخ يئنون ألما ويتوجعون يأسا وهم يغادرون مقار أعمالهم إلى المعاش وقد حكم عليهم المجتمع بأن يتواروا عن الأنظار وألا يشاركوا فى أى عمل أو نشاط.

والواقع أن علم النفس يمكن أن يتهم بالتقصير فى حق الشيوخ لأنه لم يول اهتماما بهذه المرحلة بالقدر الذى أولاه للطفولة والمراهقة والشباب . وذلك كما قلنا يرجع إلى اعتبار الشيخوخة نهاية المطاف، وأن المستقبل أمام الشيوخ مغلق بإزائهم. ولعل علم النفس إذا أولى اهتمامًا أكبر إلى خصائص هذه المرحلة ، إذن لاستطاع أن يكشف النقاب عن حقائق كثيرة جديدة ومذهلة تغير الرأى العام السائد اليوم، وهو الرأى الذى لا يقيم وزنا للشيخوخة ويعتبرها مرحلة الإعداد للموت أو هى حمأة اليأس والمقدمة المنطقية للتوارى تحت الثرى. ولعل علم النفس عندما يقوم بواجبه تجاه الشيخوخة سوف ينتهى إلى اعتبار حالات اليأس التى تعترى الكثير من الشيوخ هى حالات عارضة ، على الرغم من اتساع رقعة انتشارها . ولسوف يؤكد أن الحالات النادرة التى تتعلق بشيوخ موفورى النشاط والتطلع إلى مستقبل باسم هى الحالات التى تخضع للقاعدة العامة المتعلقة بمرحلة الشيخوخة.

ومن المؤكد أن الشيوخ بحاجة إلى اعتراف بوجودهم بحيث يظلون رغم شيخوختهم قوة مؤثرة فى المجتمع القائم. إن أكثر شىء يعمل على إزعاج الشيوخ بل ويعمل على تثبيط همتهم والإلقاء بهم فى حمأة اليأس هو الحيلولة بينهم وبين

فرص إظهار قوة تأثيرهم فى المجتمع. فالمسألة ليست مسألة نقود تربح أو لا تربح بقدر ما هى مسألة استمرار فى التأثير الاجتماعى أو إبطال ذلك التأثير قسرًا. ولكأن الشيخ المحال إلى المعاش شخص حكم عليه بأن يموت إراديا ومعنويا فلا يصل بصوته إلى المجتمع ، ولا تتاح له فرص التأثير الاجتماعى ، بل ولا تتاح له فرص إفادة الآخرين بما حصله من خبرات طوال حياته. فما يأسف عليه المسن هو أن يرى تلك الخبرات الغزيرة توارى معه فى طيات النسيان ولا يفيد منها الآخرون. لقد استمعت إلى مشاعر وأنات كثير من الشيوخ يتحسرون على ما فى جعبتهم من خبرات ، وهم يعزون تدهور العمل فى الشركة أو المصنع من بعد مغادرتهم له إلى المعاش إلى أن القائمين اليوم بالشركة أو المصنع قد قطعوا صلتهم بهم، إنهم يتخذون منهم ما يشبه أن يكون موقفا عدوانيا فينكرون عليهم إبداء رأى أو تقديم مشورة وكأن ما يمكن أن يقدموه من رأى أو مشورة مرفوض منذ البداية ، بل إن أية مساهمة من جانبهم يمكن أن تعد تدخلا فى شىء لا يعنيهم أو أنه نوع من التطفل السخيف.

إن الشيوخ بحاجة نفسية شديدة إلى أن تصل أصواتهم إلى الناس. فإذا ما أتاح لهم المجتمع فرص التعبير عن الرأى والمشاركة فى البناء الاجتماعى وفى النقد الاجتماعى، إذن لأدى لأولئك الشيوخ خدمة نفسية لا تقدر بمال. إنهم يحسون عندئذ بأنهم ما يزالون على قيد الحياة، وأن لهم قيمة معترفًا بها فى نظر الناس من حولهم. وليس من شك فى أن الشيخ الذى يجد أذنا صاغية لآرائه ونقداته يستطيع أن يحيا حياة سعيدة خالية من أى يأس. ذلك أن اليأس الذى يتردى فيه الشيوخ إنما يرجع بصفة أساسية إلى فقدان أولئك الناس لاعتبار الذات والإحساس بأنهم لم يعودوا بقادرين على التأثير فى المجتمع من حولهم وأنهم قد صاروا كمًا مهملا لا يستحق سوى الامتهان والازدراء والنسيان.

ومن المؤكد أن الشيخوخة يمكن أن تجلى عن مواهب جديدة لم يتسن لها أن تظهر فى فترة الشباب، ونحن نزعم أن الشيخوخة لا تقدم ثمارا فى غالبية الحالات ولا تجلى عن مواهب جديدة لا لأنها بطبيعة خصائصها مرحلة نضوب المعين الإلهامى أو جفاف المواهب، بل لأن المجتمع يعتقد أن تلك المرحلة لا يمكن أن

تأتى بجديد ولا يمكن أن تكون مرحلة استثمار لمواهب ظلت مطمورة بداخل المرء حتى تلك السن.

ومن المؤكد أيضاً أن الشيخوخة يمكن أن تكون أداة هامة جداً فى تطوير المجتمع وفى المساهمة فى حل مشكلاته بل وفى التخفيف من حدة الأزمات التى ما تزال تحيق به وتحول دون استمرار تقدمه . فإذا ما أفاق المجتمع إلى هذه الحقيقة فإنه يفيد إذن من جهود الشيخوخة فى حل مشكلاته أو التخفيف من حدتها من جهة ، ثم إنه لا يجعل منها مرادفا لليأس والقنوط من جهة أخرى.

الشيخوخة معطاء إذا وفرنا لها الفرصة :

سبق أن ألمحنا إلى أن من الممكن أن يوكل العديد من الأعمال المناسبة للشيخوخة إلى أولئك الذين تقدمت بهم السن وما تزال لديهم القدرة على النهوض بالأعمال ، وذلك حفاظًا على سعادتهم وحماية لهم من اليأس والتدهور النفسى والصحى والعقلى والاجتماعى. وقلنا إن ثمة حاجة إلى إعادة النظر فى الفلسفة التى يأخذ بها المجتمع نفسه وشئون أبنائه من الشيوخ. ذلك أن المجتمع وهو الحريص على راحة أبنائه قد ظن خطأ أن إزاحة الشيوخ عن مجالات العمل وإحلال الشباب محلهم فيه رحمة بهم وحماية لهم من المرض والإجهاد. وقد ألقينا بالضوء على أن مثل هذه الفلسفة لا تكفل السعادة للشيوخ، بل تضربهم باليأس والشعور بأنهم قد صاروا عالة على المجتمع وأنهم استحالوا إلى مخلوقات خاوية من أية فائدة لمن حولهم ، وأن جميع المحيطين بهم يتمنون لهم الموت السريع للتخلص من أعبائهم.

وإذا أراد المجتمع لنفسه أن يكون مجتمعا عادلا ومطبقا لمبدأ تكافؤ الفرص بإزاء جميع أبنائه، فعليه أن يقدم للشيوخ أعمالاً مناسبة لقدرتهم الجسمية ولحالتهم النفسية، بحيث لا يرهقون من ناحية ولا يحسون بأنهم عالة على غيرهم أو أنهم شخصيات غير مفيدة عمليا واجتماعيا من ناحية أخرى.

وقد سبق أيضًا أن أشرنا إلى أن ما يعز على الشيوخ ويؤلمهم هو أن يشاهدوا أن خبراتهم التى تكلفوا الكثير من المشقة فى سبيل تحصيلها وقد ضرب بها عرض

الحائط ، وحكم على تلك الخبرات بأن تدفن معهم فى مقابر الأحياء التى أجبروا على ينزووا فيها وهم شبه أحياء، إذ إنهم يتفرجون على العالم من حولهم وقد حرموا من المشاركة فيه ولو بالمشورة يقدمونها إلى الشباب الذين احتلوا أماكنهم بالمصالح الحكومية أو الشركات أو المصانع.

والواقع أن أجيال الشباب لا يرغبون فى استلهام الشيوخ المشورة، وذلك حتى لا يشاركوهم الفضل فى الدفع بعجلة التقدم إلى الأمام، ثم أيضًا لأن كل جيل من أجيال الشباب ينظر بارتياب إلى جيل الشيوخ السابق عليه، وقد أخذ يعزو جوانب الفشل التى نشأت فى الأعمال والتطبيقات والعلاقات والتنظيمات إلى ما سبق أن انزلقت فيه أرجل الشيوخ قبل إزاحتهم عن مقار الأعمال من أخطاء فاحشة. ناهيك عن أن جيل الشباب يتهم الجيل السابق عليه فى العمل بأنه كان مستمسكا بالروتين البطىء، وأن الثورية لم تكن تسرى فى عروقه مما جعل العمل قابعا فى مهاوى الكسل، ومما حال دون خروج مسودات المشروعات من تلك الأدراج إلى النور، حيث إن الإرادة كانت خاوية والبطء كان الديدن الذى يهتدى به ذلك الجيل الذى انحدر اليوم إلى الشيخوخة. فكيف بهم يلجأون إليه يستشيرونه وهو فى نظرهم الجيل الذى عمد إلى تعطيل عجلة التطور ولم يدفع بها للتقدم بالمجتمع إلى الأمام؟.

بيد أن الواقع هو أن جيل الشباب المتحمس حال استلامه لمقاليد العمل يجد أن الحماس والفتوة والاندفاع والحركة السريعة لا تكفى وحدها للإنجاز السديد، بل إن التريث والتدرع بالحكمة والواقعية وإعادة النظر قبل البدء والتأنى قبل التنفيذ واستشارة أهل الرأى، لهى مقومات أساسية لنجاح العمل ولتحقيق التطور السليم فى الحياة العملية. وقد يفيق جيل الشباب إلى تلك الحقائق ويأخذ بها، ولكن تلك الإفاقة قد تأتى متأخرة بحيث يكون وقت استشارة الجيل السابق قد فات ولا سبيل إلى استعادته لاستلهام خبراتهم الثمينة والإفادة من مشورتهم فيما يعن لهم من مشكلات تتعلق بتسيير الأعمال أو الاضطلاع بالمشروعات الجديدة.

على أن المسألة ليست مسألة مبادرة شخصية يمكن أن تصدر عن هذا أو ذاك ممن بيدهم مقاليد الأمور من الشباب الذين حلوا محل جيل الشيوخ، بل إنها

نظام عام يجب أن ترسى قواعده، بل قل إنها تقاليد اجتماعية يجب أن ترسخ فى النفوس بحيث تكون الممارسة صدى لتلك التقاليد، وبحيث تكون القوانين واللوائح والتنظيمات تعبيرًا عما تأصل فى قلب المجتمع وضرب بسهم غائر فى صلب الأجيال المتعاقبة . ولابد لكى تستحيل الفكرة إلى عقيدة معتملة فى أغوار القلوب وأن تمتلك ناصية المجتمع أن تستأصل الاتجاهات الخاطئة والعقد النفسية التى تسيطر على نفوس الشباب تجاه الكبار بصفة عامة. وليس من سبيل إلى ذلك إلا بتغيير الكبار لمواقفهم تجاه الصغار بدءا بالطفولة.

وهنا لابد أن نذكر التربية . فما دامت التربية تقوم على أساس الانفصام بين الكبير والصغير بحيث يتحكم الكبير فى الصغير ولا يشركه فى الأعمال وفى رسم الأهداف وفى التفكير والبحث عن الوسائل التى يتسنى بها قهر الصعاب، فإنها ستعمل على تنشئة أجيال من الحاقدين على الأجيال السابقة. ذلك أن الصغير يتحين أول فرصة تواتيه للتخلص من الجثام الذى يحتم بكلكلة على صدره، أعنى ضغوط الكبار عليه. وطبيعى أن الإنسان ميال بطبيعته إلى التعميم . فبعد أن كان الشخص طفلا خاضعا لسلطة الوالدين، ثم تحين فرصة المراهقة والشباب لإعلان العصيان ، فإنه هو نفسه الذى يتحين الفرصة لإزاحة الشيوخ من أماكنهم والإشاحة بالوجه عنهم وعدم اللجوء إليهم فى صغيرة أو كبيرة، بل ويتعمد نفيهم إلى الأبد عن وجهه. ومن ثم فإن شخصا هذا حاله لا يستطيع أن يفيد من خبرة جيل سابق عليه يتمنى موته فى لا شعوره، وقد حقق نفيه بالفعل من مجال اهتمامه فى شعوره ووعيه وإرادته.

ولكن الشيخوخة معطاء بشرط أن يتخلص جيل العاملين من العقد التى استولت على أفئدتهم تجاه الشيوخ ، وبشرط أن تتاح الفرصة الكافية للشيوخ لتقديم المشورة والرأى فيما يستعصى على جيل الشباب إبداء الرأى فيه وبشرط إحساس هذا الجيل بأنه إذا ما استنار برأى خبراء الجيل السابق فإن الأمور ستتضح أكثر فأكثر ، ويتسنى الحصول على رأى أنضج والتوصل إلى خطة عمل أحكم وأدق وأكثر عملية وأثمارًا وإنتاجية.

بيد أننا ننبه هنا إلى محاذير ينبغى الاحتياط من الوقوع فيها . أولها عدم إقلاق الشيخ بالأمور التافهة أو بالأعمال الغثة تنفيذا لمبدأ مشاركة الشيوخ فى العمل وتسديد الخانات أو تحقيقًا لرغبة الشيوخ فى المشاركة فى الحياة. ذلك أن الشيخ إذا أدرك أنك تشركه فى الغث من الأمور كنوع من المجاملة أو كنوع من تنفيذ ما تقول به اللوائح الجديدة التى تنص على ضرورة مشاركة الشيوخ وأخذ مشورتهم ، فإنه يتململ وتكون بذلك قد أصبته بما هو أوخم من اليأس وأبشع من القنوط. إن الشيخ الذى يخرج إلى المعاش يكون فى أغلب الحالات شخصًا شديد الحساسية لكرامته. فهو يجد أن التافه من الأمور جدير بغيره من الشباب ، بينما هو جدير بما يحتاج إلى خبرته الناضجة وإلى رأيه الراجح وإلى حصافة مشورته وفكره الثاقب وطول ممارسته للعمل.

ومن المحاذير التى ينبغى على جيل العاملين الاحتياط من الوقوع فيها إسناد أعمال إلى الشيوخ ترهقهم أو يترتب على أدائها إرهاق لهم. فمثلا يجب أن يتسنى للشيخ أن يؤدى العمل الذى يطلب إليه أداؤه وهو فى منزله أو بمؤسسة تقع إلى جوار منزله بحيث لا يتكلف عناء الذهاب إلى مكان بعيد فى زحمة المواصلات. وإذا كان من الضرورى أداء العمل بالمصنع أو الشركة أو المصلحة الحكومية فيجب التغلب على مشكلة البعد عن المنزل بتوفير وسائل النقل المريحة فى الذهاب والعودة، وألا يلزم الشيخ بالوصول فى مواعيد صارمة أو أن يقيد بمواعيد انصراف معينة، أو أن يلزم بقضاء عدد محدد من الساعات فى مقر العمل. ويجب أيضًا عدم الإثقال عليه بالعمل لساعات كثيرة خلال الأسبوع بل يجب أن تكون نوبة العمل الواحدة فيما بين ساعتين وثلاث ساعات فقط، وأن يختار هو بنفسه الوقت الذى يناسبه للعمل بل والأيام التى يرغب العمل خلالها. وأكثر من هذا يجب أن تكون الاستشارات اختيارية بمعنى أن الشيخ يستطيع أن يعتذر عن عدم قبول بعض الأعمال التى تعرض عليه وإسنادها إلى غيره. ويكون بمقدوره أيضًا أن ينقطع عن العمل ثم الرجوع إليه بغير أن يحاسبه أحد على ذلك مراعاة لشيخوخته وما قد يعتور صحته من انحرافات. ويجب ألا يشعر الشيخ برئاسة تتحكم فيه أو تحاسبه أو توقع عليه عقوبات أو توبخه على تقصير أو خطأ. وفى حالة إحساس

المؤسسة بأنها تعانى من تصرفات أحد الشيوخ ، فعندئذ يمكن تحويله إلى عمل آخر يناسبه، لأن الأساس فى عمل الشيخ الاستفادة من خبرته من جهة والعمل على توفير الراحة النفسية له من جهة أخرى.

ومن الأعمال المناسبة جداً للشيوخ من الرجال والنساء على السواء القيام برعاية غيرهم سواء كانوا من الأطفال أو من زملائهم . ولكن الشيخ يتضايق جدا عندما تكون الرعاية التى يضطلع بها رعاية فردية ، أعنى رعاية موجهة إلى طفل واحد أو إلى شيخ واحد. ولكن إذا أحس الشيخ بأنه يقع فى إطار مؤسسة اجتماعية مختصة بمثل هذه الرعاية ، فإنه يحس بالطمأنينة من جهة وبعدم تحمل أعباء المسئولية وحده من جهة ثانية كما أنه يجد الكثير من التسلية والمثيرات والموضوعات الخصبة التى تملأ عليه حياته من جهة ثالثة.

ومن أنواع الرعاية التى يتعشقها الشيوخ رعاية المرضى والسهر على خدمتهم، ومن جهة أخرى فإن المرضى أنفسهم يحسون بالعطف الشديد يغمرهم إذا ما قام أحد الشيوخ من الرجال أو النساء بتلك الرعاية الصحية . ذلك أن الشيخ أو الشيخة يحسان بالكثير من اللذة والاهتمام والتعاطف مع المريض أو مع من هم بحاجة إلى رعايتهما . ولكأن هناك عاملا نفسيا يدفع بهما إلى ذلك . فالمفروض أن الشيخ بحاجة هو شخصيًا إلى رعاية . فهو يشعر بالنقص فى هذا الصدد . فإذا ما توافرت له فرصة القيام بنفس العملية التى يحتاج إليها بالفعل أو التى سوف يحتاج إليها بعد فترة تقصر أو تطول ، فإنه يستشعر عندئذ الثقة بالنفس، وكأنه يقوم بإقراض المجتمع من عافيته حتى إذا ما أتى الوقت الذى يلح فيه على تلقى الرعاية من غيره ، فإنه لا يكون مستجديا منه بل مستردا لدين سابق أو ساحبا من رصيد له فى قلوب الآخرين من حوله.

والواقع أن الأسرة الأم التى انشعبت عنها أسرة صغيرة تظل تقدم خدمة اجتماعية وأسرية بفضل ما يقدمه إليها الشيوخ فى تلك الأسرة الأم. فبفضل قيام تلك الأسرة الأم تجتمع الأسرة الصغيرة الناجمة عن زواج الأبناء والبنات حيث يقضى أفرادها وقتا سعيداً حلو المذاق فى رحاب تلك الأسرة الأم التى لولا وجود الشيخ بها إذن لانهارت وتبعثرت تلك الأسر الانشعابية.

ويجب ألا ننسى الدور الحضارى الذى يجب أن يناط دوما بأجيال العلماء والأدباء والسياسيين من الشيوخ، وهو كتابة التاريخ وتسجيل الخبرات الشخصية. ففى مرحلة الشيخوخة يتسنى للأفراد من العلماء وذوى الخبرة أن يقدموا للأجيال القائمة بل وللأجيال القادمة ما مر فى حياتهم من أحداث وما أفادوه من خبرات وكيف تحسسوا طريقهم نحو الثقافة وما قدموه للحضارة بل وما قدمه معاصروهم من فكر وما اضطلعوا به من تأثير. وليس هناك من هو أجدر من الشيوخ فى تقديم صورة صادقة عن المناخ الاجتماعى الذى ترعرعوا فيه وأسهموا فى خلقه وتوجيه دفته وعلاقة عصرهم بعصر الشباب . ولكن أنَّى للشيوخ أن يضطلعوا بذلك إذا لم نوفر لهم الفرص؟

كيف نجعل حياة الشيوخ سعيدة؟

إذا أردنا للشيوخ أن يقضوا حياة سعيدة فيجب علينا بادئ ذى بدء أن نقف على خصائصهم النفسية حتى نستطيع أن نعاملهم المعاملة الموائمة لتلك الخصائص. ولقد سبق أن قلنا إن علم النفس ما يزال مقصرا فى حق الشيوخ إذ إنه لم يفسح فى دراساته المجال الكافى لدراسة خصائصهم النفسية. صحيح أنه انتهى فى معظم دراسات النمو إلى تقرير أن الشيوخ يتدهورون جسميا وعقليا ووجدانيا ولغويا واجتماعيا دون أن يبرز الجوانب المشرقة والمتفائلة. ولقد انتحى إلى التعميمات واستخلاص المبادئ العامة من الحالات الشائعة. والواقع أنه كما سبق أن قلنا ينبغى ألا نخلص إلى المبادئ العامة من كثرة الشيوع، لأن الحالات العارضة يمكن أن تشيع فى مرحلة عمرية ما ولكنها رغم شيوعها فإنها تظل حالات عارضة ولا يصح أن تستخلص منها مبادئ عامة. ولقد ضربنا مثالا بالحصبة وشيوعها فى الطفولة، ولكن على الرغم من شيوع مرض الحصبة فى الطفولة فيجب ألا نعتبر ذلك المرض من سمات الطفولة الراسخة بل يجب اعتباره عرضا يمكن أن يوجد أو لا يوجد خلال تلك المرحلة.

فإذا ما استطاع علم النفس أن يميز بين السمات الثابتة وبين الحالات العارضة الناجمة عن سوء رعاية الشيوخ، فإننا عندئذ سوف نزعم أن علم النفس قد توصل إلى الخصائص الحقيقية للشيخوخة. أما أن يعتمد علم النفس على

الحالات المنتشرة ويستخلص منها تلك الخصائص الثابتة فإنه يكون قد جانب الصواب ولا يكون قد وضع يده على الخط السليم للتفسير.

واعتقادنا الراسخ هو أن الشيخوخة شأنها شأن أية مرحلة عمرية أخرى يمكن أن تكون مرحلة سعيدة، كما يمكن أن تكون مرحلة شقية. فكما أنه بالنسبة للطفولة الشقية - مثلا - لا يصدر الشقاء فيها من الداخل بل عن عدم معاملة الطفل معاملة مناسبة، كذا فإن الشيخوخة الشقية لا تصدر فى شقوتها عن دخيلتها، بل من الظروف البيئية الخارجية المحيطة بالشيوخ. فإذا صح ما نزعمه هنا، فتكون سعادة الشيوخ مرهونة بالجو الاجتماعى الذى نوفره لهم.

بيد أن المشكلة التى تقابل المحيطين بالشيوخ تتجلى فى كون الشيوخ هم الكبار. فكيف بالصغار يقومون بتوفير المناخ المناسب لمن هم أكبر منهم؟ الواقع أن ما اعتاد عليه الناس يسود ويستمر فى السيادة. فما دام الصغار قد ظلوا خاضعين للكبار لمدة طويلة، فإن أولئك الكبار عندما استحالوا إلى شيوخ، فإن الصغار الذين استحالوا إلى كبار لا يستطيعون قلب الوضع واحتلال المكانة التى ظل من هم أكبر منهم يحتلونها ردحا من الزمن.

وإذا كان مبدأ الرعاية بالنسبة لأية مرحلة عمرية يقوم على أساس مراعاة الخصائص المتعلقة بتلك المرحلة، لذا فالواجب بالنسبة لمرحلة الشيخوخة توفير الجو الاجتماعى المناسب للأفراد الواقعين فى نطاقها، تماما كما توفر الجو المناسب للطفولة أو المراهقة أو الشباب. وقد سبق أن أشرنا إلى أن الشيوخ يجدون المتعة الشديدة فى قضاء بعض الوقت مع أمثالهم من الشيوخ حيث يتبادلون الأحاديث والخبرات ويتحدثون عن ذكرياتهم التى تتعلق بطفولتهم أو أعمالهم.

بيد أن الشيخ إذا وجد من يثيره للتحدث عن نفسه وعن ذكرياته فإنه يسترسل فى ذلك ويجد أشد المتعة عندما يستعرض ماضيه وذكرياته وبطولاته سواء فى العمل أم فى الحياة العامة. ولكن الواجب على المتحدث مع الشيخ أن يكون لبقا ومجيدا لفن الإصغاء. فبينما يبعث حسن الإصغاء على إشاعة السعادة فى قلب الشيخ، فإن الإشاحة عنه أو إبداء النفور من حديثه أو مقاطعته أو تحويل

دفة الحديث إلى موضوع آخر بعيد عن الحديث الذى يهمه والذى ينهمك فى الانخراط فيه، إنما يعمل على إشاعة الشقاء فى جنباته وإشعاره بأنه شخصية غير مرغوب فيها.

وإذا ما رغب المرء فى زيادة سعادة الشيخ واستمتاعه بالحياة، فعليه بإبداء الإعجاب مما يقوله ولكن بغير مبالغة، لأنه إذا ما اكتشف الشيخ أن المستمع إلى حديثه يفتعل الإعجاب بما يقول، فإنه يحس عندئذ بأنه أضحوكة وموضع للسخرية، أو أنه قد صار خفيف العقل فى نظر الآخرين. وبذا فإن حياته تنقلب إلى غم وانعدام الثقة بالنفس وكراهية الآخرين والنأى عن المجالس العائلية، بل وتجنب الناس بقدر الإمكان.

ومن أسباب إشاعة السعادة فى قلوب الشيوخ إشراكهم فى اهتماماتنا ومشكلاتنا حيث إن ما يسهمون به من رأى وما يقدمونه من مشورة يحملهم على الإحساس بأنهم ما يزالون كما هم موضع ثقة من حولهم من حيث رجحان الفكر وحصافة الرأى والقدرة على سبر الأغوار والدقة فى النظرة، وأنهم ما يزالون يشكلون مركز القوة فى الأسرة، وأن مكانتهم بها لم تتضعضع ولم يصبها الوهن ولم يعترها الذبول. وسواء أخذنا بما يقولون أم لم نأخذ، فيكفى أنهم يحسون بأنهم يشاركون فى مهام الأسرة وأنهم لم يلق بهم فى مكان قصى بعيدا عن المقام الذى كانوا يحتلونه من قبل.

وليس هذا بمقصور على المشورة وأخذ الرأى، وإنما ينسحب أيضًا بإزاء قضاء الوقت فى السمر أو الرحلات أو ألعاب التسلية كالنرد وغيره. فيجب أن يجد الشيوخ لأنفسهم مكانا يحتلونه للاستمتاع وقضاء الوقت السعيد. وحتى عندما يعتذر الشيوخ عن عدم المشاركة بحجة أن سنهم لا تسمح بذلك، فلابد أن نعلم أنهم إنما يعتذرون عن عدم المشاركة فى السمر بينما تكون لديهم رغبة ملحة فى الاشتراك، ولكنهم يعتذرون حتى يعززوا مركزهم، وحتى يلاقوا تأكيدًا من الجالسين بأنهم غير متضايقين من وجودهم فى جلستهم، وحتى يتأكدوا أن الموجودين لا يشركونهم معهم كنوع من المجاملة بينما هم يتضايقون منهم فى قرارة أنفسهم.

وإذا كان هناك فى الجلسة الواحدة شيخان أو أكثر فينبغى ألا يضم الشيوخ فى كفة والشباب فى كفة أخرى، بل يجب أن يوزع الشيوخ على الموجودين، بل يجب وضع الشيوخ فى مقابل بعضهم بعضا فى تنافس، وذلك حتى لا يحسوا بأنهم إنما يجمعون إلى بعض كنوع من التجميع لشخصيات غير مرغوب فيها، وإنما هم يتوزعون على الفرق للاستفادة من خبرتهم وحصافتهم وذكائهم. وبهذا يحس الشيخ بأنه ما يزال يمثل مركز الثقل وأن المجتمعين يتهافتون عليه للانضمام إليهم وأنه ما يزال برأسهم وينفذ الرأى فيهم.

ولكى لا يحس الشيوخ بأنهم صاروا نسيا منسيا أو كمًّا مهملا فى الأسرة أو أنهم صاروا شخصيات منبوذة، فيجب أن يتذكر أبناء الأسرة وأحفادها المناسبات المتعلقة بهم ويقومون بالاحتفال بها. ذلك أن جعل الشيخ فى مركز أو بؤرة الاهتمام فى مثل تلك المناسبات إنما يشعره بأنه شخصية محبوبة. والواقع أن أكثر شىء يسعد الإنسان ويشيع الأمل فى تفسيته هو أن يحس بأنه شخصية محبوبة، وأن من حوله يتذكرون المناسبات السنوية التى تخصه، أو الأعياد المتعلقة به.

وحتى فى مجالات العمل يجب ألا ينسى العاملون تكريم القدماء الذين كانوا يعملون معهم. وعندما يحال الواحد من بينهم إلى سن المعاش، فلا يجب أن يخرج بغير أن يحتفل به، بل يجب أن يكرمه العاملون الذين اشتغلوا معه، سواء كزملاء أم كمرءوسين أم كرؤساء. ذلك أن الموظف وهو يخرج من الخدمة إلى سن التقاعد، إنما يحس بمجموعة من المشاعر الدقيقة وينتظر لحظات خروجه تلك وهو مترقب ماذا ستكون عليه مشاعر العاملين معه. فهل سيشيعونه غير مأسوف عليه أم إنهم سيألمون لفراقه ويأسفون على تركه لصحبتهم إلى غير رجعة؟ إنهم بالطبع عندما يلتئمون فى حفل لتكريمه مهما كان حفلا رمزيًا ليعبروا عن مشاعرهم نحوه وليقولوا له إنهم سوف يظلون ذاكرين لعهده وغير مجحفين لحق شخصه وقد غاب عنهم، بل سيظلون يذكرون أفضاله وميزاته بعد تركه لهم، فإنه بالطبع سوف يثلج بذلك صدرًا وسوف يحس بالعزة والكرامة، وبأنه ذو قيمة سواء وهو فى الخدمة أم بعد انتهاء مدة خدمته.

ومما يخشى على الشيوخ منه وجود شخصيات من الشباب أو حتى من الأطفال يجدون متعتهم فى الاستهزاء بهم والتعريض بهم فى المجالس. صحيح أنه قد يبدر من المسن أو المسنة ما قد يبعث على الضحك أو التندر به أو ما قد يصلح لأن يكون مادة للتفكه. ولكن الآثار الضارة التى يتركها الضحك على المسن أو التندر به أو التفكه بما يصدر عنه من تصرفات أو كلمات أو حركات لهى آثار قاتلة. ذلك أن ذلك المسن أو تلك المسنة ربما لا تكون ممن اعتادوا مثل تلك المواقف وقد ظلوا طيلة حياتهم مثالا للهيبة والوقار. فكيف بهم وقد صاروا إلى مثل هذا الحضيض حيث يجد الأطفال والشباب فيهم ما يستهزئون به أو يضحكون منه أو يتندرون عليه؟ إن مثل تلك المواقف تعز عليهم وتسىء فى الصميم إليهم وتشعل القلق فى نفوسهم، فلا يجدون لأجفانهم لحظة نعاس، ولا يجدون لقلوبهم لحظة هناء، ولا تعرف نفوسهم إلى الاستقرار سبيلا. إن مثل ذلك الشيخ سوف يعيش فى يأس وقنوط وسوف تتدهور حالته النفسية والعقلية وسوف يفقد ثقته فى نفسه وفيمن حوله على السواء، ومن ثم تتفكك شخصيته وتتدهور حالته ويفقد قيمته الاجتماعية.

ولذا فيجب أن يجد الشيوخ لهم حماية من كل المضايقات التى قد تصدر عن بعض الصغار من الأطفال والمراهقين والشباب، وأن يردع مثل أولئك الأشخاص الذى يحاولون النيل منهم، وذلك بتعزيز مكانة المسن وعدم لومه أو نهيه أو إبداء الريب مما يصدر عنه. وخير ما يفعله الكبار فى الأسرة تجاه الشيوخ بها هو تحمل ما قد يصدر عنهم من مضايقات. ذلك أن كثيرًا من المضايقات التى يضجر منها كثير من الناس ويتململون من صدورها من الشيوخ يمكن أن يغضى عنها ولا يلتفت إليها فتمر وكأن شيئًا لم يكن. ولكن التركيز على مثل تلك التصرفات يحمل الشيخ على اختيار موقف العناد ويكون فى هذه الحالة أشبه ما يكون بالطفل العنيد، فيزيد إصرارًا على ما بدر منه وضايق غيره. وهكذا تتعقد الأحوال بينه وبين من حوله، فهم يزدادون تبرما منه، وهو يزداد تشبثا بالتصرفات أو الأقوال أو الحركات التى تضايقهم.

والواجب على الأسر التى تضم مسنين بين أفرادها أن تراعى أوقات راحتهم وألا تثير الجلبة والضوضاء حولهم حتى يركنوا إلى الراحة، وحتى لا يتململوا فى فراشهم وهم يلعنون ويسخطون. ذلك أن من خصائص الشيخ الرغبة فى النوم مبكرا واليقظة فى أى وقت يشاء. وقد ينام بعض الشيوخ وهم يجلسون مع غيرهم فى الصالونات. فحرى بالموجودين ألا يعيروا ذلك اهتماما بل يتركوا الفرصة للشيخ لكى ينعم بنعاسه وهو جالس على كرسيه وسطهم، ولا يلحوا عليه بأن يذهب إلى السرير. ذلك أن السرير ليس بالضرورة هو المكان المناسب لانخراط المسن فى النعاس، بل قد يكون الكرسى والوجود مع الضيوف هو الأحرى بنومه والانخراط فى النعاس اللذيذ.

والخلاصة أن إشاعة السعادة فى نفسية الشيخ لا يمكن أن نتأتى إلا بمعرفة طباعه وما يسعده بالفعل فنكثر منه ونبقى عليه، وأيضًا بمعرفة ما يضايقه ويدخل التبرم والشقوة فى نفسيته فنتجنبه ونتحاشاه. ولكن كيف السبيل إلى مثل تلك المعرفة؟ لابد لنا إذن من دراسة سيكلوجية الشيخ. وهذا ما سوف نحاوله فى الفصل التالى.



الفصل الثالث

سيكلوجية الشيخوخة

التفسير التفاعلى للشخصية منذ الميلاد حتى الشيخوخة :

يولد الإنسان بعد أن يكون قد قضى تسعة أشهر – فى الحالات العادية – فى بطن الأم . وفى خلال تلك الفترة الجنينية ببطن الأم تكون هناك عدة تفاعلات قد حدثت بين الطفل وبين المؤثرات الحشوية. فالبيئة الحشوية هى أول بيئة ينخرط الإنسان فى نطاقها. وتتباين تلك البيئة الحشوية من أم إلى أخرى. والطفل يتلقى من الأم فى تلك البيئة مثيرات جسمية وانفعالية، ولا يتلقى عنها شيئا مما يعتمل فى عقلها، ولكنه يتلقى الكثير من الاستعدادات العقلية، بل إنها تنقل إليه المقومات الوراثية التى قد ترجع إلى شخصها أو إلى أبويها أو أجدادها والتى قد ترجع إلى الوالد أو إلى أبويه أو أجداده.

وبعد أن يولد الطفل ينخرط فى بيئة أرحب وأوسع بكثير من تلك البيئة الحشوية التى كان حبيسا فى نطاقها . وفى هذه البيئة الجديدة لا يتفاعل الطفل بجانب واحد من جوانبه، بل إن تفاعله يتم بكليته. ويكون شأنه فى هذه البيئة الجديدة شأنه بالبيئة الحشوية من حيث كلية التفاعل، أعنى تفاعله بجماع شخصه وليس بشطر منه فحسب، والواقع أن التفاعل الشظوى – أى التفاعل الذى يتم بين شظية أو جانب واحد دون سائر جوانب الشخصية – مع مؤثر بالذات، لا يحدث خلال الطفولة المبكرة ولا يتأتى للإنسان إلا بعد أن يتم له النمو وبعد أن تتمايز لديه الجوانب المتباينة من شخصيته . وحتى بعد أن يحدث ذلك التمايز. فإن العلاقات التبادلية والتأثيرات المتقابلة تستمر واضحة جلية. فبالنسبة للشخص

البالغ تجد أن التفاعل العقلى يؤثر فى اللغة، كما أن اللغة تؤثر فى العقل. ونحن نعلم أن اللغة - منطوقة أو مكتوبة - تتمايز من الفكر. ذلك أن من الممكن أن نجد كلاما بغير فكر كأن ننشئ كلمات أو مقاطع بلا معنى ونأخذ فى ترديدها، كما قد نجد فكرًا بغير لغة كأن نفكر فى شىء ولا نعبر عنه.

والواقع أن النمو بالنسبة لجميع الكائنات الحية وبخاصة بالنسبة للإنسان يبدأ من اللامتعين إلى المتعين، ومن غير المحدد إلى المحدد. فإذا كنا نميز فى شخصية الإنسان عديدًا من الجوانب كالجانب الجسمى والجانب الوجدانى والجانب العقلى والجانب الاجتماعى والجانب اللغوى، فإننا لا نستطيع أن نميز تلك الجوانب المتعددة فى شخصية الوليد بل نميز لديه كائنا حيا فحسب . إنه كائن لا يختلف عن أى من الكائنات الحية الأخرى.

ويسير التفاعل بين الكائن الحى - سواء فى كليته قبل تمايز جوانبه، أم بعد تحقق التمايز فى جوانبه المختلفة - بطريقة تراكبية. فإذا رمزنا للكائن الحى بالرمز ألف قبل أن ينخرط فى أى نوع من التفاعل، ثم صادف عنصرًا تفاعليا ب وتحقق له التفاعل معه، فإنه يستحيل إلى ا ب . وفى التفاعل التالى لا يتم التفاعل بين ألف، جـ - وهو العنصر التفاعلى الجديد - بل يتم التفاعل بين ا ب وبين جـ . وبتعبير آخر فإن الإنسان يتفاعل بآخر مستوى وصل إليه وبين المؤثر الجديد.

فبالنسبة للناحية الجسمية، فإن كل تفاعل بين الجسم وبين العناصر التفاعلية المفيدة أو الضارة، فإنه فى المرات التى يتفاعل فيها مع مثيرات جديدة لا يتفاعل ابتداء، وإنما يتفاعل بآخر حالة وصل إليها بعد آخر تفاعل وقع له . ومعنى هذا أن أى تفاعل مر فى سلسلة التفاعلات الجسمية ابتداء من الميلاد حتى الشيخوخة يظل داخلا فى نطاق الشخصية. وأى مرض يصيب عضوًا من أعضاء الجسم يترك أثرًا ما حتى بعد أن يتسنى الشفاء منه والتخفيف من حدة ما يمكن أن يتركه من آثار. ويجب أن نذكر بناء على هذا أن تعويض ما فات الجسم أو ما ألم به من آثار ضارة لهو مبدأ مرفوض، وأن الصحيح هو أن الجسم لا يتفاعل إلا بآخر مستوى وصل إليه. فإذا كانت طفولة الشخص هشة ولم يتلق الطفل الغذاء

المناسب لتلك المرحلة أو أصيب بمجموعة من الأمراض خلال تلك المرحلة العمرية، فإن ذلك الطفل فى المراحل العمرية التالية لا يستطيع أن يغطى الآثار الناجمة عن سوء التغذية أو الناجمة عن الأمراض التى أصابته مهما تناول من مواد غذائية ممتازة فى المراحل التالية . كل ما فى الأمر أن المراحل العمرية النمائية التالية إذا ما لقيت أحسن المؤثرات وأفضل المثيرات وكانت خالية من المؤثرات الضارة، فإن جماع تلك الظروف المواتية تستخرج من ذلك الإنسان أحسن ما يمكن استخراجه من الحصيلة الصحية التى خرج بها من مرحلة الطفولة.

والأمر هنا شبيه بموقف النجار الماهر الذى يقدم إليه مكتب أسىء صنعه وطلب إليه أن يصلح الفاسد فيه. فمثل هذا النجار الماهر – مهما كانت براعته – لا يستطيع أن يقضى على العيوب التى لحقت بالمكتب لدى صناعته الأولى على يد نجار ردىء. ونفس الشىء إذا طلب من ذلك النجار الماهر أن يصنع أحسن مكتب ممكن من الخشب الأبيض الردىء، فإنه مهما كان بارعا فى صناعته، فإن تلك المهارة لا يمكن أن ترقى إلى مستوى تغيير خامة المكتب التى سلمت إليه. فهو يبدى مهارته فى حدود الخامة المقدمة إليه.

وفى الشيخوخة يتلقى الشخص الحصيلة النهائية المتأتية له عن سلسلة طويلة من التفاعلات الجسمية. إنه يحمل فوق ظهره – أراد أو لم يرد – الفجوات الصحية المترتبة على نقص فى التغذية وقع له فى المراهقة أو الشباب، أو نقص فى تدريب عضلات الجسم بسبب إهمال التمرينات الرياضية، أو لأنه يكون قد تربى فى بيئة تهمل فى تناول بعض المواد الغذائية وتركز على تناول بعض المواد الغذائية الأخرى (الإكثار من الأرز وإهمال الخضر واللحوم مثلا).

ولقد يقول قائل: إذن فما الطب إذا كان الشخص يحمل على ظهره جميع تاريخ حياته الجسمى ؟ الواقع أن الطب لا يخلق من عدم، وإنما هو يوجه إلى مستقبل أفضل من جهة، ويخفف من الآثار السيئة المترتبة على الأحداث الماضية من جهة أخرى. فالطب يصلح ما يمكن إصلاحه ويخفف ما يمكن تخفيفه، ولكنه لا يزعم لنفسه أن بمقدوره أن يلاشى جميع الآثار الضارة أو أن يسد الفجوات التى نشأت عن نقص فى حلقة عمرية معينة.

وما يقال عن الناحية الجسمية ينسحب أيضًا بإزاء الناحية الوجدانية الانفعالية. فالاعوجاجات الوجدانية التى وقعت خلال الطفولة، تزداد إنحرافا فى المراهقة، وتزداد أكثر فأكثر فى الشباب والبلوغ ويستمر التعقيد الوجدانى حتى الشيخوخة . ونستطيع أن نشبه تزايد الانحراف الوجدانى بالطائرة التى تنحرف عن مسارها المرسوم بزاوية صغيرة جدًا. لقد ظل الطيار غير منتبه لما حدث من انحراف فى المسار. فكلما مر الوقت بغير أن ينتبه إلى الخطأ الذى وقع فيه، فإن الطائرة تنحرف عن الخط المرسوم أكثر فأكثر .

والواقع أن الفضل يرجع إلى عالم النفس فرويد فى كشف النقاب عن دور العقد النفسية التى تنشأ منذ الطفولة والتى تزداد تعقيدًا بمرور الأيام. ذلك أن العقدة النفسية تتفاعل مع العقد النفسية الأخرى، وتزداد حياة الشخص تعقيدًا كلما قابل مواقف جديدة غير مواتية أو غير مشجعة أو مثبطة.

بيد أن التفاعلات الوجدانية المتراكبة لا تتصل بالسلبيات فحسب، بل تتصل أيضًا بالإيجابيات . فالأشياء والأشخاص والفئات والعلاقات بل والشعور والأفكار والقيم وكل ما تتعلق به قلوبنا لم تحدث فجأة ولا طفرة واحدة، بل تأتت لنا بالتراكب الوجدانى. ففى ضوء الفعل المنعكس الشرطى إذا ارتبط الشىء الذى نحبه بشىء آخر مما لا يتبلور وجدانيا حوله، فإنه إذا ما استمر الارتباط فيما بينهما فترة طويلة أو فى مواقف متعددة، فإن الشىء الذى لم نكن نحبه نبدأ فى توجيه وجداننا إليه وإبداء محبتنا له. والنوعية الواحدة من الأشياء التى بدأنا فى حبها يزداد حبنا لها بطريقة تراكبية كلما صادفنا موقفًا جديدًا عمل على دعم حبنا القديم لتلك النوعية. فالطفل الصغير الذى بدأ فى طفولته بالمدرسة الابتدائية يحب الشعر مثلا، يتراكب حبه للشعر كلما صادف خبرة جديدة تعمل على دعم حبه للشعر (قصيدة جيدة يستسيغها ويستمتع بقراءتها).

والإنسان فى شيخوخته يكون قد تلقى جهازًا وجدانيًا نتيجة التفاعلات الوجدانية المتراكبة منذ طفولته الباكرة حتى الشيخوخة. ولعل الحالة الوجدانية التى يكون عليها الشيخ تكون بمثابة الثمار التى يقطفها ذلك الشخص نتيجة

الخبرات التراكبية التى لا تعد ولا تقع تحت حصر مما يكون قد تلقاه ذلك الشخص خلال حياته كلها .

وما يقال عن الناحيتين الجسمية والوجدانية يقال أيضًا عن الناحية العقلية الثقافية. فالخبرة التحصيلية التى تتأتى للشيخ، وطريقة التفكير والحصيلة الثقافية التى حظى بها، إنما تتأتى له نتيجة الخبرات التراكبية التى حصلها، فالجهاز الثقافى فى مخ الشيخ جهاز معقد أشد التعقيد . ولكن درجة التعقيد ونوعية الخبرات التى حصلها الشخص تختلف من شخص لآخر . فالجهاز الخبرى المعرفى فى ذهن الفيلسوف يختلف عن الجهاز المعرفى لدى التاجر . والجهاز المعرفى عند المتعلم يختلف عنه لدى الأمى.

ونفس الشىء يقال عن العلاقات الاجتماعية بالنسبة لأية شخصية . فنحن نكتسب مهارة معينة فى التعامل مع الناس . ولكن الخبرة التى تتأتى لنا فى هذا الجانب لا نكتسبها مهلهلة أو أربا أربا وإنما نكتسبها بنفس الطريقة التراكبية التى ذكرناها . وهناك من الناس من اكتسبوا جهازًا اجتماعيًا ممتازًا فى شخصياتهم، بينما هناك أجهزة اجتماعية لدى بعض الشخصيات مصابة بعطب فى ناحية ما من النواحى .

ولقد يقع حادث لشخص ما بعد أن تكون شخصيته قد تبلورت كأحسن ما يكون التبلور فى ناحية ما من شخصيته كالناحية الجسمية أو الناحية الوجدانية أو الناحية العقلية أو الناحية الاجتماعية، فيفقد اللياقة التى كان متمتعا بها فى ناحية أو أكثر من النواحى التى ذكرناها . فلقد يصاب الشخص بعاهة أو قد يصاب بصدمة وجدانية أو قد يصاب فى مخه فيفقد لياقته فى التفكير بل وفى الكلام، وقد يفقد ثروته أو أحد أحبائه فيفقد لياقته الاجتماعية.

وإذا نحن أردنا أن نعرف السر الذى يكمن وراء متانة شخصية أحد الشيوخ أو ضعفها أو تدهوره فى ناحية ما من نواحى شخصيته، فيجب ألا نسارع إلى القاء الكلام على عواهنه، ونعزو ما نراه من ضعف إلى أن هذا هو حال الشيخوخة، بل يجب أن نقرر أن تلك الشخصية التى نحن بصددها إنما هى حصيلة تأتت عن

تفاعلات تراكبية بدأت منذ طفولة ذلك الإنسان، وأن الاعوجاج الذى نلحظه فيها إنما نشأ فى سياق تلك التفاعلات التراكبية. وبتعبير آخر فإنه لولا حدوث ذلك الخطأ فى سياق تلك التفاعلات التراكبية، إذن لأفضى التسلسل التفاعلى إلى شيخوخة متينة بلا اعوجاج . فأصبع الإتهام يجب أن توجه إلى ما قبل الشيخوخة وليس إلى الشيخوخة. ذلك أن الإتهام يجب أن يوجه إلى السبب وليس إلى النتيجة، أعنى أنه يجب ألا يوجه إلى الشيخوخة، بل إلى مراحل النمو السابقة عليها .

الخصائص الوجدانية والانفعالية :

سبق أن أكدنا أن الجهاز الوجدانى للإنسان ينشأ لديه بطريقة تراكبية، بمعنى أن كل حالة جديدة إنما هى تفاعل بين آخر حالة وصل إليها الشخص وبين العناصر الجديدة فى الموقف. بيد أننا لم نستبعد حدوث تصدع مفاجئ بذلك الجهاز الوجدانى نتيجة صدمة عاطفية معينة تقع للشخص بحيث لا يمكن وصف ذلك الجهاز فى ضوء ما مر به من خبرات أخذ يتفاعل معها تباعًا بآخر مستوى توصل إليه نتيجة التفاعلات السابقة، بل لابد من الوقوف على ما حدث من صدام نفسى أفضى إلى وقوع التصدع .

بيد أننا إذا ما استبعدنا تلك الحالات الشاذة التى تقع فيها صدمات عاطفية مفاجئة وصببنا اهتمامنا على الحالات العادية التى تسير فيها الحياة بطريقة سوية ليس فيها مطبات مفاجئة أو صدمات عنيفة غير متوقعة، فإننا نستطيع إذن أن نستخلص خصائص وجدانية وانفعالية عامة ينخرط الشيخ فيما بعد الستين فى إطارها. ذلك أنه برغم وجود فروق فردية واسعة النطاق بين الأفراد الواقعين فى سن واحدة، فإن الشيخ يشترك مع غيره فى سمات مشتركة بينه وبين الآخرين من نفس سنه.

أما الخاصية الأولى التى يشترك فيها الشيوخ بعضهم مع بعض فهى الحساسية الزائدة بالذات. فالمسن شخص يسحب الكثير من وجدانه من الموضوعات الخارجية ومن الاهتمامات الاجتماعية ويوجهه إلى ذاته. وشاهد ذلك أنك تجد الكثير من الفلاسفة والأدباء والشعراء. يبدأون شيخوختهم بتأليف الكتب

حول ذواتهم، وتعرف هذه الكتب باسم كتب السيرة الشخصية. فنجد الفيلسوف أو الكاتب أو الشاعر يتناول نفسه منذ طفولته مسلطا الأضواء على المؤثرات التى دفعت به إلى الإبداع الفنى خلال مراحل نموه المختلفة. ولقد يعلل كاتب سيرته بتعلات موضوعية كأن يقول إن الدافع الذى يحدوه إلى ذلك هو رسم الطريق أمام الشباب ليحتذوا حذوه، أو ربما قال إنه يتخذ من الحديث عن نفسه فرصة لعرض المناخ الاجتماعى الذى يتعلق بفترة معينة من تاريخ الأمة، أو قد يقول متواضعًا إنه يكتب للناس معلنا أخطاءه الشخصية حتى لا ينزلقوا فيما انزلق هو فيه، إلى غير ذلك من تعلات تجانب الحقيقة. والحقيقة هى أن من خصائص مرحلة الشيخوخة التفاف الوجدان حول الذات، أو بتعبير آخر العودة إلى جعل الذات مركز الاهتمام الشخصى وبؤرة أساسية لاهتمامه بل لحبه وكراهيته.

ومعنى هذا فى الواقع أن التفاف الوجدان حول الذات لا يمكن أن يوصف بالأنانية تسيطر على الشيوخ، ولا يمكن أن يوصف بأنه نوع من النرجسية، أو إعجاب الشخص بنفسه، وذلك لأن ذلك الاهتمام الذاتى ربما يكون اهتماما بنقد الذات أو تعنيفها أو محاسبتها حسابا عسيرًا. لقد ينصب الشيخ محكمة لنفسه ويكون قاسيا معها أشد القسوة، ويلح عليها بأن تعترف بما اقترفته من ذنوب ومعاصى. فليس من الضرورى أن يكون موقف الشيخ من نفسه موقف المحب لها أو الودود معها أو من يبرر الأخطاء التى وقع فيها أو قصر فى أدائها، بل إنه قد يتخذ موقف المتشدد الذى لا يرحم نفسه . ولقد يكون موقف الشيخ من نفسه بحيث يوصف بأنه شخص متفرج على تلك الذات ، ولكأنه يستعرض شريطاً سينمائيا لا يخصه . فهو يقوم بوصف ذاته بغير أن يصب عاطفة الحب إليها، وبغير أن يصب جام الغضب أيضا عليها. إنه يكلف بذاته كموضوع خارجى، ويتناول نفسه كما يتناول أى شخص آخر لايضمر له حبا ولاكراهية . فموقفه فى مثل تلك الحالة يكون موقفا محايدا من الناحية الوجدانية، على الرغم من أن الكثير من علماء النفس يستبعدون حدوث موقف نفسى كهذا الموقف، إذ إنهم يعتقدون أن الإنسان لا يستطيع أن يتخذ إلا موقفا من موقفين : فهو إما محب لذاته وإما هو كاره لها نافر منها مجرح لها بالنقد الشديد، وعنيف معها كأشد ما يكون العنف قسوة وضراوة .

والواقع أن الموقف الذى يتخذ فيه الشيخ موقف الناقد من نفسه يكون مشوبا فى نفس الوقت بموقف صاحب الضمير العنيف الذى يدأب على البحث عن أخطاء تردى فيها ولكنه نادم عليها، ويتمنى لو أن فى الإمكان أن ترجع عجلة الزمن ولا يتردى فيما تردى فيه من أخطاء . ولقد يرتبط وخز الضمير لدى الشيخ بكراهية نفسه وبالإحساس بأن بداخله شيطانا رجيما ،وقد يرى نفسه قبيحا لا يتسحق أن ينظر إليه . ومثل هذه الحالة تنتاب، الشيخات بصفة خاصة . فالواحدة منهن، تحدق فى المرآة لترى وجها قبيحا يرين عليه الخبث فتكاد تبصق عليه . فالشيخة من أولئك الشيخات، لا تكتفى بتأنيب الضمير على ما اقترفته من أخطاء فى الماضى، وإنما تأخذ فى التعميم، فتعتبر أن شخصها الردئ هو الذى يصدر الشر وليس الشر الذى صدر عنها خلال حياتها حالة عارضة أو موقفا عابرا بل هو تعبير عن صميم الشخصية وجوهرها الخسيس .

أما الموقف الثانى الذى يمكن أن يتخذه الشيخ من نفسه وهو موقف المعجب بماضيه، فإنه يتأتى للشيخ فى عدة أشكال . فهو يعجب بمن أنجبه من أبناء وبنات، وقد ينصب إعجابه على تاريخه الحافل بالمآثر والبطولات وبالمواقف الحاسمة أوبالقرارات القاطعة المفيدة التى حولت مجريات الأمور أو التى كان لها أكبر الآثار وأعظم الفوائد لعدد غفير من الناس . ولقد تأخذ الشيخة بتذكير نفسها والناس من حولها بما كانت تتمتع به من جمال ورشاقة وفتنة فى أيام الشباب، وكيف أنها حطمت الكثير من قلوب العشاق الذين لم يتمكنوا من الوصول إليها أو النيل منها أوحتى جذب انتباهها إليهم وإلقاء نظرة إعجاب مماثلة إليهم .

أما الموقف الثالث، وهو موقف اللامبالاة من الذات، فإنه غالبا مايكون موقف المتهكم من كل شىء والساخر من كل الناس حتى من نفسه . فلا هو ناقم على ذاته، ولا معجب بها، بل هو ساخر من أى شىء يدعو إلى السخرية، وهو يضحك من المواقف التى تصدر عن هذا أو ذاك من الناس حتى شخصه هو . فهو يذكر المواقف التى صدرت عنه وبعثت على السخرية سواء كان هو الساخر من نفسه أم كان الساخر من غيره من الناس . والواقع أن الشخص لا يستطيع أن يتخذ مثل هذا الموقف الساخر إلا إذا كان متجردا من التحيز إلى جانب نفسه أو

متحيزا ضدها فاللامبالاة كموقف هى التى تسمح للشخص بأن يتخذ الموقف التهكمى من نفسه .

وبوجه عام نجد أن ثمة اهتزازاً يحدث لدى الشيخ بإزاء قيمة تقديره لذاته ذلك أن الشيخ كثيرا ما يكون قد حقق بالفعل الغالبية العظمى من أهدافه التى سبق أن رسمها لنفسه، وإما أن يكون قد فشل فى تحقيق الأهداف المرسومة وبالتالى فإنه يكون قد نحاها عن مركز انتباهه ولم تعد تشكل مثلاً عليا ينحو إلى تحقيقها أويجاهد فى سبيل إحالتها إلى واقع محسوس يجنى ثماره . أضف إلى هذا أن كثيرا من الشيوخ لا يجددون أهدافهم، لا لأن طبيعة الشيخوخة تفتقر إلى القدرة على تجديد الأهداف، بل لأن الواقع الاجتماعى من حولهم يوحى لهم بأنه لا فائدة من تجديد الأهداف. لأن فترة الحياة الباقية قصيرة، ولأن المستقبل الضئيل المتبقى محفوف بالظلام ويطرد فى الضعف والذبول وفتور الهمة .

ومن الطبيعى أن الافتقار إلى تقدير الذات أو نقص تلك القيمة وتدهورها ينعكس على ملامح الشخص وعلى وقفته وجلسته وكلامه وملامح وجهه، بل إنه ينعكس أيضا على تعامله مع الناس، فهو فى معظم الحالات ينصرف عن إقامة علاقات جديدة مع غيره، ويتخذ موقف المتفرج على من يحيطون به من أشخاص . ولقد يكون تركيز الشيخ على ذكرياته الماضية صدى لنقص تقدير الذات . فهو إذ يحس بضآلة حاضره، فإنه يحس فى نفس الوقت بالمقارنة بعظمة ماضيه . ولقد يعمد الشيخ إلى التركيز على ماضيه وإبراز مفاخره لتغطية ما هو عليه حاليا من تدهور فى نظره . فهو إذ يحس بالنقص بإزاء ما عليه حاضره، فإنه يعمد إلى تعويض نفسه عن هذا النقص بإضافة الماضى إلى الحاضر لعله يخرج من تلك الإضافة بمحصلة تقنع الناس من حوله بعظمته فى الجملة، وتعلق الشيخ بماضيه لا يتركز حول ذاته فحسب، بل وحول من كانوا معه فى الطفولة والمراهقة والشباب فهو يغلف الكثير من الشخصيات الذين كانوا يتواكبون معه خلال مراحل عمره المتعاقبة بغلاف من التقديس والاعجاب، وحتى بعض الذين كانوا يناهضونه أو يضايقونه من الأطفال والمراهقين والشباب فى طفولته ومراهقته وشبابه يحظون الآن بإعجابه وقد أخذ يصفح عن أخطائهم نحوه، كما أخذ يحل الإعجاب بهم محل

النقمة عليهم . فهو يتجاوب معهم فى خياله وقد أخذ يؤكد محاسنهم غاضا النظر عما كانوا يكيدون به له.

والواقع أن توجيه العاطفة إلى المراحل الأولى من العمر يعد اعتزازا من جانب الشيخ بالمراحل التى كان فيها فتيا قويا ومتقدما إلى الأمام بسرعة. ولكن إذا كان الشيخ ممن لهم نشاط جم فى شيخوختهم، فإن عاطفته لا تلتف عندئذ حول تلك المراحل العمرية الباكرة، بل يكون اهتمامه الوجدانى بحاضره أكثر من اهتمامه بماضى طفولته. ولكنه لا ينأى عن الاغتراف من تلك الفترات لدعم حاضره، بل لإظهار مفاخر الحاضر فى صورة رائعة. فهو يريد أن يقول للناس من حوله إن عظمة الحاضر ترتبط بعظمة جهاده فى الماضى.

والواقع أن إضفاء العظمة على جيل الأطفال أو على جيل المراهقين أو على جيل الشباب الذين واكبهم الشيخ خلال مراحل حياته، إنما هو فى الحقيقة ذريعة نفسية لإضفاء العظمة على نفسه. فالشيخ الذى يقول للناس من حوله «إن جيلنا كان جادا وكان يعرف قيمة الوقت وكان دءوبًا على العمل ووافر النشاط وهماما»، إنما يكون بذلك – وفى نفس الوقت مشيرًا إلى نفسه ولكأنه يقول «إنى كنت جادًا ومقدرًا لقيمة الوقت ودءوبًا على العمل كما كنت وافر النشاط وهماما». ومن الطبيعى أن المنطق النفسى الذى يتذرع به الشيخ فى درج نفسه فى فئة موسومة بهذه الصفات العظيمة، لما يقنع المستمع بما يريد الإقناع به بطريق غير مباشر.

ومن الحالات العاطفية التى ينخرط فيها الكثير من الشيوخ حالات الحب والوله ببعض الشابات أو حتى ببعض المراهقات الصغيرات، ولا يكون ما يحملونه من حب بأقل هياما وتأريقا لهم مما يعتور حياة الشاب الولهان أو المراهق الذى أحس لأول مرة بالحب يغمر حياته. ذلك أن الشيخوخة – وإن كانت فى كثير من الأحيان تفتقر إلى الحيوية الجسمية – فإنها لا تفتقر بحال إلى خصوبة العاطفة. فالشيخ الولهان يكون جياش الوجدان نابه العاطفة، وحتى إذا كان مما يضحك أن ترى شيخا يهيم بحب فتاة صغيرة، أو أن ترى شيخة لا تنام الليل بل تظل فى أرق بسبب حبيب استولى على قلبها من عمر أبنائها، فإن الواقع أن الحب فى جوهره حنين وانجذاب قبل أن يكون قوة جنسية تتصل بالأعضاء التناسلية. ولذا فإن

الشيوخ من الرجال والنساء قد يتعرضون لحالات من الحب يزيدها ألما وجيشانا استنكار القيم الاجتماعية فى الغالب لها، بل إنها تكون مدعاة لسخرية واستهزاء من يلاحظون أعراض ذلك الحب واعتماله فى نفوسهم.

وأخيرًا لا ننسى ما ينتاب الشيوخ من نوبات الحنين إلى بعض الأحياء الذين سبقوهم إلى دار الآخرة. لقد ينخرط الشيخ فى بكاء عميق وقد امتلأ قلبه بالحنين الشديد إلى عزيز مات منذ سنوات كثيرة. ولقد تمتلك تلك النوبات مقاليد الشيخ بحيث تتورم عيناه من كثرة البكاء، مما يحمل من حوله إلى الاعتقاد بأنه قد اختل لأنه قد مرت مدة طويلة على وفاة ذلك الشخص الذى يبكيه.

الخصائص العقلية واللغوية :

ليس هناك شك فى أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين تطور حالة المخ وبين تطور التفكير واللغة لدى الإنسان . ذلك أن المخ هو جهاز التفكير. ولكن ينبغى ألا ننساق وراء التطرف فنزعم أن من صح مخه لابد أن يفكر تفكيرًا سديدًا. فالواقع أن هناك عاملين أساسيين تتحدد متانة التفكير فى ضوئهما: العامل الأول - هو سلامة المخ باعتبار أنه جهاز التفكير، ثانيا - مدى ما تلقاه ذلك الجهاز من خبرات عقلية. ذلك أن هذا الجهاز لا يعمل بداءة كما تعمل الآلة الكاتبة، بل يعمل بواسطة الخبرات العقلية المتفاعلة بعضها مع بعض بالطريقة التراكبية التى سبق أن أشرنا إليها فى هذا الكتاب. فتشبيه المخ بالآلة تشبيه خاطئ، والأفضل أن نشبه المخ بالكائن الحى الذى ينمو بالطريقة التفاعلية التراكبية.

ومعنى هذا فى الواقع أن الإنسان يتعرض للتدهور العقلى إذا ما تعرض لعامل من عاملين، أو للعاملين جميعا. العامل الأول - ما قد يتعرض له المخ من عطب أو ما قد يصاب به من حوادث، أو ما قد يشوبه من ضمور. أما العامل الثانى - فهو النقص فى تغذية المخ بالخبرات الجديدة، أو عدم تفاعل الخبرات المقدمة إلى المخ مع آخر مستوى نمائى وصل إليه، أو تقديم معلومات زائفة أو غثة إلى المخ، أو عدم تدريبه على منهج التفكير السليم، أو تدريبه على القيام ببعض العمليات العقلية وإهمال عمليات عقلية أخرى أساسية، كأن يدرب المخ على التذكر ولا يدرب على التخيل.

ويمكن أن نضيف إلى هذين العاملين الأساسيين عاملاً ثالثاً لا يمكن التقليل من خطورته هو العامل الوجدانى الانفعالى. فإذا ما أصيب الشخص بصدمة عاطفية مفاجئة أو إذا أصيب بحالة من الذعر أو بعقدة نفسية تعيق تفكيره أو تنسيه ما سبق أن حصله من معرفة، فإنه فى مثل تلك الحالات لا تقع إصابات عضوية بالمخ، بل إن الإصابات أو الاعوجاجات التى تعتور العمليات العقلية تعد من قبيل الاعوجاجات أو الاصابات الوظيفية. فقد يصاب أحد الأشخاص المتعلمين بمرض نفسى يحول بينه وبين إجراء أبسط العمليات الحسابية. وإذا ما فحص مخ ذلك الشخص فإن الأطباء لا يجدون أية إصابة وقعت بالمراكز المسئولة بالمخ عن إجراء العمليات الحسابية. وعندئذ يتجه تفسيرهم إلى الناحية الوظيفية بدلا من اتجاههم إلى الناحية العضوية. والشأن هنا كالشأن فى حالة وقوع حادثة لإحدى السيارات. فيكون هناك تفسيران إذا ما استبعدنا العوامل الخارجية. التى يمكن أن تكون قد تدخلت فى وقوع الحادث: التفسير الأول- يتعلق بتركيب السيارة نفسه، والتفسير الثانى ينصب على سائق السيارة. والتفسير الوظيفى لأخطاء التفكير يمكن تشبيهه بتفسير الحادث الذى يقع للسيارة فى ضوء خطأ صدر عن قائدها.

وما يقع فى الشيخوخة من ضعف أو خطأ فى التفكير أو اللغة إنما يرتد إلى واحد من هذه الأسباب الثلاثة أو إلى اثنين منها أو إلى الأسباب الثلاثة جميعًا. فقد يحدث عطب التفكير نتيجة ضمور خلايا المخ أو بسبب حدوث مرض به أو إصابته بحادث، وقد يرجع عطب التفكير إلى سوء تغذية المخ بالخبرات المعرفية الخبرية، وأخيرًا قد يرجع عطب التفكير إلى بعض الصدمات العاطفية أو الانفعالية.

وبالنسبة للسبب الأول فى ضعف التفكير وهو حدوث عطب بالمخ، فإننا نجد هناك أيضًا عوامل مساعدة أو قنوات موصلة تربط بين العالم الخارجى وبين المخ. تلك القنوات تبدأ بخمس محطات استقبال هى الحواس الخمس، وتلك المحطات ترتبط بالمخ بواسطة أسلاك دقيقة جدًا هى الأعصاب الموردة afferent . وفى المخ - وبالذات فى مراكز الإدراك المتعلقة بالحاسة المعينة - تجد تلك الشحنات العصبية المنقولة من تلك الحاسة إلى مركز الإدراك الخاص بها معنى عقليا .

وبهذه الطريقة يفهم الشخص العالم الخارجى المحيط به. وتعرف عمليتا الإحساس وترجمة الاحساس بعملية الإدراك. فالإدراك إذن هو العملية المركبة التى من شأنها تحويل المحسوس إلى معقول.

وطبيعى أنه إذا ما حدث خلل أو ضعف فى إحدى محطات الاستقبال الخمس - أى فى إحدى الحواس الخمس - فإن التيار العصبى المورد ينقل شحنة عصبية شائهة أو ضعيفة، وبالتالى فإن مركز الترجمة فى المخ يقدم صورة شائهة عن العالم الخارجى، أو ينقل صورة ضعيفة عنه. ونحن نعلم أنه فى الشيخوخة تضعف بعض الحواس وعلى رأسها حاستا الإبصار والسمع، وبالتالى فإن صلة الشخص بالعالم الخارجى تأخذ فى الضعف . ولكن من المعروف أيضًا أن الحضارة البشرية قد استطاعت أن تعوض الشيوخ عن هذا الضعف بالنظارات لتعويض العينين عما أصابهما من ضعف فى النظر، وبالسماعات لتعويض الأذنين عما أصابهما من ضعف فى السمع.

ولقد يكون الخلل واقعًا فى مركز الترجمة نفسه بالمخ، إذ تكون الحواس سليمة والأعصاب الموردة أيضًا سليمة، ولكن يكون مركز الإدراك بالمخ ضعيفًا أو به خلل ما يحول دون إدراك العالم الخارجى إدراكا دقيقا أو إدراكا صحيحا . وفى الشيخوخة يمكن أن يصاب أحد مراكز الإدراك بالمخ بالضعف أو بالعطب، فيصير الشخص غير قادر على الإدراك السديد.

ولكن من حسن الحظ أن المخ البشرى يتغذى بطريقتين: طريق خارجى عن طريق استقبال المحسوسات التى تستحيل إلى مدركات عقلية، وطريق داخلى حيث تحدث تركيبات عقلية جديدة بواسطة استخدام المدركات العقلية من جهة يتلوها حدوث تركيبات عقلية بين التركيبات العقلية الناتجة، ثم تركيبات من مستوى ثالث ومن مستوى رابع ومن مستوى خامس... إلخ من التركيبات العقلية الناشئة عن حدوث علاقات تركيبية بين التركيبات العقلية المتأتية.

وعلى الرغم من أن هذه التغذية الأخيرة تنشأ أصلا عن التغذية الحسية التى تأتت للشخص بادئ ذى بدء، فإنها تعتبر نوعا مستقلا من الطاقة الداخلية، وذلك لأنها تكون بمثابة انبثاق داخلى من صميم الجهاز العقلى للشخص.

فعالم الرياضيات مثلا لا يرتكز ففى تفكيره الرياضى على المعطيات الحسية بطريق مباشر كما هو الحال بالنسبة لشخص يقوم بعد أشياء موضوعة أمامه مباشرة. إنه قد يحل الأرقام محل الأشياء، ثم قد يصعد أو قد يمعن فى التجريد فيحل الحروف محل الأرقام، ثم قد يزيد إمعانه فى التجريد فيحل الفئات محل الحروف، وقد يصل به التجريد إلى حد استخدام أشكال أو رموز أكثر تجردا وبعدا عن الواقع المحسوس، ونفس الشىء يقال بالنسبة لعالم المنطق الذى يبعد عن الكلام العادى الذى يتناقله الناس ويضرب بسهم بعيد المدى أو قريب المدى فى عالم الرموز والمجردات.

ومن الطبيعى أن الشيخ إذا كان لديه جهاز معرفى داخلى له قوامه القوى المستقل، فإنه يكون قمنا بتعويض نفسه عما يكون قد ألم بحاسة أو أكثر من حواسه الخمس من ضعف أو عطب، وبالتالى يكون الوارد إليه من مدركات عن العالم الخارجى أقل وأضعف وأقل دقة من ذى قبل أى قبل الشيخوخة. وهناك فى الواقع من يزعمون أن اعتماد الشخص على المدركات الحسية، ودون محاولة تشغيل الجهاز المعرفى المستقل لديه، إنما يؤدى إلى ضعف هذا الجهاز المعرفى الداخلى المستقل . وبتعبير آخر فإن أولئك الناس يزعمون أن هناك ما يشبه التعارض بين الإدراك الحسى وبين التأمل العقلى. والواقع أن هذا الزعم فيه شىء من الصحة، إذ إن الناس الذين يوجهون جل همهم إلى المدركات الحسية ويقصرون فى حق أنفسهم فى التأمل العقلى، فإنهم لا يكونون لأنفسهم جهازا معرفيا مستقلا قائما بذاته وغير مرتبط بالوقائع الحسية ارتباطًا مباشرا.

والواقع أن الشيخ الذى كون لنفسه جهازا معرفيا داخليا مستقلا يمكن أن يستغنى إلى حد بعيد عن الواردات الجديدة من المدركات الحسية، وهنا نذكر ما وقع لبيتهوفن (ولم يكن قد بلغ الشيخوخة بعد) من فقد لحاسة السمع، وما تبع ذلك من استغنائه عن المدركات السمعية الجديدة وارتكازه أولا وأخيرا على التصورات السمعية المختزنة لديه، وعلى قدرته على إقامة علاقات دقيقة وغزيرة بين تلك المقومات السمعية المعتملة فى ذهنه، فوضع أعظم سميفونياته وهو فى

حالة من الصمم تام. ونذكر أيضًا ديكارت الذى انسحب عن العالم الخارجى واستطاع فى خلوته أن يضع أهم أعماله وهو «مقال فى المنهج».

وعلى الرغم من أن الشائع فى الأذهان هو أن الشيوخ ضعاف الذاكرة، فإننا نستطيع القول بأن هناك ذاكرات متعددة لا ذاكرة واحدة فحسب، وأن بعض الذاكرات تضعف لدى الشيوخ دون باقى الذاكرات. فذاكرة الأسماء تضعف لديهم باستثناء الأسماء التى لها دلالة وجدانية فى عاطفة الشخص المسن. ولعل ذاكرة الوقت وذاكرة الأرقام أيضًا تضعفان إلى حد ما فى الشيخوخة، ولكن ذاكرة الطفولة، أعنى الأحداث والأشخاص المرتبطين بذهن الشيخ فى عهد الطفولة - بل وفى عهد المراهقة والشباب - تزداد قوة . فالشيخ يذكر بالتفصيل أشياء وقعت له فى الطفولة وكان قد نسيها لفترة طويلة، ولكنه يجد نفسه - وقد طعن فى السن - يذكر تلك الأحداث بدقة، بينما يكون قد نسى الأشياء التى وقعت له منذ لحظات وقد ينسى الشيخ الوقت والتاريخ والأماكن التى وضع بها الأشياء أو التى كان فيها منذ لحظات أو الشخصيات التى قابلها .

وهناك تفسيران لما يعتور الشيوخ من فقدان نسبى للذاكرة : التفسير الأول يذهب إلى الزعم بأن ذاكرة الشيخ تكون قد ضعفت، والتفسير الثانى يذهب إلى القول بأن اهتمام الشيخ ينسحب من العالم الخارجى ومن متعلقاته إلى نفسه. فهو لا ينسى بمعنى امحاء ما كان بذاكرته راسخا، بل ينسى بمعنى تغلب اهتمام عقلى ما على اهتمام عقلى آخر، بدليل أنك إذا اختبرت ذاكرة الشيخ بتؤدة وأناة فإنك سوف تقف على أنها لم تفقد شيئًا مما استوعبته وأنها ما تزال تحتفظ بما ورد إليها من معلومات تتعلق بالعالم الخارجى.

أما عن خيال الشيخ فهو قوى وغير مشوب بالضعف . فالشيخ يسبح بخياله فى الأشياء التى سبق له اختزانها. وفى نفس الوقت فإن الشيخ يستطيع أن يركب صورا خيالية متعددة من المحصول الخبرى الحسى الذى سبق له أن حصل عليه. ناهيك عن أن الشيخ يستطيع أن يركب صورا خيالية متعددة ومركبة للغاية من الصور الخيالية التى يكون قد ركبها قبلا. ولعل السبب فى أن الشعراء والأدباء وكتاب القصص لا ينتجون بنفس الكم وبنفس الجودة التى كانت متوافرة لهم قبل

الشيخوخة لا يتعلق بضعف الخيال، بل يتعلق بأشياء أخرى كضعف البنية والعوامل الوجدانية كانحطاط الهمة والإحساس باليأس أو بعدم تشجيع المحيطين بهم لهم، أو بسبب عدم قدرتهم على الوقوف على آراء الناس فيهم بسبب انقطاعهم عنهم إلى غير ذلك من أسباب جسمية ونفسية واجتماعية. أما الزعم بأن الخيال ينضب فى الشيخوخة بدليل أن لغة الشيخ تأخذ فى النضوب، فإننا نقرر عكس ذلك ونقول أن لغة الشيخ المثقف تكون قد تنقت وتبلورت، وأن بطء الشيخ فى التعبير اللغوى إنما يرجع إلى شدة كلفه بالانتقاء والحذر من الزلل فى الخطأ فى أثناء الكلام.

العلاقات الاجتماعية :

ترتبط العلاقات الاجتماعية التى ينخرط فيها الشيوخ بناحيتين أساسيتين: الناحية الأولى التكوين النفسى الداخلى للشيخ، والناحية الثانية الظروف الاجتماعية المحيطة بالشيخ والإطار الاجتماعى الذى يندرج فى نطاقه. ولقد سبق أن أكدنا أن الظروف الاجتماعية الراهنة التى يجبر الشيوخ على الخضوع لضغوطها لها أكبر الأثر فى دخيلة الشيخ ،بمعنى أن الداخل يتأثر بالخارج ويصير بمثابة مرآة عاكسة إلى حد بعيد للأحوال الاجتماعية وللفلسفة الاجتماعية التى يأخذ بها المجتمع بازاء الشيوخ. ولكننا أكدنا أيضا أن هذا الضغط الخارجى لا يعمل على محو الكيان النفسى الداخلى المستقل للشيخ. وبتعبير آخر فإن الضغوط الخارجية لا تعمل بالضرورة على محق الداخل وجعله مجرد صورة مطابقة للخارج. وشاهد ذلك تلك المقاومة الداخلية التى تستمر معتملة فى دخيلة الشيخ بحيث تشكل ما يمكن اعتباره صرخة احتجاج على المجتمع الذى يشكل ضغوطا غير عادلة تثقل بكلكلها على أنفاس الشيوخ.

والواقع أن المجتمع الذى نستظل بظله – وهو المجتمع العربى – لم يحدد بعد فلسفة واضحة جلية الملامح بإزاء الشيخوخة . صحيح أن هناك كثيرا من المحاولات فى مجال لقمة العيش تبذل لتوفير حياة كريمة للشيوخ، ولكن لقمة العيش ليست كل شىء من جهة، كما أن هناك جوانب أخرى اجتماعية لا تقل أهمية عن الجانب المادى من جهة أخرى. وحتى بالنسبة للناحية المادية فيمكن القول بأن ثمة

أشواطا كثيرة يمكن أن تقطع فى سبيل تحقيق العيش الكريم لكل شيخ على أرض البلاد بغير أن يكون بحاجة إلى مد يده إلى أبنائه أو إلى غيرهم يستجديهم، وبغير أن يضطر إلى النزول عن المستوى الاقتصادى الذى اعتاد أن يعيش وفقه.

فبالنسبة للموظفين بوجه عام، فإن ما يتقاضاه الواحد منهم بعد بلوغ سن الستين أقل فى الواقع مما كان يتقاضاه وهو فى الخدمة. أضف إلى هذا أن القوة الشرائية للجنيه آخذة فى الانخفاض . وللإيضاح نقول إن الموظف الذى أحيل إلى المعاش منذ عشر سنوات وحدد معاشه بخمسين جنيها فى الشهر كان يجد أن ذلك المبلغ يكفيه نسبيا وقتئذ للعيش فى وفرة ورخاء. ولكن نفس هذا المبلغ - وهو الخمسون جنيها بلا زيادة - قد انخفضت قيمته الشرائية بحيث صار ذلك الموظف الموجود بالمعاش يحس بأن معاشه لم يعد يكفيه إلا إذا هو التزم بالتقشف فى حياته والضغط على مصروفاته (*).

ولسنا هنا بصدد دراسة مشكلة القوة الشرائية للجنيه، بل بصدد ما يترتب على وضع مثل هذا الموظف على نفسيته. إنه بلا شك يأخذ فى ضغط علاقاته الاجتماعية حتى يستطيع ضغط نفقاته . ذلك أن العلاقات الاجتماعية تحتاج إلى نفقات. فهو إذا جلس مع صديق بأحد المقاهى فلابد أن يجامل ذلك الصديق بما يقدمه إليه من مشروبات على نفقته الخاصة. ناهيك عن التدخين إذا كان من المدخنين. فهو لابد أن يوزع السجائر على أصدقائه. ولكن ما العمل وليس فى ميزانيته وفر إلا ما يكفيه هو لشراء السجائر لنفسه فقط دون غيره من الأصدقاء؟ إنه إما أن يظهر بمظهر البخيل أو بمظهر الفقير المعوز، وإما أن يهرب من العلاقات الاجتماعية المكلفة - بل والمثقلة - على جيبه.

ولكن الواقع أن الشيوخ فى مجموعهم قد استطاعوا أن يتوصلوا إلى حل ناجع بإزاء هذه المشكلة أو هذا الموقف الحرج، وذلك بأن يتكفل كل واحد منهم بنفسه لدى التئام الشمل والجلوس معًا بالمقهى أو النادى. وطبيعى أن الطيور على أشكالها تقع. فكل صاحب معاش من الشيوخ لا يجالس سوى الشيوخ من أصحاب

(*) شكرًا للدولة لأنها تعمل على زيادة المعاشات باطراد، ولم يعد المعاش ثابتًا بلا زيادة.

الدخول المقارية لدخله. والواقع أن لدى الشيوخ ميلا شديدا إلى الالتئام بعضهم مع بعض فى جلسات يتجاذبون خلالها أطراف الحديث، وبالتالى فإنهم يقضون وقتا ممتعا يحسون خلاله بالحياه تتجدد من خلال الأحاديث المتجددة، والأخبار المتدفقة والآراء المتبادلة والدعابات والمجاملات التى تدخل البهجة على النفس وتشيع الارتياح فى الأعصاب. وطبيعى أن الشيخ عندما يخرج من منزله إلى حيث الاجتماع الذى يلتئم فيه مع أنداده الشيوخ فإنه يخرج من إطار الأسرة الضيق إلى حيز الرحابة والتغيير والتجديد النفسى والاجتماعى.

وفى تلك الاجتماعات ينتحى الشيوخ غالبا إلى الألعاب المسلية التى لا تحتاج إلى كثير من الجهد الذهنى، والتى تعتمد على جانب من الحظ وجانب من المرانة. وتجد فى مجموعة الشيوخ من يبدون اهتماما بأن يشاهدوا مباراة حامية الوطيس بين لاعبين شهيرين من الشيوخ. ولقد ينتحى شيخان إلى جانب من المقهى ليتبادلا أطراف الحديث، بيد أن الغالبية العظمى من الشيوخ لا يبدون اهتماما بأخبار الآخرين إلا بالنسبة لمناح معينة أهمها أخبار الذين رحلوا إلى الآخرة وأخبار المرض والصحة وأخبار الأبناء والبنات ومجموعة من الأخبار العامة التى تقع فى نطاقهم كالأخبار التى تتعلق بالمواصلات والتليفزيون والإذاعة والأحداث السياسية الهامة والأسعار ومشكلة الإسكان إلى غير ذلك من أخبار تجذب انتباههم وتهمهم بطريق مباشر.

والواقع أن الغالبية العظمى من الشيوخ لا يحبون الانخراط فى المجادلات، وذلك لأن الواحد منهم يكون قد تبلور فكره وتحددت آراؤه بصدد الموضوعات المطروقة، فلا يكون لديه أدنى استعداد للتنازل عن رأيه أو تعديله. فإذا احتدمت مناقشة بين شيخين، فإنها تنتهى بسرعة وكل منهما ما يزال عند النقطة التى بدأ منها النقاش. وحتى إن أبدى أحدهما الموافقة على رأى الآخر فإنها لا تكون سوى موافقة ظاهرية بينما يكون مصرا على موقفه الذى اتخذه منذ اللحظة الأولى للمناقشة.

وينتحى الشيخ غالبا إلى المواقف الاجتماعية الهادئة التى لا تثير أعصابه. فهو لا يرغب فى مشاهدة المصارعات والمباريات العنيفة، كما أنه لا يحب الأماكن

الصاخبة، ولا المناظر المثيرة . إنه على الرغم من حبه لمشاهدة ما يجرى بالعالم الخارجى، فإنه لا يحب أن يصب وجدانه على ما يقع عليه بصره، بل يحب أن يتخذ موقف المتفرج، فهو يشاهد الهرج والمرج بغير أن يكون طرفا فيه وبغير أن يحس الآخرون أنه يتابع هرجهم ومرجهم.

والواقع أن الشيوخ يميلون إلى الإصغاء إلى مشكلات الآخرين، ولكنهم ينأون بصفة عامة عن عرض مشكلاتهم الشخصية على الملأ. وربما يرجع ذلك إلى شعورهم باليأس من حل مشكلاتهم، أو لأنهم يحسون بأن كرامتهم تحول دون ذلك. ولكن عندما يفيض الكيل وتتأزم حالتهم النفسية، فإنهم يأخذون فى التشكى لكل من يقابلهم ويخرجون ما فى جعبتهم من أسرار عائلية، بل إنهم قد يشهرون بأبنائهم وبناتهم، ولا يضعون حدًا فاصلا بين ما ينبغى أن يقال وما ينبغى أن يظل فى طى الكتمان .

والغالبية من الشيوخ يميلون إلى التخفيف عن الآخرين بالإصغاء إلى ما يعتور نفوسهم من مضايقات، وما يصادف طريقهم من مشكلات . ويمتاز معظم الشيوخ بروح التجاوب والتناغم مع الأبناء والبنات والأحفاد فى السياق الوجدانى الذى ينخرطون فيه، ولقد لا يتخذ الشيخ موقف الناصح بتجاه الشباب خوفا من رفض ما ينصح به والنأى عن مشورته، ومن ثم فإن الكثير من الفساد الذى يلحق بالناشئة قد يرجع إلى شيخ أو شيخة بالأسرة كانت تشجع الناشئ على الحديث عما بدأ فيه من نشوز فى حياته أو فى مسلكه مع الآخرين بغير أن تبدى استياء مما لا يروقها فيما يقال .

ومن الملاحظ أيضًا أن معظم الشيوخ يضيقون ذرعا بالأطفال، ولا يحبون مواصلة الحياة معهم، وإن كانوا ينبهرون بجمال وخفة دم بعض الأطفال ولكن انبهارهم لا يستمر إلا بضع دقائق يبدأون بعدها فى التضجر مما قد يبديه الطفل من عبث أو عندما يوسخ ملابسه أو يحطم الأشياء من حوله أو يلحق أضرارًا بالمنقولات أو عندما يغير نظام الحجرة التى يوجد بها أو عندما ينخرط فى البكاء أو يتشاجر مع غيره من أطفال. ويبدو ضيق الشيوخ بالصغار فى صيغ متباينة. فمن الشيوخ من ينحى باللائمة على الوالدين لأنهما لم يجيدا تربية طفلهما، وقد

يقومون بعقد مقارنات بين طفولة أبنائهم وبين هذه الطفولة المدللة المائعة، وكيف أنهم كانوا يحسنون التربية بينما لا يعرف آباء وأمهات هذا العصر كيف تكون التربية فلا يستطيعون تحديد الضوابط السلوكية أو وضع الطفل عند حده الذى ينبغى ألا يتعداه.

وينتحى الكثير من الشيوخ منحى رتيبا فى حياتهم اليومية. فهم يخضعون لروتين يومى لا يكاد يختلف فى غالبية الحالات من يوم إلى آخر. ولكن بعض الشيوخ ينظمون حياتهم بحيث يكون الروتين اليومى الذى يلتزمون به روتينا خصبا ومتنوعا، فتكون حياتهم مفعمة بما يبهج وبما يزيل الهم من القلب وبما يجعل الملل لا يعرف إلى النفس سبيلا. والواقع أن الشيخوخة تشبه الطفولة إلى حد بعيد فى هذا الصدد. فالطفل يحب أن يسوق حياته وفق نمط واحد كل يوم بحيث يسلك وفق روتين منضبط لا يحيد عنه. ولكن من المؤكد أن ما يدفع بالطفل إلى انتهاج روتين ثابت يختلف عما يدفع بالشيخ إلى هذا المسلك، فالطفل ينخرط فى روتين لأنه يفتح عينيه على الحياة ويريد أن يرسخ فى نفسه مجموعة من العادات ويمرن نفسه على مجموعة من المهارات التى لم يكن لها أن تثبت وتترسخ إذا لم يتابعها بكثرة المواظبة وبالضرب فى طريقها بغير حيد عنها قيد أنملة. أما الشيخ فإنه يميل إلى انتهاج روتين يومى واحد لسبب آخر هو الرغبة فى الحياة المريحة، لأنه لا يجد فى نفسه الطموح ولا الطاقة على أن يجدد فى سلوكه أو أن يتمرن على أنماط سلوكية جديدة. ومن هنا فإنه يختار لنفسه مجموعة من المواقف والعمليات والمناشط التى تريحه والتى لا يجد فى أدائها غضاضة أو مشقة فيلتزم بها .

بيد أن الشيخ فى نفس الوقت يحب أن يشجعه من حوله على الخروج من ذلك الإطار الروتينى اليومى الذى حبس نفسه فيه، وذلك بإدخال عناصر جديدة فيها شىء من المفاجآت الساره بشرط ألا يتكلف فى ذلك ما يشق عليه النهوض به، أو ما يحمله من الأعباء المادية أو الجسمية ما لا طاقة له به. فإذا ما حمله من حوله على الخروج معهم فى نزهة بعيدة عن البيت أو السفر بعيدا فى مصيف أو على ظهر باخرة تطوف به العالم، فإنه يشعر عندئذ بأن حياة جديدة قد فتحت أمامه، وقد أخذ الأمل يطل من جديد على واقعه ويشرف على حياته . ولكن من

المؤكد أن الشيخ فى حاجة على من يأخذ بيده ويشجعه على كسر حدة الروتين اليومى ويخرج به عن نطاقه إلى نطاق جديد حيث يشرف على أطرٍ سلوكية جديدة ويتنسم نسيما جديدا غير الهواء الراكد أو شبه الراكد الذى اعتاد أن يستنشقه كل يوم.

والواقع أن مما يجعل الشيخ محجما فى الغالب عن كسر الروتين واستشراف حياة جديدة هو أنه يحس بالنقص نتيجة الضعف البدنى الذى بدأ يدب فى أوصاله، كما يعود ذلك الإحجام إلى نقص الموارد المالية فى كثير من الحالات، وإلى إهمال من حوله له وعدم اهتمامهم بضرورة إدخال الجدة إلى رحاب حياته، بل قد يرجع إلى التقاليد الاجتماعية وإلى فلسفة المجتمع التى تسقط الشيوخ من حسابها وتجعل منهم كمًا مهملا ينتظر فى القائمة ليطويه الزمان ويخرجه من رحاب الحياة.

الصحة النفسية :

لقد ارتبطت الشيخوخة فى أذهان كثير من الناس بالمرض الجسمى والمرض النفسى، مع أن الواقع – كما سبق أن أكدنا – أن مرحلة الشيخوخة – شأنها شأن أية مرحلة أخرى من مراحل العمر عرضة للصحة والمرض، وعرضة للقوة والضعف. أما ما يشيع فى معظم حالات الشيخوخة من انحراف عن الصحة السليمة إنما يعود إلى إهمال الشيوخ من جانب المجتمع من جهة، وإلى النتائج المترتبة على ثغرات صحية نشأت بالمراحل السابقة ولم يسارع الشخص إلى سدها من جهة أخرى، فكأنت ثمارها هى تلك الصحة المتداعية فى الشيخوخة. ولقد أكدنا ذلك فى ضوء التغير التفاعلى التراكبى للشخصية الذى آمنا به ودافعنا عنه . ومعنى هذا أن المرض الجسمى والمرض النفسى ليسا قدرًا كتب على الشيخوخة. وإذا كنا نسلم بأن الموت هو قدر كتب على الإنسان قبل الشيخوخة أو بعدها، فإننا لا نؤمن بأن المرض فى الشيخوخة قدر لابد من وقوعه قبل وقوع الوفاة للشيخ. ومن الممكن – بل إن هذا حدث بالنسبة لشيوخ كثيرين – أن يعيش الشيخ فى صحة جيدة جدًا حتى توافيه منيته فجأة وبغير ارتماء فى أحضان المرض ولو حتى ليوم واحد.

وإذا كان هذا هو حال الصحة الجسمية، فإنه يصدق بالأحرى بإزاء الصحة

النفسية . وأبسط تعريف للصحة النفسية السوية هو القول بأنها تمتع الشخص بقوة العقل وسلامة القلب واتزان الوجدان والخلو مما يشذ عن سلوك الناس الأسوياء ويخرج بالشخص عن المألوف أو المنطقى فى السلوك الوجدانى والسلوك العقلى والسلوك التصرفى. فالصحة النفسية بهذا المعنى تنخرط تحت الشائع والعام. ولكن هذا لا يكفى فى الواقع لتحديد معنى الصحة النفسية . فيجب مساندة هذا المفهوم بمفهوم آخر لا يقل عنه أهمية وصلابة وهو مفهوم تكيف الشخص للبيئة الاجتماعية من حوله. فالشخص المتمتع بالصحة النفسية السليمة هو ذلك الشخص الذى يستطيع أن يوائم بين سلوكه فى الداخل والخارج أعنى ما تعارف عليه الناس بالمجتمع بحيث يحقق أهدافه الشخصية من جهة والأهداف الاجتماعية العامة من جهة أخرى . ومعنى هذا أن الشخص الذى لا ينجح فى التكيف - إما بالخنوع والخضوع الأعمى لأهداف الناس من حوله، وإما بالتشبث بأهدافه الشخصية دون مراعاة لأهداف الناس - إنما هو شخص غير سوى من ناحية الصحة النفسية.

ولقد يلاحظ فى هذا التعريف الأخير أن هناك تداخلا شديدا بين الصحة النفسية وبين الصحة الأخلاقية، وهذا صحيح فى الواقع. ذلك أن الصحة الأخلاقية تنبنى على أسس الصحة النفسية ولكن العكس ليس صحيحًا . فكل ما هو أخلاقى هو نفسى، ولكن ليس كل ما هو نفسى أخلاقيا . خذ مثالا لذلك للإيضاح، الرجل الأنانى الذى يستأثر بكل شىء ولا يريد أن يعطى غيره أى شىء. إن مثل هذا الرجل ينال حكما أخلاقيا فى غير صالحه. وهذا الحكم الأخلاقى يتمشى فى نفس الوقت مع حكمنا عليه بأنه غير صحيح نفسيا . ففى حالة هذا الرجل تجد حكمين : حكما أخلاقيا بتجريم سلوكه، وحكما نفسيا بأن نفسيته معوجة. ولكن انظر فى المثال التالى لترى أن ما هو نفسى لا يكون بالضرورة أخلاقيا : رجل أصيب بمرض نفسى يجعله يحلم أحلاما مزعجة ينساها أو لا ينساها بعد أن يصحو من النوم وينصرف إلى عمله . فمثل تلك الحالة النفسية أو هذا السلوك الذى يسلكه الرجل فى الحلم - مهما كان - ليس مما ينال حكمًا أخلاقيا ولكنه ينال حكما نفسيا .

وهناك فرق بين الضعف النفسى وبين المرض النفسى فالشخص الذى تضعف ذاكرته أو الذى تضعف قدرته على الإبانة بعد أن كان خطيبا لوذعيا أو بعد أن كان محاضرا مبينا، إنما يكون قد أصيب بالضعف النفسى. أما الشخص الذى يصاب بالوساوس والأعمال القهرية أو الذى يصاب بالسرقة المرضية فإنه يكون قد أصيب بمرض نفسى.

وهناك فى الواقع ثلاثة أنواع من الأمراض النفسية : أمراض عصبية وأمراض عقلية وأمراض وجدانية. والأمراض العصبية هى تلك الأمراض السلوكية الناشئة عن خلل أو فساد أو مرض يكون قد أصاب الجهاز العصبى أو إحدى الغدد الصم، أو أى جزء من الجسم يؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر فى الأعصاب والجهاز العصبى. أما الأمراض العقلية فهى الأمراض التى تتصل بالعمليات المنطقية أو بجانب من جوانب التفكير أو الوظائف العقلية الأخرى كالتذكر أو التخيل أو التصور أو غيرها. وأخيراً فإن الأمراض الوجدانية هى تلك الأمراض التى تتصل بالقطاع الوجدانى من الشخصية، وإن كانت متلبسة بالتصرفات أو الكلام أو الإدراك أو العمليات العقلية الأخرى.

وهناك تداخل بين هذه الأنواع الثلاثة من الأمراض النفسية وعلاقات متشابكة بينها . وكذا فإن الإنسان فى أى مرحلة عمرية معرض للإصابة بنوع أو أكثر من هذه الأنواع الثلاثة من الأمراض النفسية . ونستطيع أن نرجع أسباب الإصابة بالأمراض النفسية بأضلاعها الثلاثة إلى واحد أو أكثر من الأسباب الآتية أسباب وراثية سواء كانت الوراثة مباشرة عن الوالدين أم كانت وراثة غير مباشرة عن الأجداد البعيدين ؛ أسباب ولادية تتعلق بالحوادث التى قد تصيب الطفل فى أثناء ميلاده أو تتعلق باصابته ببعض الأمراض نتيجة تلوث أو إصابة فى أثناء ولادة الأم له ؛ أسباب اجتماعية نتيجة الأحداث والمواقف والظروف الاجتماعية المحيطة بالشخص لمدد تطول أو تقصر. وأخيراً ؛ أسباب تتعلق ببنية الشخصية من حيث التفاعل والتراكب اللذان يتم كسبهما للشخصية .

وفى ضوء ما سبق نستطيع القول بأن الأمراض النفسية التى قد تصيب الشيوخ ليست نوعا واحدا من جهة، وأنها ترتد إلى سبب أو أكثر من جهة أخرى.

ومن الطبيعى أن تلك الأنواع من الأمراض النفسية التى ترتد إلى الوراثة لا يكون بإزائها حيلة إلى وقتنا هذا، ولكن قد يتسنى للعلم فى المستقبل أن يخضع المقومات الوراثية لإرادته(*) بحيث يشل حركة الإرثات الرديئة ويشجع ويدعم حركة الإرثات الجيدة. ولكن الذى لنا حيلة بإزائه ويجب أن نضع الخطة بإزائه هو تلك الأمراض النفسية التى تتأتى عن العوامل الاجتماعية والعوامل التى تتعلق بالبنية النفسية.

وتتلخص الخطة التى يجب وضعها فى ناحيتين أساسيتين : أولا - الوقاية من العوامل الاجتماعية الضارة ومن عوامل تركيب البنية النفسية بطريقة خاطئة، ثانيا- علاج الاعوجاجات النفسية التى نشأت بسبب وجود عوامل اجتماعية وعوامل نفسية أدت إلى حدوث تلك الاعوجاجات. ويتضمن هذا العلاج الذى نصبو إليه فرعين هما : أولا - منع استمرار تأثير العوامل الاجتماعية والبيئية الضارة، ثانيا - تحديد نقاط الخلل ثم وضع الخطة لعلاجها والبدء بتنفيذ العلاج.

وعندما يظهر اعوجاج نفسى فى سلوك أحد الشيوخ، فإن الموقف الذى ينبغى الانتحاء إليه هو البحث أولاً فى الأسباب العضوية. وبتعبير آخر يجب أن يبدأ التفسير بالناحية العصبية الجسمية. فإذا لم يجد الطبيب أسبابا عصبية جسيمة يرتكز عليها فى تفسيره للمرض النفسى، فعليه بعد ذلك أن يتجه إلى جهاز التفكير - أعنى المخ - ليبحث فى العلاقات الموجودة بين أجزائه ومقوماته، لا للوقوف على عطب محدد، بل ليبحث عن العلاقات الديناميكية التى يجب أن تتوافر بين أجزائه وأجهزته الفرعية. فإذا لم يعثر على سبب يشفى غليله فى التفسير فى هذا الجانب أيضًا، فعليه أن يلجأ أخيرًا إلى التفسير الوظيفى الوجدانى.

ومن أكثر الأمراض العصبية التى تشيع لدى الشيوخ والتى لها أسباب عضوية مباشرة أمراض الكلام والذاكرة وأيضًا الأمراض المتعلقة بالتآزر الحركى وما ينشأ عنها من أخطاء فى أداء الأعمال أو التقصير فيها وتأخر فى الكتابة أو الوقوع فى أخطاء الاملاء أو تداخل الحروف بعضها مع بعض. ولقد ترتد بعض

(*) هذا ما تم تحقيقه بالفعل بعد بزوغ هندسة الوراثة إلى الواقع العلمى والتطبيقى.

نوبات الغضب المفاجئة والاعتداء المباشر بالشتم والضرب إلى أسباب عصبية كحدوث تلف فى إحدى الغدد الصم أو فى أكثر من غدة من تلك الغدد.

ومن الأمراض العقلية السائدة بالشيخوخة ما يعرف بذهان الشيخوخة. وفى هذا المرض يفقد الشيخ قدرته على توفير الترابط المنطقى السديد فيما يقوله من كلام وفيما يأتيه من تصرفات. والواقع أن الغالبية العظمى من حالات ذهان الشيخوخة إنما ترجع إلى حدوث ضمور فى المخ بسبب عدم رعايته. ذلك أن الناس قد اعتادوا أن يفحصوا أجسامهم بكامل أجزائها ولكن معظم الناس لا يحاولون فحص المخ لتقويته أو لدرء أسباب الضمور قبل وقوعها.

أما الأمراض الوجدانية الشائعة لدى الشيوخ، فهى أولا الوسواس. والوسواس عبارة عن فكرة ثابتة ملحة على عقل المريض . ولكنها فكرة مصحوبة بجيشان وجدانى، فقد يشك أحد الشيوخ فى أنه ربما يكون قد ترك باب الشقة مفتوحا، فيسارع بالقيام إليه للتأكد من أنه قد أغلقه. وإلى هذا الحد لا يعد هذا التصرف وسواسا. ولكن إذا ما عاد الشيخ إلى فراشه وبعد دقائق معدودة يلح عليه نفس الخاطر بأنه ربما لا يكون قد أحكم غلق الباب، فيقوم إليه للتأكد من تمام إغلاقه فإن هذا يعتبر عندئذ وسواسا. وطبيعى أن الوسواس من هذا القبيل لا يترك الشيخ المريض به فى راحة، بل يطارده طوال الوقت بحيث لا يكون له عمل طوال الليل سوى الذهاب بين السرير وباب الشقة للتأكد من أنه قد أحكم غلقه.

والمرض الثانى الشائع لدى الشيوخ من بين الأمراض الوجدانية التى تشيع لديهم هو مرض الأعمال القهرية. فتجد الواحد منهم مدفوعًا مثلا إلى عد أعمدة التليفون فى أثناء ركوبه القطار، بحيث لا يستطيع الحيلولة بين نفسه وبين هذا التصرف القهرى. وطبيعى أن الشيخ فى هذه الحالة لا يكون مرتاحا إلى سلوكه هذا، بل يأخذ فى التشكى من إلحاح العمل القهرى عليه ويطلب ممن حوله أن يخلصوه منه .

ومن الأمراض الوجدانية الشائعة أيضًا لدى الشيوخ الشك فى نيات الآخرين تجاههم. فيأخذ الشيخ فى اتهام أقرب الناس إليه بأنه لا يحبه وأنه يتمنى له الموت

أو بأنه يدبر لذلك مع الطبيب الذى يقوم بعلاجه. وقد يدفع به ذلك الشك إلى الامتناع عن تناول الدواء من يد أقرب الناس إليه، كما قد يقاوم الطبيب الذى يريد الكشف عليه أو إعطاءه حقنة.

وهناك أيضًا الخوف من الظلام والإصرار على إضاءة الشقة كلها وعدم ترك أى شبر فيها بغير إضاءة. وإذا ما حاول أحد أفراد الأسرة إطفاء النور وقد انخرط الشيخ فى النوم، فإنه سرعان ما يستيقظ ويصيح مطالبا بإضاءة الشقة معاتبا من أطفأه ومتهما إياه بمضايقته والتعنت فى معاملته أو التربص به حتى لا يجد إلى الراحة سبيلا .

وإذا كان الشيخ من الأغنياء فإنه كثيرًا ما يصاب بالشح المفرط سواء على نفسه أم على من حوله . فهو لا يريد أن يخرج من خزينته الزاخرة بالمال شيئًا يعالج به أو ينفق منه على راحته : وإذا ما أفهمه من حوله أنه يجب أن ينفق على صحته وأن مثل هذا الموقف يعرضه للموت ؛ فإن الضيق يأخذ بجماع شخصه ويأخذ فى إبداء السخط وقد يلوك ببعض الدعوات طالبا نقمة السماء من أناس طماعين يريدون سلبه ما يملك من مال وأن يرثوه فى حياته.

ولقد يفترى بعض الشيوخ على من حولهم بأنهم شتموهم أو ضربوهم أو حاولوا قتلهم. وقد يلجأ الواحد منهم إلى الجيران أو الأقرباء مستغيثا، بل إنه قد يؤذى نفسه بالعض أو القرص ثم يذهب شاكيا إلى المعارف والأقرباء مدعيا أن الابن أو البنت أو زوجة الابن أو زوج البنت هو الذى أوقع عليه ذلك الأذى. ومحاضر الشرطة مشحونة بالبلاغات الكاذبة المقدمة من شيوخ ضد المحيطين بهم، ولكن بالاستقصاء يتضح كذب وافتراء الشيوخ المرضى نفسيًا على من حولهم من أبناء وأقرباء لا يضمرون لهم سوى الخير والحب والشفقة.

★ ★ ★

الفصل الرابع

متاعب الشيخوخة

الأسرة الحديثة لا تحتمل الشيوخ :

لقد أدى ضيق الشقق الحديثة إلى نتائج اجتماعية خطيرة فيما يتعلق بمورفولوجية الأسرة، أعنى من حيث بنيانها العضوى . فبعد أن كانت الأسرة قديما تضم فى رحابها الأجداد والجدات والعمات والخالات وعددا من الشغالات، فإنها أصبحت لا تضم سوى الزوج والزوجة والأبناء والبنات، ونادراً ما تجد اليوم شغالة فى بيوت أوساط الناس . فالشقة العادية صارت اليوم لا تضم سوى ثلاث حجرات أو حجرتين وصالة . وبذا صار من غير الممكن تخصيص حجرة مستقلة للجد أو للجدة .

ومن الطبيعى أن كل تطور اجتماعى يظل محتفظا ببعض رواسب النظام السابق . وبالنسبة للأسرة الحديثة تجد أن بعضها ما يزال يضم فى ربوعه الجد أو الجدة . ولكن الغالبية العظمى من الأسر الحديثة تجد أنها صارت تنسلخ عن الأسرة الأم التى تظل مستقلة بشقتها ويظل بها الجد والجدة حتى الممات . وبالنسبة للأسر الحديثة التى تضم أحد الأجداد أو الجدات، فإنك تجد بها أيضا الكثير من المشكلات التى تنجم عن وجود الشيخ أو الشيخة فى ربوعها .

بيد أن ضيق المسكن ليس هو المشكلة الوحيدة التى تجعل الأسرة الحديثة لاتحتمل وجود الشيوخ فى نطاقها . فثمة مشكلة أخرى على جانب كبير من الأهمية هى مشكلة اشتغال المرأة وانخراطها فى ركب الحياة العملية وقضاء معظم الوقت خارج البيت . فاشتغال المرأة جعلها منصرفة عن خدمة غيرها بل إنها

بالكاد تستطيع النهوض بخدمة زوجها وأولادها فى أضيق نطاق ممكن . إنها تعود إلى البيت بعد انتهاء وقت العمل وهى مرهقة لا تستطيع التفرغ لخدمة شيخ تحس أنه عبء إضافى وغير طبيعى، ولم يكن لها أن تقع تحت كلكله .

ومن الطبيعى أن الشيخ فى مثل هذه الأسرة التى لا يجد سوى نفسه وحيدا من بين أفرادها فى المنزل جل النهار، يحس بأنه فى فراغ مميت، وأن الخدمة التى كان يرجوها لنفسه غير متوافرة له، كما أن الافتقار إلى حياة اجتماعية تملأ عليه مشاعره الاجتماعية إنما يضربه بالوحشة ويثير لديه نوعا من القلق على أمنه وسلامته . فماذا يكون حاله إذا هو احتاج فجأة إلى من يسعفه من أزمة قلبية مفاجئة، أو من يأخذ بيده إذا وقع فى ورطة أو مأزق أو تعرض لخطر من تلك الأخطار التى يتعرض لها كثير من الشيوخ كاشتعال النار فى ملابسهم أوالسقوط فى الحمام أو الاختناق بسبب غاز متسرب أو بسبب تعرض الشقة لسطو لص يعرف أنه لا يوجد بالدار سوى شيخ بلا حول ولا قوة . ناهيك عن الرعاية الصحية وتناول الأدوية فى مواعيد محددة أو أخذ حقنة قرر الطبيب أخذها عند ظهور أزمة صحية معينة .

والواقع أن المرأة العاملة ما تزال تحس بأن اشتغالها وإن كان حقاً لها، فهو إرهاق لها أيضا، بل هو عبء تشكو منه فى كثير من الأحيان، وهى تقضى بشىء من الندم لأنها اعتركت الحياة العملية الصعبة المليئة بالعقبات والمشكلات وجميع أسباب الإرهاق الجسمى والنفسى والعقلى والعصبى .

وهى بعد كل تلك التضحيات تجد شيخا أو شيخة قد أضيفت إلى نطاق الأسرة وعليها بعد كل ما تعانيه فى المواصلات والعمل أن ترجع إلى البيت لإعالته وإعانته والقيام على خدمته . وما يزيد الطين بلة أن خدمة الشيوخ لا ترتبط بمواعيد ينصرف بعدها الخادم إلى حال سبيله، بل إن خدمة الشيخ هى خدمة مستمرة مادمت إلى جانبه أو مادام هو يحس أنك موجود فى نطاق الشقة، أو أن هناك سبيلا إلى الاتصال بك . فطبيعة الشيخوخة تتسم بالإلحاح فى الطلب، وما يكاد ينتهى الشيخ من طلب شىء حتى يبدأ فى التفكير فى طلب شىء آخر. ولكأنه بالمداومة على مطالبة الآخرين بتلبية حاجاته أوإشباع رغباته يقوم بتذكيرهم بأنه

ما يزال على قيد الحياة، وأنه شخصية لها وضعها وأهميتها فى البيت، وهو يريد فى نفس الوقت أن يبرهن لنفسه أنه ما يزال الشخصية المحببة إلى نفوس الآخرين، وأنهم يتمنون إحراز رضائه والتسابق إلى تحقيق ما يشير إليهم بطلبه أو ما يبدى رغبة فى إحرازه، ولعله أيضا يلتمس المعاذير إذا رأى منهم تضررا وذلك بأنه فهمهم خطأ وأنه ما يزال فى واقع الأمر شخصية لها الوزن أكبر الوزن فى ربوع الأسرة .

والمهم هو أن زوجة الابن تحس بالتضرر الشديد إذا قامت بخدمة والد الزوج أو والدته وإن هى لم تبد ذلك الشعور المتعض لزوجها أو لأحد من حولها فإن ذلك لا يدل على أنها لا تحس بالتبرم من مثل تلك الخدمة التى تشعر بأنها قد فرضت عليها فى زمن تحررت فيه الفردية النسائية ولم تعد المرأة أداة لخدمة الزوج ومتعلقاته من الآدميين . ذلك أن المرأة عندما خرجت إلى الحياة العملية فى بادئ الأمر لم يكن خروجها لكسب لقمة العيش، بل للتحرر من نير الرجل ومما اعتقدت أنه إذلال لإنسانيتها . فاشتعال المرأة كان بمثابة إعلان احتجاج على أجيال وأجيال قامت بخدمة البيت بمن فيه . فكيف بالمرأة وهذا حالها أن تعود إلى ذلك؟ إنها إذن لاتستطيع أن تخضع لما كانت تخضع له أمها أو إحدى جداتها، فهى صاحبة حق فى أن تنعم بالهدوء فى بيتها بعد عناء العمل الطويل وأنها لم تعد الأمة التى تقوم بخدمة الرجل وأمه وأبيه .

والواقع أن الإنسان بالمجتمع الحديث صار فرديا فى دخيلته وإن كان قد استحال إلى كائن اجتماعى بالدرجة الأولى فى خارج حياته وفى مظهره الخارجى، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن المفارقة عجيبة وصارخة بين مجتمع الريف وبين مجتمع المدينة، أو بين المجتمع الزراعى بوجه عام والمجتمع الحضرى الراهن المتمثل فى المدن الحالية. ومن المعلوم أن المجتمع الزراعى المتمثل فى القرية يأخذ بنظام الأسرة الكبيرة التى تتقارب فيها الأواصر وتشتد فيها العلاقات وهى تضم فى ربوعها جميع الباقين على قيد الحياة من الآباء والأمهات والأجداد والجدات، بل وتضم فى أحيان كثيرة العمات والخالات والأعمام والأخوال. ومعلوم أيضا أن المجتمع الحضرى لا تشتد فيه أواصر المحبة والوفاء، وأن الأسر به هى أصغر ما

عرف عن حجم الأسرة فى التاريخ حيث لا تضم فى رحابها سوى الزوج والأبناء والبنات . وأنك لتجد أن مجتمع الريف مجتمع مخلخل فى مجال الحياة العملية . فليس هناك زحام فى الحقل ولا فى الطريق المؤدية إليه، ووسيلة النقل المعروفة هى الحمار الذى لا يتسع ظهره إلا لشخص واحد خلافا للأتوبيس بالمدينة يحشر فيه الناس بأعداد مهولة . ولكن فى مقابل ذلك التخلخل فى البيئة الزراعية، فإنك تجد التقارب فى دخيلة الأسرة والعكس صحيح بالنسبة للمدينة . ففى مقابل التزاحم والتكتلات بكل شبر بالمدينة، فإنك تجد الأسرة صغيرة للغاية . ولكأن الناس بالمدينة يكرهون بعضهم بعضا ويحب الواحد منهم أن يفر بنفسه من الزحام متمنيا ألا يجد ببيته سوى زوجته وعياله . والعكس أيضا بالقرية . فلربما يحس القروى بالوحشة وهو فى الحقل، فيكون لديه شوق إلى معاشرة الناس والحديث معهم عندما يعود إلى البيت . وهو يريد أن يجد بيته مزدحما بأكبر عدد من الناس حتى يشفى غليله من الشوق إلى الناس .

والحق أن المرأة - بل والرجل أيضا - صارت فى الوقت الحاضر، وهو الوقت الذى كادت تستحيل فيه القرية إلى مدينة، أو بتعبير أصح الذى كادت فيه القرية أن تصاب بالعدوى من المدينة وتأخذ عنها كل ما تتصف به من رداءة حتى ولو لم تأخذ منها ميزاتها ... نقول إن المرأة والرجل بالمدينة والقرية على السواء صارا يحسان بالفردية، ولم يعودا يحسان بالوحشة أو حتى بالحاجة إلى ذلك الدفء الوجدانى الذى كان شباب العصور السابقة يحسون به ويتلهفون على الاستحواذ عليه . ذلك أن الحياة بالمدينة حياة قاسية . فالآلية التى تزخر بها المدينة قد سكبت على الإنسان الكثير من خصائصها .

فكما أن الآلة لا تحس ولا ترحم ولا تتعاطف، كذلك صار إنسان الحضارة لايحس ولا يرحم ولا يتعاطف . وكما أن المجتمع بالمدينة لا يعرف إلى التكامل سبيلا ولا يفهم له معنى، كذا فإن الحياة بالبيت صارت لا تعرف إلى التكامل سبيلا ولاتفهم له معنى . وحتى الزوجة الحديثة صارت تبحث عن مصالحها بعيدا عن مصالح الزوج . فهى تبحث فى محل عملها عن المعاش الذى سيكفل لها عندما تبلغ سن المعاش، والزوج بدوره يبحث أيضا عن مستقبله هو شخصيا .

وطبيعى أن الأبناء والبنات يحسون بأن أسرتهم التى يترعرعون فى نطاقها ما هى سوى كوبرى يمرون فوقه إلى مستقبلهم الذى يجب أن يضمنوه لأنفسهم مستقبلاً باهرًا أفضل من الحاضر الذى يعيشون فى ظله اليوم .

من هنا فإنك تلاحظ أن كل عضو بالأسرة يلتف حول نفسه، ولا يحس بالتكافل المصلحى بإزاء غيره. فالتضحية بغير عائد لم يعد لها معنى ولا وجود فى الأسرة الحضرية . فكل شخص فيها يضحى من أجل الآخر وهو ينتظر مقابلا لتلك التضحية فى القريب العاجل أو فى البعيد الآجل . ولكن إذا لم يكن الشخص الذى يطالب بأن يضحى الناس من أجله قادرا على سداد الدين فلماذا إذن يُخدم ؟ إنه بالتأكيد سوف لا يجد أذنا صاغية لنداءاته المتكررة، وسوف يجد الناس من حوله وقد انفضوا عنه أو يستعدون للانفضاض عنه . وإذا هم لبوا دعوته بعد إلحاح فلا تكون التلبية صادرة عن قلب مفعم بالحب بل عن إحساس بالحرج ودرء ما يمكن أن يترتب على الرفض من مشكلات .

وعلى هذا فإن الشيخ لا يجد صدرا رحبا له سواء من الزوجة الصغيرة أم من الزوج الصغير أم من الأحفاد والحفيدات : ذلك أن التضحية التى تقدم إلى الشيخ إنما هى تضحية فى الهواء، وليس من ورائها عائد نفعى مباشر أو غير مباشر . فأفراد الأسرة ينظرون إلى الشيخ باعتبار أنه الإنسان الذى تفضى به الأيام القليلة القادمة أو الكثيرة القادمة إلى الموت . فهو فى انحطاط وليس فى ارتفاع، وفى تقهقر لا فى تقدم، وفى انتحاء إلى الضريح وليس فى انتحاء إلى صرح الحياة المفعم بالحياة والحيوية . لذا فمن الخسارة أن تقدم إليه التضحية، فهو دخيل على سوق النفعية بالأسرة الحديثة.

ولا يصح أن نغفل عنصرا هاما شاع وجوده اليوم فى ضمائر الناس وسيطر على حياتهم الاجتماعية . ذلك هو النظر إلى الحياة المادية الراهنة باعتبار أنها نهاية المطاف . وليس هناك سوى الندرة النادرة من الناس الذين يكنزون لأنفسهم كنوزا فى السماء حيث يحصلون فى الآخرة على أضعاف ما قدمت أيديهم . فأبناء هذا العصر لا يفكرون إلا فى الأشياء التى تمسك بها أيديهم والتى يستطيعون

حصرها بالأرقام . وكل ما يحصونه من قيم يجب أن يكون نفعًا ماديا أو اجتماعيا آنيا بلا تأجيل إلى ما بعد الموت فى حياة أخروية . من هنا فإن التضحية لا تجد لها مكاناً فى ربوع الأسرة الحديثة . لقد كان الناس قديما يخدمون الشيوخ والضعفاء طمعا فى مثوبة يحظون بها فى الدار الآخرة، وقد أفعمت قلوبهم بالرحمة والمحبة، ولم يكونوا يطمعون فى خير أكثر مما فى أيديهم وقد كانوا سباقين إلى العطاء متقاعسين عن الأخذ، وإن أخذوا فباستحياء وقلة رغبة. ولكن اليوم وقد تزايلت هذه الروح التقشفية وحلت محلها روح الطمع فى أكبر كسب ممكن وبأقل جهد ممكن وفى أقصر وقت ممكن، فإنهم يضنون بما يريحون على سواهم، حتى ولو كان جدا أو جدة لأنهما سوف لا يردان ما قدم إليهما، ولأن ابن العصر الحديث يقيس كل شىء بالفائدة والضرر، وفى ضوء هذا المقياس تكون الجدات والأجداد أشخاصا مضرين، إذ ليس من وراء خدمتهم نفع، بل من ورائها الضرر المادى المتمثل فى التضحية المادية من أجلهم فى الإنفاق الذى يبذل لهم وفى الوقت الذى يقضى فى سبيل خدمتهم، وفى الجهد الذى يضحى به من أجلهم لتوفير الطمأنينة لهم ودرء الأخطار عنهم .

الفراغ القاتل :

سبق أن قلنا إن الشيخوخة لم يكتب عليها الفراغ، بل إن الظروف الاجتماعية المحيطة بالشيوخ من جهة، وعدم إعداد الناس أنفسهم لمرحلة الشيخوخة من جهة أخرى هما العاملان اللذان يحدوان بالشيوخ إلى الإحساس بالفراغ الممض وبالسأم الشديد وبالإحساس بطول الوقت، وقد صارت كل لحظة من حظات حياتهم وكأنها جبل شاهق يصعب تسلقه ولكن لابد من تجشم تسلقه . وقلنا أيضا إن انتشار إحدى الظواهر النفسية أو الاجتماعية لا يعنى بالضرورة أن تلك طبيعة الأشياء أو طبيعة المرحلة العمرية التى تشيع فيها تلك الظاهرة النفسية أو الظاهرة الاجتماعية . فقد يكون الانتشار والذيوع بسبب سوء التوجيه أو لعدم الإعداد الذاتى للمرحلة العمرية التى يشيع فيها ذلك العرض الردىء .

والواقع أن هناك عدة أسباب تحدو بالشيخ إلى الإحساس بالفراغ وبالوقت

الطويل الممض . ولعل أول تلك الأسباب هو تقلص أهداف الشيخ أو انكماشها الشديد . فبعد أن كان نفس ذلك الشيخ طوال حياته العملية خصب الأهداف، متعدد الجوانب، وقد أفعمت حياته بالكثير من المناشط التى كان لا يكاد يفرغ من واحد منها حتى يجد المنشط الآخر فى انتظاره ليتمه أو ليضطلع به، فإنه يجد نفسه وقد صار خالى الوفاض وقد أقفرت حياته من أى نشاط. وليس من شك فى أن الافتقار إلى الأهداف وعدم تجددها يضرب الشخصية بالعقم والنضوب ويجعلها قفراً خالية من الحيوية، بل إنه يجعل الإنسان غير مؤمن بحياته، فيجد أن الوقت أمامه قد صار عبئًا عليه . وبعد أن كان لا يكاد يجد وقتا يتنفس فيه الصعداء بسبب ازدحام حياته بالأعمال، فإنه يجد نفسه مفلسا لا يجد شيئا يعمله خلال تلك الساعات بل والأيام والأشهر والسنين الممضة التى عليه أن يعيشها بغير حركة إلى الأمام . إنه إذن أشبه بمن ألقى به فى جب عميق ضيق، حيث يكاد يختنق بسبب فساد الهواء فيه، ويكاد يتشنج بسبب ضيق المكان وامتناع الحركة السهلة الميسورة .

ولعل سائلاً يتساءل : لماذا لا يترسَّم الشيخ أهدافا لنفسه حتى لا ينتهى إلى هذا التبرم بالحياة، وحتى لا يحس بالذبول النفسى وبطول الوقت الممل وبذلك السأم المضنى ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول إن هناك صنفين من الناس : صنف نادر من الناس هم أولئك الذين اعتادوا أن يترسموا أهدافًا لأنفسهم بحيث يسيرون حياتهم من جانبهم هم وليس من الخارج بواسطة أشخاص آخرين . أما الصنف الثانى فهم أولئك الذين اعتادوا أن ترسم لهم الأهداف بواسطة غيرهم ولا يكون عليهم إلا تحقيق تلك الأهداف الجاهزة التى رسمت لهم وأمروا بأن يحققوها. وهذا الصنف من الناس هو الأغلب الشائع . ولسنا نتجنى على التربية بالأسرة والمدرسة إذا قلنا إنها هى المسئول الأول عن هذه الظاهرة الوخيمة وعن ذيوع هذا الصنف من الناس . ذلك أن الإنسان لا يولد على هذا النحو أو ذاك. فلم يكتب على شخص ما أن يكون من أفراد الفئة الأولى وعلى شخص آخر أن يكون من أفراد الفئة الثانية، وإنما التربية التى نتلقاها منذ نعومة الأظفار ونوع التدريب الذى نتلقاه وهو الذى يصير طبيعة ثانية لنا هما المسئولان عن إعدادنا لنكون

منخرطين فى نطاق الفئة الأولى التى يرسم أفرادها أهدافهم لأنفسهم، أو لخرطنا فى نطاق الفئة الثانية لكى يضطلع غيرنا بهذه المهمة لنا فيقومون برسم الأهداف لنا بحيث لا نكون سوى عبيد لفكرهم فنضطلع صاغرين بما رسموه لنا .

أما السبب الثانى الذى يدفع بالشيخ إلى الإحساس بالفراغ القاتل وبأن حياته لا تكاد تتحرك فهو القبوع بنفس المكان مدة طويلة . ذلك أن الغالبية العظمى من الشيوخ يركنون إلى منازلهم لا يبرحونها ليل نهار مع أن فى مقدورهم أن يخرجوا عن هذا النطاق الضيِّق إلى الآفاق الرحبة بحيث يشغلون حياتهم ويفعمونها بالخبرات الجديدة وبحيث يشاهدون ما يستثيرون به وجدانهم وما يبهرهم أو يحملهم على التأمل أو الانفعال أو الدهشة، فيجدون أنفسهم متحركين فى ربوع الحياة مما يحملهم على الإحساس بحركة الحياة وبأنها ما تزال نابضة متدفقة ومفعمة بالحيوية . أما أن يظل الشيخ فى بيته لا يبرحه، فإن هذا يجعله خاضعا للرتابة والجمود . فالأحداث من حوله هى هى لا تتغير بل وتتكرر بنفس الشكل وعلى نفس المنوال مما يزهده فيها ولا يجعلها ناصعة فى عينيه .

ويبدو أن الحركة الخارجية يقابلها أيضا حركة داخلية . وليس هذا على سبيل المجاز بل هو صلب الحقيقة . فنحن عندما نشاهد شيئا خارج نطاقنا فإننا نشكل له صورة فى ذهننا، وتلك الصورة الذهنية ليست للشىء وقد جمدناه أو أوقفناه وسلبناه الحركة إذا كان متحركا، وإنما تكون الصورة التى نرسمها له فى أذهاننا كما شاهدناه بالفعل فأنت عندما تشاهد طائرة تشق عباب السماء، فيكون إدراكك لها وهى تطير أمامك، أو يكون تخيلك إذا كنت تتخيل طائرة ليس لها وجود بالفعل أمامك، أو يكون تذكرك لطائرة بالذات شاهدتها بالأمس القريب أو الأمس البعيد مصحوبا فى عقلك بصورة ذهنية متحركة فلا يقتصر تفكيرك على رسم صورة لهيكل الطائرة، بل إنه يرسم لك صورة كلها حيوية وحركة بحيث لا تكاد تختلف الصورة المتحركة فى عقلك والطائرة الحقيقية التى تشق عباب السماء إلا من حيث الامتداد والصلابة التى تمتاز بهما الطائرة الواقعة خارج نفسك بالعالم الخارجى .

وإذا صح كلامنا هذا فإننا نستطيع القول إذن أننا إذا ما شاهدنا أشياء كثيرة تتحرك أمامنا، فإننا نكوّن لها بالتالى صوراً ذهنية متحركة . فإذا ماعمدنا إلى إغلاق حواسنا وامتنعنا عن الوقوف على المتحركات من حولنا، فإن الصور الذهنية التى ترتسم فى أذهاننا تكون إذن صوراً ساكنة، اللهم إذا استعضنا عن الإدراك بالخيال والتذكر. وهذا فى الواقع ما يفعله المفكرون والشعراء والقصاصون وغيرهم. فهم فى كثير من خلواتهم يحلون التذكر والخيال محل الإدراك المباشر فتظل صورهم الذهنية متحركة على الرغم من انقطاعهم عن استقبال صور لأشياء متحركة خارج ذواتهم . بيد أن الشاعر أو القصاص أو الكاتب إذا امتنع عن استقبال صور إدراكية من العالم الخارجى المحيط به، فإنه سوف يبتلى بعد مدة تطول أو تقصر بافتقار شديد فى ديناميـة صوره الذهنية. فتبدأ فى فقدان حيويتها وتتساقط الواحدة منها بعد الأخرى، ولا يكون من علاج لمثل ذلك الشخص لكى يستعيد نشاطه الفكرى إلا بالرجوع إلى الواقع الخارجى يستمد منه صوراً إدراكية جديدة تجدد حياته الذهنية .

وشأن الشيخ شأن أى إنسان آخر . فهو إذا ما انقطع عن العالم الخارجى وتقوقع فى نطاق محدود لايستقبل فيه صوراً ذهنية إدراكية متحركة، فإن صوره المتخيلة تساقط الواحدة منها بعد الأخرى إلى أن تنتهى حياته الفكرية إلى الذبول والنضوب بعد الحيوية والتدفق، ولا يظل فى ذهنه سوى قليل من الصور الذهنية التى يلتقطها للأشخاص المحيطين به فى نطاق البيت المحدود .

ومن الطبيعى وقد صارت حال الشيخ إلى هذا المآل من النضوب الذهنى، أن ينصرف الناس من حوله ولا يقبلون عليه ولا يأخذون عنه ولا يتفاعلون معه، ولايمزجون خبراتهم بخبراته ولايجدون تجانسا بين حيويتهم المتدفقة وبين انكماشه الخبرى الوخيم . ومن ثم فإنهم يشيحون بوجوههم عنه مما يجلب عليه التبرم بالحياة أكثر فأكثر . فكلما حاول أن يجاذبهم أطراف الحديث وجدهم نائين عنه زاهدين فيما يقول، ولا يكاد الواحد منهم يلتفت إليه أو يعير أسئلته وتعليقاته أى اهتمام . فيصير وحيداً أو كالوحيد، وكأن الناس من حوله قد تآمروا عليه

والزج به فى غياهب سجن الوحدة الممض حيث لا تمر فيه الدقيقة الواحدة إلا بعد دهر طويل ثقيل .

ومما يزيد من إحساس الشيوخ بالتبرم من طول الوقت، ومما يجعل الفراغ مميتا بالنسبة لهم أنهم لا يكادون يجدون إلى إغماض أعينهم سبيلا . فهم إذا ناموا فيكون نومهم شبه نوم وليس بنوم. فهم لا يكادون ينخرطون فى النعاس انخراطا تاما، بل يكونون فى حالة هى بين النعاس واليقظة. فعلى الرغم من أن أعينهم تكون مغلقة فإن حواسهم تكون مرهفة ومستيقظة أو كالمستيقظة. فأى حركة من حولهم تدفع بهم إلى شاطئ اليقظة، وأى شخص يتحدث حولهم ولو همسا فإن همسه يفيقهم من نومهم الذى كان يبدو وكأنه نوم عميق مع أنه فى الواقع نوم سطحى يجمع بين اليقظة والنعاس فى آن واحد . وكثيراً ما يكون النوم بالنسبة للشيوخ عملية موجعة، إذ تكون بعض الأمراض معيقة للنوم . فلا يحلو للسعال لكى يشتعل فى صدر الشيخ ثم فى حلقه إلا عندما يذهب إلى السرير فلا يكون له هم إلا النهوض ليلقى بما يطرده صدره من بلغم فى منديله ثم يعود إلى الرقاد لكى يبدأ فى السعال من جديد . ومن الطبيعى أن هذا النوم لا يؤثر فى سعادة الشيخ وحده بل وفى راحة من حوله أيضا .

وإنك لتجد الشيخ وهذه حاله ينتظر نور الفجر لكى ينتزع نفسه من السرير لابنشاط بل هربا من نوم محسوب عليه مع أنه قطعة من العذاب . ولعل انتظاره بسريره النور الفجر يخرج من بين دياجير الظلام يطول إذ تمر كل دقيقة من دقائق الليل كعبء ثقيل يرزح تحته . ناهيك عن الكوابيس التى ترين عليه من ليلة لأخرى فيقوم منها منزعجا . فوقته فى النوم ليس أهنأ من وقته فى اليقظة . وهكذا تجد أنه يعيش فى فراغ مضن ومقيت وليس إلى الفكاك منه سبيل .

ولسنا نشك لحظة فى أن الشيخ - شأنه شأن أى إنسان فى أية مرحلة عمرية أخرى - هو شخص لديه طاقة بحاجة إلى توجيه واستنفاد. فالمشكلة بالنسبة لأى شيخ مهما كان طاعنا فى السن ليست مشكلة نضوب الطاقة الحيوية، وإنما هى مشكلة وجود تلك الطاقة وعجزه عن توجيهها . فليس من المعقول أن

شخصا كان يعمل موظفا لست ساعات أو سبع ساعات فى اليوم الواحد ثم أحيل إلى المعاش، فإذا به يفقد جميع ما لديه من طاقة، ولا يكون عليه إلا انتظار اللحظة التى تفيض فيها روحه وينتهى أجله . الواقع أن الغالبية العظمى من الحالات التى تجد فيها الشيوخ وقد ارتسمت على وجوههم أمارات البؤس وعلامات اليأس ودلائل المرض، إنما هى حالات ناجمة عن الفراغ القاتل الذى حكم على الشيوخ بأن يعانوا منه، وأن يشربوه كأسا علقما مسموما. ولسنا بالطبع نبرئ الشيخ نفسه - أى شيخ - مما تورط فيه وآلت إليه حالته . ذلك أن الإنسان هو الموجه الأول لحياته، وهو بعد فى سن الشباب لما سوف يأتى به المستقبل فى الشيخوخة، فإنه سوف يجد نفسه أمام الأمر الواقع وقد صارت حياته موحشة وضرب عليه الفراغ القاتل لكل بهجة ولكل أمل .

ولقد سبق أن أشرنا مؤكدين مبدأ التفاعل التراكبى للشخصية من جميع الجوانب سواء كانت جوانب صحية أم عقلية أم وجدانية أم اجتماعية . ففى ضوء هذا المبدأ يستطيع الشاب أن يعد لنفسه شيخوخة مفعمة بالحيوية لا يشوبها ذلك الفراغ الممض، بل تكون شيخوخة مشحونة بالأهداف، خالية من الركود ومفعمة بالحركة، حيث لا يركن الشيخ إلى ركن يرتمى فيه، بل يدأب على الحياة، إذيكون عندئذ متمتعا بصدر نقى لا يسعل لأنه لم يشحنه بالتبغ، وقد حافظ على رئتيه نقيتين، وقد أخذ فى نفس الوقت يجدد حياته ويستقبل الخبرات الجديدة ويقرأ ويتأمل ويخرج إلى الحياة ويرى الجديد فيها ويكون فى جميع الحالات محتاطًا مما يقع فيه الشيوخ من أخطاء تجعلهم يسأمون الناس ويسأمهم الناس .

الفشل في التوافق الاجتماعي :

إننا نعنى بالتوافق الاجتماعى تلك الأنماط السلوكية التى من شأنها أن تجعل الشخص ناجحا فى مجابهة المواقف الاجتماعية بل والمتدفقة . فالإنسان المتوافق اجتماعيا لا يسير بخطة سلوكية واحدة ولا يتشبث بنمط سلوكى واحد فى جميع المواقف، بل يتذرع بالمرونة فى السلوك بحيث يقدم فى كل موقف التصرف المناسب له، أعنى السلوك الذى يضمن نجاحه فى الاستجابة للموقف إلى أكبر درجة ممكنة.

ولعلنا نتساءل بهذه المناسبة : هل السلوك التوافقى لابد أن يؤدى إلى تغلب الشخص على الصعوبات الموجودة بالموقف ؟ الإجابة عن هذا بالنفى . ذلك السلوك المقدم قد يكون توافقيا بالدرجة الأولى ولكن النتائج لاتكون لصالح الشخص صاحب ذلك السلوك. خذ مثالا لذلك : شخص كان يسير فى طريق بعيد عن العمران، فخرج عليه بعض اللصوص يهددونه بالقتل إن لم يعطهم كل مافى حوزته من مال، فحاول إقناعهم بالعدول عن مسلكهم فأصروا، فأخرج مسدسه يهددهم فانهالوا عليه ضربا حتى قتلوه . إننا لو فحصنا سلوك القتيل إذن لوجدنا أنه سلوك توافقى تماما على الرغم من أن النتائج التى ترتبت على انتهاجه لم تكن لصالحه . وهناك على عكس هذا بعض أنواع السلوك التى لا تعد سليمة من الناحية التوافقية وإن كانت النتائج المترتبة عليها لصالح الشخص . خذ مثالاً بالشخص الذى تزلف بالمديح أو أكثر من المداهنة فكان نتيجة ذلك السلوك حصوله على ترقية أدبية أو حصوله على مزايا ليست من حقه .

وفى ضوء هذين المثالين نستطيع أن نقرر أن قياس التوافق بالنتائج الخارجية وحدها لا يكفى للحكم على توافقية السلوك أو عدم توافقيته. والصحيح أن نأخذ دخيلة الشخص وخارجيته للحكم على مدى توافقه سلوكيا، وطبيعى أننا نأخذ الخارج أيضا فى الاعتبار للاستدلال به على الداخل. فالمهم فى الواقع هو دخيلة الشخصية وليس الظاهر من السلوك ولا النتائج المترتبة على السلوك. صحيح أن النتائج الجيدة على أكبر جانب من الأهمية، ولكننا نشترط لكى نحكم على الشخص الذى أحرز تلك النتائج الباهرة بأنه متوافق سلوكيا ألا تكون النتائج التى أحرزها نتيجة حظ تبسم له أو نتيجة صدفة لا فضل له فيها أو نتيجة التواء وتحايل أو نحو ذلك من اعتبارات تجعل الحكم على دخيلة الشخص ليس فى صالحه. المهم فى السلوك الخارجى ونتائجه أن يكون مبنيا على دخيلة متينة وعلى نية فعل صحيحة .

وما دمنا قد أنطنا بالداخل الوزن الأكبر بالنسبة للسلوك التوافقى، فإننا نستطيع أن نقول إن الأفكار والمفاهيم والعواطف والانفعالات تعد الركائز التى يصدر عنها السلوك الظاهرى . ولكن يجب أيضا ألا ننسى أن إخراج السلوك من

حيز الفكر والوجدان إلى حيز التصرف بحاجة إلى مرانة ودربة كبيرين . فعملية تجسيد الفكر والوجدان فى صيغ سلوكية بادية للعيان تحتاج إلى مهارة وتدريب طويلين . أضف إلى هذا أن الأفكار والعواطف يجب أن ينبعا من صور إدراكية تتعلق بالعالم الخارجي، وعن وقوف دقيق على العلاقات القائمة بين الأشخاص والأشياء المحيطين بالشخص . فمعرفة العالم الخارجى معرفة صحيحة على جانب كبير من الأهمية ولا يمكن الإغضاء عنها أو التقليل من أهميتها .

وإذا علمنا أن الرموز صارت فى ظل الحضارة تحتل مكانة لا تقل أهمية وخطورة عن الأشياء ذاتها، إذن لعرفنا أهمية وقوف الشخص على التراث الثقافى من حوله حتى يتسنى له أن يحقق التوافق فى حياته . من هنا كان للغة أهمية خطيرة فى تحقيق التوافق الاجتماعى باعتبار أن اللغة هى أداة الاتصال بين الناس من جهة، ولأنها بمثابة الأوانى التى تحمل تراث الأمة وتراث الإنسانية على السواء من جهة أخرى .

وفى ضوء ما سبق نستطيع أن نقول إن الشيوخ بوجه عام ينكصون عن مسايرة العصر فى تلك القطاعات والميادين التى تشارك فى تحقيق توافق الشخصية بالمجتمع . ولعلنا نبدأ بالتوافق الحركى . فمن المعلوم أنه بالنسبة للحياة المدنية الحديثة فإن السرعة فى الأداء الحركى تعد من السمات الأساسية فى الاتصاالات والعلاقات. ولكن الشيخوخة - كما هى لا كما يجب أن تكون عليه - تتسم بالبطء الحركى أو بالعجز عن أداء الحركات المطلوبة فى الحياة اليومية على خير وجه . ففى وسائل المواصلات يصير الشيوخ عقبة أمام الركاب وأمام موظفى النقل . فالسيارات لا تكاد تقف فى المحطات، وإن وقفت فلبرهة وجيزة لا يستطيع الشيخ أن يقفز خلالها بداخل الأوتوبيس أو إلى خارجه . ناهيك عن السير بالشوارع المزدحمة التى يتزاحم فيها الناس ويدافعون بعضهم بعضا فيها . إن الناس يكادون يدفعون الشيوخ ويطرحونهم أرضا حتى يظلوا يسيرون بسرعة لا يلوون على شيء .

وحتى بالنسبة للغة الحديث العادية تجد أن الشيوخ وقد ترهلت حبالهم

الصوتية وضعفت أجهزة النطق لديهم يتحدثون ببطء، بل إن تفكيرهم يسير ببطء بحيث يكاد الشيخ يقدم الفكرة الواحدة بعد لأى شديد وبعد جهد جاهد . وطبيعى أن هناك مواقف يكون الأمر فيها بحاجة إلى سرعة فى النطق وإلى اختزال فى الكلام وإلى وضوح فى الصوت . ففى مثل تلك المواقف، بل وفى معظم المواقف تجد أن الشيخ يحس بأنه غير متوافق مع غيره، بل ويحس من يتعاملون معه بالتململ ملحين بأن يسرع إلى الإبانة وبأن يرفع صوته ليسمعوه بوضوح ،وهو ما لا قبل له به .

وبالنسبة للحالة المزاجية العامة للشيخ، فإنك تجد أنه لا يستطيع أن يماشى الشباب فى مرحهم ولا أن ينخرط فيما ينخرطون فيه من دعابات وقفشات وخفة ظل. وإنه يميل فى الغالب إلى الجد وإلى الهدوء والدعة ولا يميل إلى الصخب أوالمرح الزائد، بل إن الكثير من الشيوخ يكونون منحرفى المزاج فيقلبون الجو المرح إلى جو مقبض، ويضيقون ذرعا بكل من يضحك فى مجلسهم ويتهمونه بعدم الوقار وخفة العقل .

وحتى بالنسبة للأحاديث المطروقة فإن الكثير من الشيوخ لا يستطيعون المشاركة فيها وذلك لانقطاعهم عن ركب الحياة إذ صاروا غير واقفين على ما يحدث من حولهم بالدنيا . ولعلهم لا يسكتون منصرفين عن المتحدث فحسب. بل إنهم قد يقاطعونه ناحين بالحديث إلى منحى آخر لا يهم أحداً من الحاضرين، وقد يكون الحاضرون مشوقين إلى الانخراط فى الحديث الذى بدأه ذلك المتحدث لولا مقاطعة الشيخ له وهى التى يعتبرها الحاضرون مقاطعة سخيفة وفى غير محلها. وهم وإن يسكنوا بغير أن يقاطعوا الشيخ أو يسكتوه، فإنما يكون ذلك منهم تأدبا واحتشاماً وليس لأنهم اندمجوا نفسيا ووجدانيا فيما يطرقه من موضوعات لا تتعلق بها عقولهم ولا تهتز لها أوتار قلوبهم .

وإذا أضفنا إلى هذا أن معظم الشيوخ يمتنعون عن القراءة وينصرفون عن مشاهدة التليفزيون ولايستمعون إلى الإذاعة، فإنك تدرك مدى تخلفهم الثقافى، وكيف أن ما يتعرضون له من أخبار أو أحاديث إنما تكون أخباراً وأحاديث قديمة

بالية وغير مثيرة . ذلك أن العقل الراكد والذهن الفارغ من الجديد لا يستطيع أن يستهوى أحداً لمتابعة ما ينبثق عنه من أحاديث .

وحتى بالنسبة للشيوخ الذين يهتمون بالأخبار والأحاديث والأغانى التى تذاع أو البرامج التى تعرض بالتليفزيون، فإنك تجدهم مرتبطين وجدانيا بأنواع معينة من الأخبار لا تهم الشباب ولا تستثيرهم فى الغالب . ومن المعروف أيضا أن الشيوخ يحنون إلى الماضى ولا يطربون إلا للأغانى القديمة ولا يعجبون إلا بمن سبق أن استأثروا بإعجابهم فى مطلع شبابهم . من هنا فإنهم لا يحفلون كثيرا بما يحفل به الشباب ولا يعجبون بما يجذب انتباه وإعجاب الشباب من شخصيات أو أحداث أوأنغام . فليس غريبا أن يفشل الشيوخ فى التوافق الاجتماعى مع جيل الشباب بسبب التفاوت المزاجى والفكرى بينهم وبين أفراد ذلك الجيل .

والواقع إن أغلب الشيوخ يمتنعون على التغير . فهم يتجمدون فى قوالب سلوكية راسخة تأبى على التطور والتعديل . ويتبدى هذا فى الفكر والوجدان والتصرف، بل إنهم فى الأغلب يرفضون الأفكار الجديدة ويتشبثون بالاتجاهات التى استوعبوها وضربوا فى إثرها وامتصتها شخصياتهم وهضمتها .

ومن المعلوم أن الحياة متدفقة متغيرة وأن أساليب الحياة والصناعات تتغير، وأن هناك آلات تذبل لتحل محلها آلات أخرى أقوى وأكثر إنتاجية منها، وأن العلوم والفنون والأساليب التكنولوجية فى تدفق مستمر . ومن الطبيعى أنه ينجم عن تيار التطور فى المجالات العلمية والتكنولوجية تطورات مناظرة ومتوازية فى الوظائف والفنون والخبرات والمهارات. ولكن الشيوخ يناهضون التطورات الجديدة ويرفضون أن تستبدل بالآلات والأدوات والمهارات التى اعتادوها آلات ومهارات جديدة، بل يصرون على الضرب فى الخط الذى اعتادوا عليه، ومهما حاول الناس من حولهم إقناعهم بأن الجديد أفضل من القديم وأنه أرخص وأكثر إنتاجية فإنهم يتشبثون بالقديم ويأبون التنازل عنه أو حتى تطويره والتعديل فى خطوطه الفرعية.

وإذا كـان هذا هـو حـال الشـيـوخ بإزاء الأشـيـاء والمهـارات والعلوم، فـإن هذا الموقف المتشدد يتضح أكثر فأكثر بالنسبة للعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية. فالشيخ الذى نشأ فى ظل تقاليد اجتماعية تأبى على المرأة الظهور فى محافل الرجال، والذى نشأ فى مناخ اجتماعى يرفض مساواة المرأة بالرجل، يرفض كذلك بالتأكيد أن يغير قيمته الاجتماعية المتعلقة بتلك المسألة أو بغيرها مما نشأ عليه واستوعبه . ولذا فإن مجتمع الشيوخ بصفة عامة يرفضون التوافق اجتماعياً للقيم الاجتماعية الجديدة ويأبون الاستماع إلى الدعوات الاجتماعية التى تنبع عن حاجات اجتماعية ملحة كالدعوة إلى تحديد النسل أو الدعوة إلى التطوير اللغوى أوتطوير شكل الكتابة أو غير ذلك من تطورات . وينشأ عن جمودالشيوخ وتشبثهم بالقيم والممارسات القديمة إفلاس كثير من أصحاب الصناعات . ذلك أن الواحد منهم يكون قد اعتاد استخدام آلات معينة ويأبى التمشى مع التطور وتغيير آلاته القديمة وإحلال آلات جديدة محل الآلات القديمة. فيكون نتيجة إصراره أن يفسد مصنعه وينهار أمام التيارات الجديدة وأمام تنافس المصانع الشابة التى تستحدث الآلات الجديدة وتستخدمها فى الصناعة .

وفى مجال التربية والتعليم فإنك تجد أن المدرسين الذين قاربوا سن المعاش لايستطيعون التكيف مع الاتجاهات التربوية الجديدة، ولا يجدى معهم إخضاعهم للتدريب على ما يستجد من طرائق تعليمية جديدة . ويتضح هذا بالذات بإزاء تدريس الرياضة الحديثة والوسائل السمعية والبصرية . فتجد أن الشيوخ من المعلمين يهزأون بالجديد المستحدث فى مجال التعليم ويحتجون بأنهم وآباءهم قد تعلموا بواسطة الطرق التى يراد منهم نبذها ويشيرون إلى مشاهير المثقفين القدامى محتجين بأنهم لم يخضعوا فى تعلمهم لتلك الطرائق الجديدة التى ينادى بها اليوم، بل تعلموا بواسطة الطرائق القديمة التى يطلب إليهم اليوم نبذها .

ونفس الشىء يقال بإزاء مهنة الطب فكثير من الأطباء الشيوخ يرفضون مسايرة الجديد فى فنون العلاج الحديثة . وشاهد ذلك أنه عندما ظهر البنسلين وبدأ استخدامه فى كثير من الحالات المرضية، فإن لفيفا من الأطباء الشيوخ

رفضوا بإباء استخدامه، بل ورفضوا القراءة عنه باعتبار أنه بدعة سخيفة لا تستحق مجرد الاطلاع عليها .

وعلى الرغم من أن الاستمساك بالقديم وعدم مماشاة التطور من جانب الشيوخ يحرمهم من التواؤم بنجاح مع المجتمع القائم، فإن ذلك يمكنهم من الحفاظ على كثير من القيم والممارسات وجوانب التراث التى يجدر الحفاظ عليها .

الحب والكراهية :

يولد الإنسان ولديه طاقة حيوية معينة نزعم أنها تظل ثابتة من الميلاد حتى الموت سواء وقع الموت بعد الشيخوخة أم قبلها، بل نزعم أن تلك الطاقة الحيوية توهب لكل إنسان بنفس الكمية ولا تنقص أو تزيد بعوامل الصحة والمرض أو بأى عرض من الأعراض التى تصيب الشخصية .

وعلى الرغم من أن زعمنا هذا ينخرط فى نطاق المزاعم الفلسفية وليس فى نطاق الحقائق السيكولوجية، فإن له شواهد من الحياة الواقعية للناس فى جميع أحوال حياتهم وباختلاف مستواهم الصحى وباختلاف أعمارهم بل وباختلاف الجنسين بعضهما عن بعض . فالمشاهد فى جميع الناس أن تلك الطاقة الحيوية تدفع بهم بغير استثناء إلى الاطلاع على العالم الخارجى والوقوف عليه أو محاولة الوقوف عليه، ثم تدفع بهم إلى حب بعض الأشياء وبعض الحيوانات وبعض الناس وإلى كراهية بعض هؤلاء جميعا، ثم هى تدفع بهم إلى اتخاذ موقف ما من المواقف بتجاه كل ما تقع عليه حواسهم. فهم يقبلون على بعض الأشياء ويدبرون عن أشياء أخرى، وهم يسيطرون على أشياء بينما تعمل أشياء أخرى على قهرهم واستذلالهم أو الفتك بهم أو قتلهم أو الإضرار بهم أو الفت فى عضدهم أو النأى بهم عن الأهداف التى طالما ترسموها فى حياتهم وخططوا فى أحلام يقظتهم وصحوتهم لتحقيقها .

المهم فى الواقع أن تلك الطاقة الحيوية تعتمل بداخل الناس وجوارحهم بغير توقف . وحتى عندما يبدو من حيث الظاهر أن تلك الطاقة الحيوية قد نضب

معينها وجفت شرايينها، فإن ذلك النضوب أو الجفاف إنما يكون نضوبا أو جفافًا ظاهريا، بينما تكون الطاقة الحيوية بالشخص قد تخفت وتوارت عن الأبصار لتعمل عملها وتؤثر بفاعليتها أو لتنوء بكلكلها على الكيان الداخلى للشخصية. وشاهد ذلك ما كشفت عنه مدرسة التحليل النفسى وغيرها من مدارس نفسية من أن الشخص المجنون الذى لا يبدى نشاطا خارجيا، أو الذى لا يماشى الناس فى شئون حياتهم وفيما يضطربون فيه من أعمال ومناشط، إنما يكون قد اتخذ لنفسه منحى داخليا دفينا توجد فيه تلك الطاقة الحيوية . ولكأن تلك الطاقة الحيوية قد استحالت عند ذلك المجنون إلى ما يشبه السوس بنخر العظام من الداخل بينما يكون قد ترك الظاهر سليما لا يبدو عليه ما يخشى منه أو ما يثير الشكوك أو يحمل على القلق.

والواقع أن الشيخوخة مرحلة عمرية يقل فيها فى الغالب نشاط الشخص فى خارجيته، ولكن تلك القلة أو الخفوت فى النشاط لا ينهض دليلا على أن الطاقة الحيوية لدى الشيخ قد خفتت قوتها أو وهنت جذوتها أو تلاشت فاعليتها، وإنما يدل على أن ذلك الشيخ قد سحب طاقته من خارجه إلى داخله، وأنه بدل أن يدلى بدلوه فى مجالات العالم الخارجى قد أخذ يدلى بذلك الدلو فى مجالات العالم الداخلى. ولقد سبق لنا القول بأن مجالات العامل الداخلى لا تقل اتساعا أو خصوبة عن مجالات العالم الخارجى، بل إن العالم الداخلى يضم كل العالم الخارجى بما يلتقطه له الشخص من صور ذهنية إدراكية بالإضافة إلى تلك الصور المتذكرة والصور المتخيلة التى يقوم الشخص باستعادتها بذاكرته أو بتركيبها بخياله. وبينما نجد تلك الصور الآنية التى تتصل بالواقع الراهن القائم -أعنى الصور الإدراكية- معتملة بدخيلة الشخص فإنه ينصرف إلى عالمه الداخلى يضيف إلى ما يدركه بحواسه المباشرة التى تتعلق بالحاضر، صوراً تذكرية تتصل بما سبق له أن أدركه بحواسه فيما مضى من ساعات أو أيام أو أشهر أو سنين، كما يضيف بخياله صورا إبداعية جديدة، ومعنى هذا فى الواقع أن الإنسان فى عالمه الداخلى يكون حائزا على عوالم كثيرة . فهو يحوز من جهة عالم الواقع الخارجى المحيط به وهو العالم الذى يستقبله بحواسه الخمس، كما يحوز من جهة

ثانيـة عـالم الواقع الذى مـضى على إدراكـه له وقت طويل أو قـصيـر، ثم يحـوز من جـهـة ثالثـة تلك الصـور الذهنيـة العـديدة التى يركبـهـا بخيـاله من تلك العنـاصـر الخبرية التى حصل عليها بإدراكه والتى اكتنزها بذاكرته .

ومما لاشك فيـه أن الطاقة الحيوية التى نزعم وجودها هنا، إنما هى طاقة حـيادية غيـر مـتـعـينة . فـهى يمكن أن تصنـع فـتصيـر إدراكـا أو تفكيـراً أو خيـالاً أو تذكرًا، كمـا يمكن أن تصنع فى شكل وجدان وعواطف سـواء كانت عـواطف حب أم عـواطف كـراهيـة، كـمـا يمكن أن تصنـع فـتسـتـحـيل إلى مـواقف وتصـرفـات بإزاء العـالم الخارجى، وذلك بالإقبال على الأشيـاء الواقعية بخارج الشخصيـة أو بالإدبار عن تلك الأشياء والنأى عنها والهرب منها .

وسـواء صنعت الطاقـة الحـيـوية فـاسـتـحـالت فكرا أم اسـتـحـالت وجـدانا أم استحـالت تصرفـا، فهى قـائمة موجودة وذات فـاعلية فى نفسية الشـخص ولا يكون بوسـعـه أن يوقف حـركـتـهـا أو أن يبطل فـاعليتـهـا أو أن يقلل من تأثيـرهـا فى نفسـه أو فى نفوس الآخـرين . ذلك أن الطاقـة الحـيوية تدفع بالشـخصيـة إلى أنحاء مـعينة كمـا أن الشـخص نفسـه قـد يدفع بتلك الطاقـة الحيوية إلى أنحاء مـعينة . فإذا مـا عـمـد الشـخص إلى الدفع بتلك الطاقـة الحـيـوية إلى أنحـاء مـعينة، فإنه يكون إذن مـسـيطرا عليـهـا ولا تكون هى المسيطرة عليـه . أمـا إذا تقـاعس عن توجيـه تلك الطاقـة وظن أنه بدفنها فـى دخيلتـه يكون قـد طمـسـهـا وكتم أنفـاسـهـا، فـإنه يكون بذلك قد خدع نفسه وغطى عينيه كالنعامة تدفس رأسها فى الرمال حتى لا ترى الصيـاد يصوب إليهـا سهامـه النافذة التى تحمل إليها الموت الوشيك . وواقع الأمـر أن الطاقـة التى لا يتم توجيـهـهـا وجـهـة مـعينة تتـخـذ لنفسـهـا الوجـهـة التى تشاؤها أو بتـعـبيـر أصـح تتـخـذ لنفسـهـا أية وجـهـة تصـادفـهـا . المهم هو أنهـا لا تظل راكـدة ولا تسلم جفونها للنعاس أو رقبتهـا للموت. فهى بطبيعتها طاقـة حيوية يتضح من اسمهـا أنهـا مفعمـة بالحيوية والنشـاط وأنها لابد فاعلة فعلها ومؤثرة بتأثيـرها بل ومجسدة خـامتـهـا سـواء لقيت عونا من صـاحبها ومـالك عنانهـا – أعنى الشخص نفسه – أم لم تلق منه عونا ولم تحظ منه بإرشاد .

والواقع أن الشيوخ فى واقعهم الحالى - وهو الواقع الذى لانرضاه لهم بل نأباه عليهم ونرجو منهم تغييره - هو أنهم ينصرفون عن مجالى الفكر والعمل إلى حد بعيد بحيث لا يبقى لهم سوى مجال واحد هوالمجال الوجدانى . من هنا فإنك تجد طاقتهم الحيوية لا تجد منهم تشجيعا لكى تدفع بجنودها وعمالها إلى مجال الفكر والتصرفات، بل تجد منهم تشجيعا للدفع بأولئك الجنود والعمال إلى مجال العاطفة، أعنى مجال الحب والكراهية . ولذا فإنك تجد أن الغالبية العظمى من الشيوخ غارقين فى خضم العاطفة ولا تجد فى حياتهم إلا ما كان متعلقا بما يحبون وما يكرهون .

وهناك من علماء النفس من يزعمون أن الناس يبدأون أطفالاً يحبون ويكرهون بغير تفكير أو عمل، ثم ينتهون شيوخا يحبون ويكرهون أيضا بغير تفكير أو عمل . ولكن الواقع مخالف لهذا على طول الخط . ذلك أن الشيوخ -وهم بيت القصيد هنا- عندما يوجهون جل هممهم إلى مجال العاطفة حيث الحب والكراهية، إنما يفعلون ذلك لأنهم ينسحبون برغبتهم أو رغما عنهم عن مجالى الفكر والعمل. وليس هذا لأنهم لا يقدرون -بحكم مرحلة عمرهم- على مواصلة التفكير أو مواصلة العمل . فالإنسان كما قلنا حائز لطاقة حيوية ثابتة لا تنضبها شيخوخة ولاتزيد من كميتها طفولة أو شباب .

ولقد نزعم أن الشيوخ يلقون فى الواقع بسلاحهم ويتركون طاقتهم الحيوية تعبث بكيانهم وتدفع بهم إلى حيث تريد . وحيث إن مجال الوجدان والعاطفة هو أيسر المجالات وأقربها منالاً إلى تلك الطاقة، وحيث إن مجالى الفكر والعمل بحاجة إلى قدر كبير أو صغير من الإرادة المتدفقة والتوجيه الواعى والبصيرة بالماضى والحاضر والمستقبل وبقدر من الحكمة لما سوف يترتب على الفكر والعمل من نتائج، لذا فإنك تجد أن الطاقة الحيوية تدفع برَجْلها إلى مجال الوجدان والعاطفة دون مجال الفكر والعمل، وهى واثقة من أنها بذلك تستطيع أن تتسلم زمام الشخصية وأنها سوف تتمكن بذلك من الهيمنة على حياة ذلك الإنسان الذى تركها تثور ثم تسيطر على مقاليد الحكم بداخله فتوجه تدفقاتها إلى حيث تريد، وقد وقعت على مجال الوجدان والعاطفة مفضلة له على المجالين الآخرين للفكر والعمل.

من هنا فإنك تجد الشيخ وقد تبأورت حياته فى بؤرة مركزة هى بؤرة الحب والكراهيــة وأنه يكلف بأن يحب الناس أو يكرههم، كـمـا أنه كلف بأن يعـرف هل يحبه الناس أم يكرهونه . بيد أن ذلك الكلف بحب الناس، سواء حبه لهم أم حبهم له لا ينحصـر عند حدود العاطفة تجيش بين أضلعه بل تتعدى الإطار الشخصى النفسى إلى الإطار الاجتماعى الواقعى. فكلف الشخص بأن يحبه الآخرون قد يدفع به إلى تفريق الآخرين الذين يحبون بعضهم بعضا للاستئثار يحب كل منهم له. فهو يرى فى تآلف الناس بعـضـهم مع بعض وتوجيه العاطفة من بعضهم إلى البعض الآخر تهديدا لحبهم له وحرماناً له من الحب الذى يقومون بتوزيعه ذات اليمين وذات الشـمـال وكان هو أحق به من الآخرين . من هنا فإنك تشاهد الكثير من المشكلات تنشأ فى ربوع الأسر التى تضم الشيوخ لأنهم يأخذون عن قصد أو عن غير قصد فى الوقيعة بين أفرادها فيضعون بذور الشقاق بين زوجات الأبناء وأزواجهم الذين هم أبناؤهم. ولقد يتخذ الشيخ مواقف عملية يحقق بها تفريق أبناء الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض، وذلك بتمييز البعض منهم على البعض الآخر .

أما كلف الشيخ بأن يحب الناس وبأن يوجه عاطفته إليهم فإنه يدفعه إلى اتخاذ مواقف مشوبة بكثير من التسلق والمداهنة واستجداء العطف من غيره . وهذا الموقف الاستجدائى يؤدى إلى نفور الآخرين من الشيخ والنأى عنه بل وصده والاعتداء عليه بغليظ القول؛ ذلك أن الإنسان بطبعه لا يحب من يستجدى الحب منه. إنه يريد أن يقدم حبه لمن يحب بحيث يكون حراً غير مجبر وغير مسوق إلى ذلك . ولعل هناك ما يشبه النفور أو التنافر الطبيعى بين المطالبة بالحب وبين تقديم الحب . فالحب لا يطلب وإنما يوهب . فإذا ما طالبك شخص بأن تحبه، فإنك تجد نفسك مدفوعا إلى رفض طلبه والنفور منه وكراهيته بدلا من تحقيق رغبته فى أن تحبه . ولعل المحبة حالة طبيعية أوهى نتيجة لظروف نفسية ولمواقف معينة يتخذها الشخص الذى تحبه . فلا يكفى أن يكون الشخص الذى يريد محبتك مضمراً لك الحب لكى تحبه، ولا يكفى أن يقدم إليك الخير أو أن يحقق لك أمانيك لكى تحبه، بل إنك قد تحب شخصا لم يسبق لك أن تعاملت معه، ولكنك منذ اللحظة الأولى لمقابلتك له تشعر بميل طبيعى نحوه وبأنه جدير

بحبك. ولقد تحس بنفور يدب بينك وبين شخص دأبت على الإحساس نحوه بالحب، ولقد يستمر شعورك نحوه بالنفور لفترة تقصر أو تطول ثم تعود إلى حبه من جديد . ولقد تستمر كراهيتك له بغير أن تعود إلى سابق عهدك بإبداء الحب له والإحساس بذلك الحب عميقا فى قلبك .

والواقع أن الشيخ الذى يطالب من حوله بأن يحبوه قد ينتهى به الحال إلى عكس ما يريد، فيأخذ فى التباكى أو البكاء شاكيا لكل من يقابلهم من معارف وأقرباء ذلك العقوق الذى تفشى فى قلوب أولئك الذين أحبهم وضحى من أجلهم، وها هم لا يبدون له سوى الكراهية والنفور . ولسنا هنا بصدد إصدار أحكام أخلاقية بإزاء مواقف أبناء وبنات وأقرباء الشيخ قبالته وعدم إبداء الحب الكافى له مع أنه يحبهم بكل جوارحه . وإنما نحن بإزاء حالة واقعة تحدث فى كثير من الأسر التى تضم شيوخا وشيخات . وما نريد أن نؤكده هو أن انحصار الطاقة الحيوية لدى الشيوخ فى نطاق عاطفتى الحب والكراهية دون الفكر والعمل، هو الذى يدفع بالشيخ إلى تركيز جهوده فى اجتذاب حب الناس إليه وتوجيه الحب إليهم .

ولسنا نفرق فى الواقع بين الحب وبين الكراهية إلا من حيث إن الكراهية هى حب مقلوب . فعندما يجد الشيخ أن الناس من حوله لا ينصبونه ملكا على قلوبهم، أو عندما يلاحظ أنهم يصدون عن حبه لهم ويضربون به عرض الحائط، فإنه يغير لون عاطفته، فبدلا من أن تكون عاطفة بيضاء ناصعة فإنها تصير سوداء قاتمة . وبعد أن يكون الشيخ مهتما بحب الناس فإنه يعلن عليهم حربا من الكراهية والبغضاء .

المعوقات النفسية :

سبق أن قلنا وأكدنا عدة مرات أن الضعف والوهن ليس قدرا مكتوبا على الشيوخ، بل الشيخوخة مرحلة عمرية كسائر المراحل العمرية السابقة عليها عرضة للقوة والضعف، وعرضة للصحة والمرض . ولسنا نقصد بالقوة ولا بالصحة ولا بالضعف والمرض ما يمكن أن يصيب الجسم فحسب ، بل ما قد يصيب الجهاز

النفسى أيضا بما فيه من عقل ووجدان . ذلك أننا نسير فى حياتنا وفى تطور شخصياتنا بطريقة تفاعلية تراكبية بحيث يؤثر كل تفاعل جديد فى بنيانتا الجسمى أو النفسى إلى حد كبير أو صغير . ونحن فى الواقع فى حالتنا الراهنة نتيجة لحصيلة التفاعلات والتراكبات التى تأتت لنا، سواء كنا واعين مدركين لمايحدث ولما نتفاعل معه، أم كنا ساهين وغير مدركين لما نتعرض له من تفاعلات جسمية وعقلية ووجدانية.

بيد أن مايمكن أن يكون يختلف اختلافاً بينا عما هو كائن وواقع بالفعل . فالواقع أن الغالبية العظمى من الشيوخ يتعرضون لمجموعة من التفاعلات غير المواتية التى تتنزل بهم إلى الحضيض أو التى تدفع بهم إلى الضعف والوهن أو إلى المرض الجسمى والعصبى والعقلى والوجدانى .

ويرتبط المرض النفسى -سواء كان مرضا عصبيا أم عقليا أو مرضا وجدانيا- أشد الارتباط بالحالة الجسمية . فالمرض الذى يصيب الجسم فى ناحية ما من أنحائه يتردد صداه فى نفسية المريض تماماً كما يحدث عندما تتدهور نفسية المريض، فتتأثر صحته الجسمية وتظهر لديه أعراض كثيرة تتعلق بأمراض جسمية متنوعة .

ومعنى هذا بتعبير آخر أننا ننظر إلى حالة الشخص بنظرة تكاملية، بمعنى أن الجسم لا يسلك وحده دون العقل والوجدان، بل إن الجسم والعقل والوجدان تشكل جميعا كياناً متكاملاً هو الشخصية . وإذا نحن اعترفنا بأن الشيوخ فى غالبية الحالات يتدهورون صحيا، فيتبع هذا أيضا حدوث تدهور فى عقولهم ووجداناتهم .

ومن أكثر الظواهر النفسية شيوعا ظاهرة الوهن النفسى، إذ يحس الشيخ بأنه محطم النفس خائر العزيمة وأنه ليس جديرا بمجابهة الحياة . والواقع أن الشعور بالضآلة النفسية والعجز عن مغالبة الصعاب وعن تقديم الاستجابات المناسبة للمواقف والصعوبات، لما يضرب الشخص باليأس والقنوط ويدفع به إلى الانطواء الداخلى أو إلى التقوقع النفسى والعقلى . وشاهد ذلك أن الشيخ الذى يقع

تحت طائلة مثل هذه الحالة يجد نفسه وقد أغلق المنافذ التى كانت منفتحة أمامه على الحياة، وأنه قد صار حبيس دخيلته ولم يعد يطل على الواقع الخارجى، وأنه قد بدأ يقطع الوشائج التى كانت تربط بينه وبين الناس والأشياء، بل إن علاقاته الاجتماعية والأسرية تأخذ فى الجفاف كما تجف أوراق الشجر وأغصانه بعد أن كانت الحياة تسرى فى شراييها الدقيقة .

وهناك من المعوقات النفسية أيضا التى تصيب الشيوخ تباينهم مزاجيا عن المحيطين بهم . ذلك أن الناس إذا اجتمعوا معًا فإنهم يتقاربون فى المزاج الواحد بما يسمى بالتناغم الوجدانى. فعندما تجد نفسك وقد أخذت مكانك فى نطاق مجموعة من الأشخاص، فإنك ما تفتأ تتجاوب مع مزاجهم العام وتأخذ فى مشاركتهم شعورهم الوجدانى السائد بينهم. فإذا كانوا ينتحون إلى المرح فإنك تجد نفسك وقد ضربت فى المرح بسهم وافر. وإذا كان الجو المخيم مشفوعا بالوقار أو بالحزن، فإنك سرعان ما تنخرط فى جوهم النفسى المتسم بالوقار أو بالحزن. ولكن لكى تكتسب النغمة المزاجية العامة للمجموعة التى تجلس فى وسطها، فلابد لك أن تكون متمتعا بالمرونة المزاجية أما الشيوخ فإنهم فى الغالب لا يتسمون بتلك المرونة المزاجية، بل إن مزاجهم يكون قد تحجر أو تبلور على نحو راسخ لايستطيعون تغييره أو تعديله، فتجد أن الشيخ إذا ما انخرط فى مجموعة من الناس فإنه لايستطيع مسايرتهم أو التناغم معهم وجدانيا، بل يظل غريبا عنهم أوكالغريب من الناحية الوجدانية، فيحتفظ بحالته المزاجية وينكر على الموجودين عدم مسايرتهم لمزاجه هو، ولا ينكر على نفسه أنه عجز عن تلوين مزاجه باللون الشائع بالمجموعة. والواقع أن السبب فى هذا الصدام النفسى بين موقف الشيخ بتمسكه بحالته المزاجية وبين تمسك المجموعة بالحالة المزاجية التى تسودها لا يرجع إلى تعنت من جانب الشيخ ولا من جانب المجموعة، بل يرجع إلى العجز النفسى الذى يعانى منه الشيخ، وهو ذلك العجز التحجرى المزاجى الذى لا يسمح له بالتكيف نفسيا ومزاجيا للمجموعة وإصراره بالمطالبة على أن يخضعوا هم لإمرته مزاجيا حتى يتم التقارب بينه وبينهم .

ومن الطبيعى أن ينتهى هذا الصدام بين مزاج الشيخ وبين مزاج أية

مجموعة يلتئم فيها إلى انصرافه عن الناس أو إلى انصراف الناس عنه. ولايقتصر الأمر على هذا الإنصراف المكانى والبعد الجسمى عن الشيخ، وإنما تصل الحال إلى حد انعزال الشيخ فى عزلة لم يخترها لنفسه بإرادته وبرغبته الشخصية، وإنما هى عزلة قسرية فرضت عليه فرضا وحمل عليها حملا بسبب التحجر الوجدانى الذى خضع له. من هنا فإن الشيخ لايكون راضيا عن مثل هذه العزلة الوجدانية والاجتماعية التى فرضت عليه فرضا، بل هو يشكو منها ويألم أشد الألم ويحاول أن يجد لنفسه مفرا منها ولكن بغير جدوى . فقد حكم عليه بأن يحبس فى سجن الوحدة الممض . ومهما حاول أن يفلت من سجنه فإنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلا؛ وذلك لأن التحجر الذى أصاب وجدانه ليس تحجرا مؤقتا أو مشروطا بظروف معينة سرعان ما تنقشع وبالتالى ينقطع التحجر (كما يحدث بالنسبة لكثير من الشباب الذين يتحجر وجدانهم فترة من الوقت تطول أوتقصر ثم ما يفتأ الواحد منهم أن يتخلص من ذلك التحجر الوجدانى المؤقت ويعود إلى ما كان عليه من مرونة وجدانية وينجح فى التواؤم مزاجيا مع زملائه بل ومع أى مجموعة ينخرط فى نطاقها) بل إن التحجر الوجدانى للشيخ يكون تحجراً لا يقبل اللين، لأنه إلى التصلب أميل .

ومن المعوقات النفسية التى يتعرض لها الكثير من الشيوخ فقدان التكيف فى الكلام سواء بالنسبة لما يدور فى خلد الشيخ من أفكار ومشاعر أو بالنسبة لمن يتعامل ويدير الحديث معهم من أشخاص . فلقد تجد الشيخ لا يستطيع التعبير عن الفكرة التى يقصد إلى الإبانة عنها، فيقدم إليك كلاما يفيد معنى آخر. فقد يأتي بكلمة تعبر عن عكس المعنى . فبدلاً من أن يقول لك «خذ هذا» يقول لك «هات هذا» . ولقد يقلب الكلام أو يضع كلمة مكان كلمة أخرى فى الجملة. فبدلاً من أن يقول « الولد ركب العجلة » يقول لك « العجلة ركبت الولد » . ولقد يحرف الشيخ الكلمة بحيث تستحيل إلى كلمة جديدة لا يقصد إليها بل كان قصده أن يستخدم الكلمة الأصلية غير المحرفة ولكن قدرته على الإبانة لا تسعفه. فبدلاً من أن يقول «الرجل الصالح يكف عن خطئه» يقول «الرجل الصالح يفك عن خطئه» ولقد يأتى الكلام المعبر عن المجاملة مقلوبا بحيث يسىء إلى المستمع. وهو

الشخص الذي يريد الشيخ مجاملته ، فبدل أن يقول الشيخ «ربنا يجيبك بالسلامة» يقول : «ربنا لا يجيبك بالسلامة» وهو عندما يتمني حماية المستمع من الشر بأن يرغب فى ترديد هذه الجملة «ربنا يحميك من كل شر ويبعد عنك المصائب» تجده يخطئ التعبير فيقول «ربما يبتليك بكل شر وينزل عليك المصائب».

ومن الطبيعى أن مثل هذا النقص فى التكيف الكلامى يسىء إلى المستمع، أويثير الضحك لدى الحاضرين، أو يتهم الشيخ بسوء النية أو تمنى الشر لغيره، ولقد يسبب مثل هذا الكلام حرجا شديدا لأقرباء الشيخ، فهم يستاءون مما فاه به شيخهم من جهة، ويخشون من فساد العلاقات بينهم وبين غيرهم من أقرباء أو جيران من جهة أخري، ،وهم فوق ذلك وأهم من ذلك يأسفون لما تدهورت إليه حال الشيخ أبيهم أو جدهم بعد أن كان مضرب الأمثال فى الرزانة والحنكة فى التعامل مع الآخرين وتحرى الدقة فى التعبير عما يجول بخاطره .

ومن الطبيعى أن يصدر رد فعل من المحيطين بالشيخ ضد جلوسه مع الزائرين والأقرباء، وهم يحضونه على الجلوس وحده وعلى التزام الصمت التام إذا ما ضمه مجلس سواء فى البيت أم فى بيوت الآخرين . ولكأن هناك حظرًا قد فرض على الشيخ، وقد فرض عليه أن يتنحى ركنا قصيا بعيداً عن الأنظار أو بعيداً عن الانتباه . فإذا ما اضطر الشيخ إلى الكلام للإجابة عن سؤال يوجه إليه، فإنه يلتفت يمينا وشمالاً قبل الإقدام على الإجابة خشية الوقوع فى المحظور والخطأ فى التعبير، وهذا يدفع به إلى الخوف من ذويه.

والواقع أن حالاً هذا شأنه يدفع بالشيخ إلى الإصابة بالعديد من المخاوف. ذلك أن الموقف الذى يتخذه المحيطون به منه وحظر الكلام عليه يؤدى بالضرورة إلى فقدانه الثقة بالنفس وارتمائه فى أحضان المخاوف المتباينة. فيبدأ فى الخوف من الناس بعامة والخوف من الأماكن المزدحمة بالناس أو الخوف من الأماكن المغلقة أو الأماكن المرتفعة أو الخوف من التلوث أو الخوف من الإصابة بالأمراض أو الخوف من الظلام إلى غير ذلك من مخاوف مرضية تنشأ جميعاً عن الخوف

من الواقع الخارجى الذى تمثل فى بادئ الأمر فى الحديث مع الناس المحيطين به .

ومما يزيد الطين بلة حدوث أخطاء فى إدراك الشيخ . والإدراك كما سبق أن قلنا هو الترجمة الفورية لما تنقله الحواس من العالم الخارجى إلى مراكز الترجمة بالمخ فإذا ما حرفت مراكز الترجمة ما ينقل إليها من إحساسات وصورت العالم الخارجى أو الأحداث الخارجية فى صورة وصيغ منحرفة، فإن معنى هذا إذن أن الشخصية تتهم بالخبل أو بالجنون . ولكن هناك فرقا كبيرا بين أن يرى الشيخ فأرًا لا وجود له ويخبر المحيطين به بأنه رآه فيأخذون فى البحث عنه بغير جدوى، وبين أن يقول لذويه إن فلانا قال له كذا وكذا بينما لا يكون ذلك الشخص قد قال شيئًا مما يقوله ويؤكده الشيخ . إن الفأر المزعوم لا يحدث نتائج أخلاقية أو إساءة إلى العلاقات الاجتماعية، ولكن ذكر أشياء لم ترد فى حديث الشخص المفترى عليه قد يقلب الدنيا ويقعدها وقد يسبب نشوء الخصومات بين الناس، أو حتى لقد تشتعل المعارك بين الأسر بسبب مزاعم كلامية سردها الشيخ ليس لها أساس بالفعل .

وعجز الذاكرة أيضا عند الشيخ قد يسبب له ولغيره مشكلات نفسية واجتماعية ذات بال . فلقد ينسى الشيخ بعضا من الأقرباء، فيقابلهم ولا يتبين ملامحهم ومن ثم فلا يقبل عليهم بالتحية أو لايرحب بهم بل يظل واجما لأنه لايعرفهم . ولقد يتبين ملامحهم ولكنه لا يذكر أسماءهم مما يسىء إلى مشاعرهم، إذ ربما يكونون من بين أقرباء من الدرجة الأولى، فيتهم الشيخ وذووه بأنهم غير ودودين أو بأنهم يقصدون إشاعة الجفاء واصطناع هذا الأسلوب من التنكر لذويهم وادعاء عدم تذكرهم . وهم يقولون «إن البعيد من القلب بعيد عن الذاكرة». ولكنهم فى الواقع لا يقفون على جلية الأمر، ولا يعرفون أن ما يبدو فى سلوك الشيخ إن هو إلا معوق نفسى أصاب شخصيته، وأن ما يبديه بإزائهم ليس له رصيد من سوء النية أو من الجفاء بل هو نقص فى الذاكرة ووهن أصاب وظائفها .

ومن المعوقات النفسية أيضا التى قد يصاب بها بعض الشيوخ تلك الهلوسات التى تطاردهم سواء كانت هلوسات مرئية أم هلوسات صوتية أم هلوسات تتعلق

بالرائحة أم بالمذاق . فهم يقعون على أشياء يؤكدون وجودها مع أنهامن صنع خيالهم المريض . ولكن لا يمكن اتهام مثل أولئك الشيوخ بالادعاء أو بالكذب لأن الهلوسات التى يقعون عليها تعتمل بداخلهم بحيث تقنعهم بوجود ما يدركونه فى الخارج الواقع حولهم .



الفصل الخامس

من المسئول عن رعاية الشيخوخة

مسئولية الأبناء والبنات :

يجب تحديد مسئولية رعاية الشيوخ لأن تحديد تلك المسئولية كفيل بالطمأنينة على مستقبل الشيخوخة وبقضاء تلك المرحلة العمرية فى صحة وسعادة ويسر. و لسنا نقصد هنا بالرعاية أننا نعترف بأن الشيخوخة مرحلة العجز والتدهور، بل نقصد أن كل مرحلة من مراحل العمر ، بل وكل فئة من فئات الناس بحاجة إلى نوع أو آخر من أنواع الرعاية ، وأنه لا يمكن ترك أية مجموعة من الناس بغير ضمان الرعاية المناسبة لهم . فالإنسان راع ومرعى فى نفس الوقت مهما كانت مكانته الاجتماعية ، ومهما كانت المرحلة العمرية التى بلغها ، ومهما كانت حالته الصحية أو المالية . الصغير والمراهق والشاب والشيخ والمرأة والرجل جميعا بحاجة إلى رعاية ، والجميع يشاركون فى نفس الوقت فى رعاية بعضهم بعضا .

وعلى الرغم من أن الأبناء والبنات يرتبطون بارتباط الدم بآبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم ، فإن تلك الفطرة أو الارتباط الدموى لا يكفى وحده لكى يكون أداة نافعة وناجعة فى رعاية الشيخوخة . ذلك أن الفطرة أو الارتباط الدموى بمثابة الخامة التى تحتاج بعد توافرها إلى تصنيع وصقل ، وذلك بالتدرب على كيفية الرعاية الصالحة بعد إحراز تفهم وبصيرة بطبيعة الشيخوخة وبعد الوقوف على خصائصها العارضة وسماتها الثابتة .

بيد أن رعاية الأبناء والبنات للشيوخ قد لا تتم فى نطاق الشقة الضيقة أوفى

نطاق الأسرة الحديثة التى لا ترحب بوجود الشيوخ فى نطاقها ، أو التى تجد نفسها غير قادرة على الوفاء بالخدمة المناسبة أو الناجعة بإزاء مايحتاجون إليه من رعاية مستمرة و من ملاحظة متواصلة فى بعض الحالات . ومن المؤكد أن موافقة أبناء الجيل القائم على أن يقطن الشيخ فى مؤسسة مستقلة تضمه هو وقرناءه من الشيوخ ليس دليلا على فتور حبهم له أو تفريطهم فى حقوقه الواجبة عليهم ، بل قد تكون موافقتهم على ذلك دليلا على حبهم له واعتزازهم به ومراعاة لسعادته وضمانا له وهو موفور الصحة والنشاط وقضاء أسعد الأوقات . وشاهد ذلك أن الأم الحديثة وهى التى لا يشك أحد فى حبها الشديد لطفلها الصغير الذى لم يمض على ميلاده شهران أو أقل تقوم بتسليمه لدار حضانة ترعاه بدلا منها بحيث لا تكاد تراه سوى ساعات قليلة كل يوم . ولكن حرصها على حسن رعايته يدفع بها إلى إلحاقه بحضانة تحافظ عليه وتقوم برعايته على خير وجه وأحسنه .

فليس إذن إلحاق الشيخ بمؤسسة للشيوخ معناه تخلص جيل الشباب منه أوإقصاؤه بعيدا عنهم لكراهيتهم له أو زهدهم فيه ، بل لضمان ظروف أفضل له يقضى فيها جل وقته حيث يتنفس الحياة ويظل مشرفا على المجتمع ومندرجا فى نطاقه ، ولا يظل حبيس نطاق ضيق لايكاد يرى فيه من الناس إلا من يتطوع للإلقاء إليه بنظرة شفقة عابرة أو يجامله بسؤال عابر ولا يكاد ينتظر منه إجابة عن سؤال يدور حول صحته وأحواله .

فرعاية الأبناء والبنات للشيوخ إذن هى رعاية مستمرة دائبة، ولكننا نفضل لتلك الرعاية أن تكون بغير إثقال على كاهل الجيل القائم ، وذلك بسبب المخاطر الكثيرة التى تحيق بهم وبمن حولهم وتجلب الكثير من الشقاء للأسرة الحديثة، ولا يتأتى عن استمرار وجودهم فى نطاق الأسرة الحديثة سوى التضرر من وجودهم وتمنى الموت لهم باعتبار أن موتهم يريحهم ويريح غيرهم من المتاعب التى يجلبها وجودهم فى نطاقها لهم أجمعين . ومن الممكن فى الواقع أن نصل إلى وضع يجمع بين استمرار رعاية الأبناء والبنات لذويهم من الشيوخ وبين كفالة راحتهم ومراعاة سعادتهم والإحساس بقيادتهم لأسرتهم الصغيرة بغير تدخل من جانب أفراد جيل سابق انقضت مسئولياته التربوية وقد صار كلفا بنفسه وبحاجة أكثر من

غيره إلى الاستمتاع بالراحة والتخفف من أعباء الحياة حفاظا عليه وإبعادا له عن المكدرات او المنغصات ، وبخاصة الشيوخ كما سبق أن أوضحنا - يكونون فى الأغلب مرهفى الحس ويتعرض الكثيرون منهم للوساوس والهلوسات - مما يجعل من الضرورى توجيه وتوفير رعاية خاصة لهم تكفل لهم السعادة وتخفف عنهم ما قد يتعرضون له من اعوجاجات نفسية .

فالواجب إذن أن نقرر أن الشيوخ بحاجة إلى رعاية من أطراف متباينة بحيث لا يشكل أبناؤهم وبناتهم فى تلك الرعاية سوى طرف واحد من بين أطراف متعددة. ولسوف نعرض لتلك الأطراف الأخرى فى البنود التالية بهذا الفصل ، ولكننا نركز هنا على ما يجب أن يسهم به الأبناء والبنات فى رعاية الآباء والأمهات الذين تقدمت بهم السن. وليس من يشك فى أهمية الرعاية النفسية والتعاطف الذى يجب أن يوفره الأبناء والبنات لشيوخهم . ومن المقطوع به أن أحداً غير الأبناء ،والبنات لايمكن أن يوفر ذلك الحنان والعطف والرعاية النفسية مهما بلغ من الحذق فى فن رعاية الشيوخ ومهما أوتى من قلب كبير مفعم بالحب والشفقة، وأفعم بالإنسانية التى تصل إلى ما يقرب من منزلة الملائكية النقية الطاهرة . ذلك أن الشيخ لا يلتذ الالتذاذ كله ولا يحس بالسعادة كل السعادة والطمأنينة كل الطمأنينة والشبع النفسى كل الشبع ، والدفء النفسى كل الدفء إلا إذا هو أحس بأن أبناءه وبناته بارون به ومتعلقون بشخصه وحريصون على راحته ومهتمون بصالحه . فمهما قدم إلى الشيخ من صنوف الحب والمودة والرعاية والعناية ، فإنه لا يستطيع أن يستغنى بحال من الأحوال عن مودة وتعاطف وحنان أبنائه وبناته .

والواقع أن من أشكل المشكلات التى يجابهها الأبناء والبنات إقناع الشيوخ بأن الالتحاق بمؤسسة للشيخوخة أكفل لهم من حيث الراحة والسعادة والاستقرار النفسى من البقاء فى نطاق الأسرة الصغيرة الضيقة المشحونة بالمضايقات والمفعمة بالتوترات والمفتقرة إلى العلاقات الطيبة والعاجزة عن النهوض بمطالب الشيخوخة وهى مطالب متنوعة ومطردة الزيادة والتعقيد مما يجعل أبناء تلك الأسرة - بما يضطربون فيه من شئون الحياة وشواغلها- عاجزين عن القيام بسدها والوفاء بها. فحالما يبدأ الأبناء أو البنات بالتنويه أو بالتلميح إلى تلك المؤسسات، فإن الشيخ

أوالشيخة تأخذ فى البكاء والنحيب وقد خيل إليها أن ابناءها وبناتها قد ضاقوا بها ذرعا، وأنهم يبحثون عن حيلة يتخلصون بواسطتها منها، وأن لا فرق بين إلحاقها بتلك المؤسسة وبين الزج بها فى سجن مؤبد أو فى مقبرة مظلمة مخيفة. ولعل السبب الأساسى فى هذا الموقف من جانب الشيوخ هو أنهم لايحسون بالشيخوخة أو لا يبدأون فى التفكير فى إمكان وقوعها إلا بعد أن تنزل بهم أو بعد أن ينزلوا إليها على حد تصورهم لها أنها كارثة تنزل بالشخص أو هوة ينزل إليها. ولو أن الناس من الشباب قد فكروا فى الشيخوخة قبل بلوغها ، لكانوا إذن قد تدبروا أمرهم ، ولكانوا قد تصوروا أنفسهم ملتحقين ذات يوم بتلك المؤسسة الخاصة بالشيخوخة والتى سوف نحاول رسم خطوطها التى يجب أن تسير وفقها ، بغير أن نعرض لما هو قائم منها حاليا وهى المؤسسات التى قد تكون بها بعض ما نتصوره صالحا للشيخوخة وقد لا يكون .

ونحن عندما نعرض لمؤسسة مثالية ترتسم فى خيالنا لما يجب أن ينخرط الشيوخ فى نطاقه من مؤسسات ، إنما نعنى فى الواقع أن يحيا الشيوخ فى ظل نظام اجتماعى يكفل لهم السعادة والحيوية ، ولسنا نصر على أن تكون المنظمة التى نبتغيها قد سورت بسور وأقيمت لها المبانى وفق طراز معين أو أن يكون بها موظفون من نوع معين ، وإنما نعنى بالدرجة الأولى توفير الجو النفسى والاجتماعى والصحى المناسب للشيخوخة فى أى مكان سواء خصص لتوفيره مبنى قائم بذاته وخصصت له هيئة تقوم على تنفيذ أهدافه الصحية والنفسية والاجتماعية أم لم يخصص. المهم عندنا هو توفير الشروط اللازمة لتحقيق تلك الأهداف الرعوية للشيخ. وبتعبير اخر فقد تكفل الرعاية للشيوخ فى شقتهم الأم تحت رعاية المؤسسة التى سوف نقدم تصورا لها . ذلك أننا نعتقد أن هناك فوارق فردية واجتماعية بين الشيوخ ، وثمة حالات يجب العمل على جمعها فى نطاق واحد وتحت سقف واحد ، بل وبحيث تلقى رعاية واحدة أو رعاية متشابهة . وهناك من الشيوخ من يستطيع أن يكون إيجابيا فيساهم بقدر كبير أو صغير فى رعاية زملائه الشيوخ ، بينما نجد فريقاً آخر من الشيوخ لاطاقة له بتقديم أى عون أو إبداء أية علامة من علامات الإيجابية قبالة زملائه الشيوخ . وبذا فإنه يكون من أولئك الذين يستقبلون بغير أن يقدموا شيئا إلى غيرهم من شيوخ .

والواقع أن مشاركة الأبناء والبنات فى خدمة الشيخ الخاص بهم، أى الأب أو الجد ، أو الشيخة الخاصة بهم ، أى الأم أو الجدة سوف تستلزم دراسة للشيخوخة وإلى الوقوف على الخدمات الصحية والنفسية والاجتماعية المتعلقة بهما . ومعنى هذا فى الواقع هو ضرورة تطوع الأبناء والبنات بمؤسسة الشيوخ التى نفضل أن نسميها بمؤسسة العمر الثانى ، وذلك حتى نتجنب ما علق فى الأذهان من أن لفظ الشيخوخة يوحى بالوهن والضعف وفقدان الأمل فى حياة صحية ونفسية واجتماعية طيبة .

وليس من شك فى أن تطوع جميع أبناء وبنات الشيوخ فى تلك المؤسسة الاجتماعية الخطيرة سوف يضمن توافر أيد عاملة كثيرة يمكن توزيعها حسب احتياجات تلك المؤسسة. وسوف يكون بمقر المؤسسة قسم للداخلية أى للمقيمين بصفة دائمة بها، وسوف تكون هناك أيضا خدمات خارجية بالمنازل التى تضم فى ربوعها بعض الشيوخ . المهم أن الأبناء والبنات سيجدون لأنفسهم أدوارا خدمية هامة يلعبونها فى رعاية ذويهم من الشيوخ ، ويخدمون فى نفس الوقت غير آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم من الشيوخ الذين يكونون بحاجة إلى الخدمة والرعاية والملاحظة .

وحيث إن كل إنسان يستطيع أن يجيد نوعا من الخدمات يؤديها للشيوخ أكثر من إتقانه لأنواع أخرى منها. لذا يجب أن توزع الخدمات على الأبناء والبنات وفق رغبات كل منهم من جهة ، وفى ضوء مدى استعداد كل منهم للنهوض بالخدمات التى يرغب فيها من جهة ثانية ، وفى ضوء ظروف عمل كل منهم ووقت الفراغ المتاح له ومواعيد الأوقات الفارغة التى يمكن ملؤها فى خدمة الشيوخ من جهة ثالثة . ومعنى هذا بتعبير آخر أن الأبناء والبنات سوف لا يناط بهم وحدهم خدمة الأب أو الأم أو الجد أو الجدة من الشيوخ، وإنما سيقوم كل ابن وكل بنت بالجانب الذى تهيأ له بطبعه وهيئ له بالتمرن والتوجيه ، وهيأته له ظروفه الاجتماعية أو الوظيفية ووفره له مستواه الاجتماعى وحالته المادية وحالته الصحية والنفسية إلى غير ذلك من اعتبارات تجعله صالحا لبعض المهام دون البعض الآخر منها.

ومن الطبيعى أن يفتح المجال لتقبل خدمات الشباب من الجنسين ممن ليس لهم شيوخ يجب أن ينهضوا برعايتهم أو أن يساعدوا فى تلك الرعاية. ذلك أن شاب اليوم هو شيخ الغد . فليس غريبا أن يجد الشباب فى أنفسهم دافعا يدفعهم إلى خدمة الشيوخ بغير أن يكون لهم شيوخ على قيد الحياة يقومون بخدمتهم ، بل يكون لديهم باعث نفسى يدفع بهم إلى الإحساس بوجوب خدمة الشيخ مشاركة منهم فى عمل جليل أو لباعث دينى يعتمل بدخائلهم ويشعرهم بمسئولية المساهمة فى مثل هذا العمل الإنسانى الكبير. ومما لا شك فيه أنه إذا كان على الأبناء والبنات أن يساهموا بسهم وافر فى خدمة شيوخهم ، فلابد من قيام الدولة بدور هى الأخرى فى هذا الصدد .

مسئولية الدولة :

عندما نعرض لمسئولية الدولة فإننا نذكر لتونا الإجبار والقسر اللذين ينبغى على الدولة أن تتخذهما بإزاء رعاية الشيوخ. فموقف الدولة من الخدمات ليس موقف المتطوع أو موقف الشخص أو الهيئة المتطوعة لفعل الخير ، بل هى الشخصية المعنوية التى تلزم أجهزتها بتلك الرعاية ، بل والتى تلزم الشيوخ أنفسهم بالخضوع لتلك الرعاية . فكما أن الدولة تفرض الكثير من الخدمات فرضا وإلزاما على المواطنين ، سواء فى مجال الصحة أم فى مجال التعليم أم فى غيرهما من مجالات خدمية، فإنها كذلك يجب أن تأخذ على عاتقها رعاية الشيوخ وأن تضع النظم واللوائح المنظمة لتلك الرعاية ، وألا تقتصر فى ذلك على ماتفعله اليوم من رعاية مادية لهم ، بل عليها أن تمد مظلتها الرعوية للشيوخ إلى جميع المناحى التى تؤثر من قريب أو بعيد فى شخصية الشيخ وفى سعادته ومعنويته .

بيد أن تلك الرعاية التى تتكفل بها الدولة يجب أن تقوم على أسس سليمة حتى تضمن لنفسها النجاح وحتى لا تخضع للشكلية المقننة التى تصير بعد وقت يطول أويقصر مجرد روتين ممض لا يفيد الشيوخ بينما يحمل الدولة عبئا ماليا وجهداً كان أولى بأن يوجه وجهات أخرى مفيدة .

وأول الأسس التى ينبغى مراعاتها ووضعها نصب عينى الدولة تحديد

الأهداف والمبادئ التى يجب عليها مراعاتها فى رعاية الشيوخ . ذلك أن جميع الأعمال والمناشط التى بدئ فيها بغير تحديد دقيق للأهداف سرعان ماباءت بالفشل وحكم عليها بالبوار السريع. أما الأعمال والمناشط التى تحددت أهدافها وتعينت مبادئها بدقة ، فقد ظلت راسخة البنيان ، قوية الأعمدة لا تميد من تحتها الأرض . ومن الطبيعى أن تتركز الأهداف المتعلقة برعاية الشيوخ فى تحقيق السعادة والرخاء والأمل لأفراد هذه الفئة ، وتخليص الأسر مما قد يترتب على الجهل برعاية الشيخوخة من نتائج وخيمة سواء على الشيوخ أنفسهم أو على أفراد الأسر التى تضمهم .

أما الأساس الثانى الذى ينبغى أن تأخذه الدولة فى اعتبارها للنهوض برعاية الشيوخ فهو الأساس العلمى المتعلق بطبيعة الشيخوخة وخصائصها. ذلك أن تفهم نفسية المستهلكين للخدمات يعد شرطا أساسيا للنجاح فى تقدير النوعية السليمة لتلك الخدمات. والواقع أن الارتجال فى تقديم الخدمات منته بلا شك إلى فقدان الكثير من الجهود المبذولة هباء بغير عائد لمن تقدم إليهم أو تبذل من أجلهم. ولقد سبق أن قلنا إن علم النفس لم يؤد واجبه حتى الآن بإزاء فئة الشيوخ ، بل إننا فى مصر والبلاد العربية بحاجة إلى دراسة نفسية لشيوخنا حتى يتسنى الوصول إلى صورة عامة للخصائص النفسية والعقلية التى تجمع كل فئة من فئات الشيوخ تحتها . ناهيك عن الوقوف على الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى يخضع لها الشيوخ فى المناطق والبيئات المختلفة .

أما الأساس الثالث من الأسس التى يجب أن تأخذها الدولة فى اعتبارها فهى الإفادة من خبرات الشعوب والدول الأخرى فى مجال رعاية الشيخوخة . ذلك أن الخبرات التى يصل إليها شعب ما من الشعوب أو دولة من الدول لا تظل ملكا أواحتكارا لها، بل هى ملك لجميع الشعوب ولجميع الدول ، بل إن واجب تلك الدولة أو ذلك الشعب هو أن يدعو شعوب العالم ودوله إلى الإفادة مما توصل إليه من وسائل ناجعة فى رعاية الشيخوخة. وأكثر من هذا يجب على الأمم المتحدة بما تضمه من منظمات اجتماعية متخصصة أن تسارع إلى نقل تلك الخبرات التى تتأتى

للشعوب والدول على اختلافها إلى سائر الشعوب والدول حتى تفيد منها، وحتى تختصر الطريق أمام الشعوب التى تبدأ فى هذا المضمار .

بيد أننا لا نريد أن تكون الدولة مجرد ناقلة عن غيرها ما استفادته من خبرات بل يجب أن يؤخذ فى الاعتبار الشخصية المستقلة لكل دولة والظروف الخاصة بكل شعب . فيجب أن يكون الانبثاق داخليا وليس خارجيا ، بمعنى أن رعاية الشيخوخة يجب أن تنبع من دخيلة الشعب وأن تكون تعبيرا صادقا عن الاحتياجات والأحوال السائدة وألا تكون مجرد نقل عن الآخرين أو تقليدا لهم أو جريا فى تيارهم. وهذا الأساس المحلى هو الأساس الرابع بين الأسس التى ينبغى على الدولة أن تأخذها فى اعتبارها بإزاء رعاية الشيوخ . ولكن يجب ألا نرى فى هذا الأساس تعارضا مع الأساس السابق وهو الإفادة من خبرات الشعوب والدول الأخرى ، أو تقليلا من شأن هذا الأساس الأخير ، بل يجب أن نشاهد فيه تكاملاً بين الإفادة من خبرات الغير وبين انبثاق العمل فى دخيلة الشعب والتأكيد على الدينامية الداخلية المحلية الخاصة بكل أمة على حدة .

أما الأساس الخامس الذى يجب أن تأخذه الدولة فى اعتبارها فهو الأساس التعاونى . ذلك أن الدولة ربما لا تكون قادرة على تحقيق التجانس بين المتطلبات المتباينة فى رعاية الشيوخ . ولقد يكون اقتصار الدولة على مجرد تقديم الإعانات والإشراف المالى على المؤسسات الأهلية -سواء كانت مؤسسات ينشئها أفراد أم مؤسسات تؤسسها جمعيات- أفضل من تدخلها المباشر فى هذا الصدد. ولدينا مثال على ذلك فى مجال التربية والتعليم . فالمدارس الابتدائية بل والإعدادية والثانوية الخاصة التى يقتصر تدخل الدولة فى عملها على تقديم الإعانات ووضع الشروط الضرورية لحسن سير العمل بها وتركها بعد ذلك تسلك طريقها ، ما تزال أكثر نجاحا من المدارس الأميرية التى تنهض بها الدولة من الألف إلى الياء . فعلى الرغم من أن غالبية المدارس الابتدائية الخاصة - إن لم تكن جميعها - تعتمد فى التدريس على أصحاب مؤهلات علمية وتربوية أقل مرتبة من مؤهلات العاملين بالمدارس الأميرية، فإن نتائج وأنظمة تلك المدارس أفضل من نتائج وأنظمة المدارس الأميرية . وشاهد ذلك الإقبال الشديد عليها .

بيد أنه يجب ألا يفهم من هذا أننا راضون تماما عن المدراس الخاصة ، أو أننا نفضلها من كل جانب على المدارس الأميرية ، أو أننا نعزو حسن نتائجها وما يسودها من نظام إلى أن العاملين بها والمشرفين عليها أفضل من العاملين بالمدارس الأميرية أو المشرفين عليها وأكثر إخلاصا منهم ، ذلك أن هناك عوامل اقتصادية لها أثر فى حسن نتائج تلك المدارس ومستواها النظامى. فالواقع أن المدارس الخاصة تجمع المقتدرين - وخاصة بالمرحلة الابتدائية - بينما تجمع المدارس الأميرية عامة الناس ، وما يتبع ذلك من نشوء ظروف أخرى مواتية كالدروس الخصوصية المنتظمة وتوافر الرعاية الأسرية الممتازة .

والشيء الذى نريد تأكيده هو أن الكثير من الشئون الاجتماعية يجب أن يتم العمل فيه بمبدأ التعاون بين الدولة وبين المؤسسات الخاصة والمؤسسة الأميرية وتسيران جنبا لجنب وفى عدة خطوط مشتركة فيما بينهما لأن ذلك حل لا مفر منه فى كثير من المجالات كالتربية والتعليم و كرعاية الشيخوخة .

ولكن مما لا شك أن على الدولة أن تبادر بإعلان المبادئ واللوائح المنظمة لتلك الرعاية سواء على المستوى الخاص أم على المستوى الحكومى ، فتقو م بتحديد القوانين والنظم المتعلقة بالمؤسسات الخاصة والمؤسسات الحكومية وشروط القبول بها والعاملين بها . الشأن هنا كالشأن بالنسبة للتعليم . فوزير التربية والتعليم يضع القانون المنظم للتعليم الحكومى والتعليم الخاص . وكذا فالمأمول أن يتبلور مشروع لرعاية الشيخوخة بحيث ينص فيه على أن رعاية الشيخوخة إجبارية وأن من الممكن أن تقوم المؤسسات الخاصة والفردية بتلك الرعاية وفق شروط معينة . وطبيعى أن وزارة الشئون الاجتماعية قبل أن تقدم على خطوة كهذه لابد أن تدعو إلى مؤتمر للشيخوخة تجمع فى نطاقه المهتمين بهذا الأمر وتتبادل الآراء منهم قبل أن تقبل على إصدار قانون خاص برعاية الشيخوخة .

أما الأساس السادس من الأسس التى يجب أن تأخذها الدولة فى اعتبارها فهو الأساس الاقتصادى . ذلك أن الكثير من المشروعات الممتازة تتحطم على صخرة الاقتصاد ، وذلك لأن الواضعين لها لم يأخذوا فى اعتبارهم القدرة الاقتصادية للبلد أو للفرد ، أو لم يأخذوا فى اعتبارهم ما يمكن أن يتكلفه المشروع من نفقات لإنشائه،

ثم ما يجب أن يتوافر من مال لمداومة الانفاق غليه . فلقد تجد مصنعا ينشأ ويفرح الجميع بإنشائه ، ولكنه ما يكاد يبدأ فى العمل حتى يكتشف عدم توافر قطع الغيار اللازمة له أو عدم توافر الخامات اللازمة لاستمرار تشغيله أو عدم وجود ضرورة اجتماعية لما يقدمه من إنتاج أو نحو ذلك من جوانب كان يجب أن تؤخذ فى الاعتبار وتقتل بحثا قبل البدء فى التنفيذ. فمن الضرورى إذن أن يدرس مشروع رعاية الشيخوخة دراسة اقتصادية مستفيضة وواقعية ومستقبلية قبل إخراجه إلى حيز التنفيذ ، وحتى قبل عرضه للمناقشة .

والأساس السابع هو الأساس الفارقى فى مشروع رعاية الشيوخ . فالخطأ أن يوضع إطار واحد للرعاية يصب فيه جميع الشيوخ بحجة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص والمساواة وعدم التمييز بين الشيوخ . والواقع أن تفسير مبدأ التكافؤ و المساواة قد يكون تفسيرا حسابيا كما قد يكون تفسيرا هندسيا . والتفسير الحسابى كأن تعطى لكل شخص من الآكلين رغيفا بغير تمييز بين طفل وبين كبير، ولا بين رجل ممعود وبين رجل صاحب شهية مفتوحة . أما التفسير الهندسى فهو الوصول بكل شخص من الآكلين إلى حالة من الشبع الكامل أو إلى نصف الشبع ، فيعطى فى الحالة الأولى لكل شخص الكمية المناسبة لمعدته من الخبز ، بينما يعطى فى الحالة الثانية لكل شخص نصف الكمية التى تشبعه . والتفسير الصحيح لتكافؤ الفرص والمساواة هو التفسير الأخير، حيث يحصل كل شخص على المناسب لحالته ومكانته الاجتماعية . ولذا يجب أن يتوافر بمؤسسة الشيخوخة درجات ومستويات كالشأن بالمستشفيات حيث توجد درجات تجمع كل درجة الفئة الاجتماعية ذات المستوى الاقتصادى المناسب لها ويتضح فى قدرة ما يستطيع أفرادها إنفاقه على الإقامة والعلاج .

والواجب فى الواقع أن تقوم الدولة بمراعاة الفوارق الفردية والفوارق الفئوية بين الشيوخ . ذلك أن الاتجاه الأحادى فى النظر إلى الشيوخ باعتبار أنهم جميعا فئة واحدة وأنه ليس هناك فارق بين شيخ وآخر، لا يوفر الرعاية السليمة للشيوخ ، ولايحقق الهدف الذى من أجله نطالب برعاية الشيخوخة . وبالإضافة إلى مراعاة الفروق الفردية والفئوية بين الشيوخ يجب أيضا توفير فرص الرعاية لجميع الشيوخ

بحيث لا تترك تلك الرعاية للظروف والمصادفات ، أو أن يعتمد فيها على العاطفة تشيع فى القلوب وتنعكس على معاملة الشيوخ فى نطاق الأسر . فالواقع -كما سبق أن أكدنا - أن رعاية الشيخوخة ليست بأقل مهارة وعلما من رعاية الطفولة ورعاية المراهقين ، بل لقد تكون رعاية الشيخوخة على جانب أصعب من حيث المعرفة والمرانة بحيث لا يستطيع إلا من اجتازوا تدريبا دقيقا النهوض بتلك الرعاية على خير وجه.

من هنا فلابد للدولة من العمل على إعداد طائفة من المسئولين عن رعاية الشيخوخة من أطباء وإخصائيين نفسيين وإخصائيين اجتماعيين بل ورجال إحصاء ومتخصصين فى الشئون الاجتماعية المتعلقة بالشيوخ ومشكلاتهم ولابد أن يسير جنبا لجنب مع هذا الإعداد لتلك الفئة من الأطباء والأخصائيين توعية قوية للناس بالمجتمع تقفهم على أهمية رعاية الشيخوخة وضرورة الاهتمام بتلك الرعاية ومعاونة الدولة على النهوض بها ؛ بل ويجب أن يبصر الشعب بأن تلك الرعاية يمكن أن تتم بالمؤسسات الخاصة ، وأن الالتحاق بتلك المؤسسات لا يتضمن مهانة لكرامة الشيخ ولا يقوم دليلا على أن الأبناء والبنات قد تنكروا لشيخهم بإلحاقه بمؤسسة الشيخوخة . ذلك أنه إذا لم يتكاتف الشعب مع الدولة فى هذا الشأن ، فإنها لاتستطيع أن تنهض وحدها بالعمل .

المؤسسة الخاصة :

سبق أن عرضنا لمسئوليتين تجاه رعاية الشيخوخة : المسئولية الأولى منوطة بالأبناء والبنات ، والمسئولية الثانية منوطة بالدولة . وفى هذا المقام نعرض لمسئولية ثالثة هامة هى مسئولية المؤسسة الخاصة فى هذا الصدد. والواقع أن المؤسسة الخاصة عبارة عن هيئة أهلية مستقلة لا تخضع للإشراف المباشر للدولة بل وتنشأ أساسا نتيجة حاجة اجتماعية ملحة تجد لها أصداء فيما يقبل عليه بعض الأهلين أو بعض الهيئات الاجتماعية لسد مطالب تلك الحاجة الاجتماعية الملحة . فالكسب الذى قد تجنيه أية مؤسسة اجتماعية خدمية لا يتأتى لها بادئ ذى بدء، بل قد تكون الخسارة المادية هى الحليف للمؤسسة الاجتماعية التى لها رسالة إنسانية معينة .

ولكن الكسب المادى يتدفق عليها فيما بعد عندما يحس الناس بقيمة وأهمية رسالتها وضرورة الإفادة من الخدمات التى تقدمها ، فيزداد الإقبال عليها ، بحيث يتسنى للمؤسسة عندئذ أن ترفع السعر الذى تتقاضاه عن الخدمات المقدمة ، وبالتالى فإنها ترفع من مستوى الخدمة من جهة، وتحصل على أرباح أكثر من جهة أخرى .

بيد أن الباعث الأساسى الذى من أجله نشأت فكرة إقامة مؤسسة خاصة مستقلة لرعاية الشيخوخة كان باعثا صحيا. ذلك أن الشيخوخة قد ارتبطت فى الأذهان فى كثير من الحالات بمجموعة من الأمراض التى تحتاج إلى مواظبة على تناول بعض العقاقير والحقن بل والانتظام على صنوف معينة من الطعام التى تخلو عادة من الدسم ومن المواد الحريفة مما لا يتوافر تجهيزه بالأسر العادية. ومعنى هذا أن الشيخوخة بدأت أول ما بدأت فى تلك المؤسسات الخاصة باعتبار أنها رعاية صحية . ولكن ما فتئ أن اكتشف المسئولون عن تلك المؤسسات الخاصة أن المسألة لا تقتصر على الرعاية الصحية وحدها ، بل وُجِدت هناك أيضا أنواع من الرعاية النفسية والاجتماعية ترتبط بالرعاية الصحية أشد ارتباط وأقواه بحيث لايمكن توفير الصحة والحيوية والنشاط للشيخ بالاهتمام بالجسم فحسب ، بل لابد أن تتواكب الرعاية النفسية والاجتماعية مع تلك الرعاية الجسمية البدنية .

ولقد وجد أيضا أن الحالة النفسية والجو الاجتماعى السائد حول الشيخ يشكلان عاملا أساسيا فى استمراره فى صحة جيدة، وعلى العكس من ذلك ، فقد وجد أن الظروف النفسية والبيئية المحيطة بالشيخ تؤثر بآثار ضارة وخيمة فى صحة الشيخ ، بل وقد تعمل على فقدانه كل مقومات الصحة والحيوية وتدفع به إلى الانهيار التام أو تفضى به إلى الموت السريع بعد الاطراح بالفراش بلا حول ولا قوة.

والواقع أن مؤسسات الشيخوخة الخاصة التى أقيمت فى مصر كانت خاصة بالأجانب الذين فقدوا أبناءهم فى الحربين العالميتين أوالذين رجع أبناؤهم إلى بلادهم الأصلية أو هاجروا إلى أمريكا وغيرها من أقطار بعيدة تاركين آباءهم وأمهاتهم بغير عائل يعولهم وبغير أسرة تحميهم وبغير أن يكون لديهم إيراد شهرى ثابت يسددون منه إيجار الشقق التى كانوا يقطنونها ، فلجأوا إلى الجهات الدينية

الأجنبية آنذاك فأقامت لهم ملاجئ تحميهم من غائلة الفقر وتحتضنهم وتحميهم من التسول وإراقة ماء الوجه .

بيد أن التجربة التى كانت على مستوى ضيق ولغرض ملح يتعلق ببعض الأجانب سرعان ما أكدت نجاحها وأهميتها بالنسبة لكثير من الشيوخ من الجنسين الذين لم ينجبوا أو الذين لم يسبق لهم الزواج على الإطلاق ولم يعد لهم عائل، أو لم يعد لهم أقرباء مباشرون يقومون على خدمتهم على الرغم من ثرائهم . فأخذ أولئك وهؤلاء فى الانضمام إلى تلك الملاجئ، ولكن على مضض بسبب التسمية التى كانت تتسمى بها وهى ملاجئ العجائز . والواقع أن لفظ «ملجأ» ولفظ «عجائز» يتضمنان إيحاء بأن أعضاءه فقراء وعاجزون عن الاعتماد على النفس . ولذا فإننا اقترحنا استخدام لفظ «مؤسسة العمر الثانى» لتكون عنوانا لكل من تلك المؤسسات الخاصة برعاية الشيوخ.

وهكذا ثبت عدم الاستغناء عن مؤسسات رعاية الشيخوخة بحيث صار الإقبال على الحجز بها بدءاً بمرحلة الشباب ، وصار هناك إقبال منقطع النظير على تلك المؤسسات الموجودة بمصر فى نطاق ضيق للغاية والتى لا تفى باحتياجات الشعب . ومن يوم لآخر يتزايد الوعى بمؤسسات الشيخوخة ويحس الناس بأهمية رعاية الشيخوخة وبضرورة التوسع فى إنشاء مؤسسات العمر الثانى .

والواقع أن المؤسسة الخاصة تحتل مكانة هامة فى رعاية الشيخوخة ، وذلك لأن المؤسسة الخاصة تنبع عن إيمان شخصى وعن حماس يعتمل فى وجدان فرد أوأكثر فيحاول جاهداً بلورة حماسه وتحقيق آماله التى رسمت فى خياله . ونذكر بهذه المناسبة طلعت حرب وحماسه الشخصى لشتييد بنك مصر بمؤسساته المتباينة. ولعلنا نذكر أيضا الكثير من الرواد الاجتماعيين الذين شرعوا فى إخراج ما ارتسم فى أذهانهم من مشروعات خاصة ، ما فتئت بعد ذلك أن تبنتها الدولة وأخذت فى تعميمها والإنفاق عليها وإخراجها من حيز المشروعات الخاصة الضيق إلى حيز المشروعات الحكومية العامة .

ومن الطبيعى أن يبدأ المشروع الخاص بالاختيار والإقبال عليه أو الإشاحة

عنه . ولكى يكون المشروع الخاص مريحا فيجب أن يكون اختياريا وأن يدفع المقبلون عليه والمشتركون فيه ثمن الخدمات التى يتلقونها . ومن الطبيعى أن يغرى أصحاب المشروع الخاص أصحاب الدخول الكبيرة بالإسهام فى المشروع ، أو إغراء بعض الجهات الغنية بالإنفاق عليه أو مساندته ودعمه بالتبرعات والهدايا على الأقل . فإذا ما ثبت نجاح المشروع ، فإن هذا يغرى الدولة بأن تقدم على تقليده وتعميمه والضرب فى إثره . ولاتستطيع الدولة أن تبدأ مشروعا لم يتسن تجريبه فى معمل ضيق ، والمعمل هنا هو المشروع الخاص . فلابد من وجود مثل ذلك المعمل قبل أن تجرؤ الدولة وتقر المشروع أو أن تتوسع فيه أو أن تجازف فتعممه .

وكلما ثبت نجاح القطاع الخاص فى النهوض بمؤسسات رعاية الشيخوخة ، كان ذلك أدعى إلى تهيئة وبلورة الرأى العام حول أهدافها وأهميتها . ومن ثم تعلو الأصوات مطالبة الدولة بضرورة التعميم ، وذلك كما حدث فى مجال التعليم .

فمن المعلوم أن التعليم فى مصر قد بدأ - باستثناء المعاهد الدينية التى كانت ممسكة بزمام التعليم حتى عصر محمد على - بالتعليم الخاص الذى نهضت به بعض الجهات الأهلية ، ثم أخذ ينتشر بعد أن نجحت التجربة ، ثم حملت الدولة العبء الأكبر وقد تأكد لها أهمية التعليم فى إعداد المواطن . ولعل نفس الشىء قد حدث فى مجال الطب والاستشفاء. فالقطاع الخاص يبدأ من النطاق الضيق ثم تأتى الدولة فتتسع بالعمل بل وقد تجعل الإجبار يحل محل الاختيار .

وعلى الرغم من أن المؤسسة الخاصة تعد مرحلة لابد من المرور فيها إلى أن تقتنع الدولة وتتهيأ للتعميم ، فمما لا شك فيه أن للمؤسسات الاجتماعية الخاصة بصفة عامة الكثير من العيوب التى يجب الإشارة إليها، وذلك حتى يتسنى التخلص منها ، وحتى تتجنب المؤسسات الحكومية لدى إنشائها الوقوع فيها . ولا شك أن أول العيوب هو أن الكثير من تلك المؤسسات الخاصة تبدأ بباعث إنسانى ولكنها ما تفتأ تنحدر إلى مستوى الاستغلال والجرى وراء الربح . ومن المؤسف أن غالبية المؤسسات الخاصة تكون معلقة بشخصية منشئها بحيث إنه ما تكاد تلك الشخصية توارى الثرى حتى يتولى أمرها شخص آخر أو أشخاص آخرون ليس لديهم نفس الإيمان ولا نفس الحماس الذى كان صاحب المشروع الأصلى متمتعا بهما فنجد أن

المؤسسة آخذة فى الانحراف عن أهدافها الأصلية أو نجدها قد التوت عن الطريق الذى كانت تسلكه قبلا أو تهبط من حيث مستوى الخدمة التى كانت تقدمها أو من حيث معاملتها للمستهلكين لخدماتها . وبعد أن كان الغرض الأصلى الذى كانت تستهديه المؤسسة غرضا إنسانيا أو روحيا ، فإنه ينحدر إلى مستوى المادة البحت ولا يظل مرفوعا من الشعارات إلا ما يدل على عكس ما تتتجه المؤسسة ، وعكس ما يعتمل فى قلوب الممسكين بزمامها من عواطف أو قيم ، وعكس ما يرتسم فى أذهانهم من أهداف وما يترسمونه من مبادئ .

ومن عيوب المؤسسات الاجتماعية الخاصة ومن بينها مؤسسات الشيخوخة الموجودة حاليا والتى يمكن أن تنشأ مؤسسات على منوالها - التقوقع والنمطية وعدم الإفادة من الخبرات العالمية فى مجال رعاية الشيخوخة والرعاية الاجتماعية بصفة عامة. ذلك أن قدرات المؤسسة الخاصة لا تسمح لها باستشراف العالم الخارجى والوقوف على ما توصل إليه العالم المتحضر بالخارج من خبرات ومهارات وما تم اختراعه من أجهزة وأدوات أو ما تنظم المؤسسة وفقه أو حتى البناء الذى ينشأ خصيصا لها والأثاث الذى تتضمنه والوسائل والمهارات التى تم التوصل إليها بل والدراسات التى تمت بإزاء الفئة الاجتماعية التى تستهدف خدمتها وهى الشيخوخة فى مجالنا هذا . والواقع أن الدولة وحدها هى الجديرة باستجلاب الخبراء فى هذا المجال واستشارة العلماء والرواد بل وعرض المشكلات عليهم وعقد المؤتمرات والندوات لمدارسة المشكلات المتعلقة بهذا المضمار .

ومن عيوب المؤسسة الخاصة الإحساس لدى العاملين بها بأن أى تدخل من جانب الدولة أو من جانب العاملين فيها أو الذين لهم سلطة الإشراف على المؤسسات الخاصة، إنما هو تدخل ضار بالمؤسسة الخاصة ومعوق لها عن الاستمرار فى العمل ، بل ومقيد لحريتها وكابح لها عن اتخاذ الخطوات اللازمة لتقدمها واستمرار ديناميتها وتطورها. وهناك فى الواقع ما يشبه العداء -أو هو العداء نفسه- بين المؤسسات الخاصة وبين الدولة . ولعل ذلك يرجع فى جزء كبير منه إلى بعض التصرفات غير المدروسة وغير المتروية من جانب بعض المسئولين بالدولة تجاه المؤسسات الخاصة، أو إلى بعض التعنت الذى يتبدى فى تطبيق القوانين. ونذكر فى

هذا المقام قضية حديثة ساخنة بين إحدى المدارس الابتدائية الخاصة وبين الإدارة التعليمية التابعة لها، فوفقاً للائحة تلك المدرسة التى قام مدير الإدارة التعليمية والمحافظ باعتمادها فإن التلميذ الذى يرسب فى المواد الدراسية فى أى صف دراسى يجب أن يعيد السنة ويرسب ، ولكن أحد أولياء الأمور الذين قامت المدرسة بترسيب أبنائهم بالصف الخامس احتج لدى الإدارة التعليمية بأن قانون التعليم الابتدائى الموقع عليه من الوزير لا يسمح بالترسيب إلا بالصفين الثانى والرابع . ولجأ إلى المسئولين بالإدارة التعليمية فناصروه على المدرسة. ومن الطبيعى أن يحس أصحاب تلك المدرسة بأن الإدارة التعليمية الممثلة للدولة تناصبهم العداء وأنها تقف لهم بالمرصاد . فالمنطق وليس القانون يقضى بوجوب احترام لائحة المدرسة التى ارتضى ولى الأمر إلحاق ابنه بها .

ولكن هناك فى نفس الوقت بعض الحالات والمواقف التى تكون المؤسسة الخاصة هى المخطئة فيها بل والمستغلة لروادها . فلولا تدخل الدولة للحد من استغلال أصحاب المؤسسات الاجتماعية والتربوية للمستفيدين من خدماتها ، لكانت قد رفعت المصروفات التى تأخذها إلى أضعاف أضعاف ما يحصل اليوم من كل فرد نظير ما يقدم إليه من خدمات ومن هنا فإننا نحبذ إشراف الدولة وتدخلها فى المؤسسات الخاصة برعاية الشيوخ فيما يتعلق بالمسائل المالية وفيما يتعلق بنوعية الخدمات المقدمة إليهم .

المؤسسة التعاونية :

فى مقابل المؤسسة الخاصة التى يمتلكها فرد أو هيئة ، هناك نوع آخر من المؤسسات يمكن أن يكون البديل لرعاية الشيوخ . فلقد تتسنى إقامة مؤسسات تعاونية تشترك فى إنشائها مجموعة من الأسر، أو يسهم فى إنشائها والإنفاق عليها أطراف مختلفة عن طريق الأسهم التى تطرح أمام المساهمين بواسطة أحد البنوك أو عن طريق وزارة الشئون الاجتماعية التى يجب أن تكون أول المشجعين بل والمخطط الأول لمشروع تلك المؤسسات التعاونية .

ومن الممكن أن تدخل وزارة الشئون الاجتماعية كشريك رئيسى أو كشريك

فرعى فى إنشاء تلك المؤسسات التعاونية الخاصة برعاية الشيخوخة ، سواء كان اشتراكها بالمال أم بالخبرة والتخطيط أو التنشيط أو التوجيه . ذلك أن المؤسسة التعاونية لرعاية الشيخوخة بحاجة إلى دفعة أولى قوية وإلى مساندة فعالة سواء كانت مساندة مادية أم معنوية . وحتى إذا كانت هناك بعض التبرعات تقدمها الدولة فى سبيل دعم هذا النوع من المؤسسات التعاونية ، فيجب عدم النكوص عن تقديمها خوف أن يفشل المشروع أو عدم إحرازه للأهداف المرجوة منه .

وهذا يسوقنا إلى التأكيد على ضرورة إصدار قانون خاص بتلك المؤسسات التعاونية، وذلك لأن مثل ذلك القانون يعمل على تشجيع الذين تعتمل لديهم الرغبة فى رعاية الشيخوخة ولكنهم لا يعرفون الحدود التى يعملون فى نطاقها ولا الحقوق والواجبات التى يجب أن يأخذوها فى اعتبارهم .

ومن الممكن أن تكون المؤسسة التعاونية لرعاية الشيخوخة كبيرة بحيث تضم فى نطاقها مئات من الأسر، كما يمكن أن تكون محدودة النطاق بحيث لا تضم المؤسسة الواحدة سوى شيوخ أسرتين أو ثلاث أسر. ويمكن أن تكون هناك مؤسسات تعاونية على مستوى اجتماعى مرتفع جدا ، كما يمكن أن تكون هناك مؤسسات تعاونية عادية أو أقل من المستوى العادى والتى تكون فى حدود قدرة الأسر تحت المتوسطة من الناحية المالية . ولقد يقضى القانون المنظم لتلك المؤسسات بإمكان اشتراك الموظف فى تلك الجمعيات التعاونية نظير اشتراك شهرى بسيط يضمن له الرعاية الكاملة فى شيخوخته فى إحدى مقار المؤسسات التعاونية لرعاية الشيخوخة .

ولقد يتسنى تضمين قانون الإيجارات بنودا تكفل تحويل شقق الأسر التى لم يعد بها سوى الوالدين إلى مؤسسة تعاونية لرعاية الشيخوخة حيث يضمن الوالدان الشيخان رعاية طيبة فى شيخوختهما ويظلان يقيمان بشقتهما بعد أن تشترى المؤسسة التعاونية أثاث الشقة منهما ويقوم المختصون بتحويلها إلى مكان يصلح لسكنى العدد المناسب من الشيوخ الآخرين .

وهناك فى الواقع عدة مزايا للمؤسسات التعاونية التى نعرض لها هنا لرعاية الشيخوخة . وأولى تلك الميزات عدم إتاحة الفرص أمام الأفراد أو أمام الهيئات

الخاصة لاستغلال أفراد الشعب. ذلك أن المؤسسة التعاونية هى ملك لجميع المشتركين فيها أو المساهمين بها بغير أن يستأثر بملكيتها أو إدارتها فرد أو فئة من الناس. فكل قرش ينفقه الشيخ فى مثل هذا النوع من المؤسسات سوف يعود عليه بالنفع. وحتى الأرباح التى تتجمع سوف توزع بالتساوى بين المشتركين ، وأيضا إذا وقعت خسائر فإنها توزع أيضا على المساهمين بالتساوى .

بيد أن المتوقع أن تلك المؤسسات سوف لا تخسر بفضل يد العون التى تمدها إليها الدولة ممثلة فى وزارة الشئون الاجتماعية .

ومن الطبيعى أن يحس كل شيخ فى نطاق هذه المؤسسة بأن المؤسسة ملك له شخصيا ، وذلك لأنه مساهم فيها بماله وجهده . ولقد يتقاضى بعض الشيوخ أجرًا عن بعض ما يقدمونه من أعمال ومن خدمات للمؤسسة. ولقد يجد الشيخ تحقيقا لقدراته ومواهبه فى قيادة زملائه وذلك بانتخابه لمجلس إدار ة المؤسسة وبوضعه فى المكان الذى يحقق ذاتيته . فجميع الشيوخ بالمؤسسة يساهمون فى إدارتها .

والواقع أن للتطوير مجالا أرحب أمام المؤسسة التعاونية منه بالنسبة للمؤسسة الخاصة. ذلك أن المؤسسة الخاصة تكون خاضعة لعقلية واحدة هى عقلية صاحبها أو عقليات مجموعة الأفراد المالكين لزمامها. ولكن بالنسبة للمؤسسات التعاونية فليس هناك مالك محدد ثابت يتحكم فى توجيه دفة العمل بها، بل إن المساهمين يختارون أفضل العناصر للإدارة ، وقد يتسنى تضمين اللائحة المنظمة بأنه لا يجوز الاستمرار بمجلس إدارة المؤسسة لمدة أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات وذلك حتى تتاح الفرصة أمام أكبر عدد من الأشخاص للعمل فى المواقع القيادية بها.

وهذا النوع من المؤسسات يتيح الفرصة أمام جميع أبناء الشعب للمشاركة فى تلك المؤسسات . ذلك أنها تسمح بأن يشترك فيها أى شخص بقدر ما تتيح له موارده المادية بحيث لا يكون الشخص بحاجة إلى واسطة تؤهله للالتحاق بإحدى المؤسسات ، لأن من حقه أن يساهم منذ شبابه فى المؤسسة التعاونية لرعاية الشيخوخة . وأكثر من هذا فإن اشتراك الشخص بتلك المؤسسات قد يعود عليه بالفوائد المادية إذا لم يتح له الالتحاق بها، وذلك بأن ترد إلى الورثة قيمة الأسهم

التى أسهم بها مضافا إليها الأرباح العائدة ، كما أن تلك المؤسسات سوف تحقق وفورات للمشتركين فيها بالأسهم بحيث يمكن توجيهها وجهات أخرى لتحقيق رفاهية الشخص .

ولسوف يكون من المسموح به أن يقوم الشيخ ببيع أسهمه وأن يخرج من المؤسسة. ومعنى هذا أن اشتراك الشخص فى المؤسسة التعاونية لا يعنى ضياع أمواله التى دفعها إذا ما أراد الخروج من نطاقها أو التخلص من الأسهم التى اشتراها لسبب أو لآخر .

ومن ميزات مثل تلك المؤسسة التعاونية أيضا أنها تكفل ضم غير المساهمين فى نطاقها إذا كانت هناك أماكن متاحة لهم وذلك نظير ما يدفعونه من أجور للإقامة والخدمة .

وأخيرا فهذا النوع من المؤسسات قابل للانتشار . فكلما ثبت نجاح الوحدة منها فيما تقدمه من خدمات إلى المساهمين فيها ، فإن ذلك سيكون دافعا إلى إقامة مؤسسات أخرى مناظرة بحيث تكون تلك المؤسسات التعاونية بمثابة المقدمة المنطقية الضرورية لكى تأخذ الدولة فى النهاية على عاتقها إقامة تلك المؤسسات بحيث تصير فى نهاية المطاف مؤسسات حكومية إجبارية لرعاية الشيخوخة فى ظل أصول علمية وتحت إشراف فنى دقيق .

وفى مقابل هذه الميزات للمؤسسات التعاونية هناك مجموعة من العيوب والمخاطر التى تعترض طريق تلك المؤسسات . وأول تلك العيوب والمخاطر هو أن الشيخ عندما يلتحق بالمؤسسة التعاونية فإنه يكون قد خرج بذلك من إطاره الاجتماعى الأسرى ودخل إطارا اجتماعيا آخر لا يشيع فيه الدفء والحنان اللذين كانا يشيعان بأسرته ، وهو الجو الذى اعتاد عليه واطمأن إليه مهما كان به من مضايقات أو توترات. فهو المناخ الملائم لنفسيته وهو الجو الذى ألفه واستنشق عبير الحياة فى نطاقه .

أما العيب الثانى لتلك المؤسسات فيتمثل فى أنها مؤسسات استهلاكية وليست مؤسسات إنتاجية . ومن المعروف أن المؤسسة الاستهلاكية أكثر ميلا إلى الخسارة

منها إلى المكسب . ومعنى هذا أنها تكون عرضة للإفلاس وبالتالى فإن المقيمين بها والذين تقوم بإعالتهم سوف يتعرضون للتشرد بعد أن يكونوا قد ساهموا بأموالهم فى مشروع واعتمدوا عليه واطمأنوا إليه لإعالتهم ورعايتهم فى الشيخوخة .

وواضح أنه من حيث الجوهر فليس ثمة خلاف أو تمايز بين المؤسسة الخاصة وبين المؤسسة التعاونية ، بل إن المؤسسة الخاصة أكثر ضمانا للاستمرار والازدهار وذلك لأن القائم على أمرها يكون حذرا من أن تكون عرضة للإفلاس وذلك برفع الأسعار بحيث تغطى مصاريف الإقامة والخدمات، وبحيث يبقى بعد ذلك ربح يعود إلى جيبه . ناهيك عن أن المؤسسة الخاصة لا تقيد أحدًا بالبقاء فى نطاقها طوال العمر بل هى تتيح الفرصة لأى ملتحق بها بمغادرتها وقتما يشاء .

والواقع أن قيام أصحاب المؤسسة بالإشراف على مؤسستهم يكفل لها الاستقرار والاستمرار، ولا يتوافر ذلك لمجالس الإدارات التى لا يكاد يحس أحد من أعضائها بالمسئولية الكاملة تجاه العمل الذى يقوم به ، أولا تتوافر له السلطة الكاملة للبت والإنجاز. أضف إلى هذا أن تغيير مجلس الإدارة من وقت لآخر يحكم على المؤسسة بأن تكون قليلة الخبرة باستمرار .

وفى حالة تدخل الدولة لمساندة المؤسسة التعاونية فإن ذلك التدخل قد يثقل على كاهل المؤسسة بمرتبات الموظفين أو بالمكافآت تصرف لهم من رأس مال المؤسسة . أضف إلى هذا أن تدخل الدولة فى مثل هذه المؤسسات قد يضربها بالروتين الحكومى المعطل . ولسوف تسرى روح التكاسل والتباطؤ واللامبالاة فى قوام المؤسسة .

أما أن يحيل الشيخ بإرادته شقته إلى مؤسسة تعاونية حيث يشترك شيوخ آخرون معه فى الإقامة بها، فإنه سوف يورثه الحسرة على فقدان ملكيته للشقة وما فيها، ولقدتنشأ منازعات بين صاحب الشقة القديم الذى انتزعت منه أو تنازل عنها بإرادته وبين الشيوخ الجدد المقبلين عليه والمقيمين معه بحيث لا يكون استمرار عيشهم معًا أمرا محتملاً أو مستساغا .

وكون قيام بعض الشيوخ بالعمل فى المؤسسة نظير أجر يأخذونه فإنه

لا يضمن نهوضهم به على خير وجه وأمثله ، إذ إن الكثير من الشيوخ يكونون منهوكى القوى ومنحرفى المزاج بحيث لا يطيقون أولا يستطيعون الاستمرار فى العمل لمدة طويلة أو إتقان ما يقومون بأدائه .

وإذا نظرنا إلى المسألة نظرة واقعية فى ضوء أزمة المبانى ، فإننا نجد أن تشييد مبان جديدة لمثل هذا المشروع سوف يكلف كثيرا بحيث إن الاعتماد فيه على نظام الأسهم لا يكفل له النجاح ، وذلك لأن المشروع كما سبق أن قلنا هو مشروع استهلاكى شأنه شأن أى مشروع لا يدر ربحا بل يحتاج إلى موارد جاهزة للإنفاق عليه .

وبإزاء تلك المشكلات والمعوقات التى تقف حائلا أمام نجاح المؤسسة التعاونية، فإننا نجد أن من الضرورى أن يقف المهتمون برعاية الشيخوخة والباحثون على الصيغة المناسبة لرعايتهم، وأن يكلفوا أنفسهم مشقة دراسة نفسية الشيوخ حتى تأتى الحلول المنفذة متواكبة مع سعادتهم واحتياجاتهم بالإضافة إلى دراسة الإمكانيات المادية المتاحة وما يمكن أن تسهم به الدولة فى هذا الشأن . أضف إلى هذا ضرورة دراسة الحلول التى توصلت إليها الدول الأخرى سواء كانت دولا شرقية أم دولا غربية ، بل ودراسة التاريخ إذ ربما يكون قد تضمن محاولات جديرة باعتبارنا وتعود دراستها بالفائدة .

وأكثر من هذا فمن الممكن عرض هذه المشكلة من خلال وسائل الإعلام على الرأى العام وبخاصة على صفحات الجرائد والمجلات بحيث تتمخض المناقشات عن آراء عملية قابلة للتطبيق ، بل ويمكن الاستعانة بآراء الخبراء فى هذا الشأن ، كما يمكن طرح الموضوع للاستفتاء الشعبى للمفاضلة بين الحلول العملية المقترحة لرعاية الشيخوخة. وطبيعى أن موضوعا بهذا الحجم وعلى هذه الدرجة من الأهمية يصلح للعرض على مجلس الشعب وعلى الهيئات الشعبية . والواجب ألا تقنع الدولة بما تقدمه من معاشات إلى المنتهين من الخدمة فى الحكومة بل يجب أن تبحث أيضا المشكلة من زواياها المتباينة مستعينة فى ذلك بذوى الرأى والخبرة فى الداخل والخارج .

مسئوليتنا حاليا:

لا نستطيع أن نقرر أنه ينبغى الانتظار بغير تقديم أية خدمة ورعاية للشيوخ إلى أن يستقر الرأى على صيغة متبلورة تتم خدمتهم فى إطارها . فإلى أن يتم الاتفاق على صيغة من بين الصيغ الخدمية الممكنة للنهوض بتلك الرعاية على خير وجه ، فإن أمامنا مجموعة من المسئوليات التى لابد من النهوض بها وتحملها بغير تأجيل وبغير أن نخاف من أية نتيجة غير مواتية أو من إحداث أى ضرر من أى نوع يترتب على القيام بها . وليس من شك فى أن المسألة لا تقبل التسويف أو التأجيل لأن الشيخوخة لابد أن تلقى رعاية مناسبة فى أى إطار اجتماعى، بل وفى أى ظرف من ظروف الحياة . فهى لا تختلف فى هذا الصدد عن أية مرحلة عمرية أخرى من حيث حاجتها إلى سد مطالبها وتلبية حاجتها والتخفيف من توتراتها والعمل على حل مشكلاتها .

وما دمنا لم نتفق بعد على صيغة تشكل مؤسسة الشيخوخة وفقها، وحيث إننا سوف نقدم بالفصل التالى تصورا لنادى العمر الثانى كصيغة مقترحة لما نقصده من مؤسسة الشيخوخة التى نرى أنها قمينة بتلبية حاجات ومطالب الشيخوخة، فلا أقل من أن نقدم هنا ما يمكن عمله حاليا بإزاء الشيوخ سواء تم الاتفاق على التصور الذى سنقدمه أم لم يتم الاتفاق عليه. فنحن نرى أن الخدمة والرعاية بالنسبة للشيوخ يمكن أن تتم والشيوخ بمنازلهم وبين أسرهم ، كما نرى أن مثل تلك الرعاية المنزلية التى تعد نوعا من أنواع الافتقاد بحاجة إلى تخطيط وإلى إعداد كبيرين .

والواقع أن افتقاد الشيوخ فى أسرهم يجعلنا نبدأ من حيث الشيوخ بالفعل بغير أن نقوم بعزلهم عن بيئتهم التى يوجدون بها ، وبغير أن نقلقل نفوسهم أو أن نثير مشاعرهم أو أن نبث فيهم الشكوك فى نيات من حولهم من أشخاص ، وقد سبق لنا أن ألمحنا إلى أن الشيخوخة معرضة للكثير من الوساوس والحساسية الشديدة والتوجس فى نيات الآخرين . ولعل افتقاد الشيوخ بمنازلهم وبمحال اقامتهم سوف يساعد من حولهم على تفهم طبيعة هذه المرحلة العمرية ويخفف كثيرا من حدة المشكلات التى قد تنشأ بين الشيخ ومن حوله من أشخاص .

ومن الطبيعى أن تكون نقطة البداية فى هذا العمل هى تحديد أهداف الافتقاد . ذلك أن كل عمل أو كل نشاط يمارس بغير تحديد دقيق لأهدافه وبغير التزام دقيق بتلك الأهداف إنما يبوء بالفشل لا محالة. وليست مهمتنا هنا أن نحدد لمن سيقومون بالافتقاد الأهداف التى سوف يضعونها نصب أعينهم إلا من حيث الخطوط العريضة جدا . ونستطيع أن نلخص تلك الأهداف فى خمسة أهداف رئيسية هى : الأهداف الصحية والأهداف المادية والأهداف النفسية والأهداف الاجتماعية والأهداف الثقافية. وعلى الرغم من تكامل هذه الأهداف وتفاعلها بعضها من بعض ، فإن القائمين بها سوف يتمايزون من حيث إعدادهم للنهوض بها بحيث يختص كل واحد منهم بهدف محدد فى افتقاده .

ومعنى هذا فى الواقع أن لجنة افتقاد الشيخوخة سوف تتكون من خمسة أفراد. طبيب أو من يقوم مقامه (حكيمة مثلا) وأخصائى اجتماعى (أو قد يكتفى بشخص واحد يقوم بالخدمتين النفسية والاجتماعية معاً) ومندوب مالى ومندوب ثقافى . وليس شرطا أن تعمل هذه اللجنة فى وقت واحد بإزاء الشيخ الواحد، بل المهم أنها تشكل بمقر الافتقاد (الجامع أو الكنيسة أو المدرسة أو أية مؤسسة اجتماعية) حيث تضع خطة العمل فى الافتقاد .

ولقد يبدأ العمل بادئ ذى بدء بتشكيل لجان متباينة بحيث تختص كل لجنة بناحية واحدة من النواحى الخمس التى ذكرناها . ولا يكون تشكيل كل لجنة من تلك اللجان الخمس للبدء مباشرة فى العمل بل لتلقى التدريب اللازم قبل مباشرة الافتقاد. ولقد تكون هناك محاضرات مشتركة يتلقاها جميع المفتقدين وذلك كالمحاضرات المتعلقة بنفسية الشيخ أو بالمشكلات التى يتعرض لها . ولكن يجب أن تكون هناك فى نفس الوقت محاضرات أو تدريبات خاصة بكل لجنة لا يتلقاها أفراد اللجان الأخرى. فأفراد اللجنة الصحية مثلا تكون لهم محاضراتهم الخاصة بهم . وفى تلك المحاضرات والتدريبات يتم التأكيد على ما يتعلق بصحة الشيوخ بصفة خاصة ، ويقوم بتقديمها مختصون فى هذا المضمار .

وهناك جانب تنظيمى لابد من توافره بالنسبة لعمل اللجان . فلابد أن يكون هناك مقرر عام لجميع لجان الافتقاد تكون مهمته تنظيم اللجان وتشعيبها ووضع

خطة العمل لها. ولقد يجد ذلك المقرر أن من الضرورى تشكيل لجان لمسح عدد الشيوخ الموجودين فى المنطقة التى سوف يتم فيها الافتقاد . وستكون من مهام المقرر العام تعيين مقرر لكل لجنة افتقاد قد يكون واحدا من بين أعضائها أو قد يكون أحد المتحمسين للفكرة ووهب قدرة معينة على إلهاب قلوب العاملين معه بالحماس للعمل والنشاط والإنجاز. وطبيعى أن يجتمع المقرر العام مع مقررى اللجان لوضع خطة للعمل ولنقد ما تم إنجازه والتطور بالعمل الذى بدئ فيه .

ولسنا نميل إلى أن يصدر تشريع خاص بالافتقاد ، ولكن يجب على وزارة الشئون الاجتماعية أن تتبنى المشروع وأن تكون الرائدة له ، وأن تتلقف الفكرة لتخرجها إلى حيز التنفيذ بحماس. ذلك أنها الجهة الأولى المسئولة عن الشيوخ مسئوليتها عن الأسرة المصرية بجميع أفرادها . بيد أن وزارة الشئون الاجتماعية لاتستطيع وحدها أن تضطلع بهذا العمل الضخم ، بل لابد من تعاون عدة وزارات أخرى معها كوزارة الصحة ووزارة الثقافة ووزارة التعليم ووزارة الإسكان وغيرها من وزارات . ويمكن بالطبع أن توجه الدعوة إلى تلك الوزارات من جانب وزارة الشئون الاجتماعية للاجتماع التأسيسى للمشروع، وهو الاجتماع - أو المؤتمر - الذى سوف تنبثق عنه جيمع الخطوات التالية .

ونود فى هذه المناسبة أن نذكر أن مجال خدمة الشيخوخة بالافتقاد هو مجال خصب فى الواقع ، بل هو مجال تدريبى رائع بالنسبة لطلبة وطالبات معاهد الخدمة الاجتماعية . ففى هذا الميدان يستطيع طالب وطالبة الخدمة الاجتماعية أن يتمرنا على دراسة الحالة، بل وعمل مسح أسرى مفيد والقيام بحل بعض المشكلات الجانبية. وفى هذا المضمار يستطيع طلبة الخدمة الاجتماعية الحصول على معلومات قيمة عن الأسرة المصرية وعن أفراد الشيوخ الذين يفتقدونهم ، بل إنهم سوف يتمرنون على تصميم بعض البطاقات الاجتماعية الجديدة الخاصة بالافتقاد وسوف يحددون بنودها بأنفسهم بحيث يكون تصميم البطاقة الافتقادية فى حد ذاته عملا علميا يقدر الطالب فى ضوئه بإزاء ناحية هامة من إعداده المهنى.

ومن الممكن أن يدور نشاط الطلاب المشتركين فى الافتقاد بل والمتطوعين من غير أولئك الطلاب حول بعض المناشط المتعلقة بالشيوخ . من ذلك مثلا إعداد

برامج ترويحية للشيوخ وهى البرامج التى يشترك فيها بعض الشيوخ بأنفسهم سواء فى الإعداد أم فى التنفيذ. ناهيك عن الرحلات والندوات والمسابقات وغير ذلك من مناشط .

ويجب ألا ننسى دور الخدمة الدينية بالنسبة للشيوخ . وقد تتطلب هذه الخدمة أن ينضم إلى لجنة الافتقاد أحد رجال الدين (المسلمين أو المسيحيين حسب دين الشيخ المفتقد) وذلك حتى يدخل الأمل فى نفسية الشيخ وحتى يعده إعدادا روحيا ليعيش غير محروم من ممارسة المناشط الدينية بالجامع أو الكنيسة بل تنقل إليه تلك المناشط حيث هو ببيته ، ولا تصير شيخوخته سببا فى حرمانه من الاتصال المباشر بالجهات الدينية وما تمارسه من نشاط .

وبالنسبة للفقراء من الشيوخ فإن الافتقاد سوف يحمل إليهم ما يحتاجون إليه من معونات مالية. بيد أن هناك فرقا بين الفقر المدقع الذى يحتاج المتردى فيه إلى إعانات مالية مباشرة إما بالنقد وإما بالأشياء العينية، وبين المشكلات المالية الخاصة بصرف المعاش مثلا أو تأخر بعض المكافآت المستحقة أو توقيع خصومات من معاش الموظف بغير وجه حق، إلى غير ذلك من مشكلات مالية .

وهناك خدمة افتقادية هامة يمكن أن تقدم إلى الشيوخ وهى قضاء «المشاوير» التى يلزم أن يقوموا بها إلى الجهات الحكومية أو غيرها والتى يمكن لغيرهم الاضطلاع بها إذا ما تطوعوا لذلك . فكثيرا ما يتكلف الشيخ مشقة التزاحم فى وسائل المواصلات المكدسة بالركاب وهو يلعن ويسخط وليس من أحد يعطف عليه ويوفر له مقعدا يجلس عليه أو يدله على الموظف المختص بالمصلحة أو الشركة أويقضى له حاجته التى تكلف بسببها المشقة وعانى الأمرين من أجلها .

ولقد تتمثل الخدمة التى يحتاج إليها الشيخ فى مجرد كتابة خطاب لإرساله إلى أحد أبنائه فى الخارج للسؤال عنه بينما يكون الشيخ عاجزا عن الكتابة إما بسبب رعشة أصابت يده أو لعدم توافر أدوات الكتابة بين يديه أو لأنه لا يجد من يرسل له الخطاب بالإلقاء به فى صندوق الخطابات فتكون مهمة المفتقد عندئذ هى كتابة الخطاب للشيخ وإرساله بمعرفته . وعلى الرغم من أن مثل هذا العمل يبدو

بسيطا أو حتى تافها ، فإنه يعد شيئا خطيرا فى نظر الشيخ، بل إنه يشكل إنجازا عظيما فى تقديره .

ولكن يجب أن نحذر من السلبيات التى يمكن أن تشوب عمليات الافتقاد. فلقد يندس بعض سيئى الأغراض بين المفتقدين. فيجب أن نتحرز فى اختيار المفتقد بأن يكون من المشهود لهم بحسن السمعة والبعد عن الانحرافات الجنسية بصفة خاصة خوفا منه على الشبان والشابات الموجودين فى أسرة الشيخ. ولكن يجب ألايكتفى بما قد يكون عليه الشخص من أخلاق حميدة لكى ينضم إلى فرقة المفتقدين، بل لابد من إرساء قواعد خاصة بأخلاقيات الافتقاد وأن تحدد مجموعة من تقاليده وذلك من حيث موعد الزيارة ومدتها ومكان الجلوس مع الشيخ والعلاقة بأفراد الأسرة والمناشط التى يجب إنجازها خلال الزيارة .

والواجب أن يوزع الجهد الافتقادى بالنسبة للجوانب المتباينة للافتقاد ، فيقوم أفراد لجنة الافتقادبافتقاد الشيخ تباعا بحيث يحظى كل شيخ بزيارة أحد أفراد لجنة الافتقاد مرة كل شهر . ففى الأسبوع الأول مثلا يقوم العضو الصحى بالزيارة، وفى الأسبوع التالى الأخصائى النفسى وفى الأسبوع الثالث المسئول المالى ... إلخ. ولابد أن تكون أسرة الشيخ على علم بموعد الزيارة وأن تكون هناك موافقة تحريرية على انتظار عضو لجنة الافتقاد فى نطاق الأسرة .

ولكى تكون هناك جدوى من افتقاد الشيخ ، فلابد من توعية أسرة الشيخ بأهداف الافتقاد وأصوله وما يجب على أفراد الأسرة مراعاته فى تلك الزيارة . فيجب مثلا إفساح الجو لمجالسة المفتقد للشيخ دون سواه من أفراد الأسرة حتى لاتنقلب الزيارة إلى زيارة عائلية عادية وتفقد معناها. ولابد أن تكون هناك صيغة للتقارير تكتب بعد كل زيادة وتكون موضع دراسة من المختصين وأن تلتئم اللجان فى جلسات منتظمة لمدارسة ما يمكن أن يقابلها من مشكلات للتوصل إلى الحلول التى من شأنها أن تجعل مهمة الافتقاد مجدية وذات فاعلية فى تذليل الصعوبات التى تعتور حياة الشيخ، وتخفيف المشكلات التى تقلل من سعادته أو تهبط بمستواه الصحى أو تعمل على تعقيد نفسيته ، أو تؤثر فى علاقاته الاجتماعية بمن حوله من أفراد الأسرة أو غيرهم من أفراد يحتك بهم أويتعامل معهم .

الفصل السادس

اندية العمر الثانى

أهداف النادى ومقوماته :

سبق أن ذكرنا أن من الضرورى أن يلتئم شمل الشيوخ فى كل منطقة فى هيئة جمعية أو ناد ، وذلك لمدارسة المشكلات التى تجابههم ليقضوا وقتا سعيدا فى صحبة بعضهم بعضا ، إذ إن الشيوخ يجدون المتعة والسلوى عندما يجتمعون معًا حول اهتماماتهم المشتركة وحول ذكرياتهم التى يلذ لهم التحدث فيها . ولقد آثرنا استخدام لفظ «نادى العمر الثانى» لكى يكون اسما للجمعية أو النادى المقترح، وذلك لأن لفظ «العمر الثانى» يضفي أملا ورجاء على هذه المرحلة العمرية التى يمر بها الشيخ ، لأن لفظ الشيخوخة قد اكتسب معنى اليأس والقنوط والاقتراب من الموت والانحدار إلى الضعف والذبول.

ولابد لنا بادى ذى بدء أن نحدد أهداف نادى العمر الثانى الذى نقترح إقامته والعمل على تحقيق انتشاره فى جميع الأحياء والبلاد والقرى بعد أن تثبت صلاحيته ونجوعه. ولعل الهدف الأول لنادى العمر الثانى يتبدى فى توفير المجال المناسب لالتقاء الشيوخ. فبدلا من اختفاء الشيوخ وراء جدران المنازل حيث يتوقعون الموت الوشيك، وبدلا من التجاء بعضهم إلى المقاهى حيث يتجمعون بغير أن يعد للقائهم المناخ المناسب أو المناشط التى يحبونها ينشأ لهم ناد ينتظمون فيه ويقضون فيه كل أو بعض وقتهم.

ومعنى هذا أن النادى المنشود سوف يجمع بين مناشطه أنواعا متباينة وخصبة

من المناشط ولا يقتصر على ما يوجد بالمقهى من «طاولة» و«دومينا» وغير ذلك من ألعاب رتيبة وضيقة النطاق. فلسوف يكون إذن بالنادى مجموعة كبيره من المناشط من بينها ألعاب المقهى الموجودة حاليا. فلسوف تتوافر مجموعة من اللعب الرياضية التى تصلح للشيوخ، كما أن المشرفين على النادى وبضمنهم - أو الغالبية منهم - ستكون من الشيوخ أنفسهم ، سوف يضمنون مناشط النادى ألوانا مختلفة ترويحية وثقافية ورياضية وألعاب تسلية ورحلات وحفلات سمر وأفلامًا سينمائية وما يشيع بالمنازل من وسائل إعلام وترفيه، كما ستتوافر بالنادى مكتبة تضم الكتب التى تهم الموجودين ، بل إن مكتبة النادى سوف ترحب بأن يحضر من يشاء من الشيوخ مكتبته الخاصة إلى النادى بحيث تظل إذا أراد ملكا خاصا له ولكن بشرط أن يتنازل عنها للنادى بعد وفاته.

أما الهدف الثانى الذى ينبغى أن يستهديه نادى العمر الثانى فهو استمرار ربط الشيخ بالحياة. ومعنى هذا أن النادى سيصير مكانا مناسبا تلتقى فيه الصحافة والإذاعة والتليفزيون والسياسيون والأدباء وغيرهم ممن يرغبون الالتقاء به من شيوخ. ولا ننسى بهذه المناسبة ما عبر عنه المرحوم الدكتور طه حسين من استياء عندما أفسد التليفزيون فى آخر لقاء له به نظام، بيته حيث عقدت به ندوة لمشاهير الكتاب والعلماء من تلاميذه . فلو أن طه حسين كان قد وجد فى مثل هذا النادى المقترح مكانا مناسبا للالتقاء به ، لما كان قد حدث فى نفسه ذلك الاستياء أوالتضرر بسبب ذهاب التليفزيون إليه فى بيته وإفساد النظام الذى افتنت فيه زوجة الأستاذ العميد.

ولكم ضاع من بين أيدينا الكثير من مشاهير العلماء والأدباء والفلاسفة وراء جدران منازلهم لعدم توافر مثل تلك الأندية التى يمكن أن تجمع شملهم وتظهر العالم عليهم بحيث يظل عطاؤهم مستمرا بعد أن يضربوا فى العمر بسهم وافر.

بيد أن نادى العمر الثانى سوف يجمع فى نطاقه بين الإقامة والانتساب، فلسوف تتاح الفرصة أمام أى شيخ لكى ينتسب إلى النادى بحيث يتمتع بالمزايا والخدمات التى ستكون متاحة للمقيمين به. ولسوف يكفل النادى رعاية الشيخ من جميع الجوانب. فتتوافر به رعاية صحية ورعاية نفسية ورعاية اجتماعية ورعاية

اقتصادية. وسوف يكفل للشيخ حل المشكلات التى قد تعترضه فى حياته أو العمل على التخفيف من حدتها على الأقل.

ولسوف يتم افتقاد الشيخ المنتسب افتقادا منتظما بحيث لا تتباين الخدمة التى تقدم إليه عن الخدمات التى ستتوافر للمقيم بالنادى . ولقد سبق لنا أن عرضنا لمفهوم الافتقاد ووسائله فى الموضوع السابق.

والمفروض فى النادى أن يقدم الخدمات إلى أعضائه بحيث لا يجعل من نفسه هيئة تربح من وراء تقديم خدماتها، بل هى هيئة تعان من الدولة وتتقبل الإعانات من الهيئات والأفراد بما فى ذلك بعض الهيئات الدولية، وذلك حتى تتوافر الرعاية للشيخ بأثمان رمزية، وحتى تقدم إليه أرقى الخدمات بأقل التكاليف.

ومن الممكن بالطبع أن يشترك الشخص فى النادى ابتداء من سن الخمسين أى قبل التحاقه الفعلى بالنادى بعشر سنوات ، وذلك بإسهامه باشتراك رمزى بسيط للغاية حتى يتسنى له الإفادة من الخدمات الصحية وغيرها بالمجان إذا ما صار عضوا فعليا فى النادى . ولسوف يكون هناك نوعان من الاشتراك : اشتراك إقامة كاملة واشتراك انتساب . وفى نفس الوقت سوف يكون بالنسبة للإقامة ثلاث درجات : أولى وثانية وثالثة حتى يوضع كل شيخ فى المستوى الاجتماعى المناسب له والذى اعتاد عليه بقدر الإمكان.

وفى حالة وفاة أحد الشيوخ المقيمين أو المنتسبين ، فإن نادى العمر الثانى سوف يتكفل بجميع المصاريف المتعلقة بالدفن وتشييع الجنازة، بل ويقدم تعويض وداع لأسرته من صندوق النادى. وطبيعى أنه سوف توضع لائحه تنظيمية تتضمن الشروط التى يجب توافرها فى العضو حتى ينال تلك الميزات وغيرها مما سوف يكفله النادى لأعضائه.

وبالنسبة للفقراء من الشيوخ فلسوف تخصص نسبة من العضوية المجانية تماما تقدر بنسبة عشرة فى المائة مثلا من العضويات بالنادى لهذا الغرض . ناهيك عما سيوفره النادى من فرص عمل لأفراد هذه الفئة سواء فى داخل النادى نفسه أم فى المؤسسات وأماكن العمل المجاورة.

أما عن تصورنا للناحية المعمارية لنادى العمر الثانى، فهو أن يكون مقاما على قطعة أرض كبيرة نسبيا لا تقل عن ألف متر مربع، وأن يكون المبنى من طابق واحد باستثناء الجزء الخاص بالإدارة فيمكن أن يتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق، وهو الجزء الذى لا يضطر الشيخ إلى الصعود إليه. ويكون المبنى على شكل حدوة حصان مقسمة إلى ثلاثة أقسام، ويخصص الثلث الأوسط من الحدوة للخدمات العامة التى سنعرض لسردها بالتفصيل، بينما يخصص الثلثان المتطرفان لإقامة الشيوخ بحيث تحتل الحديقة الناحيتين من طرفى الحدوة وبحيث تتوزع حجرات الإقامة على جانبى كل ثلث من ثلثيها وبحيث تطل الحجرات من الناحيتين على الحديقة. ويكون إطلال الحجرات على الحديقة عن طريق فيرندا طولية متسعة تسمح بجلوس الشيخ فيها على كرسى طويل (شيزلونج) كما يكون بها منضدة صغيرة وكرسى آخر عادى. وتفتح الحجرات من الناحيتين إلى الداخل بطرقة طويلة تمتد من طرفى الحدوة إلى مقر الخدمات العامة التى تحتل الثلث الأوسط بالحدوة. وتكون الطرقة كافية لمرور عجلتى جلوس فى نفس الوقت. ذلك أن تلك العجلات ستكون متاحة لكل شيخ حسب رغبته لينتقل بها من حجرته إلى حيث يريد من أماكن بالنادى .

أما بالنسبة لكل حجرة من حجرات إقامة الشيوخ، فإنها سوف تشتمل على سرير ودولاب وتسريحة ومكتب صغير ومكتبة صغيرة وتليفون متصل بحجرة التليفون، ويلحق بالحجرة حمام ودورة مياه خاصة.

أما الثلث الخاص بالخدمات ، فإنه يتضمن فى الطابق السفلى منه صالة الاجتماعات الخاصة والعامة وقاعة السينما والمكتبة والكافتريا والجمعية التعاونية والجامع والكنيسة والصالون الخاص بالاجتماعات الخاصة والمطعم وحجرة العلاقات العامة والخزينة والحسابات ودورة مياه عامة خلافا لدورة المياه الملحقة بكل حجرة من حجرات الإقامة الدائمة، وصالة للموسيقى والإذاعة والتليفزيون وحجرة التليفون وحجرة للكشف والصيدلية وحجرة الإنعاش وحجرة العمليات وحجرة استقبال الضيوف.

أما بالدور الثانى والدور الثالث (إذا لزم وجود دور ثالث) فتوجد السكرتارية

وحجرة المدير وحجرة مجلس الإدارة وحجرة الطبيب المقيم ومكان إقامة الحكيمات ومكان إقامة الخدم والمطبخ وحجرة الغسيل والكى.

ويجب أن يتوافر للنادى سيارة للافتقاد ونقل الشيوخ إلى الأماكن التى يرغبون فى التوجه إليها، ويكون لذلك حساب خاص أو اشتراك معين ، كما تفتح حسابات خاصة بالتليفون وغير ذلك من خدمات على حساب الشيخ، كما تخصص حجرة للأمانات يحتفظ فيها للشيخ بما يرغب فى حفظه ، وقد يتسنى فتح فرع صغير لأحد البنوك لخدمة الشيوخ مما يعفيهم من تجشم التعب بالتوجه إلى مقر البنك لإنجاز الأعمال المصرفية التى اعتادوا إجراءها قبل انخراطهم فى سن الشيخوخة.

وليس بمقدورنا فى هذه العجالة أن نلم بجميع أطراف الخدمات التى يمكن أن يتضمنها نادى العمر الثانى، ولكن الذى نستطيع تأكيده هو أن وجود الشيخ فى رحاب هذا النادى سوف يوفر له أكبر قسط من السعادة ، بل إنه سيضمن له الحياة السعيدة بحيث يظل مرتبطا بالحياة الاجتماعية ومشرفا على الحياة بغير أن يكون منقطعا عنها أو مختفيا عن مسرح الواقع الاجتماعى. وأكثر من هذا فإن هذا النادى سوف يجعل من اليسير على من يرغبون فى الاتصال بالشيوخ أن يتصلوا بهم فى ذلك المكان العام الذى يجمعهم على اختلاف مستوياتهم، بل ويجمع المشاهير منهم والمغمورين فى نفس الوقت. ناهيك عن أن النادى سوف يجمع بين الهدوء فى الحجرات الخاصة بالإقامة الدائمة وبين الحياة الاجتماعية التى لا تختلف كثيرًا عن الحياة بالخارج.

وليس معنى إقامة الشيخ أنه سيصير فى عزلة عن العالم الخارجى، بل سيكون فى مقدوره أن يخرج من النادى وقتما يشاء ثم يعود إليه أيضًا وقتما يشاء بغير حجر على حريته فى الخروج والدخول. ولكن سيوضع نظام لذلك بالتأكيد، لأن النادى سوف يكون المسئول الأول عن سلامة الشيخ، كما سيكون واقفا على الأماكن التى يتوجه إليها حتى يمكن مد يد العون إليه إذا ما جد الجد وصار الشيخ فى حاجة إلى العون أو النجدة.

وبالنسبة للأعضاء المنتسبين من الشيوخ فإنهم سوف يتمتعون بالخدمات

المختلفة الموجودة بالنادى. فلسوف يفتح النادى لهم أحضانه لاستقبالهم وقتما يشاءون بحيث تنتهى خدمة النادى فى الساعة العاشرة مساء ولا يسمح للأعضاء المنتسبين بالمكوث فى رحاب النادى بعد ذلك الوقت خوفا عليهم من مخاطر الطريق وحفاظا على صحتهم وراحتهم. وإذا ما شعر أحد الأعضاء المنتسبين بتعب ألم به فى أثناء وجوده برحاب النادى، فيكون له الحق فى أن يقوم الطبيب المقيم بالكشف عليه وصرف الدواء له وتوصيله بسيارة النادى إلى بيته.

وسيكون للأعضاء المنتسبين الحق فى الإفادة من الخدمات الطبية وصرف ما يلزمهم بالمجان أو بثمن مخفض من صيدلية النادى ، كما سيكون لهم الحق فى الإفادة من الجمعية التعاونية ومن الخدمات المكتبية. ناهيك عن الخدمات النفسية والاجتماعية والثقافية المتباينة التى يوفرها النادى لأعضائه. ذلك أنه لا فرق بين العضو المنتسب من الشيوخ وبين العضو المقيم، اللهم إلا من حيث الإقامة فحسب.

وبالنسبة للزيارات التى قد يقوم بها ذوو الشيوخ فى النادى ، فإنها سوف تتم فى أوقات معينة، ولا تتم بالحجرات بل بقاعة الاستقبال الخاصة بالضيوف.

الإقامة والانتساب :

يجب أن نقرر بادئ ذى بدء أن وضع التنظيمات المتعلقة بالإقامة والانتساب بالنادى على جانب كبير من الأهمية. ذلك أنه إذا ما تقررت تلك التنظيمات واللوائح المنظمة للعضوية بالإقامة أو العضوية بالانتساب ، فإن نادى العمر الثانى سوف يتخذ إذن له الطريق السليم ولا ينحرف عن الأهداف التى حددت له والتى رسمنا لها الخطوط العريضة فى الموضوع السابق.

ولعلنا نبدأ بالشروط الواجب توافرها فى العضو لكى يقبل بداخلية النادى ويكون له حق الإقامة المستمرة به. فنجد أولا أنه إذا كان الزوجان على قيد الحياة، فلابد من قبولهما معًا بالنادى، وبذا فإنهما يقطنان حجرة بسريرين أو بسرير واحد كبير يتسع لشخصين. ولكن إذا كانت هناك رغبة عند أحدهما للالتحاق بالنادى للإقامة فيه دون الآخر، فلابد من الحصول على موافقة تحريرية من الطرف الثانى (الزوج أو الزوجة) بذلك، موقعا عليها من الإخصائى النفسى والإخصائى

الاجتماعى مما يثبت أن الطرف الآخر يوافق على إقامة زوجه بعيدًا عنه . ذلك أن بعض الشيوخ يحبون قضاء شيخوختهم بعيدًا عن ذويهم وبعيدًا عن شريك أو شريكة الحياة بغير أن تكون هناك منازعات أو كراهية فيما بينهما. ولكن من المستحسن أن يلتحق الزوجان بالقسم الداخلى بالنادى وأن يكملا مشوار العمر معًا.

ومن جهة أخرى فشرط موافقة الشيخ أو الشيخة على الالتحاق بنادى العمر الثانى والإقامة به ضرورى للالتحاق به. ولا يكفى بأن تكون تلك الموافقة شفوية بل يجب أن تتم أمام الإخصائى النفسى والإخصائى الاجتماعى للنادى وأن يوقع طالب الإقامة على ذلك . ولا يجوز أن يرغم شيخ أو أن ترغم شيخة على الالتحاق بنادى العمر الثانى للتخلص منه أو منها ، وذلك حفاظا على روح السعادة التى يجب أن تسود النادى وعدم النظر إليه باعتبار أنه سجن أو منفى. أضف إلى هذا وجوب احترام إرادة الشيخ والشيخة وعدم قسرهما على ترك بيتهما بغير اقتناع شخصى بذلك. ومن الطبيعى أنه بعد أن تتوطد أركان أندية العمر الثانى، فإن الاقتناع بأهميتها للشخص سوف يتزايد أكثر فأكثر بحيث تشتد الرغبة لدى معظم الناس وتتوق نفوسهم للالتحاق به وقضاء العمر الثانى فى رحابه.

ولابد من دراسة حالة الشيخ قبل إقرار قبوله بداخلية نادى العمر الثانى. فلابد من قيام الطالب بملء استمارة التحاق بحيث تتضمن تلك الاستمارة جميع البيانات التى تسمح بدراسة وضع الشيخ قبل البت فى قبوله من عدمه. وطبيعى أن تعطى أولوية القبول لمن يتقدمون للالتحاق قبل سن الستين، إذ إن الاشتراكات بالنادى تبدأ قبل الالتحاق الفعلى بسنوات تمتد إلى عشر سنوات أو أكثر. وواضح أنه وقت إنشاء مثل هذا النادى فإن القبول به سيكون مباشرًا لمن بلغوا الستين فأكثر، كما أن باب الحجز سيفتح لمن لم يبلغوا بعد تلك السن.

ومن شروط القبول بالقسم الداخلى بالنادى أن يكون الشيخ غير مرتبط بمسئوليات اجتماعية تحول دون التحاقه بالقسم الداخلى كإعالة أطفال قصر أو الانخراط فى عمل معين يدر عليه ربحا للإنفاق منه على ذويه. فمثل تلك الحالات يمكن أن يقبل أصحابها كمنتسبين للنادى وليس كمقيمين به. فيجب

ألا يكون النادى ملاذا للهرب من مسئوليات اجتماعية أو مالية أو قضائية من أى نوع.

ومن شروط القبول أيضًا بالداخلية حسن السير والسلوك. وهنا لابد من الحرص على قبول الحالات التى لا تجلب انزعاجا لباقى المقيمين بالداخلية، وألا تسبب لهم مشكلات أو توترات. ذلك أن الحرص على نقاء جو القسم الداخلى بالنادى يشكل أساسا لنجاح العمل فيه ويحقق له الأهداف التى يترسمها.

ويجب أيضا دراسة الحالة النفسية للشيخ قبل قبوله بالقسم الداخلى بالنادى. فلابد من التأكد من أنه متمتع بالاتزان النفسى الذى يمكنه من حسن الجوار والعشرة مع غيره من شيوخ النادى ، وذلك لأن الشخص العصبى أو المصاب ببعض الأمراض النفسية التى قد يتعرض لها بعض الشيوخ ، يجعل من النادى مكانا لا يطاق بحيث لا تتوافر السعادة للمقيمين به . على أن تلك الحالات الملتوية نفسيا يمكن أن ينضم أصحابها كأعضاء منتسبين إلى نادى العمر الثانى.

وعلى نفس المنوال يجب أن يعمل كشف طبى على الشخص قبيل انضمامه إلى القسم الداخلى بحيث لا يكون خطر الموت مهددًا له بصورة مباشرة. فلا تقبل مثلا حالات النزع الأخير أو المصابون بأى مرض يؤكد الأطباء أنه من الأمراض المفضية فى الغالب إلى الموت السريع. بيد أنه بالنسبة للحالة الصحية والحالة النفسية، فما دام الشخص قد قبل بالقسم الداخلى فعلى النادى أن يتحمل وجوده بغير أن يلفظه إذا ما أصيب بالمرض الجسمى أو بالمرض النفسى الخطير فى أثناء إقامته به. ذلك أن النادى يصير بمثابة أسرة ثانية للمسن بحيث يكون عليه أن يتحمله مهما تدهورت حالته الجسمية أو حالته النفسية.

أما من حيث المنتسبون فعلى الرغم من أن المجال أيسر أمامهم للانتساب ولقبولهم كأعضاء يترددون على النادى بانتظام أو بغير انتظام وتوفير خدماته لهم سواء ترددوا عليه أم انقطعوا عنه، فلابد أيضًا من وجود بضعة شروط يجب توافرها قبل قبول العضو المنتسب بالنادى. وأول تلك الشروط هو شرط الأولوية بالنسبة للتقدم للانتساب. وليست الأولوية هنا أولوية التقدم بالطلب من حيث تاريخ التقدم به إلى إدارة النادى فحسب، بل هى أيضًا أولوية صغر السن . ذلك أنه كلما

كان المتقدم للانتساب أصغر سنا قبل حلول سن الستين، كان ذلك أفيد للنادى لدعمه ماليا وأدبيا. فالانتساب يبدأ بالاشتراك المادى وأيضًا بالانخراط فى خدمة المقيمين بالنادى وافتقاد الشيوخ المقيمين بمنازلهم والمحتاجين إلى رعاية. وهنا تتبدى الكفالة بين المقبلين على الشيخوخة وبين الذين انخرطوا فيها بالفعل أو وصلوا فيها إلى الذروة. والواقع أنك سوف تجد أولئك المنتسبين من الصغار الذين لم يبلغوا بعد سن الستين وقد شمروا عن ساعد الجد فى خدمة الشيوخ المقيمين والمنتسبين ، وذلك لأنهم سوف يحسون بأن الدور سوف يحل عليهم عندما ينخرطون فى سن الشيخوخة، وأنهم سيعلمون من الآن ما يرغبون أن يعمل لهم عندما تقعدهم الشيخوخة عن مد يد العون إلى غيرهم من شيوخ. ولسوف تجد الكثير من الشيوخ الذين بدأوا فى خدمة غيرهم من الشيوخ قبل حلول سن الشيخوخة وقد استمرأوا تلك الخدمة ووجدوا فيها كل متعة. فيصرون على الاستمرار فى تقديم الخدمات إلى أترابهم بغير كلل أو تضرر.

أما الشرط الثانى من شروط قبول العضو المنتسب فهو سداد الاشتراك بانتظام. والواقع أن هذا الشرط يمكن أن يتوافر آليا بالنسبة للموظفين وذلك باتفاق نادى العمر الثانى مع المصالح الحكومية والشركات والبنوك على استقطاع الاشتراك مباشرة من المرتب وإرساله إلى النادى أو رصده بحسابه الجارى بأحد البنوك. ولسوف يوجد شرط فى التقدم للاشتراك بأنه فى حالة وفاة الشخص المشترك قبل بلوغ الستين فيكون هناك وريث من أقرباء الدرجة الأولى يحل محله فى عضوية النادى، وذلك حتى لا تضيع حقوق العضو المشترك إذا وافته منيته قبل الانخراط بالفعل فى عضوية النادى. ومن الطبيعى أن يقبل النادى الاشتراك لمدد طويلة دفعة واحدة (سنة مثلا أو ثلاث سنوات) ، كما أن من الطبيعى أيضًا أن يتقبل النادى ما يقدم إليه من تبرعات أو إعانات أو أوقاف. فلسوف تجد أن بعض الشيوخ ممن أحسن رعايتهم وقد أوقفوا جميع ممتلكاتهم على النادى أو تبرعوا له بجميع ما يملكونه من منقولات.

أما الشرط الثالث لقبول العضو المنتسب فهو أن يبدى استعداده للمساهمة فى خدمة الشيوخ بالنادى أو خارجه تطوعا منه بغير أجر. ولكن بالنسبة للفقراء من

الشيوخ ، فيكفى أن يبدوا استعدادهم للقيام بتلك الخدمات ويكون على النادى أن يقدر لهم مكافأة مالية عما يقومون به منها سواء كانت خدمات متقطعة أم منتظمة. ولابد بإزاء هذه النقطة أن نوضح أن تنظيم الخدمة التطوعية يستلزم دقة وتفصيلا فى حصر الخدمات المطلوبة بل وإضافة الخدمات التى تنشأ فى المستقبل والتى لا يمكن التنبؤ بها بادئ ذى بدء . أضف إلى هذا ضرورة تشكيل لجان للمتطوعين بحيث ينشأ نوع من التخصص فى الخدمة التطوعية. ولابد للجان التطوع من الالتئام فى جلسات منتظمة حيث تضع خططها وحيث تنوط بالمتطوع ما هو مطلوب منه، وألا تترك الأمور تسير خبط عشواء بل يجب أن تحدد المسئوليات وأن توزع على الأعضاء بحسب قدرة ورغبة وإقبال كل واحد منهم كما وكيفا.

أما الشرط الرابع من شروط قبول العضو المنتسب فهو مدى حماسه ومشاركته الإيجابية فى إقامة صرح النادى وتثبيت دعائمه. فثمة أشخاص لديهم قدرة معينة على التأثير بل وعلى تقديم أفكار صائبة وفعالة ومفيدة للغاية. فمثل أولئك الناس لا يمكن حصر جهودهم بما يقضونه من وقت فى الخدمة بل يكفى أن يقدموا ثمار أفكارهم وأن يبدوا حماستهم لخدمة النادى. فهؤلاء الناس – وهم قلة – ينبغى أن يقفو النادى فى أثرهم وأن يسعى لضمهم إلى عضويته المنتسبة وأن يدعوهم إلى الاجتماعات الرئيسية واستلهام أفكارهم وأخذ مشورتهم والتماس حلول المشكلات التى تعترض سبيل النادى فيما يعرضونه من حلول ومقترحات وآراء. وبهذه المناسبة نؤكد أن على النادى أن يكسب العضوية الانتسابية لمشاهير الصحفيين والكتاب والزعماء السياسيين ورجال الأعمال المبرزين لأن انتسابهم إلى النادى يتأتى عنه الكثير من الفائدة والتقدم والدعاية لوجوده ونشاطه واتساع رقعته وإنشاء الكثير من الأندية على منواله بشتى المناطق بل وفى القرى والنجوع.

أما الشرط الأخير للانتساب فهو الموافقة على لائحة المنتسبين. والواقع أن تلك اللائحة سوف تكون متطورة، ولسوف يكون الأعضاء المنتسبون أنفسهم هم واضعى بنودها والمتطورين بها سواء بالحذف منها أم بالزيادة عليها. ومن الطبيعى أن تبدأ لائحة المنتسبين بسيطة موجزة وقد يقوم بوضعها شخص بمفرده فى ضوء ما يتوقعه من العضو المنتسب. ولكن ما أن يبدأ نشاط النادى بالفعل ، وما أن يقطع

الأعضاء شوطًا كبيرًا أو صغيرا فى العمل الافتقادى وفى خدمة المقيمين من الشيوخ بالنادى ، حتى نجد أن الخبرات المتجمعة قد تزايدت وتكاثفت بحيث يجد الأعضاء بنودا جديدة يجب أن تضاف إلى لائحة الأعضاء المنتسبين، وأن بنودا أخرى يجب أن تحذف. وهنا نقترح ضرورة عقد اجتماع كل ثلاثة أشهر لجميع الأعضاء المنتسبين كجمعية عمومية حيث تناقش العديد من الأمور ومن بينها لائحة الأعضاء المنتسبين وذلك لتطويرها بحيث تظل معبرة عن الواقع من جهة وعن المثل الأعلى المنشود من جهة أخرى.

وبعد أن عرضنا لشروط القبول بالنسبة للمقيمين والمنتسبين من الشيوخ علينا أن نؤكد أن نادى العمر الثانى ينبغى أن يأخذ حذره من تجاوز حدود الكثافة سواء بالنسبة للمقيمين أم بالنسبة للمنتسبين. ذلك أن الظن بأن زيادة العدد معناه إحراز النجاح الأوفر للنادى إنما هو رأى مجانب للصواب. فزيادة شيخ واحد عن الكثافة بالنسبة للإقامة أو بالنسبة للانتساب معناه انخفاض مستوى الخدمة وظهور مشكلات جانبية رديئة لا تحمد مغبتها. ولنذكر أيضًا بالنسبة للانتساب أن القاعات العامة والخدمات العامة فى النادى ستكون محدودة بحدود معينة بحيث يتحتم أن يكون عدد روادها مناسبا لهم.

التكافل بين الشيوخ فى نادى العمر الثانى :

سبق أن قلنا إن النادى سوف يتضمن تكافلا بين الشيوخ بعضهم وبعض بل وبين الشيوخ و الشباب الذين يحسون بدافع داخلى يدفعهم إلى مؤازرة الشيوخ والقيام على خدمتهم وتوفير الراحة لهم ، بل وبين الكهول الذين يبدأون فى تسجيل أسمائهم كأعضاء منتسبين فى نادى العمر الثانى بحيث ينتظمون كأعضاء مقيمين به لدى بلوغهم الستين، أو يستمرون فى حالة انتساب إلى النادى فيتمتعون بما يقدمه إليهم من خدمات وهم باقون فى منازلهم وبغير أن يقيموا إقامة دائمة بالنادى.

والواقع أن التكافل بين الشيوخ بعضهم وبعض يبدو فى الناحية المادية أولا وقبل كل شىء. ذلك أن الأغنياء الملتحقين بالنادى والمقيمين به سوف يكفلون غير

القادرين من زملائهم بالنادى موفرين لهم الإمكانيات المادية ويسددون عنهم بعض النفقات ، بل وقد تمتد مساعدتهم لهم إلى خارج نطاقهم فتشمل ذويهم حيث يقيمون بالخارج. ولسنا نبالغ عندما نقول إن الشيوخ بانتظامهم فى النادى واحتكاكهم بعضهم مع بعض وعيشهم تحت مظلة ناد واحد سوف يحسون بالتقارب الشديد فيما بينهم ، ولسوف ترتفع الفوارق الاقتصادية التى كانت تشكل حواجز قائمة فيما بينهم قبل انخراطهم فى عضوية النادى. ذلك أن الصحبة تقرب القلوب بعضها إلى بعض فتشتد الأواصر وتقوى العلاقات وترفع الكلفة ، بل وينشأ نوع من الأخوة كتلك الأخوة التى تنشأ بين تلاميذ المدارس الداخلية.

وللتكافل المادى زوايا متعددة وألوان متباينة. فثمة النقود تعطى فى اليد، وثمة الديون تسدد ويوفى بها بدلا من الشخص المديون، وثمة الأشياء العينية تقدم إلى الشخص كالطعام ليؤكل والملابس لترتدى والأدوات لتوفر. وثمة خدمات تسدى بغير مقابل كالطبيب يقوم بالكشف على المريض ولا يأخذ منه عوضا عن الكشف والصيدلى يصرف الدواء أو يعطى الحقنة بغير مقابل. ولقد يسمح الكفيل بانخراط المكفول فى رحلة أو حضوره حفلة أو فيلم سينمائى بغير أن يدفع مقابلا لذلك.

وإلى جانب هذا التكافل المادى فهناك التكافل الاجتماعى، وهو يتبدى أول ما يتبدى فى توفير الأمن للآخرين وإعطائهم الثقة بالنفس والطمأنينة إلى الحاضر وتعليق الأمل على المستقبل والرضى عن الماضى. ويتبدى أيضًا التكافل الاجتماعى فى درء بطش الأقوياء عن الضعفاء وإعطاء الضمانات لما قد يحمله المستقبل من مفاجآت غير سارة أو ماقد ينزل على الشخص أو على ذويه من مصائب أو كوارث.

ويرتبط التكافل الاجتماعى ارتباطًا وثيقًا جدًا بالتكافل النفسى. فإشاعة الطمأنينة بالنفس وإزالة شبح الخوف عنها هو تكافل اجتماعى من ناحية مظهره الخارجى، وهو تكافل نفسى من حيث ما يتركه ذلك التكافل الاجتماعى فى نفسية المكفول من أثر نفسى، والواقع أن الشيوخ بحاجة إلى أن تتوافر لهم الطمأنينة على أنفسهم وعلى مستقبلهم ، وشأنهم فى ذلك شأن الطفولة والشباب. فعلى الرغم من أن معظم المحيطين بالشيوخ يعتبرون الشيخوخة نهاية المطاف بحيث لا يقام اعتبار لمستقبل الشيخ، بل تتوقع نهايته سواء فى القريب العاجل أم فى البعيد الآجل، فإن

الشيخ نفسه لا يختلف من حيث نظرته إلى الزمن عن أى شخص آخر فى أية مرحلة عمرية أخرى سابقة. فنظرته إلى المستقبل لا تقل أهمية ولا تختلف من الناحية الجوهرية عن نظرة أى شخص آخر . فمن الممكن أن تتلبس نظرة الشيخ إلى المستقبل بالتشاؤم كما يمكن أن تتلبس بالتفاؤل حسب المناخ الاجتماعى والنفسى الذى نوفره له. ولعل النادى الخاص بالعمر الثانى يشكل الوسيلة الناجعة لتوفير روح التفاؤل بالنسبة للمستقبل، حيث يتسنى تكافل الشيوخ بعضهم مع بعض وذلك لأن من أخطر الشخصيات تأثيرا فى نفسية الشيخ هم الشيوخ أنفسهم. فالأمل الذى يحاول الشيخ بثه فى نفسية تربه الشيخ يتغلغل فى نفسيته ويجد صدى شديداً لديه أكثر مما تصادفه محاولات الشباب فى هذا الصدد.

ولسنا نشك لحظة فى أن الشيوخ بحاجة شديدة بعضهم إلى بعض ، وأن الخدمات التى يمكن أن يسديها الواحد منهم للآخر تتباين من الواحد إلى الآخر. فالشيخ الذى يمكن أن يكفل زملاءه الشيوخ بما لديه من أموال طائلة ، قد يكون بحاجة إلى أن يكفلوه فى الناحية النفسية أو الاجتماعية أو الترويحية أو غير ذلك من مناح كثيرة. ذلك أن مجتمع نادى العمر الثانى سيكون حافلا بنوعيات كثيرة من الشيوخ، ولا يكون مقتصرا على بضع نوعيات قليلة. فمن الناحية الاقتصادية فإنه سيضم الأغنياء والفقراء، ومن الناحية الثقافية سيضم ذوى الثقافات العالية والأميين، ومن الناحية الصحية سيضم الشيوخ الأشداء كما سيضم من ضعفت أبدانهم وسرت الرعشة فى أيديهم أو انحنت ظهورهم بسبب المرض، ومن الناحية الترويحية فسيضم النادى أولئك الفنانين بالمهنة أو بالهواية الذين لديهم القدرة على إشاعة السرور أو الجمال فى نفوس من حولهم ومخالطيهم ، كما سيضم فى نفس الوقت أشخاصا يحتاجون إلى من يحملهم على الابتسام أو من يقفهم على ما فى الحياة من جمال أو اتساق أو أنغام.

وبوجه عام فإنك ستجد نادى العمر الثانى يكفل بعضه بعضا وبخاصة فيما يتعلق بالخبرات المتباينة. ويمكن فى الواقع أن نتصور ذلك المجتمع وهو فى غنى عن معظم ما فى العالم الخارجى من خبرات، وذلك بفضل ما سوف يضمه من نوعيات خبرية متعددة ابتداء من أرفع المستويات المهنية كالطب والهندسة إلى أدناها من

حرف يدوية بسيطة كالسباكة والنجارة والحلاقة والحياكة. من هنا فإن النادى المنشود سيكون بمثابة مدينة صغيرة يمكن أن تعيش بالاكتفاء الذاتى إلى أبعد حد ممكن ولا يكون فى حاجة إلى العالم الخارجى إلا فيما ندر.

وفى استطاعة النادى أن ينسق بين الخبرات الحاشدة به بحيث لا يكون التكافل تلقائيا أو عشوائيا بل يكون خاضعًا لتنظيم دقيق بحيث لا يحس أى شخص به بأنه مسخر ولا ينال ما يستحقه من أجر عن عمله، اللهم إلا أولئك الذين يتنازلون عن حقوقهم بمحض إرادتهم. ومن الممكن استخدام ما يشبه نظام البنوك المتعلق بالحسابات الجارية حتى لا يضطر أى من الشيوخ إلى تخزين أمواله فى جعبته مما قد يغرى بعض الشيوخ المصابين بداء السرقة إلى استلابهم ما لديهم خلسة. ولقد سبق أن اقترحنا بأن ينشئ أحد البنوك فرعا له فى نادى العمر الثانى، وذلك لتنسيق المعاملات المالية بين أفراده بعضهم وبعض فى داخل النادى وبين الأفراد بالخارج وغيرهم من أفراد وهيئات. فتكون من مهام البنك تلقى معاشات الموظفين السابقين ورصدها فى حساباتهم الجارية. ويمكن أن تقوم إدارة النادى بإيداع مستحقات الشيوخ الذين يؤدون خدمات معينة لزملائهم فى حساباتهم الجارية وذلك عن طريق عمليات تنسيقية ومصرفية دقيقة وسهلة فى نفس الوقت.

والقاعدة العامة للتكافل هى أن يعطى من لديه من ليس لديه. ولكن قد يكون العطاء بغير مقابل وقد يكون بمقابل وقد يكون السداد فوريا وقد يكون السداد بالأجل. ولكن يجب ألا نقلل من شأن التكافل التطوعى والمجانى. فمثل ذلك التكافل سوف يبرز للعيان وسيلعب دورا أساسيا فى نجاح رسالة النادى، وذلك لأن الحافز الأساسى لإنشاء مثل هذا النادى هو الدافع الإنسانى الذى من شأنه أن يوفر الرعاية للجميع. وإذا نحن اعتبرنا أن الشيوخ المتقدمين فى السن أكثر من غيرهم حاجة إلى الرعاية، فإننا سنعتبر أن النادى سيضم مستويات متعددة من الشيخوخة، فثمة الشيخوخة الطاعنة فى السن والعاجزة تماما عن كفالة نفسها بحيث تكون بحاجة إلى رعاية مباشرة وإلى سهر مستمر إلى جوارها، بينما نجد شيخوخة أخرى ما تزال قوية وقادرة على إعالة نفسها، بل وإلى تقديم الوافر من صحتها لراحة غيرها. من هنا تبرز أهمية كفالة الشيخوخة القوية للشيخوخة الضعيفة،

والشيخوخة الصحيحة للشيخوخة السقيمة، والشيخوخة المتماسكة للشيخوخة المتداعية.

ولكن يجب ألا ننسى الأدوار الأساسية والخطيرة التى سيلعبها المنتسبون من الكهول من خارج النادى فيما يقدمونه من خدمات ومساعدات ومساندات لغيرهم من زملاء المستقبل المقيمين بالنادى . وبالإضافة إلى هذا يجب ألا ننسى تكافل الشباب المتطوعين لخدمة الشيخوخة. فلسوف يجد الكثير من الشباب من الجنسين متعة شديدة فى خدمة الشيوخ. فكل من له أحد الأقرباء من الشيوخ المقيمين بالنادى سوف يقوم باستمرار بزياراته ورعايته، وسوف يقوم فى نفس الوقت برعاية شيوخ آخرين من المقيمين معه بحاجة إلى رعايته. ولسوف يقوم المختصون بالنواحى الاجتماعية والنفسية بتشجيع الشباب على الانخراط فى تلك الرعاية الاجتماعية، بل إن المشرف الروحى (المسلم أو المسيحى) سوف يقوم بحض الشباب على التضحية فى خدمة الشيخوخة مهما كانت تلك الخدمة مقززة أو منفرة من أجل الحصول على مكافآت السماء بالدنيا والآخرة.

والواقع أن الدول العربية الشقيقة إذا هى الأخرى آمنت بفكرة تلك الأندية وعملت على نشرها بربوعها فإن الأندية التى سوف تنشأ فى مصر ستجد نوعا من التكافل بينها وبين تلك الأندية ، بل إن أندية مصر والدول العربية الخاصة بالعمر الثانى سوف تجد أن من الضرورى عليها أن تتكافل مع الأندية المماثلة لها بالدول الأوروبية والآسيوية والأفريقية وغيرها بجميع أنحاء العالم. ولسوف تتضح أهمية مثل هذا التكافل إذا علمنا أن من الممكن تبادل الزيارات بين شيوخ مصر وبين شيوخ تونس مثلا فيقوم ناديان بالبلدين الشقيقين بتبادل خمسة شيوخ مصريين من المقيمين بالنادى المصرى بخمسة شيوخ تونسيين من المقيمين بأحد أندية العمر الثانى بتونس، وذلك لمدة شهر مثلا، ولا يكون على الناديين فى البلدين الشقيقين سوى توفير عملية السفر للشيوخ فمثل تلك الزيارات التبادلية سوف تفعم حياة الشيوخ بالسعادة ، وسوف توفر لهم فرص اللقاء بأجواء جديدة مما يجدد صحتهم ويوفر لهم قدرا كبيرا من التغيير الاجتماعى المرغوب والمفيد فى نفس الوقت.

وإلى جانب الهدف السياحى الذى يمكن أن توفره مثل تلك الزيارات التبادلية،

فثمة هدف آخر صحى. ذلك أن من الممكن أن يحضر خمسة شيوخ من الصين أو بريطانيا ليحل محلهم فى هذا البلد أو ذاك خمسة شيوخ مصريين بغرض الاستشفاء هنا وهناك. فالخبرة الطبية المصرية يمكن أن تفيد الشيوخ الصينيين أو الإنجليز، كما أن الخبرة الصينية أو الإنجليزية فى مجال الطب يمكن أن تفيد الشيوخ المصريين.

ولسنا نجانب الصواب إذا قلنا إن الدعاية لأندية العمر الثانى بعد إنشائها فى مصر سوف تجد تشجيعا كبيرا من البلاد التى تقدمتنا فى الحضارة والأكثر ثراء منا. فلسوف يتلقى كل واحد من تلك الأندية مساعدات مالية وإنسانية بشرية وتكنولوجية بما لا يقدر بمال من جهات عديدة متباينة. ولسوف نجد الكثير من المغتربين المصريين وأولئك الذين هاجروا وأثروا فى أمريكا وأستراليا والبرازيل من يمدون أيديهم بالعون والمساعدة والتشجيع لتلك المشروعات الإنسانية الهامة. ناهيك عن الخبرات الجليلة التى سوف تحصل عليها مصر ممن سبقونا فى هذا المضمار بحيث لا نجد صعوبات فنية كتلك الصعوبات التى وجدتها الشعوب الرائدة فى هذا المضمار من أمثال شعب السويد.

وإذا كان التكافل ممكنا بين مصر وبين البلاد الأخرى، فالأحرى أن يتوافر بالداخل بين أندية العمر الثانى وبين المؤسسات الأهلية والحكومية بالداخل. وأكثر من هذا فإن الأمل سيكون معقودا بالدرجة الأولى على الدولة فيما سوف توفره بالمجان لتلك الأندية كالتبرع بأراضى المبانى مثلا أو إعفاء النادى من ضرائب الاستيراد بالنسبة لما سوف يستورده من أدوية وأجهزة طبية، بل وتوفير الخبراء المصريين والأجانب بغير مقابل للنهوض بأعباء تلك الأندية وتحديد مسارها فى الطريق السليم. ناهيك عن الإعانات السنوية التى يؤمل أن تقدمها وزارة الشئون الاجتماعية لتلك الأندية.

العاملون بالنادى :

يعتمد نجاح النادى فى الواقع على العاملين الذين يديرون شئونه ويوجهون دفة نشاطه. ذلك أن النادى يتكون من مستهلكين لخدماته وهم الشيوخ الذين أقيم

النادى من أجلهم، ثم من العاملين القائمين بالخدمة والمسئولين عن توجيه المناشط المتباينة الخاصة بهم والذين يقومون بالرعاية المباشرة للشيوخ بالفعل أو بالإشراف على تلك الرعاية، أو الذين يقومون بعمليات مساعدة كالخدمة أو التمريض أو توفير الأدوات والمطالب وإشاعة السعادة فى نفوس الشيوخ.

ومن الطبيعى أن يبدأ الحديث عن مدير النادى. ذلك أن المدير يعد رأس النادى والمسئول عن إدارة المناشط المتباينة به، بل والمسئول عن التنسيق بين الاتجاهات المتباينة التى تبدو بين الشيوخ أو بين العاملين تحت إمرته. ونحن نميل إلى أن يكون المدير من غير فئة الشيوخ، وأن يكون ممن لهم دراية ومعرفة عميقة بالخدمة الاجتماعية، ويكون قد تقلب على ألوان الخدمات الاجتماعية كما يكون متحمسا لقضية خدمة الشيوخ وذا بصيرة نافذة فيما يجب انتهاجه فى هذا المضمار، بل ويحسن أن تكون له فلسفة إيجابية واضحة المعالم والقسمات بصدد هذا المضمار ، ولكى تكون التجربة ناجحة ، فإننا نرى - أو بالأحرى نرجو - أن تجد لها صدى قويا لدى كبار المسئولين بوزارة الشئون الاجتماعية، بل وأن تتحمس الوزيرة نفسها لهذه التجربة فيقع اختيارها شخصيا على ثقة توكل إليه إدارة أول ناد من أندية العمر الثانى، ويكون ذلك تحت رعايتها وتوجيهها مباشرة، بحيث تؤازره وتسانده للتغلب على المشكلات والصعاب التى تقابله. ذلك أن المشروعات الجديدة يمكن أن تصطرع بالمشكلات فتصرعها وتقضى عليها فى مهدها، مما يغرى بعض النقاد باتهام الفكرة الأصلية بالخرق ومجانية الصواب.

ولعلنا فى هذه المناسبة نعرض للمهام المنوطة بالمدير. فنقول أولا إن على المدير أن يضع الهيكل التنظيمى للعاملين تحت إمرته فى نادى العمر الثانى، ثم تحديد المهام المنوطة بكل فرد أو بكل مجموعة، وتوصيف تلك المهام وتبصير العاملين معه بواجباتهم وحقوقهم.

ثم على المدير أن يضع كل شخص فى الموقع المناسب له مع إجراء التبديل المناسب بين الأفراد حسب الحاجة، بل وتعديل العمليات المطلوبة ذاتها. وأكثر من هذا يجب أن يكون له الحق - بل ويكون من واجباته - إبعاد أو فصل العناصر

المعوقة أو الضارة أو المؤذية عن مجال العمل بالنادى، ومن جهة أخرى فيكون من حقوقه - بل ومن واجباته - أن يشجع ويرقى العناصر الممتازة والمفيدة.

وعلى المدير أيضًا استلهام رغبات الشيوخ واستفتاؤهم حول المسائل التى تهمهم والتى تكون هناك بإزائها اختيارات متباينة، وأن يعمل على الاتصال بالجهات المختلفة بخارج النادى حتى تحقق مطالب الشيوخ الموجودين بالنادى، ويجلب لهم الفوائد والميزات الممكنة، ويحمل الهيئات والشركات بل والمصالح الحكومية على تقديم التسهيلات المختلفة التى تكفل رعاية الشيوخ على أحسن وجه وأفضله.

وعلى المدير أيضا الإشراف على الشئون المالية والإدارية والصحية والثقافية وغير ذلك من مناشط والتنسيق فيما بينها، وذلك بعقد اجتماعات منتظمة مع العاملين معه والاستمتاع إليهم والأخذ عنهم وتوعيتهم وتوجيههم ونقدهم. ذلك أن المدير يشكل الدفة المحركة للعمل، أو هو الدينامو الذى يدفع بالشرارة إلى باقى الأجهزة العاملة والتى يحركها بالقوة الدافعة التى تصدر عنه. فإذا كان شخصية محركة ومتطورة وواعية ونابضة بالحياة والحيوية، فإنه يستطيع أن يدفع بالنادى إلى أعلى عليين، والعكس أيضًا صحيح. فالشخصية الخاملة أو الغبية إذا ما تربعت على كرسى القيادة ، فإنها تعمل على شل الأعضاء التى كانت عاملة وتضربها بالبلادة والخمول وتقضى على كل ما كانت تتصف به من حيوية ونشاط.

بيد أننا لا نريد لنادى العمر الثانى أن يسير بطريقة دكتاتورية حيث يقوم بحكمه شخص واحد مهما كان ذلك الشخص متمتعًا بالحكمة والاتزان والرزانة والرصانة، بل نريد للنادى أن ينهج نهجا ديموقراطيا بمعنى الكلمة. والسبيل إلى ذلك هو أن يكون للنادى عمدة من الشيوخ المقيمين والشيوخ المنتسبين. والفكرة التى يحملها اقتراح وجود عمدة للنادى من الشيوخ المقيمين بالنادى هى أن الشيوخ بالنادى يجب أن يحسوا بأن الزعامة الفعلية تقع فى أيديهم وأنهم لم يستحيلوا إلى أطفال يتحكم فيهم شاب من خارج نطاقهم، وإنما ينوب عنهم واحد منهم يحتل مركز عمدة النادى. وهذا العمدة منوط به مهام تشريعية بل وعليه أن يبلور التيارات الفكرية والمطالب المتباينة التى يلح فى تنفيذها لدى المدير بل ولدى باقى المسئولين عن إدارة النادى، بل إن من حقه أن يطالب بتغيير المدير نفسه، وبالأولى تغيير أى من

العاملين من إدارة النادى. ولكن الصلة بين العمدة وبين المدير سوف لا تكون صلة عداء أو خضوع الواحد منهما للآخر، بل ستكون صلة محكومة بالتشريعات التى سوف يصدرها المجلس التشريعى الذى يضم جميع الشيوخ المقيمين والمنتسبين أو مندوبين عنهم تجت زعامة العمدة. فهذا المجلس التشريعى سوف ينتهى فى مناقشاته إلى قوانين تلزم المدير والإدارة بحيث لا يكون من حقهم الخروج على نصوصها. فإذا خرجوا عن أى منها فيمكن المطالبة بعزلهم من مناصبهم أو نقلهم إلى خارج النادى. ذلك أن الغرض من وجود المدير والموظفين الآخرين هو خدمة الشيوخ أولا وأخيرًا والعمل على راحتهم. فإذا لم يوفقوا إلى إرضائهم فإنهم يكونون إذن قد خالفوا عن الأصول التى كان ينبغى عليهم أن يراعوها فى أداء وظائفهم.

وحيث إن التقاء جميع الشيوخ المقيمين والمنتسبين بانتظام قد يكون من المهام المتعذرة بسبب كثرة العدد أو بسبب العقبات المتعلقة بالصحة أو العزوف عن الحضور ، فيمكن الأخذ بنظام الانتخاب للنيابة عن المجموع بمجموعة من الأفراد الذين ينجحون فى الانتخابات، وطبيعى أن يحتل منصب العمدية أكثرهم حصولا على الأصوات ويتشكل من الناجحين فى الانتخاب - ويقترح أن يكون عددهم تسعة أشخاص غير العمدة - مجلس تشريعى واستشارى يناظره مسئولون تنفيذيون بنفس العدد وعلى رأسهم مدير النادى. والمسئولون التسعة والمشرعون التسعة هم للصحة والمالية والعلاقات الخارجية والتمرين والثقافة والقبول ويضاف إليه الانتساب والخدمات وشئون المتطوعين وأخيرًا الإنشاءات.

ويعتبر المجلس التشريعى الاستشارى رقيبا على المجلس التنفيذى والموجه له بل والمحاسب له على أخطائه. وعلى الرغم من أن لكل فرد من أفراد المجلس التشريعى الاستشارى مسئولية خاصة - وهى بالطبع مسئولية تناسب خبراته كأن يتولى مسئولية الصحة مثلا أحد الأطباء الفائزين فى الانتخابات فإن المجلس برمته يجب أن يكون متكاملا بعضه مع بعض وأن يكون لكل عضو به أن يتحدث ويناقش جميع المسائل المطروحة للبحث تحت إشراف العمدة رئيس المجلس. ولهذا المجلس الحق فى استدعاء أى من المسئولين التنفيذيين وبضمنهم المدير وفى حضوره

لمناقشته فى أى مسألة تتعلق بمسئوليته، بل ويحاسبه المجلس على ما يمكن أن يتهم به من تقصير أو تواكل أو تباطؤ أو نحو ذلك من مؤاخذات.

وكما أن المدير يجب - فى رأينا أن يكون من خارج النادى وأن يكون من الشباب - كذلك الحال بالنسبة لباقى الأعضاء التنفيذيين الذين يأتمرون بأوامر المدير. ويمكن أن يتم تعيينهم من قبل وزارة الشئون الاجتماعية أو استعارتهم من الوزارات أو الشركات بحث تكفل لهم علاوتان فوق المرتب لما سوف يتحملونه من مشقات فى العمل بالنادى ولتشجيعهم على بذل الجهد بغير كلل أو ملل.

وإلى جانب الموظفين الدائمين يجب أن يكون هناك بعض المستشارين والخبراء الذين يستدعون بين الحين والحين لكى تعرض عليهم مشكلات معينة ولكى يعملوا على تطوير النادى بما لديهم من خبرة دقيقة وتفكير سديد وإلمام بمجال الشيخوخة أو بالمجالات القريبة منه والمرتبطة به. ولقد يستغنى عن أولئك الخبراء والمستشارين إذا كان من بين الشيوخ المقيمين بالنادى أو المنتسبين إليه الكفاءة الخبرية الناجعة التى تغنى عن سواها من كفاءات خارجية.

وهناك أيضًا الخدمات المساعدة وهى تضم الكتبة والمعاونين والحكيمات كما تضم الذين يقومون بتنظيف وترتيب جميع مرافق النادى بالإضافة إلى قضاء ما يطلبه الشيوخ إليهم من خدمات. ولسوف نجد أن لفيفا من الشباب من الجنسين وقد تطوعوا للمساعدة فى خدمة الشيوخ بالمجان. بيد أن أولئك المتطوعين سوف يخضعون لنظام معين على الرغم من أنهم سوف لا يتلقون أجرًا عما يقومون به من خدمات. أضف إلى هذا أن المنتسبين الذين لم يصلوا بعد إلى سن الستين ولكنهم فى قائمة الانتظار سوف يرغبون فى الانضمام إلى صفوف المتطوعين لتقديم خدماتهم إلى الشيوخ. من هنا فلابد من وضع نظام للتطوع بحيث لا يحدث تكدس فى المتطوعين من جهة، وبحيث لا يوكل إلى المتطوعين ما كان يجب عليهم القيام به من جهة ثانية، وبحيث لا يحدث تخلخل فى بعض الأوقات فيخلو النادى من المتطوعين تماما أو يكاد من جهة ثالثة.

وعلينا ألا ننسى أن الجانب الصحى بنادى العمر الثانى يجب أن يحتل مكانا

بارزا. ولذا فيجب أن يكون هناك إلى جانب الطبيب المقيم - الذى يمكن أن يكون ممارسا عاما - مجموعة من الأطباء المتخصصين الزائرين للنادى، كما يجب أن يكون تحت إمرة كل منهم التجهيزات اللازمة لأداء عمله على أفضل وجه ممكن. فمثلا بالنسبة لطبيب الأسنان يجب أن تتوافر له بالنادى عيادة أسنان كاملة، وأن يتردد لمدة ساعة أو ساعتين يوميا على تلك العيادة، وأن يكون الشيوخ على علم بمواعيد عيادة الأسنان. وما يقال عن طبيب الأسنان ينسحب بإزاء طبيب العين وطبيب الأذن وطبيب القلب وغيرهم من أطباء متخصصين، ولكن تردد المتخصصين على النادى يختلف من حيث الأيام ومدة الإقامة من تخصص لآخر. فبالنسبة لطبيب القلب مثلا لا لزوم لتردده بانتظام على النادى بل يكتفى بأن يكون تحت الطلب فيستدعيه الطبيب المقيم، أعنى الممارس العام عندما تلح الحاجة إليه. ومن الطبيعى أن أولئك الأطباء المتخصصين يحصلون على أجر يتفق عليه معهم من قبل النادى أو من قبل وزارة الشئون الاجتماعية.

وبهذه المناسبة نؤكد أن من الضرورى أن يخضع النادى من الناحية الفنية لوزارة الشئون وأن يكون فى عنقها حتى وإن تعددت وتباينت الخدمات فيه، ولو كان قطاع الخدمات الصحية هو الجانب البارز بين القطاعات المتباينة الأخرى به ومن ثم فيكون على هذه الوزارة أن تنسق بين العاملين بالنادى، بل وأن تنسق بين الأندية المختلفة الخاصة بالعمر الثانى بحيث تمتص الزيادات فى أحدها لكى تسد به العجز فى ناد آخر . ذلك أن زيادة الأيدى العاملة فى أية مؤسسة مؤذٍ لها بدرجة لا تقل عما يجلبه العجز عليها . أضف إلى هذا أن تلك الوزارة سوف تقوم بعمليات النقل بين أندية العمر الثانى حتى تجدد نشاط العاملين بها، وحتى تضع الأشخاص المناسبين فيما يجلب فائدة أكبر ويوفر مستوى أفضل من الخدمة.

ولسوف تقوم الوزارة المذكورة بتدريب العاملين بالأندية وذلك عن طريق ذوى الخبرة فى مصر والعالم العربى من جهة، وعن طريق الخبراء الأجانب الذين تبز بلادهم البلاد الأخرى فى مجالات خدمة ورعاية الشيخوخة من جهة أخرى. ناهيك عن البعثات الخارجية التى سوف تقوم الوزارة بإرسالها إلى البلاد الأجنبية المهتمة بهذا المجال من بين العاملين بأندية العمر الثانى حتى يجلبوا خبرات جديدة

يضيفونها إلى الخبرات الميدانية إلى تأتت وتتأتى لهم من المباشرة والمزاولة والرعاية المباشرة للشيخوخة.

البرنامج اليومى والمناشط الفترية :

بالنسبة للبرنامج اليومى فى النادى يجب أن يعمد واضعوه إلى التوفيق بين شيئين يبدوان فى تعارض وعدم التقاء. الأول - توفير الحرية الشخصية للشيخ وعدم اخضاعه لنظام زمنى صارم حتى لا يحس بأنه غير متمتع بحياته حسب مشيئته الشخصية بل خاضع لمشيئة غيره. الثانى - تحقيق الروح الجماعية فى النادى بحيث لا يستحيل إلى مجموعة من الأفراد المبعثرين الذين لا يستهدفون أهدافا مشتركة ولا يعيشون تحت قبة واحدة. والواقع أنه على الرغم من أن هذين المبدأين يبدوان من حيث الظاهر متناقضين ، فإنهما فى حقيقة الأمر متكاملان بحيث يمكن تحقيقهما معا فى نادى العمر الثانى، وذلك بجعل اللقاءات الجماعية التى يلتئم فيها شمل الشيوخ جميعا اجتماعات محدودة ، وعدم إلزام الشيوخ بالاستيقاظ أو النوم فى ساعات محددة كما هو متبع فى كثير من المعسكرات ومساكن الطلبة. أضف إلى هذا أنه حتى بالنسبة للاجتماعات العامة واللقاءات التى تعقد بشكل جماعى لجميع أعضاء النادى المقيمين والمنتسبين ، فيجب الإغضاء عن المتغيبين وعدم اعتبارهم خارجين على النظام ولا حتى مجرد معاتبتهم على التخلف عن الركب. فالأساس فى برنامج النادى أن يكون اختياريا وأن يكون معبرا عن سعادة واختيارات أعضاء النادى أنفسهم.

من هنا فإن وضع البرنامج اليومى لابد أن يوكل إلى أعضاء النادى أنفسهم ممثلين فى اللجنة التشريعية برئاسة عمدة النادى الذى هو واحد من الشيوخ المقيمين بالنادى. ومن الممكن بالطبع أن يشترك جميع الأعضاء المقيمين والمنتسبين فى وضع البرنامج عن طريق الاستفتاء. ولقد توضع عدة برامج متزامنة ومتباينة للنادى الواحد. فتكون هناك ثلاثة برامج يومية أو أقل أو أكثر بحيث تنخرط كل مجموعة فى إطار برنامج معين تختاره لنفسها لتسير وفقه. ففى الوقت الذى يقضى فيه بعض الشيوخ الأمسية فى الصلاة بالجامع (أو الكنيسة حسب الدين) ربما يفضل البعض الآخر منهم قضاء. نفس الأمسية فى مناقشات اجتماعية أو فى

مشاهدة أحد الأفلام السينمائية أو الالتفاف حول التليفزيون أو قضاء الوقت فى الألعاب المسلية (الطاولة مثلا). وإذا رغب أحد الشيوخ بأن يستقل فى وضع برنامجه الشخصى بحيث لا يخضع لأى نوع من البرمجة فيجب عدم الاعتراض عليه وتركه لسبيله. ومعنى هذا فى الواقع أن البرنامج الجماعى لا يعدو أن يكون تحقيقا للرغبات الفردية وألا يكون إطارا يصب فيه الشيوخ صبا.

وهناك مسألة تناول الوجبات. فهل يتناول الشيوخ الوجبات بعضهم مع بعض أم يتناولونها فرادى؟ نرى بالنسبة لهذا الموضوع أن يكون السير بطريقة التزاوج بين النزعة الفردية وبين النزعة الجماعية. فيعلن مثلا عن مواعيد تناول الوجبات وعن رغبة الشخص فى طريقة تناولها. فإذا ما أبدى رغبته فى تناول طعامه فى حجرته فيخضع النادى لرغبته ويرسل إليه طعامه إلى حجرته فى المواعيد التى يحددها. وعلى العكس فإذا هو أبدى رغبته فى تناول الطعام فى المطعم فتلبى رغبته أيضًا وترتب الموائد على هذا الأساس، ويمكن أن يغير الشخص رغبته فيطلب ارسال وجباته إلى المطعم أو العكس فيطلب إرسالها إلى حجرته.

ومن الطبيعى أن يبدى كل شيخ رغبته فى الطعام الذى يرغب فى تناوله. ولكن هنا سوف يتدخل عامل آخر قسرى هو ما يأمر الطبيب بامتناع الشيخ عن تناوله أو أمره بما ينبغى أن يتناوله. فأمر الطبيب بالنسبة لما يؤكل وما يمنع ينال الأولوية على رغبة الشيخ الشخصية فى نوعية ما يتناوله من طعام. وهنا نذكر القارئ بالتمييز بين الرغبة والحاجة، فإذا ما تعاركت رغبة الشخص مع ما يحتاج إليه جسمه سواء بالإيجاب أم بالسلب ، أعنى بما يجب تناوله وما يجب تجنب تناوله فلابد من ترجيح كفة الحاجات على كفة الرغبات.

ولقد تجد بعض الشيوخ يتشبثون بالحرية الشخصية فى وضع برنامجهم اليومى بأنفسهم بغير تدخل من جانب أحد فى تنظيم الوقت لهم ، بل إن بعضهم قد يعتبر فى ذلك امتهانا لكرامتهم وانتقاصا من حريتهم بل واستعباداً لشخصياتهم. ولكن فى مقابل هؤلاء الشيوخ المتشبثين بحريتهم الشخصية فى تسيير دفة حياتهم حسب مشيئتهم الشخصية، هناك شيوخ آخرون يتمنون أن يجدوا من يضع لهم تخطيطا لحياتهم ودرجهم فى أطر معينة بحيث يسلمون قيادهم لغيرهم ويعتبرونهم

مسئولين عن تنظيم حياتهم لهم. فمثل هؤلاء الناس يرغبون فى أن يضع لهم غيرهم برنامجهم اليومى.

ومن الطبيعى أن يحترم النادى رأى ورغبة كل واحد من الشيوخ. فمن يرغب فى الاستقلال فليستقل ومن يرغب فى أن يوضع له برنامج يومى وأن تنظم له حياته فليوضع له البرنامج ولتنظم حياته. ولكن يجب العمل دائما على جذب أولئك الأشخاص الانعزاليين الذين يهربون من الأضواء ويعمدون إلى تحاشى الاجتماعات والتجمعات مؤثرين الخلوة والبعد عن الناس إحساسا من جانبهم بالنقص أو لكراهيتهم للناس بصفة عامة أو بسبب الخوف من أن يكون فى وجودهم مع الآخرين ما يضايق أولئك الآخرين. فلابد من العمل على درج هؤلاء الاعتزاليين فى نطاق الجماعة ومحاربة النزعة الانعزالية التى تخيم على آفاقهم النفسية وتشجيع الروح الاجتماعية لديهم وإدخال الثقة إلى نفوسهم وإشاعة البهجة فى قلوبهم والتأكيد لهم بأنهم لا يشكلون أداة لمضايقة الآخرين بل على العكس يشكلون أداة لإسعادهم والترفيه عنهم وبث روح الطمأنينة فى قلوبهم.

ومهما كان حماسنا للحرية الفردية شديدًا وقويا، فإننا نجد أن تلك الحرية الفردية لها حدود يجب ألا تتخطاها، فيجب مثلا أن يكون هناك وقت معين لفتح أبواب النادى فى الصباح ووقت لإغلاقها فى المساء. فلا يجوز مثلا ترك الشيوخ يدخلون إلى النادى ويخرجون منه حسب الهوى ، ولا يجوز مثلا الأكل بالطرقات أو على حشائش الحديقة ، ولا يجوز أن يأتى الزوار فى أى وقت بل يجب أن يحترموا المواعيد التى يعلنها النادى للزيارة. ويجب ألا يتمادى الشيخ فى استغلال الحرية الشخصية بحيث تتعارض تصرفاته مع ما تتطلبه راحة أو صحة الآخرين. فلا يجوز مثلا فتح الراديو فى حجرات النوم بصوت مرتفع يعمل على إقلاق القاطنين بالحجرات المجاورة، ولا يجوز ارتداء قبقاب والسير به فى الطرقة، ولا يجوز الكلام بصوت مرتفع خارج الحجرات إلى غير ذلك من تصرفات يمكن أن تزعج أو تضايق الآخرين أو توقظهم من النوم وتضربهم بالأرق نتيجة إزعاجهم فى أثناء نومهم.

ومن الطبيعى أن يسير البرنامج اليومى لأى قاطن بالنادى من الشيوخ بأن تستيقظ فى الصباح ويتجه إلى دورة المياه الملحقة بحجرته ثم يتجه إلى جامع النادى

أو إلى كنيسته حسب دينه ثم يقرأ جرائد الصباح ثم يتناول الفطور ثم يرتدى ملابس الخروج (لأن من قوانين النادى المقترحة عدم دخول قاعة الاجتماعات أو صالة النادى أو المطعم بالملابس التى ينام بها الشيخ كالبيجامة أو الجلابية) وليس هذا من التعنت فى شىء بل إنه سوف يشعر الشيخ بأنه يستعد للخروج من مكانه الضيق وهو حجرته إلى المكان الأوسع حيث يلتقى بالآخرين، كما كان يفعل عندما كان يتوجه إلى المقهى لمقابلة أصدقائه والشيوخ من أمثاله. وفى الساعة الثانية عشرة يتم تناول الغداء ثم الانصراف إلى الحجرات للاستجمام إلى أن يحين وقت التئام الشمل من جديد بعد الظهر حيث ينصرف كل شخص إلى ما يهواه لقضاء الوقت، وفى المساء يتناول الشيخ العشاء وينام.

ولكن كما قلنا فليس هناك برنامج جامد ينخرط جميع الشيوخ فى إطاره بغير مراعاة للفروق المزاجية أو الصحية. وحتى بالنسبة لارتداء ملابس الخروج للتوجه إلى الأماكن العامة بالنادى فلا يلزم به المقعدون الذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم فى إلباس أنفسهم بأنفسهم بل يلزم به فقط أولئك الشيوخ الأصحاء. والواقع أنه بالنسبة للشيوخ بالذات يجب التزام المرونة الشديدة فى التعامل معهم، لأن الأساس الذى يقوم عليه النادى - كما قلنا ونكرر ونكرر - هو إسعاد أولئك الناس والتخفيف عنهم وفتح ربوع الأمل أمامهم ومعاملتهم بما تتطلبه حالتهم الصحية والنفسية. فنظام النادى يجعل لهم، ومن ثم فلا يرغمون على اتباع نظام معين يخالف عن خصائصهم وظروفهم، بل لابد أن يطأطئ النظام رأسه أمامهم ويتكيف لمتطلبات حياتهم وأمزجتهم المرهفة.

وإذا كنا قد قررنا وجوب اتباع نظام يومى على نحو أو آخر يتخلله الكثير من الاعتبارات الفردية، فلابد أن نضيف إلى البرنامج اليومى، ما يجب أن يشيع فى النادى من مناشط فترية؛ ذلك أن الضرب فى إثر نظام يومى روتينى ثابت وغير متغير إنما يضرب الحياة كلها بالجمود والرتابة المملة. من هنا فلابد من تطعيم البرنامج اليومى بمناشط متنوعة وبتغييرات تكسر روح الرتابة والجمود وتبعث على الإحساس بالجدة والحيوية والنشاط.

وهناك مجموعة من المناشط الفترية التى يمكن أن تكسر جمود الروتين

اليومى وصلابة البرنامج اليومى. والواقع أن هناك عنصرين أساسيين يجب أن تشتمل الحياة بالنادى عليهما: العنصر الأول، الروتين اليومى وما يتضمنه من راحة فى الأداء، والعنصر الثانى المفاجأة والجدة والخروج عن الخط الرتيب، فالبرنامج اليومى يحقق المبدأ الأول بينما تحقق المناشط الفترية المبدأ الثانى.

ومن بين المناشط الفترية التى تدخل النشاط والحيوية والجدة فى حياة الشيوخ المقيمين تلك الأفلام الأسبوعية التى يقوم النادى بعرضها عليهم. وهناك من جهة ثانية حفلات السمر التى يمكن أن تشكل بديلا لعرض فيلم سينمائى . ويمكن فى الواقع تخصيص يوم الخميس من كل أسبوع لعرض فيلم أو لانعقاد حفل سمر. وهناك أيضًا المسرح المتنقل الذى يدعى لزيارة النادى من وقت لآخر حيث تعرض المسرحيات الخفيفة وبخاصة المسرحيات الكوميدية المشهورة التى تدخل السرور والابتهاج إلى قلوب الشيوخ.

وهناك أيضًا المسابقات والمباريات المناسبة للشيخوخة التى يمكن إقامتها بواسطة بعض الشخصيات المتمرسة بحفلات السمر وما تتضمنه من مسابقات ومباريات، وفى تلك المسابقات تقدم الهدايا التى يمكن أن تعتبر بمثابة مفاجآت سارة بالنسبة لمن تقدم إليهم من شيوخ. وهناك أيضًا المحاضرات والندوات والمناظرات وأيضًا الزيارات التى يقوم بها أشخاص مبرزون فى الأدب والسياسة والدين إلى نادى العمر الثانى، ولا ننسى ما يمكن أن تقوم به وسائل الإعلام من زيارات متواترة للنادى حيث تأخذ الصحافة الأحاديث من الشيوخ ومن القائمين على شئون النادى، كما يمكن أن تفعل الإذاعة والتليفزيون نفس الشيء.، فعندما يطلع الشيوخ على ما أخذ منهم من أحاديث وما سجل لهم من أحاديث صوتية ومرئية بالإذاعة والتليفزيون، فإنهم يحسون عندئذ بأنهم ما يزالون ذوى فاعلية فى التأثير فى الرأى العام، وأنهم ما يزالون يطلون من نافذة الإعلام على المجتمع ، وأنهم لم ينزووا بعيدا عن الأنظار والأسماع ولم يُقض عليهم بالاختفاء عن الناس إلى الأبد.

ولا ننسى أيضاً تلك المناشط التى تتم خارج نطاق نادى العمر الثانى وبخاصة تلك المناشط المتعلقة بالارتحال والتصييف. والواقع أن الإنسان بحاجة إلى تغيير

الأماكن التى دأب على مشاهدتها فيرى معالم جديدة لم يتعود على رؤيتها. ولكأن الوقوع على تلك المعالم الجديدة يساعد الإنسان على تجديد حياته وإشاعة الحيوية فى أرجاء نفسيته. فالرحلة والمصيف عاملان أساسيان فى إشاعة البهجة والأمل والحيوية فى نفوس الشيوخ. ولكن يجب مع هذا أن تراعى ظروف الشيوخ الصحية والنفسية والاجتماعية فى هذا الصدد. ومعنى هذا أن النادى لا يمكن أن يغلق أبوابه وأن ينتقل جميع سكانه إلى المصيف أو أن يقوموا جميعًا برحلة، بل معناه أن الرحلة والمصيف يقتصران فقط على من تسمح لهم ظروفهم الصحية والنفسية بذلك . فإذا كانت الرحلة أو المصيف، مما سوف يؤثر – أو قد يؤثر – تأثيرا سيئا فى صحة أو فى نفسية الشيخ، فطبيعى أن يترك إذن بالنادى وألا يشترك فى الرحلة أو المصيف حتى ولو أبدى رغبة فى ذلك ، لأن من الضرورى ترجيح كفة الحاجة على كفة الرغبة فى هذا الصدد، كما سبق أن قررنا بإزاء نوعية الطعام الذى قد يرغب الشيخ فى تناوله.

★ ★ ★



الفصل السابع

الرعاية الصحية

الشيخوخة مرض يجب مقاومته:

سبق أن قلنا إن الشيخوخة لا تستلزم بالضرورة الإصابة بمجموعة من الأمراض التى تشيع حاليا بالفعل بين الشيوخ، وأكدنا أن الشخص يمكن أن يقضى شيخوخة صالحة خالية من الكثير من الأمراض التى يرزح تحتها الشيوخ حاليا. ولقد قمنا بتشبيه الشيخوخة بالطفولة وأكدنا أن الكثير من الأمراض التى كانت الطفولة ترزح تحتها لم تكن إلا أمراضا أو أعراضا متزامنة أمكن بالفعل التخلص منها وتحرير الطفولة من براثنها. والشيخوخة على نفس النحو تستطيع أن تلقى عن كاهلها الكثير من الأمراض والأعراض التى تنوء بها اليوم وتخضع لها خضوعا كاملا جعل معظم الناس يعتقدون أن تلك الأمراض مرادفة للشيخوخة، وأن الشيخوخة بالنسبة لتلك الأمراض كالليل بالنسبة للظلام. فكما أن الليل لا يكون ليلا إلا إذا أعتمت الدنيا، كذا فإن الشيخوخة لا تحدث إلا ويكون قد خيم على سماء الشخص تلك الجوقة من الأمراض التى عرفت خطأ بأنها أمراض الشيخوخة، وقد كان الأحرى أن تسمى بالأمراض المصاحبة للشيخوخة حتى لا يفهم أن ارتباط الشيخوخة بها هو ارتباط جوهرى وليس ارتباطا عارضا يمكن فصمه.

ولعلنا نبدأ باستعراض موجز لأهم الأمراض التى يتعرض الشيوخ للإصابة بها. فنجد أولا أن هناك مجموعة من الأمراض المعدية، وهى أمراض يصاب بها الإنسان فى أية مرحلة عمرية وليس فى الشيخوخة وحدها. نعم إنه قد تكون

هناك ظروف مساعدة خلال الشيخوخة تساعد على انتشار بعض الأمراض بالذات بين الشيوخ . فالشخص الذى دأب على الإفراط فى التدخين فى شبابه بحيث صارت رئتاه فى حالة يرثى لها، يكون معرضا فى شيخوخته للإصابة ببعض أمراض الصدر المعدية كالسل مثلا. ويتواكب مع ضعف الرئتين الضعف العام للجسم نتيجة سوء الهضم أو ضعف التغذية أو ما إلى ذلك من عوامل تجعل الجسم ضعيف المقاومة للجراثيم أو للفيروسات التى تهاجمه.

وهناك من جهة ثانية مجموعة من أمراض الضعف الوظيفى أو العجز الوظيفى بالنسبة لبعض أجهزة الجسم أو لغالبية تلك الأجهزة. فتخلف الكبد مثلا عن نهوضه بوظائفه بسبب الضعف أو العجز الذى أصابه إنما يؤثر فى الصحة العامة للشخص بل ويعرضه للانهيار . ويجب أن نميز فى الواقع بين الضعف الوظيفى وبين الانهيار الوظيفى. فضعف الإبصار هو عجز وظيفى بينما يعد العمى انهيارا وظيفيا حيث تفقد العينان وظيفتهما فقدانا تاما.

وهناك من جهة ثالثة فقدان التعاون بين أجهزة الجسم فإذا فقد التعاون مثلا بين الرئتين وبين القلب، فإن الشخص يتدهور صحيا، وقد يتعرض للموت أو يهدد به فى أية لحظة. والواقع أن جسم الإنسان مترابط بعضه ببعض ترابطًا دقيقا ومعقدا، بل إنه متراكب وظيفيا بعضه فوق بعض. فكل يدمن اليدين تتعاون مع اليد الأخرى بل إن اليدين تتعاونان مع الرجلين فى المشى. وكل من العينين تتعاون مع العين الأخرى، بل إن هناك تعاونا وتآزرا بين العينين والسمع. فعندما أسمع صوتًا بأذنى فإنى أوجه إليه بصرى بكلتا العينين لا بعين واحدة فقط وإذا كان هذا هو حال الأجهزة الحسية، فإنه ينسحب أيضًا بإزاء الأعضاء الداخلية. فكل عضو من أعضاء الجسم يتآزر مع الأعضاء الأخرى وتقوم بينه وبينها علاقات دقيقة غاية فى التعقيد . فعندما يشيع الاضطراب فى تلك الوشائج والعلاقات، فإن الجسم يعتبر عندئذ مريضا.

وهناك من جهة رابعة الأمراض الناجمة عن ضعف حيوية الجسم بصفة عامة. ومن أهم أسباب ضعف الجسم نقص الوارد إليه من مواد غذائية من جهة ، ونقص ما يستوعبه الجسم ويفيد منه من جهة ثانية، والميكانزم الحيوى المتعلق

بعمليتى الهدم والبناء الداخليتين وزيادة نسبة الهدم على البناء من جهة ثالثة.

وهناك بالطبع مجموعة كبيرة من الأمراض الوجدانية والأمراض العصبية التى تشيع فى الشيخوخة وهى الأمراض التى لا يمكن عزلها عن الجسم وعن الأحوال الجسمية. ولكننا نؤثر تأجيل الحديث عنها إلى الفصل التالى حيث نخصصه ونركز فيه على الأمراض النفسية والرعاية النفسية . ويكفى هنا أن نشير إلى أن العلاقة بين الجسم والعقل والوجدان إنما هى علاقة حميمة. فلقد تكون الأمراض النفسية جميعا صدى لما أصاب الجسم من خلل ، كما أن الكثير من الخلل الذى قد يصيب جسم الشخص يمكن أن يرتد فى النهاية إلى ما يفكر فيه وما يحسه وما ينشأ بينه وبين الآخرين من علاقات اجتماعية غير سوية أو مرهقة لأعصابه أو مضنية ، بل وما يصادف الشخص من صعوبات فى معترك الحياة سواء ما يقابله فى حياته من صعوبات اقتصادية أم من معاملة قاسية.

ويمكن أن ينظر بوجه عام إلى أمراض الشيخوخة من ثلاث زوايا : زاوية الوراثة والزاوية التراكبية التفاعلية بين الكائن ابتداء مما ورثه إلى نهاية ما توصل إليه من مستوى . وأخيرا زاوية الظروف المتباينة التى يمر بها فى الشيخوخة . فمن حيث الوراثة فإنك تجد أن بعض الناس قد ورثوا مقومات وراثية متينة تأخذ فى التفتح والتفاعل مع المقومات البيئية بحيث يتأتى عن ذلك فى نهاية المطاف شيخوخة متينة. ولعلك تلاحظ أن هناك من الشيوخ من يظل صلب العود قوى البنية متآزر الجسم صحيح العقل متزن الوجدان، ولا يكون لواقعه المتين ذاك من تفسير إلا تفسير واحد هو أنه قد ورث مجموعة من المقومات الوراثية المتينة إلى جانب ما صادفه فى حياته فى نفس الوقت من مجموعة من المؤثرات البيئية الحسنة التى تواكبت مع المقومات الوراثية الطيبة لكى تنتج إنسانا متينا ينتهى به المطاف إلى شيخوخة حسنة.

أما من حيث الزاوية الثانية وهى المكملة للزاوية الأولى ، ففيها تجد أن المؤثرات البيئية تتفاعل باستمرار بغير انقطاع مع الإنسان ويكون التفاعل الحادث مع المركب الأخير ، أعنى مع آخر مستوى تطورى وصلت إليه شخصية الفرد أو قوامه الحيوى. فكلما كان التفاعل مع مؤثرات بيئية مواتية كانت نتيجة التفاعل

لمصلحة الشخص، وكان المتوقع له أن يتمتع بشيخوخة حسنة. وعلى العكس من ذلك إذا كانت التفاعلات الحادثة مع مؤثرات بيئية رديئة فإن الشخص يتدهور وتكون شيخوخته - إذا قيض له أن يصل إلى الشيخوخة- شيخوخة واهنة ممتلئة بالعديد من الأمراض التى تعرف بأمراض الشيخوخة.

أما من حيث الزاوية الثالثة وهى زاوية الشيخوخة نفسها ، فإن الشخص الذى لا يلقى عناية صحية فى شيخوخته فإنه يكون عرضة للانهيار السريع وتأخذ حالته فى التدهور المستمر والسريع فى نفس الوقت . ومن المؤكد أن الشيخوخة لاتختلف فى هذا الصدد عن أية مرحلة عمرية أخرى من حيث أن لها أنواعًا من الرعاية الصحية يجب أن تحظى بها . فإذا لم تتوافر تلك الرعاية فسرعان ما يتعرض الشخص للمرض. والواقع أن الرعاية الصحية فى فترة الشيخوخة ترتكز على أساسين : أساس وقائى وآخر علاجى، فمن حيث الأساس العلاجى فلابد أولا من العمل على تخليص الشيخ من الشوائب الصحية التى لحقت به وأصابته وخرجت به عن الخط الصحى السليم وجعلته رازحا تحت مجموعة من الأمراض بل وتحت مجموعة من الاستعدادات غير المواتية للإصابة بأمراض أخرى أو لاستفحال الأمراض التى أصيب بها بالفعل . أما الأساس الوقائى فيتمثل فى النأى بالشيخ عن مجموعة من المواد الغذائية الضارة بحالته وحضه على التمرس بمجموعة من المناشط الجسمية كالمشى مثلا، وذلك حتى لا يكون عرضة للإصابة بأمراض معينة.

والواقع أن الطب أمامه مشوار طويل ليقطعه فى سبيل الكشف عن الكثير من أسباب أمراض الشيخوخة حتى يتسنى له التغلب عليها وتخليص الشيوخ منها. فعلى الطب أن يكشف النقاب عن العلاقة بين كل نوع من أنواع الغذاء وبين الشيخوخة، بل عليه أن يكتشف علاقة الشيخوخة بأى مادة تدخل إلى الجسم كالتدخين والمخدرات والخمور. ثم عليه أن يبحث فى تأثير الانفعالات فى إحداث الشيخوخة أو التعجيل بها وأثر الحزن والغضب فى هذا الصدد، وكذا أثر النشاط الجنسى وأثر التفكير وأثر الجهد العضلى المبذول فى إحداث الشيخوخة، بل وأيضا أثر كل من النوم واليقظة فى إحداثها. ولعل المشكلة الأساسية التى تجابه

الطب تتبدى فى العثور على الوسائل الكفيلة بالتغلب على عملية الهدم وترجيح كفة عملية البناء حتى يظل الجسم فى حالة من التماسك والحيوية.

ومن المؤسف أن المتبع حاليا بالنسبة للشيوخ هو إهمال الوقاية الصحية والانتظار حتى وقت وقوع البلاء والرزوح تحت وطأة المرض، ثم اللجوء عندئذ إلى الطب طلبا للنجدة والخلاص من ذلك الكابوس الذى يخضعهم لسلطانه. ولعل الغالبية العظمى من الناس لا يتبرمون إلا من تلك الأمراض التى يحسون بالألم نتيجة الإصابة بها أو التى تفقدهم النشاط أو التى تصيبهم بالعجز عن ممارسة العمل. أما الأمراض التى تنخر فى قوامهم الصحى باستخفاء أو بهدوء ورويدا رويدا أو التى لا تحدث لهم ألما أو التى لا يبدو لها أعراض ظاهرية صريحة فإنهم يغمضون أعينهم عنها ولا يعتبرونها أمراضا. وحتى الجهات الطبية ذاتها لا تكاد تعترف بشرعية تلك الأمراض فلا تمنح العامل المصاب إجازة مرضية ولا تعفيه من مواصلة العمل ولا تضعه تحت العلاج. فالطب حاليا لا يعترف إلا بالأعراض. أما إذا استخفت الأعراض فليس هناك إذن مرض . فدرجة الحرارة المرتفعة عرض يظهره ميزان الحرارة . ولكن الشيخوخة لا تؤدى إلى ارتفاع فى درجة حرارة المصاب بها . فالطبيب الذى يحكم على المرض بالأعراض التى تشبه ارتفاع درجة الحرارة والذى لا يعترف بأن الشخص مصاب بالمرض إلا إذا واكبت تلك الأعراض حالته ، إنما يكون قد أغمض عينيه عن بعض الحالات التى لم يكشف النقاب عنها بعد للإشارة إلى وقوع الشيخوخة. فلم يصل العلم بعد إلى تحديد نسبة الإصابة بالشيخوخة. فإذا ما توجه أحد الشيوخ إلى الطبيب وانتظم على التردد، فليس بمكنة ذلك الطبيب أن ينبه مريضه بأن الشيخوخة زادت لديه بنسبة كذا، بل يقتصر على تنبيهه إلى ارتفاع الضغط أو انخفاضه أو إلى تضخم الكبد أو تصلب الشرايين أو نحو ذلك من أعراض جانبية . أما صميم المشكلة وهى مشكلة الهدم والبناء – وهى التى ليس لها أعراض معلومة بعد أو غير المقاسة بالأرقام بعد – فما يزال أمام الطب مشوار طويل للوقوف عليها.

وحتى بالنسبة للمقويات التى تدعم الجسم وتحارب أعراض الشيخوخة، فإنها بمثابة ترقيع بثوب تنحل مقوماته الأساسية وتعمل تلك العقاقير على ترقيع

الأجزاء التى يظهر فيها البلى ولكن هيهات أن تنفع عملية الترقيع فى إعادة القماش إلى حالته الأصلية. فالشيخوخة ما تزال مرضا مستعصيا على العلاج. والمطلوب بالنسبة للشيخوخة كالمطلوب بالنسبة للقماش القديم الذى يرجى إعادته بغير ترقيع إلى ما كان عليه من متانة، أو بالأحرى حماية القماش من أن تتدهور حاله وينحل نسيجه وتنهار مقوماته.

فالمشكلة ليست إذن مشكلة علاج الشيخ من الشيخوخة، بل هى مشكلة كيف لا يصل الإنسان إلى الشيخوخة. ولسنا بالطبع نأمل الخلود للإنسان، ولكننا نأمل له أن يسعد بعمره الثانى بحيث تنتهى حياته فجأة بعد عمر مديد بغير أن ينوء تحت أعراض الشيخوخة الممضة والمؤلمة له ولمن حوله. ولعل الكشف عن هذا المجال الطبى سوف يفوق بكثير الكشف عن طبيعة أرض المريخ أو الوقوف على مقومات الذرة.

التاريخ الصحى للحالة والعلاج المتكامل :

لقد سبق أن قلنا وأكدنا أن أى شخص فى حالته الراهنة هو حصيلة بلايين البلايين من التفاعلات التراكبية التى تحدث بين آخر مستوى وصل إليه الكائن الحى وبين المثير الجديد. من هنا فإننا لا نستطيع أن نتصور ممارسة علاج لأى مريض إلا بالوقوف أولا على تاريخه الصحى وما اعتوره منذ طفولته من أمراض، بل وما حدث فى شخصيته من فجوات صحية. ذلك أننا نعتقد أن هناك فرقا بين المرض يصيب الشخص وبين الفجوة الصحية تترك بغير ملء فى كيانه الجسمى. ومثال لذلك لتوضيح الفرق بين المرض وبين الفجوة تسوس الأسنان للإشارة إلى المرض وتفتت الأسنان نتيجة نقص الكالسيوم للإشارة إلى الفجوة الصحية التى حدثت للشخص المصاب بتفتت الأسنان فى مرحلة ما من مراحل عمره، لأنه حرم من مقوم ضرورى لتكوين أسنان متينة. وما يقال عن الأسنان ينسحب أيضًا على سائر أجزاء الجسم، بل وينسحب بإزاء الإنسان كله ككائن حى متكامل ومترابط بعضه ببعض بروابط متعددة وغاية فى التعقيد.

ولا يكفى فى الواقع أن يحصر الطبيب اهتمامه فى نطاق الأعراض المتبدية

أمامه بعد قيامه بالكشف على المريض، بل يجب أن يضيف الأعراض التى يقف عليها إلى ثبت الحالة الصحية وتاريخ المريض من الناحية الصحية. ذلك أن أى مرض يصيب جسم الإنسان ، بل وأية عملية جراحية تجرى له أو أية إصابة تصيبه لابد تاركة بعض الآثار التى يجب أن يأخذها الطبيب فى اعتباره لدى القيام بعلاجه إذا ما وقع تحت طائلة أى مرض.

والواقع أن التاريخ المرضى الذى يجب أن تتضمنه البطاقة الصحية للشيخ لا يمكن أن تجهز بين ليلة وضحاها، ولا يمكن أن يكتفى بتجميع المعلومات الضرورية من فم الشيخ قبل مباشرة العلاج، بل يجب أن تكون المعلومات الصحية والتاريخ الصحى مثبتين فى البطاقة الصحية وأن يتم إثباتها تدريجيا لا طفريا. وليست تلك المعلومات المتجمعة عن التاريخ الصحى للمريض نوعا من الزخرفة أو التزويق ، بل هى ضرورة ملحة وشرط أساسى لنجاح العلاج. ولنضرب مثالا بسيطا بدمل أو خراج ظهر على جلد أحد الشيوخ وعرض الأمر على الجراح . فبدلا من أن يتساءل عما إذا كان الشيخ مصابا بالسكر ويطالب بإجراء تحليل أو يتساءل عن ضغط الدم أو ما سبق أن أصابه من أمراض القلب حتى يتخذ احتياطاته قبل حسم الأمر بالنسبة للحالة المعروضة عليه، فإنه يتناول البطاقة الصحية ويمرر عينية فيها ثم يأخذ فى تقرير ما ينبغى عمله. وطبيعى أن يقوم هذا الطبيب بإضافة الواقعة المرضية الجديدة إلى التاريخ الصحى للمريض.

والواقع أن الاتجاه التكاملى التفاعلى قد أخذ فى إثبات صحته وفاعليته بل وضرورته كلما تقدم العلم والممارسة التقنية. ولا يقتصر الأخذ بهذا الاتجاه التكاملى التفاعلى بالنسبة للمجالات الجسمية أوالحالات الصحية، بل يؤخذ به أيضًا بالنسبة للعلاقة بين الجسم ككل وبين العقل والوجدان ، بل وبين الإنسان الفرد وبين الأفراد الآخرين ، بل وبين المجتمع الواحد والمجتمعات الأخرى . وأكثر من هذا فإن التكامل والتفاعل قائمان أيضًا بين الكائنات الحية بعضها وبعض ، بل بين الكائنات الحية جميعا من جهة وعالم الجوامد من جهة أخرى. وإذا وسعنا الدائرة إلى أبعد حد إذن لوجدنا هناك أيضًا التكامل والتفاعل بين الكواكب والنجوم بعضها وبعض.

من هنا فإن العلاج الشظوى مستحيل فى ضوء النظرة التكاملية إلى جسم الإنسان . ولقد ضربنا مثالا بالدمل يصيب الشخص ، فيكون على الطبيب أن يقيم اعتبارات كثيرة فى ذهنه قبل أن يقدم على أى إجراء طبى سواء تمثل فى وصف دواء أم فى إجراء جراحة. ومعنى هذا بتعبير آخر أن أى إجراء طبى يقوم به أحد الأطباء لا ينفصل - ولا يمكن أن ينفصل - عن الإجراءات التى يمكن أن يتخذها الأطباء المعالجون الآخرون لنفس الشخص بإزاء أمراض أخرى.

والواقع أن الوعى الصحى فى مصر والبلاد العربية ما يزال ضعيفا، كما أن مبدأ التكامل والتفاعل ما يزال فى أول الطريق ولم يتحقق له التبلور الكافى فى أذهان الناس المستهلكين لخدمات الأطباء ولا فى أذهان الكثير من الأطباء، وما تزال النظرة الشظوية هى النظرة السائدة والمخيمة على عقول الناس وممارساتهم . فلا يكاد الشخص يقيم علاقة بين عمل طبيب الأسنان وطبيب العيون مثلا ، أو بين الأمراض الباطنية والأمراض النفسية مع أن الواقع أن العلاقة بين الأمراض بعضها وبعض من جهة ، ثم بين عمل كل طبيب متخصص فى ناحية وعمل غيره من أطباء متخصصين فى جوانب أخرى من جهة أخرى ، هى علاقة وثيقة بل هى علاقة ديناميكية وذات تأثير متبادل بعضها مع بعض.

وعلى الرغم من أن فكرة البطاقة الصحية التى تجمع بين صفحاتها التاريخ الصحى للشخص موجودة عندنا، فإنها ما تزال فكرة غير متبلورة والممارسة المتعلقة بها ضعيفة ومحدودة النطاق، بل إن المرضى والأطباء ما يزالون يأخذون بالنظرة الشظوية ولم يؤمنوا بعد بالنظرة التكاملية التفاعلية. ومن ثم فإن البطاقة الصحية التى تضم فى نطاقها التاريخ الصحى للشخص لم تصادف نجاحا حتى الآن على الرغم من أن الجهات الطبية تعترف بقيام التفاعل بين الممارسات الطبية المتباينة، بل ووجود تفاعلات بين الحالات الصحية بعضها وبعض.

وإذا كانت البطاقة الصحية هامة بالنسبة لأى شخص فى أية مرحلة عمرية، فإنها ذات ضرورة ملحة بالذات بالنسبة للشيخ؛ ذلك أن كثيرا من الشيوخ ربما يعجزون عن ذكر ما سبق أن أصيبوا به من أمراض، بل إن الكثيرين منهم يكونون قد نسوا ما سبق لهم أن أصيبوا به منها، بل وأكثر من هذا فإن بعضهم قد يعزو

إلى نفسه أمراضًا سبق أن أصيب بها بغير أن يكون ذلك صحيحًا ، بل يكون الوهم أو خطأ الذاكرة أو الافتعال الوسواسى هو الذى يحملهم على ذلك.

وحيث إن الأغلب ألا تكون هناك حاليًا بطاقة صحية للشيخ لدى التحاقة بنادى العمر الثانى أو انتسابه إليه، فلا يكون هناك إذن مناص من دراسة الحالة دراسة تقهقرية. ذلك أن هناك نوعين من دراسة الحالة : نوعا تتبعيا ونوعًا آخر تقهقريا. ففى النوع الأول يقوم الطبيب بإثبات كل مرض يلم بالشخص أو كل عملية جراحية تجرى له فى حينها فى بطاقته الصحية ، فتكون البطاقة الصحية بمثابة تسجيل لواقع آنى ، إذ إنها تكون متزامنة مع الأحداث والوقائع التى تلم بالشخص. أما البطاقة التقهقرية فإن الطبيب أو الباحث الطبى يكون موقفه فيها موقف من يبدأ من الحاضر إلى الماضى. فهو يثبت الواقع الراهن نتيجة الكشف الشامل على المريض ثم يثبت المعلومات التى يمكن تجميعها حول التاريخ الصحى للشخص. ومن الطبيعى أن تستقى تلك المعلومات التاريخية من فم الشيخ أو من ذويه . وهنا يأتى دور ومسئولية الباحث الصحى فى تمحيص المعلومات قبل تدوينها فلا يأخذ كل ما يقال له على محمل الصدق ولا يتشكك فى نفس الوقت فى كل ما يقال له ، بل يتخذ موقف العالم الذى يقف موقفا محايدا بإزاء ما يقال أو ما يترامى إلى سمعه.

والواقع أن الطبيب المفترض فيه فى نفس الوقت أن يكون باحثا صحيا يتخذ فى موقفه بإزاء الشيخ ثلاثة أبعاد أساسية: بعدا يتعلق بماضى ذلك الإنسان الصحى ، وموقفا آنيا حاضرا وموقفا مستقبليا تنبؤيا. وليست هذه الأبعاد منفصلة بعضها عن بعض ، بل هى مترابطة بعضها مع بعض ومتفاعلة بعضها ببعض. فرؤيته المتعلقة بحاضر الشيخ الصحى وهى ما تعرف بالتشخيص لا تتأتى له بصدق ووضوح إلا فى ضوء معرفته بما سبق أن تقلب عليه من حالات صحية أو ما سبق أن أصيب به من أمراض منذ طفولته حتى حاضره، أو ما يكون قد وقع له من حوادث أو ما سبق أن أجرى له من عمليات جراحية. ومن المؤكد أيضا أن الطبيب لا يكتفى بالتشخيص المتصل بالماضى الذى يعبر عن التاريخ الصحى للشيخ، بل إنه يمتد ببصره الطبى إلى المستقبل فيتنبأ بما سوف تنتهى إليه الحالة المطروحة للبحث أمامه. بيد أن تنبؤ الطبيب بدوره بالمرض لا يعنى استسلامه

لقدر كتب على المريض ، بل معناه أن البصر بالمستقبل يساعد الطبيب على اتخاذ موقف معين من شأنه أن يخفف من حدة الحالة التى يتنبأ بوقوعها أو ملاشاتها تماما أو أن يستبدل بها حالة أخرى أفضل من حيث مدى إحساس المريض بالألم أو من حيث مستوى كفايته الصحية أو تقدمه فى سبيل الشفاء والعافية.

ولكى يأتى موقف الطبيب من الشيخ الذى يقوم بالكشف عليه سديدا، فعليه بالتعاون مع زملائه الآخرين المختصين بتخصصات أخرى حتى يأتى تشخيصه وتنبؤ مبنيين على أسس متينة وتكون الزاوية التى ينظر منها زاوية أكثر انفراجا واتساعا. ولكن الواقع أن المشكلة التى تعترض سبيل تعاون الأطباء بعضهم مع بعض هى مشكلة الأولوية فى الكشف والترتيب الذى ينبغى أن تتخذه الكشوف المتباينة على نفس الشخص . والحل الحاسم لهذه المشكلة يتأتى بالوقوف على الموقف التراكبى للأمراض. فإذا كان على طبيب الأسنان مثلا أن يعرف ما إذا كان المريض مصابا بالسكر أو بالضغط العالى قبل خلع أحد أسنانه، فيكون من الضرورى أن يسبق الطبيب الباطنى طبيب الأسنان فى الكشف على المريض وأن يقوم بإثبات حالته فى البطاقة الصحية، بحيث إنه عندما يأتى دور طبيب الأسنان فلا يكون بحاجة إلى التساؤل عن نسبة السكر فى البول أو الدم أو عن ضغط الدم، وذلك لأن المعلومات المتعلقة بهاتين الناحيتين وغيرهما مما يكون طبيب الأسنان بحاجة إليهما تكون مثبتة فى بطاقته الصحية لأن الطبيب الباطنى قد سبقه إلى ذلك.

والواقع أن هناك موقفين يوقع فيهما الكشف على الشيخ المريض : الحالة الأولى هى الكشف الدورى وهو كشف يتم توقيعه فى مواعيد ثابتة، وفيه تجمع المعلومات وتدرج فى البطاقة الصحية بالإضافة إلى ما يقوم به كل طبيب من الأطباء الذين يقومون بالكشف عليه بوصف الأدوية التى يجب عليه تناولها وبحيث يتحاشى كل طبيب ما يمكن أن ينشأ من أعراض جانبية خطيرة نتيجة تفاعل الأدوية بعضها مع بعض ، فيتأمل كل دواء وصفه زميله متجنبا ما لا يتواءم معه من أدوية أخرى كان يمكن أن يقوم بوصفها لعلاج الحالة الراهنة أمامه. أما الحالة الثانية فهى الكشف الطارئ الناجم عن حادث ألم بالشيخ أو عن إحساسه بالمرض

أو ظهور عرض مفاجئ يثير انتباه من حوله فيشيرون عليه بعرض نفسه على الفور على الطبيب. ومن الطبيعى أن يقوم الطبيب الذى يكشف على الشيخ فى الحالة الثانية بإثبات ما انتهى إليه فى بطاقته الصحية، وإلا يتكاسل عن ذلك لأن كل معلومة صحية عن الشيخ لها أهمية كبيرة فى الواقع بالنسبة لنفس الطبيب فى المستقبل ولزملائه الأطباء الآخرين لدى كشفهم على نفس الشخص.

ومعنى هذا أن الكشف على الشيوخ يسير بنظرة تكاملية . ولا ننسى الجانب النفسى والاجتماعى وارتباطهما بالناحية الصحية ارتباطا وثيقا. ولذا فالواجب على الأخصائى النفسى والأخصائى الاجتماعى أن يكونا متعاونين مع الأطباء لأن عملهما يؤثر فى الحالة الصحية الجسمية للشيخ من جهة، كما أن ما يضطلع به الأطباء يؤثر فى الحالة النفسية والاجتماعية للشيخ من جهة أخرى.

ولا ننسى أيضًا أن العلاج فى جميع حالاته يتضمن علاجين: علاجًا شفائيًا وعلاجًا وقائيًا وفى النوع الأول من العلاج يكون الشخص قد أصيب بالفعل بالمرض ويحاول الطب تخليصه من براثنه، ولكن فى النوع الثانى يكون وقوع المرض احتماليا إذا لم يتبع المريض نظاما معينا فى التغذية أو النوم أو الحركة، أو إذا لم يمتنع عن الاستمرار فى ممارسة نشاط معين أو عن تناول مواد معينة كالسجائر أو المخدرات. وبصفة عامة يجب أن يسير الطب الوقائى جنبا لجنب مع الطب العلاجى فى تناول الشيوخ وذلك لتحسين حالتهم من جهة ولوقايتهم من أمراض يمكن أن تقع لهم من جهة أخرى.

واجبات الشيوخ الصحية نحو أنفسهم :

يجب أن نضع نصب أعيننا بادئ ذى بدء أن رعاية الشيوخ لها قطبان أساسيان لا يمكن الإغضاء عن أى منهما أو التقليل من أهميته : القطب الأول - هو الرعاية الخارجية التى يتلقاها الشيخ من غيره أو من البيئة الاجتماعية المحيطة به والتى تكون قد هيئت له ورسمت ملامحها بدقة بحيث تكون مواتية لحاجاته وملبية لمطالبه ومتمشية مع حالته شخصيا ومع الخصائص العامة التى يندرج تحتها هو وأمثاله من شيوخ . أما القطب الثانى فهو الشيخ نفسه بما يكون

لديه من وعى بنفسه وبظروفه الصحية وبحالاته التى تتقلب عليه أو التى نبهه الطبيب إلى احتمال تقلبها عليه. فلابد للشيخ أن يكون متمتعا بمجموعة من المعلومات المفيدة بل وبمجموعة من المهارات الصحية والعادات السليمة، وأن يكون على حذر دائم من أن يقع تحت طائلة مجموعة من العادات الرديئة التى تخضعه لطغيانها وتحيله أسيرا لا يستطيع منها فكاكا، فتنهار صحته وتذوى عافيته ويقضى شيخوخة متعثرة ومعذبة.

والواقع أن الشيخ نفسه مكمل للطبيب فى تشخيصه لحالته. ذلك أن التشخيص لا يعدو أن يكون استقراء لحالة المريض والوقوف على ما يشكو منه أو ما يبدو لديه من أعراض. من هنا فإن الشيخ نفسه - فى الحالات العادية التى لا يكون مصابا فيها بالوساوس المرضية أو التى لا يكون فيها عاجزا عن التعبير عما يحس به لسبب أو آخر - يعد مصدرا أصيلا من مصادر التشخيص. ولكن حيث إن ذاكرة الشيخ قد لا تسعفه لتذكر ما يتغلب عليه من أعراض أو ما يصيبه من حالات ، فإن عليه أن يستعين بمذكرة يسجل فيها كل ما يحس به أو ما يلاحظه من حالات تصيبه مهما بدت له تافهة أو غير مرتبطة بالمرض العام الذى يعانى منه غالبا . وعليه أكثر من ذلك أن يحدد الأوقات التى تحدث فيها لديه الحالات وتظهر لديه الأعراض . بيد أن من الصعب أن يضطلع الشيخ بهذه العملية لعدة أسباب . فقد لا يكون ملما بالكتابة فلا يستطيع أن يسجل ما يحس به بالكلام المكتوب، وقد يكون قادرا على الكتابة ولكنه لا يعرف ما يجب عليه أن يدونه ، ولقد يكون بحاجة إلى نقاط هادية له تعينه على التسجيل أو تذكره بما ينبغى عليه أن يسجله. ولقد يتهمه المحيطون به الذين ليس لديهم وعى بأن الشيخ هو أيضًا مسهم فى التشخيص مع الطبيب بأنه يتدخل فى عمل الطبيب أو أنه يبالغ فى العناية بنفسه أو بالخوف على صحته. ولقد يحس الشيخ بالخجل من القيام بهذه العملية ، إذ إن المتبع حاليًا هو أن يسأل الطبيب والمريض يجيب بحيث لا تصدر عن المريض مبادرة يقدمها إلى الطبيب. فلهذه الأسباب وغيرها يجب أن تصمم «بطاقة إثبات حالة شخصية » تشتمل على بنود أمام كل بند منها فراغ يكفى ليقوم الشيخ بملئه شخصيا أو بمساعدة غيره، وتعلق تلك البطاقة سرير الشيخ بمشبك مثبت فيه قلم مجهز للكتابة.

ومن الطبيعى أن يبصر الشيوخ فى نادى العمر الثانى بأهمية هذه العملية وبطريقة استخدام بطاقة إثبات الحالة الصحية، وذلك لأن مرحلة الإقناع هامة جدا حتى نضمن إقبال الشيخ على استخدام تلك البطاقة والانتظام على ملئها. وبالنسبة للمقيمين بنادى العمر الثانى والمنتسبين إليه فتصرف لكل واحد منهم أربع بطاقات كل شهر بحيث يسلم للطبيب بطاقة مثبتا فيها حالته كل أسبوع ، بل إن الطبيب لدى مروره على أسرة حجرات الشيوخ المقيمين بالنادى سوف يقوم بالاطلاع على ما دونه الشيخ عن نفسه فيستطيع بذلك أن يناقشه فيما كتبه وأن يتوسع فى الاستفسار وأن يربط فيما بين المعطيات التى أثبتها الشيخ عن حالته بحيث يكون صورة سليمة عن حالته بغير تخبط وبغير أن يكون الطبيب نفسه قد نسى أن يستفسر عن جانب هام قبل وصف العلاج. وبالنسبة للشيوخ الذين لا يستطيعون إثبات وتسجيل الأعراض، يوكل إلى غيرهم القيام بذلك (الحكيمة مثلا أو إحدى قريبات الشيخ). وكلما أقبل الشيخ على استخدام هذه البطاقة المقترحة تبين له أهميتها ومدى فائدتها فى علاجه ، بل إن الطبيب نفسه سوف يجد أنه بغير هذه البطاقة فإنه يكون غير قادر على الإلمام بأطراف الحالة أو بالتقلبات التى تعتور حياة الشيخ . ذلك أن الكثير من الأعراض التى قد يعانى منها أحد الشيوخ لا تستمر لديه طوال الوقت، بل قد يعانى منها فى أوقات معينة، وقد لا تستمر الحالة إلا لبضع دقائق بحيث لا يكاد الشيخ يتذكرها مادامت غمتها قد انقشعت من جسمه ولو مؤقتا. وقد تكون تلك الآلام العارضة من الخطورة بمكان بل لقد تكون نذيرا خطرا يهدد حياة الشيخ إن لم يقم الطبيب بإجراء سريع وحاسم. ولقد تظهر أعراض لا تكاد تكون مرتبطة بالألم ولكنها تكون غاية فى الخطورة. ولقد تحدث أعراض متزامنة بحيث لا يمكن فصل الواحد منها عن الآخر بل يجب إثباتها معا فى البطاقة بعد وقوعها مباشرة لأن الاعتماد على تذكرها ربما لا يسمح للشيخ بتحديد موقعها فى ذلك التزامن . فلا يستطيع مثلا أن يحدد هل التزامن كان تزامنا تطابقيا لنفس المدة أم أن أحد الأعراض بدأ أولا ثم تلاه العرض الثانى أم أن أحدهما انقطع عن الاستمرار أم كان يحدث بتقطع أم أن الواحد منهما تلا الآخر بعد وقت قصير أو طويل ونحو ذلك من تحديدات لا يمكن الاعتماد فيها على الذاكرة وحدها.

ولكن مشاركة الشيخ فى إثبات الأعراض التى يحس بها لا تعطيه حقوقا أخرى تتعلق بالتفسير . فمهمته تتوقف عند هذا الحد ولا تتعداه إلى التفسير والتشخيص. وأكثر من هذا فلا يجوز للشيخ أن يربط بين التشخيص السابق والتشخيص الجديد، بل إن كل مهمته تتلخص فى شىء واحد هو إثبات الحالة وتسجيل الأعراض كما يحس بها أو كما يشاهدها ، وأن يثبت وقت حدوث العرض أو وقت الشعور بالألم . ومن الطبيعى أيضًا ألا يتدخل الشيخ فى مسألة وصف الدواء أو طريقة تناوله. فلا يجوز له أن يقبل على استخدام أى دواء ولو كان مجرد قرص أسبرين بغير أمر من الطبيب ، وذلك لأن الشيخوخة حساسة حساسية الطفولة الأولى . فلقد يعرض قرص الأسبرين صحته للتدهور، ولقد يكون له تفاعل ضار وخطير مع الأدوية الأخرى التى أمره الطبيب بتناولها. ولقد يستتبع تناول الشيخ لدواء لم يوصف له ظهور أعراض جديدة خطيرة، بل لقد يبطل الدواء الذى تناوله الشيخ بغير أمر الطبيب مفعول الدواء الذى أمره الطبيب بتناوله.

ومن جهة الطبيب فعليه أن يشرك الشيخ فى الموقف وذلك بإيضاح طريقة تناول الأدوية التى يأمره باستخدامها ، كما أن عليه أن يحدد له نظام الأكل والنوم والمشى والجلوس . وباختصار ما يجب عليه عمله وما يجب عليه أن يمتنع عنه . ويحسن بالطبيب أن يثبت كلامه تحريريا فى بطاقة أخرى جديدة يمكن أن يطلق عليها اسم « أوامر الطبيب » . ومن الممكن أن تصمم هذه البطاقة أيضًا بحيث تحمل بنودا باللغة العربية يكون على الطبيب أن يملأها ، وأن ترفق هذه البطاقة ببطاقة إثبات الحالة الشخصية التى يقوم الشيخ بملئها . والواقع أن اعتماد الطبيب على الكلام وعلى النصائح الشفوية يوجهها إلى الشيخ إنما هو اعتماد فى غير محله ، وذلك لأن من طبيعة الشيخوخة النسيان السريع ، بل إن أغلب الناس حتى قبل الشيخوخة لا يستطيعون تذكر ما يقوله لهم الطبيب وما ينصحهم به. ومن المؤسف أن غالبية الأطباء لا يحفلون بالنصائح المكتوبة ويكتفون بما ينصحون به مرضاهم شفويا وبطريقة عابرة. وغنى عن القول أن الدواء ليس إلا نصف الطريق نحو الشفاء، وأن النصف الثانى يتمثل فى نظام الأكل ونظام الحركة وغير ذلك مما يجب على المريض عمله وما يجب عليه أن يمتنع عنه من مناشط أو أداءات.

بيد أن الطبيب لا يستطيع أن يحدد للمريض كل شيء يتعلق بما يجب عليه عمله أو اتباعه وما ينبغى عليه تجنبه. فبالنسبة للأكل مثلا نجد أن الشيخ هو أخيرا الفيصل بالنسبة للمأكولات التى تتلاءم معه والمأكولات التى تتعبه. فهو الذى يستطيع أن يحدد الوجبات التى يتسبب عنها إرهاق لجهازه الهضمى فينأى عنها بدافع من نفسه. فقد لا يجد الطبيب غضاضة مثلا فى أن يتناول الشيخ السمك، ولكن الشيخ نفسه يلاحظ أنه بعد أكله للسمك يكون منتفخ البطن وشاعرا بالتخمة رابضة على معدته. فعلى الشيخ إذن أن يمتنع بإرادته عن أكل السمك دون أن ينتظر أمرا من الطبيب بالامتناع عن تناوله.

وهناك بوجه عام مجموعة من المواد الضارة التى يجب على أى شيخ التحرز من دخولها جسمه، من أهمها الدهن والتوابل والتبغ والخمر. نعم هناك فروق فردية بين الشيوخ فى مدى تحمل كل واحد منهم بعض هذه المواد أو كل هذه المواد. ولكن حتى بالنسبة لهؤلاء الشذاذ فإن امتناعهم عن تناول تلك المواد يضمن لهم صحة أحسن . فهى فى جميع الحالات ضارة بصحة الشيخ سواء كان ضررها بالغا أم محدودا. وبوجه عام أيضًا يحسن بالشيخ الامتناع عن وجبة العشاء والاكتفاء بتناول بعض السوائل كاللبن أو عصير الفاكهة (باستثناء بعض الفواكه التى قد تضر) . ومن الواجب على كل شيخ أن يفهم جيدا أن جسمه لم يعد بنفس المستوى من القوة كما كان الحال فى شبابه وأنه يجب أن يعامل برفق بحيث لا ترهق أجهزته.

والواقع أن ما سبق أن تمرس به الشيخ من عادات تتعلق بتناول الطعام لها تأثير بالغ فى حالته الصحية . فالأشخاص الشرهون إذا لم يقلعوا عن عادة الشراهة وخاضوا غمار الشيخوخة، فإن شرههم يبتليهم بالكثير من الأمراض التى تتعلق بالجهاز الهضمى، ويجلب عليهم أمراض القلب والدورة الدموية. من هنا فإن من الأهمية بمكان أن يعدل الشيخ عما سبق أن اعتاده من عادات رديئة فى شبابه وأن يضع نصب عينيه أن أجهزة جسمه صارت على مستوى كبير من الحساسية والهشاشة بحيث يجب معاملتها بغاية الحرص والحذر وعدم الإثقال عليها بوجبات ترهقها . فيجب ألا يطالب الشيخ معدته مثلا بالنهوض بنفس الوجبات التى كانت

تنهض بها فى شبابه ، بل يجب أن يعلم أن معدته قد صارت هى الأخرى شيخة مثله، وأنها صارت بطيئة فى الأداء مثلما صار هو بطيئا فى حركته وفى أداء مناشطه التى كان يؤديها فى يسر وسهولة أيام كان نابضا بالشباب ومفعما بالحيوية والفتوة.

ومن الواجب أيضًا على الشيخ أن يتمرس بعادة المشى اليومية قرابة الساعة ولكن بغير أن يحس باضطراب فى التنفس أو بأنه يلهث فى المشى، كما يجب عليه أن يتجنب الصعود إلى أماكن مرتفعة أو أن تكون التمشية فى أماكن وعرة أو فى الظلام، فالواقع أن التمشية اليومية تضمن لأجهزة الجسم النشاط المناسب، وذلك لأن العضو الذى لا يعمل يركن إلى الكسل ومن ثم إلى الذبول، والمشى المنتظم يساعد على تنشيط أجهزة الهضم والدورة الدموية والرئتين ونحو ذلك من أعضاء داخلية وخارجية . ويحسن أن يكون موعد التمشية قبيل الغروب بحيث يأوى الشيخ بعد ذلك إلى فراشه فيتمتع بنوم هادئ وعميق.

وبالنسبة للنوم فيجب أن يكون فى مكان متجدد الهواء وبغير تعرض للتيار وبغير أن تكون الحجرة شديدة الحرارة فى الصيف أو شديدة البرودة فى الشتاء . ومما يساعد على التكيف لدرجة الحرارة الموجودة بالحجرة التحكم فى الملابس من حيث نوعها وسمكها ثم من حيث نوع وسمك أغطية السرير. ومن الطبيعى أن قضاء وقت طيب مع الآخرين طوال النهار وخلو البال من الهموم والمشغوليات والأحزان والمخاوف خير ضامن للشيخ بالتمتع بالنوم الهادئ. وإذا ما أصيب الشيخ بالأرق – وهذا كثيرًا ما يحدث – فيجب أن يسترخى وأن يرضى بالاسترخاء على الكرسى الطويل (الشيزلونج) بديلا للنوم ، وليعلم أن الاسترخاء الطيب أفضل من النوم المضطرب حتى وإن كان نوما عميقا ولكنه محفوف بالأحلام المزعجة.

ومن الجوانب الهامة التى يجب أن يكلف بها الشيخ اتباع نظام معين للاستحمام والتردد على دورة المياة . وثمة علاقة بين الماء الساخن يصافح الجلد والصابون الذى يغسل وينظف مسامه وبين نشاط الدورة الدموية وما يتبع ذلك من نشاط لكثير من الأجهزة الداخلية . وكما يجب التخلص من العرق الذى يسد مسام

الجلد يجب أيضًا التخلص من الفضلات وذلك باعتياد مواعيد محددة ومنتظمة للتردد على دورة المياه.

الاهتمام بدراسة أمراض الشيخوخة :

ليست بنا حاجة إلى إثبات أن الشيخوخة لم تحظ بنصيب وافر من الاهتمام أو بما تستحقه من عناية فى المجالات الطبية. ولعل السبب الرئيسى فى ذلك هو إحساس الناس جميعا - بما فيهم الأطباء أنفسهم - أن الشيخوخة تشكل نهاية المطاف، وأنه قد ضرب على الشيوخ بأن يرزحوا تحت كلكل الآلام والأمراض التى دأبت على الارتباط بالشيخوخة منذ أمد بعيد. بيد أننا مع ذلك نجد أن هناك من الرواد فى عالم الطب من أولوا أمراض الشيخوخة عنايتهم محاولين دحض الفرض القائل بأن الشيخوخة بما تنوء به من أمراض وأسقام هى قدر ابتلى به الإنسان وأنه لا مفر من التخلص من الأعراض غير المرغوبة التى تصاحب الشيخوخة غالبا، فعمدوا إلى إجراء التجارب على الحيوانات ثم على الإنسان محاولين بث الحيوية فى أولئك الذين دخلوا إلى أعتاب الشيخوخة. ولعلنا نذكر جميعا أنا أصلان التى أخذت تعالج أعراض الشيخوخة بنجاح مؤكدة أن الشوط بعيد أمام العلاج فى هذا المجال، وأنه من الممكن أن يتقدم الطب خطوات وخطوات فى سبيل التغلب على أمراض الشيخوخة بحيث يتسنى للإنسان فى المستقبل إن يقضى شيخوخة ناعمة البال خالية من الأنات والتأوهات والأوجاع النفسية المصاحبة للآلام الجسمية والوهن الحيوى بحيث يظل على هذه الحالة من الصحة والحيوية إلى أن توافيه منيته .

ونحن فى مصر والبلاد العربية لابد لنا من المساهمة بالجهود البناءة فى هذا المضمار حتى يتكامل الطب والخدمة الطبية لجميع الأعمار، ولا يكون الطب مقصرًا فى حق الشيوخ معتبراً أن الشيخوخة لا تدخل فى مجال الوقاية الطبية والعلاج الطبى . ومن البديهى أن ينشأ تخصص بكليات الطب عندنا يتخرج فيه «أخصائيو شيخوخة » ، أسوة بالتخصصات الأخرى كتخصص الأطفال وأمراض النساء وغير ذلك من تخصصات تزخر بها كليات الطب عندنا.

وإذا ما قيض لكليات الطب أن تنشئ ذلك التخصص فى مجال الدراسات العليا، فأحرى بها إذن أن تدعو أساتذة طب عالميين لهم بحوث فى مجال الشيخوخة للمشاركة فى المحاضرات التى يتلقاها طلاب هذا القسم بالدراسات العليا. ومن الطبيعى أن يتواكب مع هذا أيضًا إرسال البعثات من أولئك الطلاب للتعمق فى هذا المضمار بالجامعات الأوربية والأمريكية والصينية وغيرها مما يكون له إسهامات مبرزة فى هذا المجال، وذلك بقصد إعداد صف من الأساتذة لجامعاتنا المصرية فى علم الشيخوخة.

ولعل من الأفضل أن تبدأ كليات الطب عندنا مجتمعة بالتحضير لمؤتمر عالمى يعقد بعد عام كامل من تاريخ الإعلان عنه تدعو إليه كبار الشخصيات الطبية العالمية لإلقاء محاضرات حول أمراض الشيخوخة، بالإضافة إلى المحاضرات التى يسهم بها الأساتذة المصريون فى هذا الصدد. ففى خلال تلك الفترة المقترحة يستطيع الأساتذة المدعوون لإلقاء محاضراتهم بالمؤتمر إعداد مادة جديدة دسمة والقيام ببعض التجارب بل وعقد مؤتمرات فرعية أو حلقات مناقشة يفيدون منها فيما سوف يقدمونه إلى المؤتمر المقترح. ولا يقتصر ذلك المؤتمر على إلقاء المحاضرات بل يجب أن يمتد أفقه ليتسع للتجارب لإثبات ما يذهب إليه صاحب الفكر الجديد فى هذا المضمار سواء أجريت التجارب على الحيوانات أم على الإنسان. ولسوف يتضمن المؤتمر أيضًا عروضا لأفلام سينمائية، كما تلحق بقاعة المؤتمر مكتبة عالمية تضم البحوث والكتب الطبية المتعلقة بالشيخوخة والمحاولات التى سبق أن بذلت للتغلب على أمراضها. ومن الطبيعى أن تظل هذه المكتبة قائمة بعد المؤتمر، بل وتأخذ فى النمو المطرد على مر الأيام وبتزايد التقدم فى هذا المضمار الحيوى والهام والذى يهم جميع الناس بغير استثناء. أما أمناء هذه المكتبة الخاصة فيجب أن يكونوا من الأطباء أنفسهم حتى يقدموا خدمة مكتبية ناجحة. ومن الممكن أن يتلقى أولئك الأطباء المكتبيون تدريبا فى الخدمة المكتبية يجعلهم على مستوى من الكفاية التى يتمتع بها أمناء المكتبات المتخصصة فى العالم.

ومن الواجب أيضًا أن تعلن كليات الطب بالاشتراك مع وزارة البحث العلمى

(التى انضمت حديثا فى مصر إلى وزارة التعليم)(*) عن مسابقات بين الباحثين من الأطباء حول أفضل البحوث فى مجال الشيخوخة. ولكن يجب أن يتسع مجال البحوث التى تفوز بالجوائز بحيث لا يخرج من دائرة البحوث الفائزة إلا تلك البحوث الهابطة التى لا ترقى إلى مستوى المتوسط. وبعد ذلك تدرج البحوث المقبولة وترتب حسب التفوق والامتياز. ويجب ألا تبخل الدولة فى تمويل مثل هذه المسابقات وذلك لأن نتائجها سوف تكون باهرة. ويجب ألا تنتهى تلك البحوث بمجر ظهور النتيجة بل تشكل لجان طبية تسمى « لجان التجريب والتعميم » . ومهمة تلك اللجان تتركز فى مراجعة التجارب التى وردت بالبحوث للتثبت من مدى صلاحيتها ، ثم إخراجها من الحيز المحدود إلى الحيز العام والواسع بحيث يستطيع الجمهور الإفادة منها إلى أكبر درجة ممكنة.

وهنا نستطيع أن نقول إن أندية العمر الثانى التى اقترحنا إنشاءها يمكن أن تكون مجالا ممتازا للتجريب والتعميم بالنسبة للتجارب على الشيخوخة . ونحن بالتأكيد فى غنى عن مجرد ذكر أن التجارب التى تجرى على الشيوخ يجب أن تكون مأمونة . فإذا اشتم أن بها شيئًا من الخطر أو الشك فى النتائج، فيجب أن تتم التجارب بادئ ذى بدء على الحيوانات وحتى بالنسبة للحيوانات فإننا نشفق من أن تجرى التجارب غير المأمونة عليها بل يجب حساب النتائج قبل الإقدام على إجراء أية تجارب.

وهناك فى الواقع مناح كثيرة يمكن إجراء التجارب ووضع البحوث بإزائها : منها على سبيل المثال بحث أسباب الشيخوخة المبكرة ، وبحث العلاقة بين الحالة النفسية والشيخوخة، وبحث أثر الموسيقى فى الشيخوخة، وبحث العلاقة بين المواد التى تدخل الجسم وبين الشيخوخة كالمواد الغذائية والتبغ والمنبهات والمخدرات ونحوها، وبحث النوم واليقظة وأثرهما فى إحداث الشيخوخة، وبحث الجنس والنشاط الجنسى وأثره فى ذلك، وعقد بحوث مقارنة حول الشيخوخة لدى الجنسين أو بين الأجناس، وثم بحث علاقة الشيخوخة بالطول والقصر وبينها وبين

(*) هذا الكلام فى السبعينيات .

السمنة، وبينها وبين مدة الحمل بالشخص (مقارنة بين أولاد سبعة وأولاد تسعة) وبحث العلاقة بين الهورمونات بأنواعها المتباينة وبين الشيخوخة ، وبحث أثر الحضارة بمناحيها المتباينة فى الشيخوخة وذلك بالمقارنة بين أهل المدينة وأهل الريف، وأثر التفكير والتأمل فى الشيخوخة . فهل المفكرون يشيخون قبل غيرهم ممن يمارسون أعمالا روتينية ؟ وهناك بالطبع العديد من المجالات التى يمكن طرقها لدراسة الشيخوخة وعلاقاتها المتباينة. ويمكن أيضًا الامتداد بقائمة البحوث المقترحة فى هذا المضمار إلى اتجاهات متباينة وإلى تفريعات متعددة كبحث العلاقة بين الوراثة والشيخوخة. وفى مثل هذا البحث سيضطر الباحث إلى القيام ببحث تتبعى لأسر معينة عبر أجيال متعاقبة، فيتناول مجموعة من المعمرين ومجموعة أخرى ممن وافتهم المنية فى شبابهم ثم يعكف على البحث فى سجلات مديريات الشئون الصحية للوقوف على أعمار آباء وأجداد كلا الفريقين، ثم يخرج بنتائج إحصائية مقارنة على أكبر جانب من الأهمية.

ومن الممكن - بل ومن المستحسن - أن تقوم الدولة بتخصيص الجائزة التشجيعية والجائزة التقديرية فى الطب فى إحدى السنين لمن يتقدمون بأحسن بحث منشور حول الشيخوخة سواء كان قد نشر باللغة العربية أم بإحدى اللغات الأجنبية، وسواء تم نشره فى مصر أم فى الخارج. ولا يشترط فى البحث سوى شرط واحد هو أن يكون صاحب البحث مصرى الجنسية . ويمكن أيضًا أن تحدد السنة التى تخصص فيها الجائزتان التشجيعية والتقديرية للشيخوخة قبل حلول تلك السنة بخمس سنوات حتى يستعد الباحثون وحتى يتسنى لهم نشر بحوثهم بالداخل أو الخارج.

والواقع أن دراسة أمراض الشيخوخة يمكن أن تتخذ مناحى متباينة فثمة ما يعرف بدراسة الحالة وما يعرف بدراسة المجموعة . أما بالنسبة لدراسة الحالة فيقوم الباحث فيها بتتبع حالة واحدة خاصة بشخص واحد يكون مثلا فى الستين من عمره ، ثم يأخذ فى تتبعه بالفحص وتدوين المشاهدات والنتائج ويستمر فى البحث المتعلق بحالة ذلك الشخص خلال مدة معينة (مثلا من الستين حتى الخامسة والستين) ويتبين خلال تلك الفترة ما يقع له من تغيرات فى البنية

والنشاط وما يلم به من أمراض أو ما يختل لديه من أجهزة، أو ما يصاب منها بالضعف . أما دراسة المجموعة فإنها تنصب على مجموعة من الأشخاص يقعون فى نطاق سن معينة ثم يستخلص من فحصهم نتائج وحقائق محددة فى ضوء مدى الشيوع والانتشار . فما يشيع أو ينتشر يعتبر هو القاعدة بينما يستبعد المستثنى من ذلك الشيوع والانتشار. وطبيعى أنه فى دراسة المجموعة فإنه كلما كانت العينة مشتملة على أفراد من بيئات متباينة ومن مستويات اجتماعية واقتصادية مختلفة بل ومن مستويات ثقافية متباينة كانت الدراسة والنتائج المستخلصة أفضل وأنجع.

وثمة أيضًا الدراسة الطولية والدراسة العرضية. ففى الدراسة الطولية يتجه الدارس إلى بحث خط التطور فى الإنسان من سن إلى سن أخرى وما يحدث من تطور سواء كان تدهورا أم تحسنا . أما فى الدراسة العرضية فتؤخذ سن معينة ويتم البحث فى نطاقها بالتفصيل فيتركز نظر الباحث فى حدود السن لا يتعداها.

ومن المستحسن أن تقوم كليات الطب بإصدار سلسلة من الكتيبات الشعبية التى تتضمن حقائق علمية دقيقة ولكنها مبسطة مما يهم غير المتخصص أو مما يذكر الأطباء بالحقائق المتعلقة بالشيخوخة بل ومما يقدم إليهم الحقائق الجديدة فى هذا المضمار فى سياق ما يقدم بتلك السلسلة . ويمكن أيضًا تخصيص نشرات طبية تلخص فيها البحوث حول الشيخوخة ثم ترسل لجميع خريجى الكلية أينما كانوا حتى لا تنقطع صلتهم بكليتهم التى علمتهم الطب والتى ستظل مسئولة عن رعايتهم فى جميع المجالات الطبية وبضمنها هذا المجال الهام المتعلق برعاية الشيخوخة.

ولا نستطيع أن نغفل الدور الهام الذى يمكن أن يلعبه التليفزيون والإذاعة فى إشاعة الوعى بالدراسات المتعلقة بأمراض الشيخوخة وكيفية علاجها وذلك بما يمكن أن يعقد من ندوات يشترك فيها المختصون فى هذا المجال . فمثل هذه الندوات سوف تكون ذات فائدة كبيرة سواء بالنسبة للشعب المستهلك للخدمات الطبية أم بالنسبة للأطباء أنفسهم الذين يجدون فى تلك الندوات تنشيطا لما لديهم من معلومات ، بل ودعما لهم بما يقدم إليهم من معلومات جديدة فى هذا المضمار. ويمكن أيضًا – بل ويجب – أن تقوم الصحافة – ولو مجلة الإذاعة والتليفزيون –

بتقديم تلخيص أو تفصيل لما يدور من حديث بين المنتدين فى الإذاعة أو التليفزيون حول هذا الموضوع الهام.

ومن البديهات ألا ننسى دور الصيدلة فى هذا الصدد . ونحن نرى أن الواجب الأول المنوط بكليات الصيدلة هو أن تساهم بطبع مجلد يضم جميع أدوية الشيخوخة سواء المصرى منها أم الأجنبى ، والعمل على توزيع ذلك المجلد بعد طبعه على جميع الصيادلة والأطباء ، بل إن من الواجب على كليات الصيدلة أيضًا أن تشجع البحوث الخاصة بعلاج أمراض الشيخوخة مع بعث التراث الطبى المصرى القديم ، بل والطب العربى والهندى والفارسى القديم وبحث الوصفات البلدية ومدى جدواها والعمل على الخروج من تلك البحوث بالتطبيق العملى المنشود، وذلك بتعميم ما يمكن تعميمه منها حيث تضطلع شركات الأدوية بالتنفيذ والتسويق.

وإذا قلنا إن العلم هو نتيجة العمل وأن النظرية تكون غالبا نتيجة للتطبيق ، فإننا ندعو إذن إلى وجوب الاهتمام بفتح أقسام لعلاج الشيخوخة بالمستشفيات حتى يتسنى استقاء المعلومات والخبرات منها.

إعداد أطباء الشيخوخة :

يجب أن تضع نصب أعيننا بادئ ذى بدء أن المقصود بإعداد طبيب الشيخوخة ليس شحن ذهن الطبيب بمجموعة من المعلومات واجتيازه لدراسة أو برنامج دراسى متعدد الجوانب والمقررات، وإنما نعنى بالإعداد تشكيل شخصية الطبيب الذى يعكف على رعاية الشيوخ صحيا بحيث يكون نافعا لتلك الرعاية من الناحية العملية . ذلك أن المشكلة الكبرى بإزاء إعداد أطباء الشيخوخة هى أن رعاية الشيخوخة متعددة الجوانب من جهة ، وتستلزم وعيا بحال ونفسية الشيوخ من جهة ثانية ، كما أن هذا المجال يعد حديثا نسبيا من جهة ثالثة بحيث يكون العاملون فيه بمثابة رواد فى هذا الضمار الصعب والدقيق والهام.

والمطلوب فى هذا الإعداد أن يكون متكاملا وعلى مقاس الشيوخ أنفسهم بالفعل. فالإعداد هنا هو إعداد لمجابهة مطالب أشخاص فى مرحلة عمرية معينة

وليس إعدادًا خاصا بنطاق معين أو خاصا بعضو من أعضاء جسم الإنسان. إنه إعداد متكامل لخدمة الشيوخ خدمة صحية من جميع الجوانب . وأكثر من هذا فهو إعداد يتعلق بالمتعاونين مع الطبيب فى نادى العمر الثانى بحيث لا يكون الطبيب العامل بذلك النادى ناشزا عن باقى العاملين به بل متعاونا معهم ومؤمنا برسالة النادى وغيورا على تحقيق أهدافه والارتفاع بمستوى الخدمة فيه.

والتطور العام للمناهج التى نقترح أن توضع موضع النظر فى إعداد أطباء الشيخوخة يتضمن ما يأتى : أولاً - أمراض الشيخوخة الجسمية. ثانيا - الأمراض النفسية التى لها صلة بالأمراض الجسمية التى قد تصيب الشيخ، ثالثا- فن معاملة الشيوخ وعلاقة الطبيب بالشيخ . رابعا - الأدوية الخاصة بالشيوخ وطرق استخدامها (الفارما) ، خامسا - تمريض الشيوخ والفنون المستحدثة فى هذا الصدد ودراسة الأدوات والأسرة وغيرها مما ابتكر فى هذا المضمار ، سادسا- تغذية الشيوخ والنظام الغذائى الذى يجب أن يتبعه الشيخ.

ومن الواجب أن تتوافر الدراسة الميدانية جنبا لجنب مع الدراسة النظرية . ذلك أن العلم يجب أن يتآزر مع العمل ، كما يجب أن تتواكب النظرية مع التطبيق. والواقع أن أندية العمر الثانى تعتبر مجالا خصبا يستطيع أن يجد فيه الطبيب الذى يعد للتخصص فى خدمتهم معملا مفيدا للغاية وبخاصة إذا اهتم المشرفون على الدراسة بالإشراف المثمر والبناء على الدارسين الواقعين تحت التمرين . وهناك فى الواقع الكثير من العمليات التى يجب أن يتم التمرن عليها عمليا وميدانياً والتى لا يمكن الاعتماد فى تحصيلها على مجرد تلقى مجموعة من المحاضرات. فالتمرن على ملء الاستمارات الخاصة بتوجيه الشيخ والوقوف على الحالات التى تنتاب بعض الشيوخ واتخاذ المواقف الصحيحة بإزائها وغير ذلك لا يمكن تحقيقه بمجرد الوقوف على ما يجب اتباعه بغير ممارسة عملية أو بغير المحاولة والخطأ وتكييف السلوك الشخصى للطبيب قبالة الشيوخ فى المواقف المتباينة.

ولسنا نشك لحظة فى أن طريقة تلقى المحاضرات وحدها لا تكفى لسبر أغوار العلم أو إعداد الإنسان المثقف العالم بل إننا نعتقد أن تحصيل المعرفة

بالجهد الشخصى، بل وبالعرق والدأب، بل وبشىء من التخبط وبالمحاولة والخطأ إلى حين الاهتداء إلى أفضل الطرق نجوعا يجعل من تلك المعرفة المتحصلة دعائم متأصلة بأعماق الشخصية وعاملا أساسيا فى الإفادة مما يحاول الشخص تحصيله والوقوف عليه. وليست هناك طريقة لتحقيق ذلك سوى طريقة البحث والمعاناة فى جلب المعلومات وكسب الخبرات من مصادرها أينما كانت . وبهذه المناسبة فإننا ننعى على التعليم بعامة وعلى التعليم الجامعى بخاصة أنه يعتمد على الكتاب المقرر. ولسنا نشك لحظة فى أن الطامة الكبرى تكمن فى كتاب تفرض على الطالب دراسته صفحة بعد صفحة . ولسنا نشك من جهة أخرى أن قيام الطالب بالبحث من عدة مراجع واستخلاص المعلومات بنفسه ثم العمل على ترتيبها والتعبير عنها فى بعض الأحيان بأسلوبه الشخصى لما يكونه تكوينا علميًا متينا ويجعله مسيطرا على ما يقوم بدراسته. ذلك أن الاختيار من بين أشياء كثيرة يتضمن اعترافا بالعقلية المتفتحة وبقدرة الشخص على الوقوف على ما يجب الوقوف عليه ، بينما نجد من جهة أخرى أنه فى طريقة حفظ المحاضرات والكتاب والمقرر ما يؤكد أن الطالب شخص عاجز عن الاختيار وأنه يجب أن يخضع لعقلية غيره توجهه الوجهة التى تريدها. وبتعبير آخر فإن طريقة البحث تؤمن بالحرية العقلية ، بينما تؤمن طريقة المحاضرات والكتاب المقرر باستعباد عقلية الطالب.

وفى إعداد طبيب الشيخوخة يجب أن تسير طريقة المحاضرات جنبًا لجنب مع طريقة البحث بشرط ألا تكون المحاضرات بمثابة كلام مقدس على الطالب أن يطأطئ له الرأس، بل يجب النظر إليه باعتبار أنه إسهام من عقلية يفترض فيها أن تكون أكثر نضجا من عقلية الطالب، أو متقدمة عليه فى الموضوع المطروق، ولكن يجب ألا يفترض فى المحاضرات أن تكون قد بلغت مرتبة الكمال. ولكن الوقت المخصص لبحث الطالب فى المراجع يجب أن يزيد كثيرا عن الوقت المخصص للمحاضرات . وفى رأينا أن وقت البحث يجب أن يغطى ثلاثة أرباع وقت الدراسة. فالمحاضرات تلقى الأضواء فحسب على المجالات التى يجب على الدارس سبر أغوارها. وأكثر من هذا فإن على المحاضر ألا يقدم مضمون العلم فى المحاضرات بل يجب أن يعمد إلى إثارة المشكلات التى يجب على الطلاب أن يبحثوا عن حلول

لها فى بطون المراجع، كما يجب أن يتطرق إلى طريقة البحث ، وأن يقدم إلى طلابه خبراته الشخصية والطرائق التى اتبعها هو شخصيا فى البحث ، كما يجب أن يبصرهم بالمراجع وبالصفحات التى يمكن أن يرجعوا إليها بصدد نقاط معينة. وبتعبير آخر فإن على الأستاذ ألا يقدم العلم جاهزا إلى طلبته، بل عليه أن يثيرهم نحو تحصيل المعرفة وأن ينشطهم لبذل الجهد العقلى وقضاء الوقت الطويل فى التحصيل الذاتى والدأب على البحث والغيرة على عدم تفويت أى من المراجع الهامة إلا ويرجعون إليه. ولقد يناقش الأستاذ المشكلات التى قد تصادف الطلاب فى البحث.

وهنا ينبغى أن نميز بين قاعة المحاضرات وبين قاعة المناقشة. ففى قاعة المحاضرات يقدم الأستاذ الخطوط العريضة للموضوع والمناحى والمشكلات التى يجدر بحثها، بل ويقدم إلى الدارسين الحلول التى توصل إليها هو شخصيا بصدد كل من تلك المشكلات. ولكن منهج الأستاذ فى المحاضرات يجب ألا يكون منهج الفارض لما توصل إليه من معلومات على طلابه- كما هو حادث فى كثير من المحاضرات - بل يجب عليه أن يسلح طلبته بمنهج الانتقاء الشخصى وتكوين الشخصية المستقلة، بل وتكوين الشخصية التى يمكن أن تخالف عن السائد من الآراء والممارسات . وبتعبير آخر يجب على الأستاذ تشجيع الفروق الفردية بين الدارسين حتى لا يخرج من بين يديه نسخ طبق الأصل وقد خضعت لقالب واحد تنصب فيه بغير تمييز بين الاستعدادات الشخصية المتباينة والخصبة الموجودة لدى الطلاب.

أما قاعة المناقشة فيجب أن تضم مجموعة قليلة نسبيًا من الطلاب وأن يشرف على المناقشة أستاذ أو مدرس أو معيد. وفى هذه المناقشة يلتئم الشمل أساسا لتبادل الخبرات وإلقاء الأضواء على ما ينبغى عمله وعلى الصعوبات التى اكتنفت محاولات البحث، بل وإلقاء الأضواء على الصعوبات التى تتعلق بالحصول على المراجع ونحو ذلك . أضف إلى هذا أنه فى قاعة البحث قد يتسنى قيام بعض الطلاب بقراءة ما انتهوا إليه من بحثو على مسامع زملائهم . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الطالب يمكن أن يفيد من زميله بقدر ما يفيده من أستاذه، وبخاصة أن طلاب

الدراسات العليا يكونون قد وصلوا إلى مستوى ممتاز من الفكر والقدرة على البحث واستخلاص المعلومات المناسبة من بطون الكتب.

وبالنسبة لإعداد أطباء الشيخوخة فالمستحسن أن تكون الدفعات الأولى قليلة العدد ومن المبرزين من الخريجين الذين عملوا فى الميدان لفترة معينة . ويجب أن يراعى فى إعدادهم أن يكون مناسبا للمواصفات المطلوبة من الخريج الذى سيتمرس بطب الشيخوخة . ولابد من أن تفتح مجالات البعثات الخارجية أمام تلك الدفعات الأولى ، وذلك لأنهم يعتبرون بمثابة نقطة البداية فى هذا المشروع العظيم . فإذا ما توافر لهذا المشروع أساس متين ، فإن البناء كله سيأتى متينا، وعندئذ نضمن له الإستمرار والتقدم. ويكفى أن تمتد مدة إعداد طبيب الشيخوخة لعام دراسى واحد تتبعه بعثة إلى الخارج لمدة سنة أخرى واحدة . ولا بد من أن تتوافر لطبيب الشيخوخة عدة امتيازات مادية وأدبية حتى نضمن إقبال الأطباء على الالتحاق بدبلوم الشيخوخة.

ولقد يتسنى فى المستقبل تخصص طبيب الشيخوخة فى تخصص دقيق واحد بحيث يضم نادى الشيخوخة مجموعة من الأطباء، وقد تخصص أحدهم مثلا فى جراحات الشيوخ والثانى فى الأغذية والثالث فى العقاقير والرابع فى الناحية النفسية وما إلى ذلك من تخصصات دقيقة . ولكن فى الوقت الراهن- أو بالأصح فى المستقبل القريب - يمكن أن نأمل فى أن يقوم بعض خريجى قسم الدراسات العليا للشيخوخة بإعداد رسائل للماجستير والدكتوراه فى بعض الأمراض التى تصيب الشيوخ أو فى بعض الارتباطات القائمة بين الظواهر النفسية والحالات الجسمية ، أى العلاقات القائمة بين الجانب النفسى والجانب الفسيولوجى.

ولسنا نريد أن نقصر مفهوم الخدمة الطبية على الأطباء المعالجين بل يجب أن نتوسع بهذا المفهوم لكى يشمل الصيدلة والتمريض فى نفس الوقت . ذلك أن الخدمة الطبية تتضمن هذه الأضلاع الثلاثة : العلاج والصيدلة والتمريض. ولا يمكن الاستغناء عن أى ضلع من هذه الأضلاع الثلاثة والاكتفاء بضلعين منها

فحسب أو بضلع واحد فحسب، ومن جهة أخرى يجب ألا نعطى الأولوية لأحد هذه الأضلاع على الضلعين الآخرين، تجميع هذه الأضلاع الثلاثة تقف على قدم المساواة بعضها مع بعض ، ولا يمكن تقديم أى منها على الآخر. فليس العلاج مثلا بأهم من التمريض كما قد يظن لأول وهلة، كما أن العلاج ليس أيضًا بأفضل من الصيدلة. فالمثلث هنا مثلث متساوى الأضلاع ولا يمتاز أى ضلع فيه على الضلعين الآخرين بأى ميزة.

من هنا فإننا نقترح أن تضم الدفعة الأولى للجهاز الطبى لأول ناد ينشأ من أندية العمر الثانى خمسة أطباء وخمسة صيادلة وخمس حكيمات ، ولكنا لا نشترط أن يدرسوا جميعا بنفس الكلية وإن كان من المستحسن انضمامهم معا فى بعض اللقاءات المشتركة لتفهم موضوع مشترك أو لتلقى محاضرات مشتركة. ويجب أن يحظى كل واحد من الصيادلة والحكيمات بنفس الامتيازات والفرص المتاحة للأطباء فيما يتعلق بالبعثات والدراسات العليا وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه والتوصل إلى تخصصات دقيقة. ومن الطبيعى أنه بالنسبة للصيدلة فثمة تخصصات دقيقة فيما يتعلق بالأدوية المكتشفة حديثا لعلاج الشيخوخة، وكذا الحال بالنسبة للتمريض.

والواقع أن هناك أشياء يمكن أن يضيفها أى من العاملين فى مجال الشيخوخة لا تكون أصلا فى نطاق تخصصه كاختراع بعض الأجهزة التى تساعد الشيخ على التعامل مع غيره أو التحرك فى المكان أو الإمساك بالأشياء أو نحو ذلك من مناشط. من أمثلة ذلك اختراع عجلة للانتقال فى طرق نادى العمر الثانى تعمل بالبطارية بغير أن يعمد الشيخ إلى تحريكها بيديه أو انتظار مساعدة غيره لدفعها إلى الأمام. ناهيك عن اختراع قطع غيار بديلة لبعض أجهزة الجسم الفاسدة أو تطوير بعض الأساليب المستخدمة حاليا فى التعامل مع السيخ أو نحو ذلك من مناشط وأشياء وعلاقات.

ولسنا نشك لحظة فى أن الإعداد النفسى لطبيب وصيدلى وحكيمة الشيوخ

لا يقل أهمية عن إعدادهم علميا ومهنيا . ذلك أن رعاية الشيخوخة بحاجة إلى إيمان برسالة تلك الرعاية والتضحية فى سبيلها أكثر من ترقب الفوائد المادية والأدبية التى يمكن أن تتأتى عنها.



الفصل الثامن

الرعاية النفسية

ارتباط الصحة النفسية بالصحة الجسمية :

إنه بغض النظر عن مدى الاعتراف بثنائية الجسم والنفس -إذ إن البعض ينكر وجود النفس ولايعترف إلا بالجسم- فإن أشد المنكرين لوجود النفس لا ينكرون الحالات النفسية والعقلية التى تتواتر على الإنسان الذى يحس أحيانًا بالسعادة وأحياناً أخرى بالشقاء ، ويحس أحياناً بالأمل وأحياناً أخرى باليأس ، كما أنه قد يعد من بين الأسوياء ، ولكن إذا ما جن جنونه والتوى فكره فإن الناس يرمونه بالجنون لأنه قد حادعن طريق التفكير السوى واتخذ له منحى عقليا غير سديد. ومما لاشك فيه أن أحوال الجسم تؤثر فى تلك الحالات النفسية الوجدانية والعقلية، كما أن العكس أيضاً صحيح. ذلك أن الفكرة ترد إلى ذهن الشخص سواء من الواقع الراهن من حوله أم كتاب يقرؤه أم ذاكرة ترد إلى حافظته فيستحدث فى كيانه بتأملها تغيرات عضوية فيرتفع ضغط دمه أو قد يصاب ببعض الأمراض كمرض السكر مثلاً وذلك إذا كانت تلك الفكرة شديدة التأثير فيه فتهيج بعض مقوماته الجسمية ، وتؤثر فى اتزانها وتخرجها عن طورها. فثمة إذن تأثير متبادل بين الجسم والنفس أو بينه وبين الحالات النفسية والحالات العقلية. فالجسم يؤثر فى تلك الحالات كما أن تلك الحالات تؤثر فى المقومات الجسمية وفى اتزان الوظائف الجسمية وعلاقاتها الدقيقة القائمة فيما بينها .

ونستطيع أن نقول فى الواقع إن الجسم إذا ما نضبت حيويته وبدأ معينه فى الجفاف ، فإن النشاط العقلى والنفسى يأخذان أيضا فى التدهور والذبول . من

هنا فإنك تجد أن الأطفال الذين لم يكتمل نموهم خلال الفترة الجنينية ببطن الأم وولدوا قبل اكتمال التسعة أشهر لا يصلون إلى مستوى السوية النفسية التى تقيض غالباً للعاديين من الأطفال، وقد ولدوا بعد تسعة أشعر من الحمل . فأولاد سبعة كما يوصفون لا يستطيعون التكيف لمتطلبات الحياة وتكون بنيتهم ضعيفة وعواطفهم أيضاً سريعة الاستثارة ويكون التعامل معهم من الصعوبة بمكان . ومن الطبيعى أن يعانى أولاد سبعة من شيخوخة مؤلمة جسمياً ونفسيا إلى درجة أن معاشرتهم لاتطاق فى كثير من الأحيان لدرجة أن أبناءهم أنفسهم قد يفرون منهم أو ينشغلون عنهم هربا من الاصطدام بهم لأتفه الأسباب .

وهناك من الأطفال من يولدون صغار الحجم ولا يواتيهم النمو العادى المكفول لغيرهم من أطفال . ويعرف أولئك الأطفال بالكريتينيين Cretins وإنك تجد الواحد منهم وقد بلغ المراهقة أو الشباب وما يزال فى حجم طفل لا يزيد عمره عن ثلاث سنوات ، وتظل تقاطيعه دقيقة باستثناء بعض الأعضاء كالأنف مثلاً أو الأذنين مما يجعل التمييز بينهم وبين الأطفال سهلاً. وأولئك الناس مهما بلغ بهم العمر فإنهم لايستطيعون مسايرة الكبار، بل إن نموهم العقلى والنفسى العام لا يسمح لهم بالنمو الاجتماعى السليم، ومن ثم فإنهم ينبون عن الآخرين ولا يستطيعون إقامة علاقات سوية معهم ناهيك عن أن إفادتهم من الخبرات التى تقدم إليهم تكون محدودة ولايمكن درجهم مع الأطفال الأسوياء بنفس السلم التعليمى بما فى ذلك المرحلة الابتدائية ذاتها . ويختلف أولئك الأطفال عن الأقزام، إذ أن القزم يكون شخصا مكتمل النمو باستثناء القامة وحجم الجسم ولكنه يكون سوياً من حيث حجم تقاطيع الوجه وحجم الرأس ، كما أن الكثير من أعضاء جسمه تعمل بطريقة سوية .

وبالنسبة للأطفال العاديين الذين لم يحصلوا على الغذاء المناسب ولم يرضعوا لبان الأم أو لم تقدم إليهم الموادالغذائية المناسبة ، فإنهم ينشأون على الضعف والهزال وبالتالى فإن تكيفهم الاجتماعى والتربوى والتعليمى يكون ناقصًا . ولقد تتدهور حالتهم فيصابون بمرض البلاجرا الذى يبدو لدى المصاب به الكثير من الاعوجاجات النفسية والعقلية .

ولقد يصاب التفكير أو بعض العمليات العقلية كالتذكر أو التخيل أو الإدراك بالعطب نتيجة حدوث عطب فى المخ بسبب حادث نتجت عنه إصابات بالمخ أو نتيجة أورام أو خراريج أصابت بعض أجزاء المخ ، أو نتيجة فقدان التكامل بين أجهزة المخ بعضها وبعض ، أو نتيجة تخلف فى التغذية العقلية كأن يعزل الشخص بعيدا عن المجتمعات الإنسانية منذ طفولته الأولى فلا يجد مخه تموينا خبريا لإحداث التفاعلات العقلية الداخلية ، فيتوقف عن العمل ويتعذر عليه القيام بالعمليات المنطقية التى لا تتأتى للشخص إلا نتيجة حدوث عمليات تراكبية مستمرة. ذلك أن المخ الإنسانى يقوم بعمليات توافيق وتباديل بين المقومات الخبرية التى تصل إليه مما يجعل العمليات العقلية لدى الإنسان العادى الحاصل على خبرات منظمة شبه لانهائية بحيث لا يتسنى القيام بحصرها .

ومن الطبيعى أن الشخص الذى يولد أعمى أو أصم يكون بالتالى فاقدا كل الخبرات التى تتعلق بحاستى البصر أو السمع . ويكون حال مثل هذا الشخص كحال الشخص الذى وهب عينين سليمتين أو أذنين سليمتين ولكن جهازى الترجمة الإدراكية المتعلقة بالبصر أو بالسمع فاسدان . فمثل هذا الشخص لا يستطيع أن يرى أو أن يسمع على الرغم من أن العينين والأذنين تكون سليمة تماماً من الناحية التشريحية ولكنها لا تقوم بالوظائف المنوطة بها لأن جهازى الترجمة البصرى والسمعى بالمخ لا يقومان بوظائفهما .

أما من حيث الناحية الوجدانية وصلتها بالجسم ، فإننا نجد أن الكثير من الأشخاص الذين يهتاجون بسرعة وبدرجة ملحوظة أو بدرجة لا تحتمل فلابد أن تكون هناك فى أمخاخهم علاقات فسيولوجية غير سوية . ويحاول علماء النفس المهتمون بإبراز الصلة بين المخ وبين الانفعالات البحث فى إمكان إجراء جراحات خاصة بالمخ من شأنها أن تهب الشخص الذى يتعرض لنوبات الهياج أو الغضب هدوءاً وسكينة . فبعد أن كان علماء النفس يوجهون انتباههم فى غالبية الحالات إلى العوامل التربوية وبعد أن كانوا يعزون ما يعجزون عن تفسيره أو عن اتخاذ إجراء بإزائه إلى الوراثة . فإنهم أخذوا يبحثون اليوم عن عوامل تشريحية وكيميائية فى المخ يفسرون تلك الحالات فى ضوئها. وقد أجريت تجارب على

الفئران وذلك بنقل عصارات معينة من مخ أحدها إلى مخ فأر آخر، فلوحظ أن الحالة الوجدانية الانفعالية التى كان عليها الفأر الأول الذى نقلت منه العصارة المخية قد انتقلت إلى الفأر الثانى وتبدت فى سلوكه . فإذا كان هائجاً جنسياً مثلاً، فإن الهياج الجنسى سرعان ما ينتقل إلى الفأر الآخر الذى كان مخلدا للسكينة وغير مكترث بالجنس الآخر من حوله . وإذا كان متسما بالعدوانية بإزاء الفئران الأخرى ، فإن روح العدوانية سرعان ما تسرى فى الفأر الثانى بعد حقنه بالعصارة المخية من الفأر الأول .

وهناك أيضا ما تفرزه الغدد الصم من هورمونات فى الدم مباشرة وأثر تلك الهورمونات فى الحالة النفسية والعقلية. فلقد لوحظ أن الأشخاص الذين تكون لديهم الغدد الدرقية بليدة ولا تفرز الكمية المناسبة لحاجة الجسم من هورمون الثيروكسين يكونون فى حالة من الخمول الفكرى والوجدانى والاجتماعي. وعلى العكس فإن أولئك الذين لديهم غدد درقية تفرز أكثر مما يلزم الجسم من ذلك الهرمون فإنهم يكونون فى حالة من الثورة والهياج لأتفه الأسباب أوبلا أسباب على الإطلاق، وبالنسبة للغدد التناسلية التى تفرز إلى الداخل هورموناً جنسياً (كلا الجنسين لديهما هورمون ذكرى وهرمون أنثوى ولكن مع اختلاف النسب لدى كل منهما) فقد يزيد إفراز الهورمونات الجنسية عن حاجة الجسم فتظهر علامات سلوكية معينة لدى الشخص. وغنى عن القول أن بعض حالات السلوك الجنسى غير السوى مردها إلى خلل أصاب الأعضاء التناسلية وليس إلى تمرد الشخص إراديا عن القيم الاجتماعية .

والواقع أنه بالنسبة للشيوخ فإن الكثير من الأمراض النفسية والعقلية التى تنتابهم إنما ترتد فى النهاية إلى ما يمكن أن يكون قد أصابهم من خلل فى أجهزتهم الجسمية، فالشيخ الذى اعتاد شغل معظم أوقات فراغه فى القراءة والاطلاع على بطون الكتب وقد أصيب بضعف الإبصار بحيث أعجزه ذلك الضعف عن مواصلة ما دأب عليه من قراءة واطلاع، تجد نفسه بلا شك بإزاء مشكلة نفسية خطيرة قد تأخذ به كل مأخذ وقد تجعله متبرما بالحياة وبالناس بحيث يبدأ فى إظهار بعض الانحرافات السلوكية التى لم يكن مصاباً بها من قبل كأن

ينفعل لأتفه الأسباب أو بقضاء الوقت ساهماً أو بأن تبدأ أخطاء الكلام فى الظهور لديه فى حديثه بشكل قد يثير الضحك أو القلق على حالته العقلية .

ونفس الشيء بالنسبة للشيخ الذى ضعف سمعه فإنه لايستطيع أن يفهم عن المتحدثين إليه مقاصدهم لأنه لا يسمعهم ، فينصرفون عنه أو ينصرف هو عنهم ويعيش فى حالة من الحزن والوجوم وقد يثور معتديا على من حوله بالشتم والضرب. وإذا كان هذا الصمم قد أصابه منذ مدة طويلة فإن ذلك يؤثر فى سلوكه الاجتماعى والخبري. ولاينقذه من التخلف العقلى إلا أن يعكف على القراءة والاطلاع بعينيه بفرض أنه يستطيع استخدامهما فى القراءة .

والواقع أن الكثير من الانحرافات العقلية والنفسية التى قد تصيب الشيوخ إنما ترجع أولاً وقبل كل شىء إلى ما قد يصاب به المخ من ضمور أو تلف. وفى بعض حالات الشيخوخة المتأخرة يصاب الشيخ بالهتر وهو ضعف عقلى يشبه الخبل، فيستحيل الشيخ إلى طفل تستثيره أتفه الأمور وتلهيه بعض الشواغل التافهة التى تلهى الأطفال فيما قبل الخامسة من العمر . ناهيك عن عدم القدرة على التكيف الاجتماعى ومسايرة الناس فيما يقولون وفيما يعملون .

وللأجهزة التناسلية بما تفرزه من هورمونات تناسلية داخلية أهمية خاصة بصدد حديثنا عن الشيخوخة . فبالنسبة للمرأة فإنها لدى بلوغها حوالى الخامسة والأربعين تنقطع لديها الدورة الشهرية وبالتالى ينقطع إفراز الهورمونات الأنثوية الداخلية. ويترتب على ذلك حدوث كثير من الضيق للمرأة ، فتضيق ذرعاً بكثير من الأمور التى كانت تأخذها مأخذاً عاديًا أو التى لم تكن تبالى بها قبلاً ، وكلما كانت المرأة كلفة بجمالها فى شبابها ومحتفلة بالنشاط الجنسى ، فإن آثار مرحلة اليأس تكون بالغة مبلغاً شديدا ومضنيا لديها .

أما بالنسبة للرجل فتجد أن البعض من الرجال وقد علا رؤوسهم الشيب ما يزالون ينبضون بالحيوية ولم تنضب لديهم الهورمونات الذكرية المتدفقة بدمهم ولم تأفل أعضاؤهم التناسلية ولم تذو أو تفتر فى عملها. فهذا الصنف من الشيوخ يدأب على البحث عن مصادر حب جديدة لأن زوجته - إذا كان زوجا - لم تعد

تجد لديها باعثا جنسيا لكبر سنها . ومن الطبيعى أن يتواكب مع هذا السلوك الجنسى المشبوب ما يمكن أن يوصف بأنه شذوذ نفسى وربما شذوذ عقلى لأنه يتعارض مع ما كان يتوقع منه من سلوك متسم بالفتور فى النشاط الجنسى . أما بالنسبة للرجال الذين دأبوا على الاحتفال بالجنس وقد ضمرت لديهم الأجهزة التناسلية ، فإنهم قد يفتعلون النشاط الجنسى والتقرب من الجنس الآخر كنوع من التغطية التى يريدون من ورائها إثبات أنهم ما يزالون مفعمين بالشباب والحيوية.

من هنا فإن الشيوخ بحاجة إلى نوع من التوجيه السلوكى قبيل انخراطهم فى سن الشيخوخة ، وذلك حتى يأتى سلوكهم سويا ، ويجب ألا يترك ذلك لفطنتهم وما سبق أن اكتسبوه من خبرات فى حياتهم الطويلة، ذلك أن الشيخوخة مرحلة حساسة حساسية الطفولة والمراهقة . فإذا لم نقم خلالها بالرعاية الصحية من جهة وبالرعاية النفسية من جهة أخرى ، فإننا لا نستطيع بحال أن نضمن للشيخ حياة خالية من التخبط واليأس والاضطراب ، بل ومن الشذوذ النفسى والعقلى . فمشاركة الطب وعلم النفس فى رعاية الشيخوخة أمر لا مناص منه لضمان سعادة الشيوخ وتمتعهم بشيخوخة سوية وراضية فى نفس الوقت .

تنقية الجو المحيط بالشيخ :

لسنا نجانب الحقيقة أو نبالغ فى القول إذا ما قررنا أن رعاية الشيخوخة النفسية بحاجة إلى جهود كبيرة تبذل من أجل تنقية الجو المحيط بالشيخ . ذلك أن مرحلة الشيخوخة تتسم كما سبق أن أكدنا عدة مرات بالحساسية الشديدة شأنها شأن مرحلتى الطفولة والمراهقة. فأى تعكير فى الجو المحيط بالشيخ يزداد تعقيدا إذا ما أضيف إلى العوامل النفسية والحساسية الزائدة لديه، فالواقع أن الانطباع النفسى غير المواتى يداخل الشيخ بسيطا ولكنه ما يفتأ يتعقد بل ويتكثر إلى أن تتلبد الأجواء النفسية لديه لدرجة أنه لايعود يطيق الحياة . ومهما حاول الشخص الخارج عن النطاق الاجتماعى للشيخ تفهم المبررات التى تحمله على الانخراط فى كل ذلك اليأس الذى يخيم على نفسيته ، فإنه سوف لا يستطيع أن يقف على الواقع النفسى لديه لأنه معقد غاية التعقيد ، وذلك نتيجة الشرارة الأولى التى اندلعت إلى دخيلته فلم تبق على شىء ولم تذر .

وما دامت الإثارة والتعقيد النفسى يتأتيان عن قطبين أساسيين هما دخيلة الشيخ من جهة والظروف والمواقف الخارجية من جهة أخرى ، فإننا نستطيع القول بأن السبيل الوحيد أمامنا لكى نخلص الشيخ مما يعقد نفسيته أو يجعل غيوم الهم تخيم على سمائه النفسية هو إبعاد الشيخ عن الجو المثير . فإذا نحن قطعنا الطريق بين الخارج والداخل نجم عن ذلك عدم قيام التفاعل الردىء بدخيلة الشيخ، أو بتعبير آخر التمهيد للطريق المفضية إلى تصفية الجو النفسى لديه . ذلك أن الرواسب النفسية الرديئة التى كانت قائمة بداخل الشيخ قبل قطع الطريق أمام التفاعل النفسى الردئ تأخذ فى الخفوت والذبول حيث إنها لا تجد لنفسها غذاء تتغذى عليه أو مقومات عضوية تنشط بسببها .

صحيح أن الأفكار والانطباعات والانفعالات النفسية تتكثر تلقائياً بالداخل حتى بغير أن ترد إليها مقومات خارجية، ولكن ليس من سبيل إلى محاصرة تلك الأفكار والانطباعات والانفعالات إلا بالبدء فى قطع الطريق بينها وبين المقومات الخارجية الجديدة. والشأن هنا كالحريق الذى ينشب فى داخل أحد المصانع أو ظهور وباء فى إحدى المدن . فأول إجراء يجب اتخاذه هو قطع الصلة بين المصنع أو المدينة وبين الموجودين بالخارج وعدم السماح لأحد بدخول المصنع أو المدينة . ولكن مما لا شك فيه أن مجرد قطع الطريق بين المصنع والمدينة وبين البيئة الخارجية لايكفى لإطفاء الحريق أو للقضاء على الوباء، ولكن هذا الفصل بين الداخل والخارج يعتبر خطوة لابد منها تأتى بعدها الخطوات الأخرى . ومعنى هذا بالنسبة للشيخ أن تنقية الجو الاجتماعى المحيط به لا يكفى للرعاية النفسية بل لابد أن تتلو ذلك خطوة أخرى هى تنقية الجو النفسى الداخلى لديه، وهذا سيحملنا على الحديث عن هذا النوع الأخير من التنقية النفسية فى الموضوع التالى من هذا الفصل. وعلينا الآن أن نكتفى بالتركيز على تنقية الجو الاجتماعى الخارجى المحيط بالشيخ كخطوة أولى فى سبيل التطهير النفسى الكامل والعصمة من العواصف النفسية التى تدخر السلام النفسى الداخلى لديه .

ولعل من عوامل التطهير الخارجية التى ينبغى الحرص على تحقيقها لتنقية الجو الاجتماعى المحيط بالشيخ توعية المتعاملين معه لتوفير الجو الاجتماعى

المناسب له . ذلك أن وعى المتعاملين مع الشيخ بما يجب اتباعه وما يجب تجنبه فى غاية الأهمية لتوفير الظروف المناسبة لإحداث تفاعلات جيدة بداخل الشيخ تبعث على السعادة وتشيع لديه الرضا. فالواقع أن فن التعامل مع الشيوخ فن صعب وبحاجة إلى تدريب معين لا يتوافر بغير توجيه وتوعية مستمرين، ولعل المشكلة القائمة بين الشيخ ومن حوله هى مشكلة تغير الوضع الاجتماعى لكل من الشيخ ولمن حوله على السواء . فبينما يكبر الوضع الاجتماعى وتسمو المكانة الاجتماعية للأبناء والبنات ، نجد أن الوضع الاجتماعى والمكانة الاجتماعية للشيخ (الأب والأم والجد والجدة) يأخذان فى التدهور . وهذا يحدث بصفة خاصة فى المجتمعات الحديثة يحث يتم تقييم الشخص فى ضوء مجموعة من المعايير النفعية المصلحية وليس فى ضوء مجموعة من المعايير الإطلاقية التى تعمد إلى تقديس الشيخوخة فى حد ذاتها والتى يتم بمقتضاها احترام الصغير للكبير لا لشىء إلا لأنه كبير . وإنك لتجد أن المجتمعات الزراعية الريفية ما تزال تقدر الشيخوخة فى حد ذاتها إلى حد ما ، وذلك لأسباب إطلاقية من جهة ولأسباب مصلحية من جهة أخرى . فالكبار فى ذلك المجتمع الريفى يدأبون على الإمساك بناصية العمل والاقتصاد بل وتدبير شئون المعيشة لجميع المحيطين بهم ولا يعرفون سنا يحالون فيها إلى المعاش أو يوضعون فيه على الرف .

والواقع أنه بالنسبة لتغير الوضع والمكانة الاجتماعية بالنسبة لكل من فئة الشيوخ وفئة الصغار الذين صاروا يمسكون بأعنة الأمور ،فإنك تجد أن كلا الطرفين لا يحاول التكيف للوضع الجديد الذى آل إليه . فالصغار الذين تسلموا أزمة الأمور لا يقدرون الواقع النفسى للكبار الذين كانوا يمسكون بتلك الأزمة ، بل إنهم يضربون بذلك الواقع عرض الحائط ولا يهمهم شىء سوى ما آلوا إليه أو ما آل إليهم من مسئولية أو من امتيازات. ومن الطبيعى أنهم لا يتنازلون عن المزايا التى تأتت لهم فيظلون صغاراً أو يظلون يأخذون المشورة والرأى ويعمدون إلى تسليم أعنة القيادة مرة أخرى إلى جيل الشيوخ وقد وهنوا وتزايلت عنهم المقومات الاجتماعية التى كانت لهم من قبل . ذلك أن الجيل الذى ارتقى إلى مستوى المسئولية يريد أن يأخذ دوره ولا يظل تحت نير الجيل السابق الذى كان يفرض

قوته عليه ويلزمه بما كان يراه من آراء وما كان يرتئيه من اتجاهات فارضا ما كان يحلو له من إرادات .

أما بالنسبة لجيل الشيوخ، فإنه يحزن بلا شك على سلطان كان فى قبضته وأفلت من بين يديه . صحيح أن بعض الشيوخ يظهرون فى أقوالهم غير ما يبطنون ويقولون أنهم يفضلون الركون إلى الراحة والدعة وأنهم قد شبعوا من الحياة وأنهم قد أخذوا دورهم وعليهم الآن أن يخضعوا لمشيئة الجيل الذى كان قبل ذلك يخضع لمشيئتهم . ولكن يجب ألا نأخذ تلك الأقوال على علاتها وأن نصدقها حرفيا كما تقال ، بل يجب أن نستشف ما يكمن وراء القول من حسرة على قوة اضمحلت وعلى سلطة أفلتت وعلى زمام انتقل من أيديهم إلى أيدى الصغار الذين طالما أخضعوهم لمشيئتهم .

ولقد تنشأ بعض المواقف التى تكشف النقاب عن عدم رضا الشيوخ بما آلوا إليه من وضع منخفض ، فتجد أن مشاحنات حادة قد اندلعت بين الشيوخ وبين ابنائهم وبناتهم أوبينهم وبين جيل الشباب أيا كان ممن يعمدون إلى التحكم فيهم أو الاستئثار بالسلطة دونهم. والواقع أن قصة الحماة والكنّة مشهورة عبر التاريخ برمته. فزوجة الابن تمثل جيل الشباب الذى يريد المشاركة فى السلطة أو الاستئثار بها دون أم الزوج التى كانت تحظى بالسلطة كلها عندما كان ابنها صغيرا.

ولسنا نشك فى أن مجرد الكلام يوجه إلى المحيطين بالشيوخ لا يجدى، ولكننا موقنون فى نفس الوقت بأن التوعية إذا ما اكتملت للمتعاملين مع الشيوخ فإن كثيرا من المشكلات سوف تخف حدتها وتأخذ فى الانقشاع ولا تستمر فى الارتكاز بكلكلها على صدور الشيوخ كما هو حادث اليوم فى كثير من الحالات. ولا نعنى بالتوعية كلاما يقال أو نصائح تسدى فحسب، وإنما نعنى مثلثا متساوى الأضلاع أحد أضلاعه هو الإقناع والكلام والنصائح والضلع الثانى تغيير اتجاهات جيل الشباب ، علماً بأن تعريف الاتجاه ببساطة هو الاقتناع وقد استحال إلى إيمان، وذلك باتحاد الفكر بالوجدان، أو بتعبير آخر حدوث مركب بين الفكرة التى تم الاقتناع بها وبين الحماس الذى يتوفر الشخص لدى لتلك الفكرة . أما الضلع

الثالث فى هذا المثلث فهو التمرس والتدرب العملى على ممارسة الفكرة وتطبيق الاتجاه .

ومن الجوانب التى يجب توعية المحيطين بالشيخ بإزاءها حضهم على تجنب المناقشات والمجادلات التى تعمل على إثارة أعصابه أو تضعه فى موضع المخطئين أوالذين لا يفكرون بطريقة منطقية سديدة . ومن جهة أخرى يجب عدم تخطىء الشيخ فيما يقول بقدر الإمكان . ذلك أن التخطىء أو انتقاد الآراء أو إلقاء الأضواء على الشاذ من التصرفات مما يثير حفيظة الشيخ ويدفع به إلى مقابلة الهجوم بهجوم مضاد عنيف. ويحسن فى جميع الأحوال تجنب الصدام المباشر مع الشيوخ سواء تلبس ذلك الصدام بشكل كلام أو صوت مرتفع أو حتى مجرد الحيلولة بينهم وبين ما يرغبون فى النهوض به. ذلك أن الكثير مما ينحو الشيوخ إلى القيام به والإصرار على الاضطلاع به إنما يكون نتيجة الصدام معهم أو منعهم من القيام بما يرغبون فى عمله . فإذا ما ترك الشيخ وشأنه فإنه لا يتشبث فى الغالب بما كان يلوكه من آراء أو بما كان يتذرع به من تصرفات. ولكن يجب فى نفس الوقت عدم اتخاذ موقف اللامبالاة تجاه الشيخ ،لأن مثل ذلك الموقف يشعرهم بأنهم صاروا كما مهملا أو أن الآخرين لا يقدرونهم . وثمة فرق دقيق بين عدم الصدام معهم وبين اتخاذ موقف اللامبالاة حيالهم . فمن الممكن أن أمتنع عن الصدام مع الشيخ وعدم الدخول معه فى مناقشة عنفية وفى نفس الوقت لا أكون قد اتخذت منه موقف غير المكترث بما يقول أو بما يعمل. ذلك أن اللامبالاة تشكل موقفا إهماليا لشخصية الشيخ بينما يشكل عدم الصدام معه تجنب الدخول فى معركة بإزاء موقف معين أو هو إغماض العينين عن واقع محدد فحسب وليس الإغماض عن الشخص نفسه .

ولسوف يحس الشيخ بهذا التمييز عندما يدرك أن من حوله مهتمون به إذ إنهم يسارعون إلى تلبية رغباته المعقولة التى لاتضر به وبصحته ويراعون أوقات راحته ومواعيد نومه، ويبدون اهتماماً واضحاً بمأكله وبسريره وبملابسه ومواعيد تناوله للدواء. ويدعم هذا أيضا أن يعمد المحيطون بالشيخ إلى الضرب على أوتاره الحساسة التى تعمل على الارتفاع بمعنويته وتشد من أزره وتبعث على الرضى

والارتياح لديه، بل قد يعمد بعض الشباب الذين توافر لهم قدر كبير من الحكمة إلى افتعال مشورة الشيوخ فى بعض الأمور مما يشعرهم بأنهم ما يزالون أصحاب وزن كبير فى الأمور الهامة، فأخذ المشورة من الشخص يشعره بأنه يفوق الآخرين حكمة وحصافة واقتداراً فى إبداء الرأى الصائب الذى لا يستطيع غيره إبداءه .

ومما يهيئ للشيخ مناخاً اجتماعيا مناسباً العمل على توفير حلول عملية مناسبة وناجعة للمشكلات التى تلح عليه وتقلق مضجعه أو تنشر على حياته ضبابا قاتماً. والواقع أن هناك الكثير جداً من المشكلات العملية التى لا يجد الشيخ لها حلا مما يشعره بأن الدنيا قدضاقت فى نظرة بسببها، بينما تكون الحلول جاهزة وبسيطة وسهلة وفى مكنة المحيطين به. ومن الواجب أن نذكر دائماً أن مرحلة الشيخوخة تشبه إلى حد ما مرحلة الطفولة. فالطفل يحس بالمشكلة ولكنه لايستطيع بلورتها أو التعبير عنها بسهولة. وكذلك حال الشيخ فهو قد يستشعر المشكلات ولكنه يعجز عن تحديدها أو الإفصاح عنها لمن يحيطون به فلا يكون أمامه إلا أن يأخذ الآخرون بيده فى هذا المضمار ويبلورون ما يحس به من مشكلات ويعينونه فى البحث عن حلول ناجعة لها .

وغنى عن القول أنه يجب أن يستأصل من الجو الاجتماعى المحيط بالشيخ كل ما من شأنه أن يهين الشيخ أو أن يمس مشاعره بالاستهزاء بما يقول أو بمايعمل ، أو ما يثير حفيظته أو يغيظه ويقصد منه التعريض به أو السيطرة عليه أو تثبيط همته أو استذلاله أو تعييره بالمرض و بالفقر أو برثاثة ملابسه أو بقلة حيلته أو بتعاظم قوة أعدائه أو بأن السماء تنتقم منه بسبب ماسبق أن صدر عنه من أفعال قبيحة فى شبابه ، أو ما إلى ذلك من كلام مؤلم ومثير فى نفس الوقت للشيخ المحطم الذى ربما لا يستطيع مقابلة تلك الإثارات بما يرد كيد الكائدين عنه ، بل يظل حبيس دخيلته المشحونة بالآلام النفسية الممضة الناجمة عن تلك المعايرات والتأنيبات التى وجهت إليه وتفت فى عضده وتخفس بكل معنوياته .

تنقية الجو النفسي لدى الشيخ :

ذكرنا فى الموضوع السابق أن الخارج والداخل يتفاعلان بعضهما مع بعض وأن تهيئة المناخ الخارجى ضرورة أساسية كبداية لا مناص منها لتوفير الفرصة لتنقية الجو الداخلى بدخيلة الشيخ . وقد سبق أيضا أن قلنا إن الإنسان يستطيع أن يركب من المقومات الداخلية التى تأتت له مركبات نفسية لا نهاية لها تقريبا بالتوافيق والتباديل. فالأفكار والعواطف والعقد النفسية تتكثر ديناميكيا بالتلاقح بعضها ببعض بحيث ينجم عن ذلك التلاقح الكثير من الأبناء والأحفاد من الأفكار والعواطف والعقد النفسية . من هنا إذن فلا يكفى أن تنقى الجو الخارجى المحيط بالشيخ ، وبعد ذلك تطمئن إلى أن نفسيته قد تطهرت وتنقت ، بل لابد لا أيضا من وضع خطة لتنقية الداخل والمحاصرة الأفكار والعواطف والعقد النفسية التى تشكل عقبة نفسية تحول بين الشيخ وبين بلوغ السعادة ، أو التى تضرب شخصيته بالابتئاس والتوتر .

ولعلنا نبدأ أولا بالأفكار التى يمكن أن تعرقل سعادة الشيخ وتلبد أفق نفسيته بالغيوم السوداء . فتلك الأفكار إما أن تكون حول الشيخ نفسه وإما أن تكون حول أفراد آخرين يرتبطون به من قريب أو من بعيد ، وإما أن تكون حول القيم والعقائد. والواقع أن الأفكار الشخصية التى نعنيها ليست مجرد أفكار منطقية أو أفكار موضوعية بحتة تتعلق بوقائع خارجية متجردة عن الصبغة الوجدانية الخاصة بالشيخ نفسه ، بل هى أفكار مشوبة بصبغة وجدانية أو مفعمة بنغمة نفسية معينة . وطبيعى أنها تكون صبغة أو نغمة قاتمة عابسة تنوء بكلكلها على صدره وتجثم فوقه بثقلها فترهقه وتضرب حياته بالغم والقنوط .

وأكثر من هذا فإن تلك الأفكار المخيمة على الأفق الوجدانى للشيخ لا تخضع لسلطانه ولا ترضخ لإرادته فيحضرها إذا أراد ويبعدها وقتما يزهد فى اعتمالها فى ذهنه، بل هى السيد المسيطر والآمر والناهى والمالك لناصية نشاطه الذهنى النفسي. إن الشيخ يتبرم من اعتمال تلك الأفكار المضنية فى دخيلته ، ولكنه لا يجد لديه حيلة للتخلص منها أو للتخفف من حدتها ، بل يجد أنه مذعن لها

ولا قبل له بإزائها إلا أن يرضخ لسلطانها لكى تتحكم فيه وتأخذ به كل مأخذ وتلعب به كما تلعب الريح بالورقة الخفيفة التى تتصدى لمجراها ومرمى هبوبها . وكيف يتطاول فيعترض طريقها وهى الأفكار التى تتكاثر على رغمه بل وتتكثر فى يقظته ومنامه ، وفى وعيه ولا شعوره . ذلك أن المخ البشرى يعمل سواء كنا أيقاظا أم نياما . فالمخ ليس كالعينين مثلا . فبالنسبة للعينين فإنهما تأخذان عطلة حالما نبدأ فى الانخراط فى النوم ونغلقهما، فلا تريان شيئامما يحيط بنا فى المكان الذى ننام فيه. ولكن المخ لا يأخذ عطلة إذا ما أخلدنا إلى النعاس. إنه يعمل بإرادتنا من جهة ورغما عنا من جهة أخرى، وهو ليس مجرد آلة تسجيل تذيع ما سبق أن سجل عليها، وإنما هو آلة تركب أيضا. وفى مستطاع تلك الآلة أن تركيب من المقومات الخبرية التى أفعمت بها مركبات جديدة مستمرة، بل إنها تستطيع أن تركب أيضا من المركبات التى قامت بصنعها مركبات أخرى تالية. ومن هنا فإن أجيالاً متعاقبة تعاقبا سريعا وغزيرا من الأفكار تستحدث بواسطة المخ بحيث نستطيع أن نقف فى فكر الشيخ على أبناء الأفكار وعلى أحفاد الأحفاد من الأفكار التى تتوالد وتتجم بعضها من بعض فى توال سريع نسبيا . فثمة ما يشبه الانفجار السكانى يقع فى ذهن الشيخ ، ولكن السكان هنا هم الأفكار المعتملة لديه والتى تتغذى على الطاقة الذهنية لديه وتتوالد بعد أن تتلاقح بعضها مع بعض، وقد أخذت فى التكاثر إلى مالا نهاية وهى تتزاحم فى عقله وتتسابق لاحتلال مكان الصدارة الفكرية لديه .

من هنا فإنك تجد أن المسألة ليست مسألة سهلة ميسورة لاقتلاع تلك الجراثيم الفكرية التى تتسابق فيما بينها على احتلال مركز البؤرة فى ذهن الشيخ وتسعى للسيطرة عليه وشل حركته الفكرية أو ضربه باليأس والركون إلى القنوط وتسليم قياده لها بغير أن تكون لإرادته أية سلطة الفكرية الفكيرة وتوجيه دفة الطاقة الذهنية أية وجهة يقع اختياره عليها. ولكن هل معنى هذا أن لا سبيل إلى تخليص الشيخ من تلك الجراثيم الفكرية والحد من سلطانها عليه والعمل على استئصالها؟

الواقع أن ثمة فارقا بعيد المدى بين الصعوبة والاستحالة. فالطريق شاقة لبلوغ تلك الغاية والتوصل إلى استئصال تلك الجراثيم الفكرية ، ولكن هذا غير مستحيل إذا ما أحكمنا الخطة لمحاصرتها ثم القيام بضربها فى الصميم بعد شل حركتها. فإذا ما توافرت لنا الخطةالسديدة لبلوغ لتك الغاية ، فيكون بمكنتنا عندئذ تسيير الهجوم فى الخط الصحيح وتسديد الضربة القاضية إلى المقوم الرئيسى لذلك التكثر والاطراد فى الزيادة والتوالد الفكرى المفسد .

والخطوة الأولى التى ينبغى علينا اتخاذها هى الوقوف على نوعية تلك الأفكار والمحاور التى تدور حولها . وهذا يتأتى لنا بالإنصات لمدة طويلة لما يفضى به الشيخ لنا فى حديث مسترسل بغير تكلف. ولعل استخدام جهاز التسجيل يكون مفيدا فى هذه الحالة بشرط ألا يعرف الشيخ أنك تقوم بتسجيل ما يفضى به لك من حديث. وهناك شرط أيضا فى إدارة الحديث هو إثارة الشيخ بملاحظة عابرة أو بسؤال عام أو بطرق مشكلة تعترض الكثير من الناس بحيث لا يستطيع أن يدرك أنك تتخذ منه موقف المعالج النفسانى أو المحلل أو المستجوب . وبتعبير آخر أنك تتيح له فرصة كافية لإخراج مافى جعبته من أفكار وذكريات . وعليك بالتذرع بالصبر فى الاستماع إلى الحديث مهما طال . واعلم أنك هنا لست بصدد معالجة موضوع علمى تلتزم فيه بحدود وعناصر ، بل أنت بإزاء جيشان نفسى تريد الإلمام به والوقوف على كنهه ومداه . ولقد تجد من الشيوخ بعض المتحفظين الكتومين الذين ليس من السهل عليك حملهم على الإفضاء بما يكنونه من أفكار . فهم كصندوق مغلق بإحكام وليس من السهل فتحه وفضى محتوياته . فعليك إذن بالصبر وإثارة مواطن الاهتمام لديهم موطنا بعد آخر إلى أن تعثر على النقطة الضعيفة التى يحدث عنها الانفجار التعبيرى فلا يستطيع الشيخ عند تلك النقطة الضعيفة أن يستمر فى كتمانه بل يأخذ فى الإفضاء بما لديه بغير تحفظ . فعليك عندئذ وقد بدأ الشيخ فى الاسترسال أن تتيح له الفرصة الكافية للتعبير والإفاضة بغير أن تقاطعه، بل عليك بتشجيعه بالإنصات والاهتمام إلى كل كلمة يقولها. ولا تكتب شيئاً مما يقوله له حتى لا يفهم أنك تستجوبه وإلا فإنك عندئذ تفسد الخطة بكاملها.

وليس من الضـروري أن تأخـذ كل شـيء مما يدور بخلد الشـيخ فى جلسـة واحـدة بل تسـتطيع أن تخصص لكل شيخ من الشـيوخ الذين تقوم بتنقيـة الجو الداخلى لديهم شريط تسـجيل أو أكثر، وبعد تجميع الكمية المناسبة من حديث الشيخ ، فإنك تستطيع أن تجلس إلى جهـاز تسجيلك وحـدك بغيـر أن يكون معك أحـد مـهـمـا كنت تثق فيـه وتأخـذ فى الاسـتـمـاع وقلمك وورقك بين يديك حـيث تسـتخلص مـا يعن لك استـخـلاصه أو تلخص مـا ترى تلخيصه مما تسـتمع إليه. وتسـتطيع كـذلك أن تعيـد على سـمـعك الشـريط أكـثـر من مـرة إلى أن تسـتـوعب مـايتضمنه وحتى تقف على المحاور التى يدور فكر الشيخ حولهـا . ويحسن بك ألا تتناول أكـثـر من حالة واحدة فى الليلة الواحدة منعـا من إرهاقك من جهـة ، وحتى تركـز جهدك كله لمعالجة حالة واحدة فتأتى نتائجك أكثر فائدة ونجوعاً من جهة أخرى، وطبيعى أنه بعد أن تكون قد استوعبت ما يتضمنه الشريط تقوم بمحو ما سجل عليه حتى لا يسقط فى يد أحد سواك وفيه ما فيه من أسرار لا يصح لأحد أن يطلع عليها .

والواقع أن مـجـرد سـرد الشيخ للأفكار التى تدور بخلده كفيل بالتخفيف من العبء النفسى الذى يحمله على قلبه. ولكن هذا التفـريغ لا يكفى وحده ولا يشكل كل العلاج ولا يكفل تحقيق التنقية النفسيـة الكاملة. فالراحة التى تكفل للشيخ بعد تلك الإفـاضة بمـا يدور بخلده من أفكار إنما هى راحة مؤقتة. فإذا مـا اكتفى بها فسـرعـان مـا تعـود الأفكار القـاتمة إلى التـزاحم من جـديد فى عـقل الشـيخ بحيث قد يكون طغيانها أشد وأقسى عن ذى قبل، بل إن الشيخ نفسه قد يندم على أنه أباح لك بمكنونات نفسـه بغيـر أن يحظى بالعـلاج الشـافى لهـمـومـه، إذ إن دورك لم يزد عن مـجـرد دور المستـمع لما يقـوله لك. إذن فـمـا الخطوة التـاليـة التى يجب عليك اتخاذها؟

إن موقفك الذى اتخذته حتى الآن هو موقف المشخص للمرض وليس موقف الواصف للدواء النـاجع . ومن المضحك أن يشـخص الطبيب مـرض المريض ويكتفى بذلك ، بل لابد له أن يصف الدواء لمريضه بعد وقوفه على العلة التى تقض عليه مـضـجـعـه . والدواء الذى تصفـه للشيـخ هنا ينشـعب إلى أنواع مـختلفـة ومـسـالك

متنوعة. فالنوع الأولى هو الدواء العقلى ، وذلك بأن يفل الفكر بالفكر كما يفل الحديد بالحديد . ولكن الدخول فى معركة مع الأفكار السوداء التى تخيم على ذهن الشيخ لا يكون غالبا بالطريق المباشرة بل بالطريق غير المباشرة . فالأغلب أننا لانقصد نحن معشر الناس ما نقوله بالضبط بما نقوله بل نقصد مناحى مجاورة للمعانى التى نعبر عنها . وغنى عن القول أن النفس الشرية ليست كتابا مفتوحا يمكن قراءته بل هى شفرة ملغزة تحتاج إلى صبر وطول أناة لكى نتفهم تلك الرموز التى تقدمها إلينا . فالقصص التى يذكرها الشيخ وإن كانت كلاماً مفهومًا وربما يكون كلاما مقنعا، فإنها بمثابة رموز ملغزة يصعب فهمها وتحتاج إلى صبر وذكاء لكى نفهم ما تخبئه تحتها. فإذا ما تسنى لك بلوغ تلك الغايات وعثرت على لتلك الشفرة النفسية، فإنك تستطيع بالتالى أن تقف على السلاح الذى تستطيع بواسطته إقناع الشيخ نفسيا، ولعلنا نستخدم هنا لفظ إقناع تجوزا، وما نعنيه بالضبط هو الإيحاء، أعنى الإقناع بطريق غير منطقى. فإذا كانت فحوى كلام الشيخ هو أنه لايثق فى نفسه، فإن ردك على تلك الفحوى لايكون بمناقشة ما تضمنته القصص التى سردها على سمعك، بل يكون بتقديم الإيحاءات التى تكفل له استرداد ثقته بنفسه. فقد تذكره بأمجاده التى سبق أن أحرزها خلال حياته ، وأن تلك الأمجاد ما تزال وستظل قائمة حتى وإن هو توقف اليوم عن مواصلة تشييد أمجاد جديدة .

وإلى جانب الأفكار تعتمل فى ذهن الشيخ فهناك الحالات النفسية التى قد تتقلب عليه وتستأثر بعواطفه بغير أن تكون هناك موضوعات معقولة أو مقدمات منطقية تستدعى نشوء تلك الحالات . فقد تسيطر على الشيخ بعض نوبات البكاء أو حالة من الاكتئاب أو هستيريا الضحك أو المرح الزائد الذى لا يجد له مبررا كافياً يجعله معقولاً ، أوحالة من الإحساس بالضآلة الشديدة واحتقار الذات بإزاء الآخرين، أوالشعور بالآثام والنجاسة تفعم الشخصية، أو الإحساس بالنقمة الإلهية وشيكة الوقوع ، أو العذاب الأبدى ينتظر الشيخ بعد موت بدأ يقرع الأبواب ، أوالوقوع تحت طائلة الكثير من الهواجس والمخاوف الغامضة التى لا يعرف كنهها . ناهيك عما يمكن أن يسيطر على الشيخ من أعمال قهرية Compulsions ووساوس

Obsessions تشل حركته الإرادية من جهة وتحبسه فى قمقمها من جهة أخرى بحيث لا يجد منها فكاكا .

والواقع أن الموجه النفسى يستطيع أن يجد له حيلة بإزاء الحالات الخفية من جميع تلك النوعيات التى ذكرناها هنا . ولكن بالنسبة للحالات الشديدة فإن المسألة قد تكون بحاجة إلى علاج طبى نفسى . ولا يزعم الطب النفسى لنفسه حتى فى ضوء المرحلة التطورية الراهنة التى وصل إليها أنه قادر على مغالبة تلك الأمراض جميعا . بل إن هناك بإزائها محاولات متعددة الأبعاد . فهناك البعد الفرويدى المتعلق بالتحليل النفسي، وهناك البعد التنويمى hypnosis من جهة ثانية وهناك البعد الكيميائى الحيوى من جهة ثالثة ، وهناك البعد الجراحى من جهة رابعة، وهناك البعد الكهربى من جهة خامسة إلى غير ذلك من أبعاد علاجية تسير حثيثا ولكنها لم تبلغ حتى الآن مبلغ الاطمئنان إلى نجوع النتائج المترتبة عليها بحيث نضمن للشيخ أو لأى شخص يخضع لها تنقية نفسية داخلية كاملة .

بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نقرر أن نسبة كبيرة من الحالات يمكن أن تفلح معها الأساليب العادية فى الرعاية النفسية. وكقاعدة عامة نستطيع أن نجزم بأنه كلما بدأنا بالرعاية النفسية مبكراً كانت النتائج التى تكفل لنا مؤكدة وحاسمة.

فن الرعاية النفسية للشيوخ :

لقد سبق أن ميزنا فى مناسبة سابقة بين الرغبة والحاجة ، وقلنا إن من الضرورى دائمًا تقديم الحاجة على الرغبة ، ولقد أكدنا أيضا أنه فى كثير من الأحيان يحدث صراع بين الرغبة والحاجة . فبينما يرغب الشخص فى الحصول على شىء ما أو ممارسة أحد المناشط ، فإنك تجد أن مصلحته الشخصية تتنافى مع حصوله على ذلك الشىء أو ممارسته لذلك المنشط . ولقد ينفر شخص آخر من الاستحواذ على شىء أو من ممارسة منشط ما من المناشط بينما تكون لديه حاجة ملحة إلى الحصول على ذلك الشىء الذى ينفر من الحصول عليه أو ممارسة ذلك المنشط الذى يتقاعس عن ممارسته والإحساس بعدم الرغبة فى

القيام به. ونستطيع أن نضرب مثالاً للحاجة الأولى بالشخص الذى يرغب فى تناول المواد السكرية بكثرة بينما هو مصاب بالبول السكرى، وبالطالب الذى يرغب فى مشاهدة إحدى مباريات كرة القدم قبيل الامتحان بأيام قليلة وهو فى أشد الحاجة إلى دقيقة واحدة يقضيها فى مراجعة دروسه قبل دخول الامتحان . ونستطيع من جهة أخرى تقديم مثالين للحاجة الأول خاص بامرأة من مصلحتها أن تواظب على تناول حبوب منع الحمل بحيث تضمن تحديد النسل حتى تستطيع النهوض بعبء تربية أبنائها الحاليين بكفاية . أما المثال الثانى فنضربه بالشيخ الذى لا يريد تناول الدواء مع أنه فى حاجة إليه لشفائه أو لتقويته، وذلك لأنه يجد نفورا بينه وبين الانتظام على تناوله بسبب مرارة مذاقه مثلا. ففى هذه الأمثلة الأربعة نجد أن الرغبة والحاجة لا تلتقيان بل تتنافران وفيها جميعا يكون من الواجب ترجيح كفة الحاجة على كفة الرغبة.

وثمة تمييز آخر يجب أن نضعه نصب أعيننا بين التعاطف مع الشيخ وبين العطف عليه . فالواجب دائماً أن ننحاز إلى جانب التعاطف وألا ننحاز إلى جانب العطف. نعم إن الشيخ قد يبدو رغبة شديدة لاستدرار عطف المحيطين به والمهتمين بشئونه. ولكن الواقع أن تلك الرغبة النفسية التى تعتمل فى قلوب كثير من الشيوخ يجب أن تلبى بقدر من جانب القائمين بالرعاية النفسية لهم . وهنا علينا أن نربط بين التعاطف وبين الحاجة النفسية من جهة ، ثم بين الرغبة من جهة أخري. والواقع أن الفرق بين التعاطف والعطف هو أيضا فرق بين الحاجة والرغبة العاطفيتين. وإنك لتجد أن العطف هو تدفق من جانب واحد إلى الجانب الآخر حيث يكون الشيخ مستقبلا للعطف بينما يكون العطوف مقدما للعطف. أما فى حالة التعاطف فإن العاطفة تكون شركة بين طرفين فلا يكون أحد الطرفين مقدما والآخر مستقبلا، بل يكون كلا الطرفين مقدما ومستقبلا . فكل من القائم بالرعاية النفسية والشيخ يشتركان فى مائدة العاطفة ، كما أن كلا منهما يأخذ ويعطى من العواطف . ولذا فإننا نعصم الشيخ من التردى فى هوة التسول العاطفى ونجعله باستمرار شخصية مفطومة نفسيا وغير مرتد إلى عهد الطفولة الأولى عندما كان يستقبل عطف الآخرين عليه دون أن تكون لديه قدرة على العطف عليهم بسبب ضعفه وصغر شأنه .

ولا يخفى علينا أن الشيخوخة مرحلة شبيهة بمرحلة الطفولة من حيث الميل إلى تلقى العطف والإحساس بالرضى نتيجة تلقيه . ولكن حتى بالنسبة للطفولة -وبخاصة الطفولة الثانية- فإننا نحن المربين ننصح بالحد منه بحيث لا ينقلب عطفنا على الطفل إلى تدليل له . فنحن نطالب الوالدين والمعلمين والمحيطين بالطفل والمتعاملين معه بأن يتلقوا منه قدرا من العطف مساوياً أو يكاد لكمية العطف المسدى إليه . وهذا الموقف هو مايسمى بالتعاطف أى المشاركة فى تقديم العطف من الجانبين والمشاركة فى تلقى العطف وتقبله من الطرفين أيضا، فنحن نعلم الطفل كيف يكون محبا ومحبوبا فى نفس الوقت . ذلك أن الإنسان المتكامل يتمتع بالأخذ والعطاء فى كل شىء بما فى ذلك العاطفة ذاتها، فتصدر عنه عاطفة إلى الآخرين ، كما يتلقى عاطفة أيضًا عن الآخرين .

صحيح أن الطفل والشيخ يرغبان فى الأخذ العاطفى أكثر من رغبتهما فى العطاء العاطفى ، ولكن موقفنا نحن المسئولين عن رعايتهما نفسيا تلزمنا بأن نصر بأن يعطيا أيضاً كما يأخذان، وألا يتسم موقفهما بالأخذ دون العطاء . ولا يقتصر موقفنا هذا بإزاء العاطفة وحدها بل وبإزاء المعاملات والمواقف العملية أيضاً . فنحن ندرب الطفل على أن يأخذ ويعطى فى مواقف الحياة الاجتماعية بينه وبين أقرانه أوبينه وبين الكبار من حوله ، ولانعطيه ونمنحه فحسب. فالفكرة التقليدية القائلة إن الطفولة عاجزة ومن ثم فهى سلبية ، وأن الطفل يقتصر على الأخذ دون العطاء إنما هى فكرة زائفة ومجانبة لما ينبغى أن يكون . والموقف التربوى الصحيح هو أن ندرب الطفل على أن يكون إيجابيا أيضا فى علاقاته الاجتماعية وأن يقدم إلى الآخرين مثلما يأخذ منهم وألا يكون شخصية عاجزة عن العطاء ولا تستطيع سوى الأخذ . ذلك أن موقفنا التربوى إذا ما اقتصر على تدريب الطفل على الأخذ دون العطاء، فإنه ينشأ على هذا المنوال ، ويظل عاجزا عن الإيجابية والعطاء طوال حياته حتى بعد أن يصل إلى المستوى العمرى والاجتماعى والاقتصادى الذى ينبغى عليه فيه أن يعطى أيضا إلى الآخرين كما يأخذ منهم .

وإذا كان هذا هو موقفنا من الطفولة وهو الموقف الذى نصر فيه على أن يتخذ الطفل موقفا إيجابيا إلى جانب الموقف السلبى ، وذلك بأن يعطى كما يأخذ ،

فإنه أيضا موقفنا بإزاء الشيوخ. فلابد أن نشجع الشيوخ على العطاء وألا يقتصر موقفهم على الأخذ . فلابد من مطالبتهم بتقديم العون إلى الآخرين مادام بمقدورهم أن يعطوا. والعطاء متعدد الأنواع ولا سبيل إلى حصر نطاقه . وفى مجتمع نادى العمر الثانى ، بل وفى الحياة العامة العادية لابد أن تشتمل الرعاية النفسية للشيخ على هذه الناحية وأن تكون واضحة ومتبلورة فى أذهان القائمين بتلك الرعاية. فنحن لا ندلل الشيوخ كما أننا لا ندلل الأطفال ، ونحن نطالب الشيوخ بأن يتكافلوا بعضهم مع بعض بحيث يعطى كل شيخ ما يستطيع تقديمه إلى غيره من شيوخ كما يحصل كل واحد منهم على ما هو بحاجة إليه منهم .

وهذا الموقف الذى نطالب به القائمين بالرعاية النفسية يشجع فى الواقع جميع الشيوخ على الاعتماد على النفس وعدم الركون إلى ما يتعطف به الآخرون عليهم ويقدمونه إليهم من خدمات. وهذا التشجيع من جانبنا لا يتعارض فى نفس الوقت مع ما سبق أن أكدناه من أن الشيوخ بحاجة إلى مساندة ورعاية بيد أننا نشترط لكى تكون المساندة والرعاية سليمتين أن تكونا فى المسائل التى يكون الشيخ عاجزا عن الاعتماد على نفسه بإزائها . أما جميع المسائل والمناشط التى يكون الشيخ قادرا على النهوض بها فيجب أن يمتنع القائمون بالرعاية النفسية عن مساعدته فى النهوض بها، بل يجب حضه على الاعتماد على النفس بإزائها كلما وجد إلى ذلك سبيلا.

وهذا يدفع بنا إلى الخوض فى نقطة أخرى على جانب كبير من الأهمية فى رعاية الشيوخ، وهى عدم الانزلاق فى خطأ نفسى كبير هو تملق الشيوخ واجتلاب مرضاتهم بجميع الوسائل وخشية انثلام مشاعرهم أو استيائهم من بعض المواقف التى يمكن أن يتخذها أحد القائمين بالرعاية النفسية . وهنا يجب أن نعرض لنقطة -أو بتعبير أدق لموقف- يجب أن نضع النقط على الحروف بإزائه . فنحن نحذر من الانزلاق فى دوامة الوجدان بتجاه الشيوخ، فالقائم بالرعاية النفسية يجب أن يظل رائيا للشيخ كموضوع خارجى يراه بطريقة موضوعية وليس بطريقة وجدانية. ذلك أن الخدمة النفسية يجب أن تكون من طرف مستقل عاطفيا عن الطرف المتلقى للخدمة. أما أن يصير القائم بالرعاية النفسية شريكا فى الوجدان

وغارقا إلى أذنيه فى العاطفة التى تدفع بتيارها الشيخ فى خضمها، فإنه موقف يحول بين القائم بالرعاية النفسية وبين النهوض بها. فشرط تقديم الخدمة النفسية الاستمساك بالموقف الحيادى نفسيا قبالة المخدوم. ولكى يظل مقدم الخدمة النفسية راسخا فى ذلك الموقف الحيادى ولكى يظل متمتعا بالموضوعية، فعليه أن يكون حازما مع الشيخ. ولانعنى بالحزم شيئًا من القسوة ، بل نعنى أخذ الحذر من الانزلاق فى التيار العاطفى الذى يعيش فيه الشيخ . فمهما أظهرالشيخ من الكراهية لأحد الأشخاص المتعاملين معه أو لأحد أفراد أسرته ومهما تشكى وتذرع بالبكاء أو استجلاب العطف من الموجه النفسي، فيجب ألا يتأثر ذلك الموجه بالكلام أو بالبكاء، بل عليه أن يظل متخذا الموقف الحيادى بغير أن ينزلق فى دوامة كراهية من يكرهه الشيخ ولا فى دوامة حب من يحبه الشيخ .

وهذا الموقف الحيادى بحاجة إلى عدم رفع الكلفة مع الشيوخ . فيجب أن تظل الفواصل النفسية قائمة ، ويجب أن تظل الهيبة قائمة ومصونة للموجه النفسى بغير أن تنقلب تلك الهيبة إلى خوف أو رهبة. فعلى الموجه النفسى أن يظل واثقا فى نفسه وفى مهمته وأن يعلم أن متطلبات مهمته تقضى عليه بأن يحافظ على تلك الكلفة وألا يهدم الحدود الفاصلة بين نفسيته ونفسية الشيخ الذى يقوم بخدمته حتى يتسنى له مواصلة الخدمة . وليعلم الموجه النفسى أنه فى اللحظة التى ترفع فيها تلك الكلفة تماماً، فإن كل ما يرغب فى تقديمه إلى الشيخ يصير من المستحيلات نفسيا، وذلك لأن مقدم الخدمة النفسية يجب أن يكون خارج النطاق الوجدانى الذى يعتمل فى نفسية الشيخ، حتى يتسنى له تحريك وتوجيه الطاقة الوجدانية لدى الشيخ. فالانخراط فى النطاق الوجدانى للشيخ لا يسمح لك بالاتشاح بالنظرة الموضوعية بتجاهه من جهة، ولا يسمح لك بأن تحرك ساكناً بإزاء مشكلاته النفسية من جهة أخرى ، بل تصير شريكا له وآخذا بطرف من تلك المشكلات ، بل وتكون بحاجة أنت أيضا إلى من يوجهك بإزاء ما شاركت الشيخ فيه من وجدان جياش .

وثمة جانب آخر هام فى الرعاية النفسية هو التحرز من التحيز وجدانيا إلى جانب أحد الشيوخ أو التفرقة فى المعاملة بين شيخ وآخر أو اتخاذ موقف عدوانى

ضد أحدهم . صحيح أن الإنسان بطبعة يميل نحو بعض الناس دون بعضهم الآخر، بل إنه قد يجد نفسه كارها لبعض الناس ونابيا بشكل تلقائى عنهم، ولكن الواجب على من يتصدر للرعاية النفسية أن يجتهد فى صقل نفسيته والارتفاع إلى مستوى سام عن الأحاسيس الوجدانية التى تلم بالناس غير المتصدرين للخدمة النفسية . ولكن بالنسبة لمن يضطلع بالرعاية النفسية ،فإن عليه أن يجتهد فى توخى العدالة النفسية وأن يظل محبا للجميع بنفس القدر وألا يميز شيخا عن شيخ ، وأن يوزع اهتمامه فيما بين جميع الشيوخ، بل وأن يكون عادلاً أيضا فى توزيع الوقت بينهم بحسب احتياجات كل واحد منهم .

والحذر كل الحذر من أن ينسى الموجه النفسى نفسه فيبدأ فى عرض مشكلاته الشخصية أو مشكلات أسرته على الشيوخ الذين يقوم برعايتهم. فمثل هذا الموقف ينهى عمل الموجه النفسى إلى الأبد، ويجعل منه شخصا ضارا بالخدمة النفسية. صحيح أن الشيوخ ربما يأنسون إلى مجالسة مثل هذا الشخص وقد يترقبون حضوره إليهم لكى يستطلعوا منه آخر أخبار أسرته وما تم بإزاء المشكلات الاجتماعية والنفسية التى تشغل بالهم. ولكن مثل هذا الاهتمام خارج عن نطاق عملية التوجيه النفسى التى يفترض فى الموجه النفسى أن يقدمها إلى الشيوخ. فلابد أن يعف الموجه النفسى عن الخوض فى الأمور التى تخصه أو التى يحس أنها تعرقل حياته أو تحول دون تقدمه ، وأن يعرف حدود مهمته التى نيطت به ويلتزم بها دون مجاوزتها .

مشكلات الرعاية النفسية للشيوخ :

يجب أن نعترف بادئ ذى بدء بأن التوجيه النفسى بالنسبة لجميع الأعمار يعد ميداناً حديثا من ميادين علم النفس . ذلك أنه قد لوحظ أن هناك حالات خفيفة من حالات الاعوجاج النفسى لا تحتاج إلى علاج نفسى بالمعنى الذى يذهب إليه الطب العقلى ، بل تحتاج إلى رعاية نفسية من نوع خاص يسمى بالتوجيه النفسى . فالمقصود بالتوجيه النفسى تخليص الشخص من تلك الاعوجاجات النفسية الخفيفة التى يمكن اعتبارها الخطوات الأولى المؤدية إلى المرض النفسى

أو إلى المرض العقلى الذى يحتاج إلى علاج مباشر تحت إشراف طبى . ومن الطبيعى أن يتبدى الكثير من الصعاب أمام أى فرع جديد من فروع المعرفة أو من فروع التوجيه النفسى وبخاصة إذا كان ذلك الفرع متصلا بالمسنين. ذلك أن المسن ينخرط فى إطار مجموعة عمرية يصعب رعايتها شأنها فى ذلك شأن الطفولة. فإذا كانت الطفولة هشة ضعيفة وسريعة التحول من حال إلى حال، فإن الشيخوخة جامدة ومتحجرة بحيث يكون من الصعب -إن لم يكن من المتعذر- القيام بتحويل الأفراد الواقعين فى نطاقها إلى المسار السليم بعد أن يكونوا قد انحرفوا عنه .

فالواقع أن الشيوخ يتسمون بصفة عامة بالجمود النفسى ويفتقرون إلى المرونة النفسية التى تجعلهم قابلين لتغير السلوك الذى انخرطوا فيه . ولعل هناك ما يشبه التوازى بين الجسم والنفس. فكما أن الشيخ الذى تقوس ظهره لا يسهل تدريبه على السير وهو معتدل القامة كما هو الحال بالنسبة للطفل أو الشاب ، فإنه على نفس النحو يكون من الصعوبة بمكان تدريبه على الإقلاع عما انخرط فيه من صعوبات نفسية أو من انحرافات سلوكية. والواقع أن تعديل السلوك الجسمى لهو أسهل بكثير من تعديل السلوك النفسى . ذلك أن من الممكن تحديد الجانب المعوج من السلوك الجسمى وحصر نطاقه فى حدود معينة ثم تمرين ذلك الجزء المعوج على الوضع الصحيح والاقلاع عن الأوضاع الخاطئة. أما الاعوجاجات النفسية - الخفيف منها والشديد - فمن الصعب تحديد نطاقها حتى وإن تسنى تحديد صيغتها الخارجية المتلبسة بها . فالخوف المرضى من الأماكن المغلقة مثلاً وإن أمكن تحديد أعراضه، فإن من غير الممكن بسهولة تحديد الجوانب الكثيرة المتصلة والمتشابكة معه ، أعنى ذلك الخوف من الأماكن المغلقة. فلقد تكون هناك أسباب وعوامل جنسية مخبوءة وراء ذلك العرض المرضى . وإذا كان من السهل تدريب الظهر المقوس على الانتصاب، فليس من السهل أن تدرب الشخص المصاب بالخوف المرضى من الأماكن المغلقة على عدم الخوف من تلك الأماكن . ولا يكون عليك لكى تخلصه من ذلك العرض المرضى سوى أن تبحث عن الأسباب الحقيقية المخبوءة والمستخفية فى لاشعوره . فإذا كان السبب جنسياً مثلاً، فلابد من طرق هذا الباب وترك ظاهرة الخوف جانبا . فإذا ما استطعت علاج السبب الحقيقى

تسنى لك النجاح بالتالى فى علاج العرض الظاهر الذى يعد نتيجة للسبب الأصلى.

ومن الصعوبات التى تعتور طريق الرعاية النفسية اختلاط الأعراض النفسية بالأعراض الأخلاقية. والواقع أننا لا نستطيع أن ندمج جميع الأعراض السلوكية فى نوعية واحدة هى النوعية النفسية، فنسقط المسئولية الأخلاقية إسقاطًا تاماً عن الشخصية ونبدأ فى تفسير جميع الظواهر السلوكية فى ضوء القدر النفسى الذى تربص بالشخصية وحملها على انتهاج طريق يبدو مرتبطا بالأخلاق بينما هو فى الحقيقة لا يرتبط إلا بالعوامل النفسية التى سيرت الشخصية حسبما ارتأى لها. ولاشك أن هذا النهج من التفسير لعلى جانب خطير من المسئولية ، بل إنه يشكل خلطا خطيرا فى الموقف الذى ينبغى أن يتخذه المفسر للسلوك البادى والذى له صلة من قريب أو من بعيد بالمجتمع الذى يعيش فيه صاحب ذلك السلوك . والصحيح هو أن نميز بين السلوك النفسى وبين السلوك الأخلاقى . ولكن على الرغم من هذا التمييز فإن ثمة تداخلا بين النوعين من السلوك . فإذا ما رمزنا للسلوك النفسى بدائرة كبيرة ورمزنا للسلوك الأخلاقى بدائرة أصغر من الدائرة الأولى الخاصة بالسلوك النفسى، فإننا نجد أن دائرة السلوك الأخلاقى قد احتلت مكانا وسطا فى نطاق دائرة السلوك النفسى . وبتعبير آخر نستطيع أن نقول إن كل سلوك أخلاقى هو فى نفس الوقت سلوك نفسي، ولكن العكس ليس صحيحا. فثمة سلوك نفسى لايعد فى نفس الوقت سلوكا أخلاقيا . ولقد يكون السلوك النفسى الذى يبدو من الشخص ذا سمات أخلاقية كأن يكون سرقة مرضية مثلاً فهنا نجد أن السلوك النفسى ينال حكما أخلاقيا بينما تسقط المسئولية الأخلاقية عن صاحب ذلك السلوك حيث إننا بالتحليل والفحص نكتشف ونتيقن أنه لم يكن مسئولا عما صدر عنه من سلوك، إذن فجميع أنواع السلوك تخضع للحكم الأخلاقى بما فى ذلك السلوك النفسى غير الأخلاقى .ولكن السلوك الذى يناط بالمسئولية – إن بالثناء وإن باللوم – فإنه يقع فى حدود الدائرة الصغيرة بينما يقع السلوك النفسى الذى لا يناط بالمسئولية الأخلاقية فى نطاق الدائرة الكبيرة .

وواضح أن المسألة على جانب كبير من الصعوبة فى التمييز ووضع خط

فاصل بين السلوك الأخلاقى وبين السلوك النفسى . وحتى إذا أمكن وضع خط فاصل بينهما فإن من الصعب إقناع الشيخ بالعدول عن السلوك إذا كان سلوكا أخلاقيا ، كما أن من الصعوبة فى نفس الوقت تناوله بالتوجيه النفسى إذا تأكدنا أن المسألة نفسية بحتة . ولكن هذا لا يجعلنا نركن إلى اليأس وننفض أيدينا من التوجيه النفسى أو التوجيه الأخلاقى ، بل يجعلنا هذا نفكر ونخطط للوسائل التى تكفل لنا ولو بعض النجاح فى هذا الصدد . ولعل السبيل الصحيح هو تهيئة الجو الذى يبعد بالشيخ عن مصدر الإثارة وخرطه فى جو اجتماعى جديد خال من المثيرات التى تدفع به إلى انتهاج السلوك الردىء. ففى حالة السرقة المرضية مثلاً -بفرض أن واحداً من الشيوخ يكون مصابا بها وقد التحق بنادى العمر الثانى - يمكن محاربة ذلك العرض المرضى أو العرض الأخلاقى بأن نجعله مسئولا عن الممتلكات الموجودة فى جانب معين من النادى بحيث يتسلمها قطعة قطعة أو شيئاً شيئًا . فالواقع أن كثيرًا من أعراض السرقة. يكون ناجما عن تعطش شديد إلى الامتلاك . فالحرمان من الملكية يصيب الشخصية بالتعطش للامتلاك ولا يكون من سبيل إذن إلى الارتواء إلا بالسرقة فإذا نحن عهدنا بالممتلكات الموجودة لهذا الشخص بحيث يكون وصيا عليها فإنه يرتوى إذن من الظمأ النفسى الذى كان يعانى منه ومن ثم يتوقف عن السرقة .

ومن الصعوبات التى تجابه الرعاية النفسية للشيوخ عدم القدرة على وضع خط فاصل بين الحالات النفسية الخفيفة التى يجدى معها اتباع طرق التوجيه النفسى وبين حالات الجنون الكاملة التى يجب أن تخضع للعلاج العقلى ، والنفسى، وواضح أن استخدامنا هنا لكلمة جنون يعنى الشمول حيث يندرج تحت لفظ جنون جميع الأمراض العقلية والأمراض الوجدانية والأمراض العصبية . وهناك الكثير من الأمراض النفسية الخطيرة يكون المصاب بها كامل العقل من الناحية المنطقية مما يعزف بمعظم الناس عن اتهامه بالجنون. من ذلك مثلاً الأمراض السيكوباتية وهى أمراض سلوكية اجتماعية ليست أمراضا تتعلق بالمنطق العقلى المعروف. ففى مثل هذه الحالات لا يكون من السهل اعتبار المصاب بمثل تلك الأعراض السلوكية فى نطاق الأمراض النفسية الخفيفة التى يجدى معها التوجيه النفسى ، وعلى

العكس فلقد يظن البعض أن بعض الأعراض السلوكية تندرج فى نطاق الأمراض النفسية الخطيرة بينما هى فى واقع الأمر لا تعدو أن تكون اعوجاجات سلوكية نفسية خفيفة يسهل تقويمها بالتوجيه النفسى ، بل وبمجرد تغيير البيئة الاجتماعية المحيطة بالمصاب بها .

ومن الصعوبات التى يمكن أن تعتور طريق الرعاية النفسية ارتباط الكثير من المشكلات النفسية لدى الشيوخ بالمشكلات الصحية والمشكلات المادية، وهو مالا قبل للموجه النفسى بإزائه. وهذا فى الواقع يجب ألا يدفع بنا إلى اليأس، بل يجب أن يدفع بنا نحو التنسيق والتكامل بين أوجه الرعاية المتباينة التى يجب أن تتوافر للشيوخ. فالواجب أن تقدم خدمات الرعاية مكتملة ومتعاونة بعضها مع بعض وألا يجتزأ بنوع واحد منها فحسب، إذ إن كل نوع من أنواع الرعاية لا يستطيع أن ينهض وحده لاسعاد الشيوخ أو التخفيف من المشكلات التى تقف بالمرصاد أمامهم ولا تمكنهم من قضاء شيخوخة سعيدة .

ولكن يجب أن نقرر أيضا أن الكثير من الشيوخ سيقاومون مبدأ الرعاية نفسه ويرفضون رفضا تاماً أن يخضعوا أنفسهم لرعاية غيرهم. فمن الصعب نفسيا على الشيخ أن يولى عليه بعض الشباب بحيث يصيرون أوصياء عليه يسيرون دفة حياته أو يوجهونه فى أموره الخاصة أو يطلعون على خصوصياته أو يكشف الستار أمامهم عن أسراره الشخصية. أويتلقى منهم الأوامر والتوجيهات. ولقد سبق أن قلنا أن من الصعوبة بمكان أن يتفهم الشيوخ -مهما كانوا حكماء وواقعيين- أن مرحلة الشيخوخة التى ينخرطون فيها هى مرحلة حساسة وأنها بحاجة إلى أيد تساندها ورعاية خاصة تقيها شر المواقف الصعبة التى لا يقدرون على مجابهتها وحدهم. والمشكلة الكأداء التى تعرقل الرعاية النفسية هى أن الشيخ يفترض فى نفسه الحكمة- بينما يفترض الحماقة والجهل فى الشباب . فكيف وهذه حاله أن يسلم نفسه لنزق الشباب؟ومسألة الشيخوخة والشباب نسبية فى الواقع ، فالشيخ الذى بلغ السبعين ينظر إلى الرجل الذى بلغ الخمسين باعتبار أن الأخير شاب . وذلك فى ضوء فارق السن الذى يفصل بينهما. فصاحب السبعين لايعترف لصاحب الخمسين بالحكمة والحصافة بل يعتبره شابا

نزقا غير حصيف وأنه لم يحظ بالحكمة التى حظى بها هو . ولا يخفى ما بين الأجيال من تصارع وتنافس وتنازع على كل شئ حتى على الحكمة والعقل الراجح. فكل جيل يزعم أنه أكثر حكمة من الجيل الآخر.

وهذا الموقف المصطرع بين الشيوخ والشباب يجعل الشيوخ فى موقف الاحتياط من الشباب. وهذا يدفع بالكثير من الشيوخ إلى الحذر من الشباب وقد أخذوا فى نفس الوقت ينظرون بتوجس فى نيات أولئك الشباب الذين يقتربون منهم لخدمتهم، وسرعان ما يكيلون لهم الاتهامات المختلفة. فقد يقول واحد منهم إن أولئك الشباب لا يتقدمون لخدمتهم بسبب دافع داخلى يعتمل بدخائلهم أو ينبعث عن ضمائرهم ، وإنما هم موظفون يطمعون فى الكسب وقد جعلوا منهم قنطرة يمرون عليها لبلوغ ذلك الكسب. وقد يتهمهم شيوخ آخرون بأنهم محبون للظهور أو محبون للسيطرة على غيرهم أو أنهم يجربون عليهم طرقا غير مدروسة أو غير مستوعبة. أو أنهم يتحينون فرصة ابتزاز أموالهم أو ابتزاز أموال الدولة.

وهنا تلعب الوساوس المرضية دورًا هاما فى تجسيد الظنون الرديئة فى نيات الشباب المتقدمين إلى مجال خدمة الشيوخ، فالشيخ الذى له حفيدة قد يوسوس له شيطانه بأن الشاب الذى قام بافتقاده إنما قصد من وراء ذلك إلى إقامة علاقة بينه وبين تلك الحفيدة ، وأن نيته ليست خالصة، وطبيعى أن وسواسه ذلك يخيم على ذهنه فتتسلط هذه الفكرة على رأسه وتحول بينه وبين الإفادة من الخدمات التى يرغب الشاب المخلص فى تقديمها إليه .

وهذه النقطة الأخيرة تحملنا أيضا على التنبيه إلى إعداد موجهين نفسيين على خلق كريم إلى جانب تمتعهم بالمهارات اللازمة للتوجيه النفسى السديد. والواقع أن التوجيه النفسى بعامة يعد من المجالات الصعبة ، وذلك لأن الموجه النفسى يجب أن يتسم بسمات خاصة قلما تتوافر للكثير من الشباب . فلابد من تمتعه بالقيم والعادات السلوكية النبيلة إلى جانب تمتعه بالذكاء والمعرفة بالنفس البشرية .

★ ★ ★

الفصل التاسع

الرعاية الاجتماعية

تجديد العلاقات الاجتماعية:

الواقع أنه بالنسبة لمعظم العاملين نجد أن الذين يخرجون إلى المعاش يكونون عرضة لنضوب علاقاتهم الاجتماعية ، فيقطعون صلتهم بحكم البعد عن مقر العمل بالكثير جدا ممن كانت تربطهم بهم صلات الود والصداقة والتعاون والتنافس، فيجدون أنفسهم مقفرين فى العلاقات الاجتماعية، وبالتالى فإن معظمهم يحسون بالوحشة وبأنهم قد عزلوا قسرا عن المجتمع، أو بتعبير آخر أنهم قد نحوا رغما عنهم عن مواصلة المسيرة فى الحياة التى كانوا يضربون فى إثرها ويشقون طريقهم فيها . ولا يخفى ما لهذا من أثر ردىء- كما سبق أن رددنا ذلك - فى نفوسهم.

بيد أن الشيوخ لا يقدمون استجابة واحدة لهذا الوضع الجديد الذى يرغمون عليه . فمنهم من يركن إلى دخيلته حيث أحلام اليقظة القاتلة فيعيشون على أخيلة جوفاء ويشكلون لأنفسهم عالما اجتماعيا ليس له وجود فى الواقع . فمثل أولئك الشيوخ يعمدون إلى التمنى بدلا من العيش فى الواقع، ويستعيدون ما كانوا عليه من حال وما كانوا ينخرطون فيه من أعمال لا بالواقع بل بالفكر يجيلونه فيما كانوا يضطربون فيه ويوجهون اهتمامهم إليه ، فيمكث الواحد منهم الساعات تلو الساعات وهو راكنا إلى نفسه يحلق فى سماء الخيال ومسترجعا ذكريات عزيزة عليه ويتمنى أن يضطلع بباقى المشوار الذى قطعه والذى يرى أنه لم يتمه، بل أجبر على عدم إتمامه . وهذا النوع من التفكير يسمى بالتفكير الاجترارى حيث يعيش

الشخص على ما ترسب بداخله من ذكريات بغير أن يمون بالخبرات الجديدة تتضاف وتتفاعل مع الخبرات القديمة، وواضح أن مثل هذا التفكير الاجترارى لا يتسم بالجدة والخصوبة بل يتسم بالعتاقة والبلى بل وبالنضوب والفقر.

أما المنحى الثانى الذى قد يتخذه لفيف آخر من الشيوخ فهو الانغلاق فى إطار العلاقات الأسرية الضيقة مما يجعل الدنيا فى أنظارهم ضيقة وكئيبة. والواقع أن هذا النوع من الشيوخ يعمد إلى ذلك الإطار الضيق من العلاقات الاجتماعية لأنه لم يمتد الخروج عنه إلا إلى مقر العمل . فليس من سبيل أمامه سوى السبيل الذى ضرب فيه طوال حياته العملية قبل الشيخوخة أعنى البيت والمكتب أو الشركة التى كان يعمل بها . وهو عندما فقد مقر العمل بالإحالة إلى المعاش، لم يبق له إذن سوى الصنو الآخر وهو الأسرة. إذن فعليه أن يلزم داره لا يخرج منها ولا يبارحها إلا إلى القبر بعد الموت . ومن الطبيعى أن تأخذ الدنيا فى الإظلام حوله شيئا فشيئا ، إذ أن الحياة الرتيبة التى يحيا فى نطاقها لا تورث له إلا الغم والنكد.

أما المنحى الثالث الذى قد يتجه إليه الشيخ وقد أحيل إلى المعاش فهو التردد المنتظم أو ليتقطع على المقاهى . وليس من شك فى أن المقهى ليس أفضل مكان يجب أن يتردد عليه الشيوخ . فثمة شيوخ كانوا مستقيمين طوال حياتهم ولكنهم ما أن بلغوا سن التقاعد وانخرطوا فى الشلل التى تتردد على المقاهى من الشيوخ حتى أخذوا يتعلمون منهم عادات رديئة للغاية تضر بهم وبأسرهم. من ذلك مثلا لعب القمار ومعاقرة الخمر وتعاطى المخدرات . ذلك أن الشيخ يحس بالضياع من جهة ، وبالسأم يخيم على حياته من جهة ثانية، وبالحاجة إلى ما يدخل السرور على نفسيته القاتمة من جهة ثالثة. وإنك لتجد فى حالات قليلة بعض الشيوخ وقد لعبت بعقولهم بعض النساء اللواعب ، فتجد الواحد من تلك القلة يطارد المرأة التى شاغلته فشغلته ويطارحها الغرام أو يطلب إليها الزواج أو يتردد على بيتها يقضى فيه الوقت كأردأ ما يمكن أن يقضى فيه الوقت ، وقد أخذ الناس من حوله يهزأون به ويرمونه بالمروق بعد الاستقامة، والانحراف بعد أن كبر أبناؤه وبناته. وليس بغريب وقد آل مثل هذا الشيخ إلى ذلك المآل أن يخسر سمعته وأن ينهدم الصرح

العظيم الذى بناه طوال حياة كفاحه وقد كانت سمعته بيضاء ناصعة فصارت سوداء قاتمة.

ولسنا بحد فى الواقع سوى نادى العمر الثانى بديلا تربويا سليما لضمان شيخوخة صالحة وخصبة للشيوخ. ففى النادى سوف تتوافر الحاجات التى تلزم للشيوخ ، فلا هم ينطوون على أنفسهم فى حسرة مرتمين فى أحلام يقظة فارغة، ولا هم يحبسون فى إطار الأسرة الضيق حيث لا تكون هناك رغبة فيمن حولهم لمعاشرتهم أو قضاء الوقت معهم، ولا هم من جهة ثالثة يقضون الوقت على المقاهى التى تشكل مجتمعا غير نقى ولا تتوافر به الشروط اللازمة لقضاء جل وقت الشيخ به. ذلك أنه إذا كانت الأسرة خاوية وغير خصبة ، فإن المقهى أيضا خاو وغير خصب. وكل ما يمكن أن يكون ممتازا به عن الأسرة أنه يضم شيوخا آخرين يمكن للشيخ أن يتجاوب معهم وأن يبثهم آلامه الداخلية ويعرض عليهم مشكلات الحياة التى يلقاها، بل ويمكن أن يتناجى معهم بإزاء ما سبق أن مر به من خبرات وما يعتمل فى عقله من ذكريات.

بيد أن نادى العمر الثانى كما خططنا له بشكل عام يمكن أن يتضمن العناصر والمقومات الخيرية الكفيلة بأن يقضى الشيوخ به حياة خصبة ومفعمة بالحيوية بحيث لا يحس من يخرج إلى المعاش أنه قد خرج من نطاق المجتمع إلى نطاق نفسه أو إلى نطاق الأسرةالضيق أو إلى نطاق القهوة التى لا يتسم جوها بالنقاء أو حتى بالجدة والخصوبة. ذلك أننا اقترحنا أن يضم نادى العمر الثانى الكثير من المقومات والعناصر الخصبة التى تكفل للشيخ حياة خصبة متجددة لايحس فيها بأن المجتمع قد أشاح بوجهه عنه ، أو أنه صار شخصية غير مرغوب فى بقائها أو فى التعامل معها أو ممارسة الأخذ والعطاء معها.

والواقع أن من المناشط التى يمكن أن تمارس بنادى العمر الثانى ما يكفل ملء حياة الشيوخ بالحيوية والخصوبة . من ذلك مثلا الحفلات التى يمكن أن ينظمها نادى العمر الثانى للشيوخ مع أسرهم ومع الشيوخ الآخرين. ففى تلك الحفلات تجتمع الأجيال ويتم خلالها الأخذ والعطاء ويقضى فيها الوقت تحت إشراف تربوى من المسئولين عن النادى وبخاصة الموجهين الاجتماعيين الذين تكون

لهم دراية كافية بإقامة حفلات السمر وما يجب اتخاذه من إجراءات تكفل تعارف الموجودين بعضهم ببعض بل وتكفل تشديد العلاقات القائمة ودعم أواصر الصداقة بين الشيوخ بعضهم وبعض ، بل وبينهم وبين الشباب . والواقع أن مثل تلك الحفلات ضرورية لجميع الأعمار ولجميع الناس بأية مكانة اجتماعية يحتلونها. ذلك أن العلاقات الاجتماعية إذا ما تركت للمصادفة تدعمها، فإن المصادفة قد تصدق وعدها وقد تخون ، فإذا هى صدقت فإنها لا تفى باستمرار . والواجب ألا يترك للمصادفة إلا تلك الأشياء التى لا أهمية لها . أما تلك الحفلات وما تستتبعه من نتائج هامة فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وما ينشأ عنها من ود وحب وتقارب نفسى، فإنها يجب أن تخضع للتخطيط وألا تترك للحظ الحسن وحده.

وإلى جانب الحفلات تسير الرحلات جنبا لجنب. والرحلة تتضمن الحفلات ولكن العكس غير صحيح. لذا فإننا نستطيع القول بأن الرحلات أهم من الحفلات وأوقع منها وأكثر فائدة. ولكن الحفلات قد تناسب بعض الشيوخ دون بعضهم الآخر، وقد لا يتحمل بعض الشيوخ – أو معظمهم – الرحلات البعيدة وما تتضمنه من مشقات السفر أو التى تضطرهم لأن يخرجوا على النظام الطبى الذى يجب أن يخضعوا له من حيث مواعيد تناول الدواء أو من حيث القيود المتعلقة بالحركة أو بالنوم. ولذا فإن من الواجب أن يراعى فى الرحلات والحفلات وغيرهما من مناشط أن تكون مناسبة لكل شيخ من الشيوخ المشتركين فيها . من هنا فإننا لا نستطيع أن ندرج جميع الشيوخ فى كل منشط من المناشط التى يقوم بها نادى العمر الثانى ، بل يجب ألا يدعى إلى الاشتراك فيها سوى الشيوخ الذين لا يكون فى مشاركتهم ضرر يصيبهم من قريب أو من بعيد ، بل يجب أن يؤخذ فى هذا الصدد بمبدأ ترجيح كفة الحاجات على كفة الرغبات جريًا فى ذلك وراء نفس النهج الذى دعونا إليه خلال هذا الكتاب.

ومن المناشط التى يجب ألا تفوت نادى العمر الثانى والتى تكفل ربط الشيوخ بالمجتمع بصفة مستمرة تلك الندوات التى يعقدها النادى حول موضوعات الساعة . ذلك أن نادى العمر الثانى سوف يضم – كما نتوقع له – شخصيات على جانب كبير من البصيرة الاجتماعية وعلى مستوى من الثقافة بحيث لا يمكن

الاستغناء عن مشورتهم فى المسائل التى تهم المجتمع. ولا ننسى أن الشيوخ جزء أساسى من المجتمع . فهم إذا كانوا قد تركوا الحياة العملية بأجسادهم . فإن هذا لا ينهض دليلا على عجزهم عن إبداء الرأى بل على العكس فإن الخبرة والحكمة والحصافة التى تأتت لهم خلال العمر الطويل الذى قضوه فى خضم الحياة يجعل لمشورتهم ثقلا ووزنا خطيرا يعتد به ، بل ويجب الأخذ به فى الغالب حتى تتحقق حياة أفضل للمجتمع القائم ، أعنى مجتمع العاملين. ولسنا نشك فى أن الشيوخ وقد استقالوا من الحياة العملية، فإنهم يقفون على أخطائهم التى ترددوا فيها والتى اكتشفوا أنهم وقعوا فيها . فإذا ما أتى إليهم الشباب يستشيرونهم، فإنهم سرعان ما يقدمون إليهم الخبرة التى خلصوا بها نقية من الأخطاء التى وقعوا فيها أو تعرضوا لها ؛ بل إنهم سوف يرسمون أمامهم الطريق التى يرونها أصلح طريق للوصول إلى الأهداف والتى يرون أنهم لو كانوا قد ضربوا فى إثرها فى شبابهم إذن لكانت الحياة أمامهم أصلح من الحياة التى اختطوها لأنفسهم. وطبيعى أننا لا ندعى لرأى الشيخ عصمة من الخطأ ولا تنزيها عن الهوى أو خلواً من الخلل، ولكننا فقط نرى ألا يحرم جيل الشباب نفسه من خبرات جيل بكامله يمكن أن يفيدوا منها . أضف إلى هذا أن الكثير جدا من الخبرات المفيدة جدا لا تدون فى الكتب ، وأن الكثير مما يكتب وله قيمة فريدة لا يجد إلى النشر سبيلا فالخبرة الحية التى تكمن فى صدور الشيوخ يجب أن تستخرج منها كما تستخرج اللآلئ من قيعان المحيطات.

ولسنا نشك لحظة فى أن الإذاعة والتليفزيون والصحافة ستجد فى تلك الندوات مجالا خصبا تناقش فيه المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والدينية وغيرها، بل إنها جميعا سوف تعمد إلى عقد تلك الندوات سواء بداخل نادى العمر الثانى وفى قاعة الاجتماعات الخاصة بداخله ، أم بخارجه. ويجدر بنا أن نشير إلى أن الجيل القائم سوف يخسر كثيرا إذا هو أغضى أو فرط فى خبرات الجيل السابق عليه وهو الجيل الذى انخرط فى الشيخوخة . ومن أشنع الأخطاء التى يمكن أن يتردى فيها جيل الشباب أن يعتقد أنه فى غنى عن خبرات الجيل الذى سبقه أو يظن أن الشيوخ فئة لا تتمتع بالعقل الراجح أو أنهم فئة تتسم بالتخلف والرجعية ولا تستطيع أن تسبر أغوار المشكلات القائمة لأنها – فى

نظرهم أى فى نظر جيل الشباب - مشكلات مستحدثة تتعلق بواقع الجيل الحاضر ولا تتصل بالجيل السابق، أعنى جيل الشيوخ . وليس من سبيل فى الواقع إلى استكناه خبرات جيل الشيوخ إلا بإتاحة الفرصة أمامهم للتعبير عن الرأى وتقديم المشورة ويجب على جيل الشباب ألا ينتظر حتى يذهب الشيوخ إليهم يعرضون خبراتهم عليهم. بل يجب أن يسعى الشباب إلى الشيوخ يطلبون إليهم تقديم الرأى وإبداء النصح وإسداء المشورة. وأكثر من هذا يجب أن يرتب جيل الشباب الفرص المناسبة للشيوخ لتقديم آرائهم خلالها بحيث لا يتكلفون فى ذلك المشقة أو الإخراج أو ما لا طاقة لهم به من إبداء رأى فيما لا يتقنونه من المسائل أو فيما لم يكن موجودا أو متبلورا لعهدهم.

ومما يربط الشيوخ بالعالم الخارجى ممارسة المراسلة . وهنا يجب أن نقترح على نادى العمر الثانى الذى اقترحنا إقامته فى أقرب وقت أن ينشئ بداخله جمعية للمراسلات بحيث يتسنى للشيوخ الاتصال بالكلمة المكتوبة بمن يرغبون فى مراسلتهم سواء بالداخل أم بالخارج. وعلى نادى العمر الثانى توفير فرص المراسلة وذلك بالإعلان عن أسماء الراغبين فى المراسلة من الشيوخ سواء فى الصحف المحلية أم بالصحف الأجنبية أم بالإذاعة والتليفزيون، وأيضًا بالإعلان عن الموضوعات التى يرغبون فى المراسلة حولها. وبهذا سيجد الشيخ فرصة مواتية لإقامة صلات ثقافية وروحية بينه وبين من يقوم بمراسلتهم سواء بالداخل أم بالبلاد العربية أم بالبلاد الأجنبية بالشرق والغرب على السواء.

التكافل الاجتماعي بين الشيوخ :

التكافل كما سبق أن قلنا بالفصل السادس معناه كفالة الناس بعضهم لبعض وضمانهم بعضهم لبعض ومساندة بعضهم لبعض فى ناحية أو أكثر من نواحى الحياة. وعندما نذكر التكافل الاجتماعى فإننا نعنى به تلك المساندة الاجتماعية التى يمكن أن يسديها الناس بعضهم لبعض. وفى هذا المقام فإننا نعتقد أن للشيوخ دورا هاما يقدمونه بعضهم لبعض، وذلك بقصد التخفيف بعضهم عن بعض فيما قد يحسون به من انتكاسات فى العلاقات الاجتماعية أو بقصد إشاعة السعادة فى

قلوب الذين يحسون منهم بأنهم مفتقرون إلى السعادة والبهجة فى الحياة . فالتكافل الاجتماعى بين الشيوخ يعنى بالدرجة الأولى التخطيط لمجموعة من المناشط الاجتماعية التى يمكن أن يضطلع بها الشيوخ بقصد تقديم خدمات اجتماعية بعضهم لبعض بغير ما حاجة إلى تلقى مساعدات خارجية من غيرهم بالنسبة لتلك الخدمات.

ومن الطبيعى أن يتضمن التكافل الاجتماعى بين الشيوخ التكافل الاقتصادى أيضا ، ولكنا نركز فى هذا المقام على المناشط الاجتماعية المباينة للجانب الاقتصادى حيث إننا خصصنا الفصل القادم - وهو الفصل الأخير من هذا الكتاب- للرعاية الاقتصادية، وسوف يدفع بنا الحديث فى أثنائه إلى التعرض عن تكافل الشيوخ بعضهم لبعض فى المسائل الاقتصادية . من هنا فإننا سوف نركز أنفسنا فى هذا المقام على الحديث عن التكافل الاجتماعى غير الاقتصادي.

والواقع أن التكافل الاجتماعى مرتبط أشد الارتباط بالتكافل النفسى . وللشيوخ كما سبق أن ذكرنا فى مواقف متعددة تأثير خاص بعضهم فى بعض وذلك بحكم تشابه الظروف وتقارب الأعمار وبسبب ما يمكن أن ينشأ بين الشيوخ من اهتمامات مشتركة ومن نظرة متجانسة إلى الكثير من المسائل التى تعرض لهم فى الحياة . ونستطيع أن نرد الانسجام النفسى بين الشيوخ إلى أسباب فسيولوجية أيضا . ذلك أن العوامل النفسية تستمد الكثير من مقوماتها من الجانب الفسيولوجى من ناحية ، ومن الجانب الاجتماعى من ناحية أخرى. وبغض النظر عن الينابيع التى يمكن أن يستمد منها التكافل النفسى مقوماته ، فإننا نستطيع أن نقول إن الشيوخ يأنسون بعضهم لبعض وأن الشيخ بحكم تكوينه وبحكم سنه يكون على استعداد تام لتقبل ما يشير به الشيخ من زملائه أو أصدقائه ، وأن ما يمكن أن يقدمه الشيوخ بعضهم لبعض من خدمات نفسية لعلى جانب كبير من الأهمية.

ولعل المتصفح لهذا الكتاب يلاحظ أننا انتحينا هذا المنحى التكافلى كأساس للمفهوم الخاص برعاية الشيخوخة . فثمة جانب هام من تلك الرعاية يناط بالشيوخ أنفسهم . ونادى العمر الثانى يقوم بصفة أساسية فى تصورنا على أساس ذلك التكافل المنشود بين الشيوخ . فلقد أكدنا فى أكثر من مناسبة أن الشيوخ يجب

أن ينهضوا بخدمة أنفسهم وأن يتكاتفوا فى هذا الصدد كلما أمكن ذلك ، وأن المقصود بالرعاية هو تقديم العون بإزاء المواقف التى لا يتمكن الشيوخ خدمة أنفسهم فيها ويكونون بحاجة إلى مساندة غيرهم بإزائها، وأول من يقوم بمساندتهم هم الشيوخ أنفسهم . ففى مقدمة ما ينبغى انتهاجه هو أن يخدم الشيخ نفسه بنفسه لأن ذلك سوف يكفل له الحيوية والنشاط ولا يكل مسئولياته إلى غيره ، فتضعف قواه وتفتر عزيمته قبل الأوان . وبعد أن يثبت عجز الشيخ عن الاعتماد على نفسه فى خدمة نفسه وقضاء حاجاته ، يأتى دور زملائه الشيوخ فى خدمته سواء كان موجودا فى نطاق نادى العمر الثانى أم كان بمنزله، أعنى عندما يكون عضوا منتسبا لنادى العمر الثانى . وفى نهاية المطاف يأتى دور الشباب وذلك بإزاء الخدمات التى لا يتسنى للشيوخ كفالة بعضهم بعضا فيها.

والواقع أن اعتماد الشيوخ بعضهم على بعض فى ذلك التكافل الذى ينشأ فيما بين بعضهم وبعض؛ سوف يؤدى إلى إحساس كل واحد منهم بقيمة الآخر بالنسبة له . وحتى بالنسبة للعاجزين تماما من الشيوخ ، فإنهم سيقدمون خدمة لغيرهم من شيوخ وذلك بأن يوفروا لهم فرصة سانحة لكى يثبتوا لأنفسهم أن بمقدورهم أن يكونوا إيجابيين فى هذه الحياة وأنهم يستطيعون تقديم خدمات إلى زملائهم الشيوخ وأنهم ليسوا مجرد متقبلين لخدمات غيرهم.

ومن أهم أنواع التكافل التى يمكن أن يقدمها الشيوخ بعضهم إلى بعض سواء فى نطاق نادى العمر الثانى أم فى المنازل حيث يوجد الشيوخ الآخرون المنتسبون إلى ذلك النادى ما يمكن أن نسميه بالتكافل الصحى . والواقع أن التكافل الصحى يعد من أهم أنواع التكافل الاجتماعى التى ينبغى أن يمرن الشيوخ على مزاولتها. ومن حسن الحظ أن الخدمات الصحية متنوعة وكثيرة ، ومنها ما يجب ألا يناط إلا بالأطباء والمختصين فى التمريض، ومنها ما يمكن إيكاله إلى غير المتمرسين بالطب أو بالتمريض. ومن بين تلك المهام ما يمكن أن ينهض به الشيخ بغير خضوع لفترة من التدريب ، ومنه ما يحتاج إلى تدريب بسيط ولمدة وجيز يصير الشيخ بعدها قادرا على ممارسة النشاط التكافلى الصحى على خير وجه . ومن بين تلك المناشط الصحية التى يمكن أن يشترك فيها الشيوخ لتقديمها إلى زملائهم الشيوخ

إعطاء الحقن فى العضل وتقديم الدواء السائل بالملعقة للعاجزين عن الحركة وعمل الكمدات والتغيير على الجروح البسيطة أو الخراريج أو عمل أسترة أوغير ذلك من خدمات طبية سهلة يمكن ممارستها بغير أن يترتب على ذلك وقوع نتائج خطيرة والتى يمكن أن نطمئن إلى حسن قيام الشيخ بها إذا ما لقى تدريبا بسيطا عليها . ولكن يجب أيضًا مراعاة اختيار الأشخاص المناسبين من الشيوخ ممن يتقدمون للتطوع لممارسة مثل هذه الأعمال سواء فى ضوء حالتهم الصحية أم فى ضوء حالتهم الأخلاقية والنفسية.

ومن الطبيعى أن يضم نادى العمر الثانى بعض الأطباء الذين يقيمون به بعد أن يكونوا قد خرجوا إلى المعاش. فأولئك الأطباء سوف يتطوعون - أو يكلفون - بالرعاية الصحية لزملائهم الشيوخ . وفى كلتا الحالتين - سواء فى حالة التطوع أم فى حالة التكليف - فإن التكافل الصحى سيكون هو الحصيلة المتأتية عن خدمتهم لزملائهم الشيوخ . ومن الممكن أن يتضمن تكافل هؤلاء الأطباء الشيوخ القيام بوضع برنامج تدريب صحى للشيوخ الذين سيشاركون فى التكافل الصحى سواء فى نطاق النادى أم بخارجه. وستكون مهمة أولئك الأطباء مهمة عظيمة إذ إنهم سيوفرون بالطريق غير المباشر للشيوخ خدمة صحية ممتازة عن طريق تلك البرامج التدريبية التى ستتخرج فيها مجموعة من الشيوخ الذين ينهضون بالخدمات الصحية المساعدة.

وإذا كان هذا حال الطبيب الشيخ الذى ينضم إلى نادى العمر الثاني، فإنه سيكون حال غيره من شيوخ كانوا يزاولون مهنًا أخرى مما يمكن أن يفيد منه الشيوخ بالنادى و بخارجه. فالمعلم والمحامى والمهندس وغيرهم يمكن أن يسدوا الكثير من الخدمات للشيوخ الآخرين وأن يبذلوا ألوانا متباينة من التكافل الاجتماعى لغيرهم من شيوخ.

ومن الخدمات التكافلية التى يمكن أن يقدمها الشيوخ بعضهم لبعض القيام بمشروعات اجتماعية مشتركة فيما بينهم فى النادى وخارجه . من ذلك مثلا ما سبق أن اقترحناه من إنشاء جمعية للمراسلة . فمثل تلك الجمعية يكون لها مقرر ومجلس إدارة يسيرون دقة العمل ويقومون بتوزيع المناشط فيما بينهم والترويج

للفكرة بداخل النادى وخارجه. ومن ذلك أيضا جمعية الصحافة سواء كانت صحافة حائط بالنادى أم صحافة تصدر على هيئة مجلة أسبوعية أو شهرية يقوم النادى بإصدارها أم كانت على هيئة مقالات أم إعلانات تنشر بالصحف والمجلات العامة والخاصة وتدور حول المناشط التى يضطلع بها الشيوخ بالنادى وخارجه.

ومن الخدمات التكافلية التى يمكن أن يقدمها الشيوخ بعضهم لبعض ما سبق أن ذكرناه من أن الشيوخ بالنادى سوف يكون لهم صوت عال فيما يخصهم من أمور. فثمة مجلس استشارى سوف يتم انتخابه بنادى العمر الثانى وتكون مهمته كمهمة مجلس الشعب بإزاء مجلس الوزراء . ومن الطبيعى أن ذلك المجلس المرتقب بنادى العمر الثانى سوف يناقش جميع الموضوعات التى تكفل أكبر قدر من السعادة والرخاء لأفراد الشيوخ المقيمين بالنادى والمنتسبين إليه من الخارج . ولسوف تكون من مهامه الرئيسية مدارسة المشكلات التى تجابه الشيوخ والوصول بإزائها إلى الحلول الناجعة.

ولقد يتطرق التكافل بين الشيوخ بعضهم وبعض إلى ضرورة البحث عن بعض حلول لبعض المشكلات الأسرية. ذلك أن الشيخ ليس فردا معلقا فى فراغ ولا يعيش وحده بغير ارتباطات بوشائج وجدانية بغيره من أفراد أسرته. فلقد يكون أهم ما يهم الشيخ هو الوصول إلى حلول للمشكلات التى تجابه بعض أفراد أسرته. فلابد إذن أن يمتد التكافل إلى أولئك الأفراد حتى يكون نادى العمر الثانى قد تناول الشيخ بنظرة تكاملية وبطريقة متكاملة ولا يكون قد اجتزأ بخدمة الشيخ دون أسرته فتأتى خدمته ناقصة مبتورة. وطبيعى أننا لا نطالب لنادى العمر الثانى أن يكون قادرا على حل جميع المشكلات الأسرية التى تهم الشيوخ بالنادي، وإنما نطالبه فقط بأن يدلى بدلوه فى هذا الصدد بقدر المستطاع . ولقد يكون من أهم الحلول التى يمكن أن يقدمها نادى العمر الثانى إلى أسرة الشيخ هى أن يحتضن الشيخ بالنادى وأن يخرجه عن نطاق أسرته التى لم تعد تستطيع النهوض بخدمته وسد مطالبه وتحمل أعبائه المتباينة والصعبة.

ومن الخدمات التكافلية أيضا التى يجب أن يسديها الشيوخ بعضهم لبعض تلك الخدمات الدينية الروحية وإشاعة روح التقوى بين الشيوخ، وذلك بأن يقوم

الشيوخ المسلمون الأتقياء بإشاعة قيم الدين الإسلامى فى نفوس زملائهم الشيوخ المسلمين ، وأن يقوم الشيوخ المسيحيون بإشاعة الروح المسيحية وقيم الدين المسيحى فى زملائهم الشيوخ المسيحيين . وغنى عن القول أن هذا لابد أن يؤدى بالروح الإيجابية غير المشوبة بالتعصب أو إثارة الحقد بسبب تباين المعتقدات.

وثمة أيضا التكافل الوجدانى وذلك بأن يقضى الشيوخ بعضهم مع بعض وقتا سعيدا. فليس من المستحب أن تسود الروح الرسمية المتكلفة جو نادى العمر الثانى، بل يجب أن تسود روح التلقائية والبساطة أنحاء النادى. فيجب أن يشجع الشيوخ على إقامة روابط إيجابية وصداقة وألفة فيما بينهم ، وذلك بأن تترك لهم الفرصة للقاءات وتجاذب أطراف الحديث وممارسة الألعاب المسلية بغير أن تكون فيها مقامرات ، كما يجب أن يشجع أصحاب الروح المرحة على إضفاء المرح على جو النادى. ذلك أن الضحك يعد من الحاجات النفسية اللازمة للإنسان فى جميع مراحل عمره. فإذا ما امتنع الإنسان عن الضحك تماما وركن إلى العبوس والجد المستمر ، فإن هذا يدفع به إلى الخضوع للشقاء والابتئاس ويجعله عرضة للتوتر النفسى والعصبى وما يتبع ذلك من أمراض نفسية وجسمية على السواء. وهناك بحوث تحاول كشف النقاب عن أهمية الضحك والمرح لتوفير الصحة النفسية والجسمية للإنسان . ولعل الضحك يعمل على توفير الاسترخاء النفسى والعصبى للشخص، كما يوفر له بالتالى الراحة العصبية والنفسية . وهناك فى الواقع شخصيات لديها مواهب تتعلق بإشاعة روح المرح فيمن يحيطون بهم من أشخاص.

والواقع أن هناك الكثير من الصعاب التى تعتور طريق التكافل الاجتماعى بين الشيوخ . وأهم تلك الصعاب ما يتصل بإقناع الشيوخ أنفسهم ، وحملهم على الإيمان بضرورة التكافل فيما بينهم. ذلك أن الكثيرين منهم سينبون عن الاضطلاع بذلك محتجين بأنهم غير قادرين على خدمة غيرهم وأنهم هم أنفسهم بحاجة إلى الرعاية الاجتماعية من جانب غيرهم. ومن الصعوبات أيضا بإزاء التكافل الاجتماعى بين الشيوخ عدم تبين الخطوط العملية التى يجب انتهاجها فى مثل ذلك التكافل. ولكن مما لاشك فيه أن الممارسة وحدها وليس الكلام النظرى هى

الكفيلة بكشف النقاب عما ينبغى أن يمارس فى التكافل بين الشيوخ سواء فى نطاق نادى العمر الثانى أم بخارجه.

ربط جيل الشباب بجيل الشيوخ :

عندما عرضنا لمبدأ تكافل الشيوخ بعضهم لبعض سواء بنادى العمر الثانى أم بخارجه لم نكن نقصد الانتقاص من أهمية الدور الذى ينبغى أن يضطلع به الشباب فى التكافل الاجتماعى بإزاء الشيوخ ، بل كنا نركز على استمرار اعتماد الشيخ على نفسه لأطول مدة ممكنة من عمره حتى تشتد إرادته وتظل معتملة فى حياته العملية وحتى لا تفتر عزيمته أو يدب الوهن مبكراً فى أنحائه، كما ركزنا على اعتماد الشيوخ بعضهم على بعض حتى يحس كل شيخ بأنه إيجابى ومفيد للمجتمع الذى يعيش فيه ، وحتى يمكن الإفادة من الخبرات الثمينة التى تأتت لجيل كافح وحصل على العديد من الخبرات واكتنز الكثير من المعرفة والمهارات والقدرات. ولكن هذا لا يعنى أننا ندعو إلى امتناع الشباب عن تقديم يد العون الاجتماعى إلى جيل الشيوخ ، بل على العكس فإننا ندخر الشباب للأعمال التى لا يتسنى للشيوخ النهوض بها وحدهم فى سبيل خدمة غيرهم من شيوخ. فنحن بهذا نجعل ثلاثة مستويات من النشاط: نشاط يقوم به الشيخ تجاه نفسه، ونشاط يضطلع به الشيوخ تجاه بعضهم بعضا، ونشاط يقوم به الشباب تجاه الشيوخ. ولسنا نشك لحظة فى أهمية تلك الزوايا الثلاث فى مثلث واحد متكامل، كما لا نشك لحظة فى أنه لا يوجد تعارض بين إعتماد الشيخ على نفسه فيما يستطيع القيام به من أعمال يكفلها لنفسه من جهة وبين إنجاز الأعمال عن طريق الشيوخ القادرين تجاه سواهم من الشيوخ العاجزين عن الاضطلاع بها إما بسبب الافتقار إلى المهارة أو المعرفة أو بسبب العجز الجسمى، أو بسبب نقص الموارد المادية فى أيديهم من جهة ثانية، وبين أن يضطلع الشباب ببعض المناشط بتجاه الشيوخ وهى المناشط التى لا يتسنى لهؤلاء أن يقدموها بعضهم إلى بعض لسبب أو آخر من الأسباب التى يمكن أن تشكل معوقا فى سبيل النهوض بها من جهة ثالثة.

والواقع أن التكافل بين الأجيال المتعاقبة مسألة معروفة وليست بحاجة إلى مناقشة . فجيل الكبار يكفل جيل الصغار ويقوم على رعايته حتى يشتد عوده ويصير قادرا على رعاية نفسه بنفسه وعلى الاستغناء عن غيره فى تدبير أموره وحماية حياضه من الأخطار التى تحدق به بسبب قسوة الطبيعة أو بسبب الأعداء المتربصين به والطامعين فى الاستيلاء عليه وإخضاعه لمشيئتهم . وذلك التكافل قائم لدى جميع الأنواع الحيوانية العليا وبخاصة الثدييات التى ترعى الأبناء حتى يتسنى لها رعاية نفسها بنفسها. ويتبدى ذلك أكثر ما يتبدى لدى الإنسان . ومن الواضح أن الإنسان يتخذ ألوانا متباينة من الرعاية التى يقدمها إلى الصغار باختلاف البيئات وباختلاف الحضارة التى يحوزها. وفى الحضارة الحديثة نجد أن الكبار يكلون جانبا كبيرا من تلك الرعاية إلى المؤسسات التربوية القائمة كدور الحضانة ثم المدارس والمعاهد التربوية الأخرى.

وإذا كان إنسان الحضارة قد أحس بضرورة قيام مؤسسات تربوية متخصصة تضطلع بالشطر الكبير من رعاية الطفولة، فإنه بدأ في نفس الوقت يحس بنفس الضرورة بتجاه أجيال الشيوخ . فلقد ثبت من الدراسات النفسية الوفيرة أن مرحلة الشيخوخة مرحلة خصبة أو قل إنها مرحلة أساسية من مراحل عمر الإنسان ، وأن من الضرورى إذن توجيه الاهتمام إليها بحيث يتوافر لها القسط اللائق بها من الرعاية والعناية، وأن إهمالها أو التقصير فى حقها هو أيضا إهمال وتقصير فى حق الإنسانية كلها ، إذ ليس هناك مبرر لأن توجه العناية والرعاية إلى جميع مراحل العمر من طفولة ومراهقة وشباب ثم تسقط الشيخوخة من الحساب ولا يقام لها أى اعتبار.

ولسنا نشك فى أن جيل الشباب هو الجيل المسئول عن رعاية الطفولة من جهة، وعن رعاية الشيخوخة من جهة أخرى. ولا غرو فإن جيل الشباب هو الجيل القوى القادر على تحمل المسئولية من الجيل المنصرم إلى الشيخوخة. فجيل الشباب إذن يكفل جيل الشيخوخة كما يكفل جيل الطفولة، بل إن كفالته لجيل الشيخوخة تقوم على أساس من الوفاء وتسديد دين يجب على جيل الشباب الوفاء به وقد واتته الفرصة لسداده ، بينما كفالة جيل الشباب للطفولة ترتكز على

إحساس بالواجب بتجاه المستقبل حتى يتسنى لذلك الجيل من الطفولة أن ينشأ ويترعرع ثم يحل فى يوم ما محل الجيل القائم من الشباب الذى ينخرط بدوره فى حلقة الشيخوخة. وثمة زاوية أخرى يجب أن يركز عليها جيل الشباب نظره فى كفالة جيل الشيوخ ، وهى أنه إذا ما أرسى قواعد متينة لتلك الرعاية فإنه يكون بذلك قد أرسى تقاليد وحدد ممارسات سوف يفيد هو أيضا منها لدى انخراطه فى جيل الشيوخ.

فرعاية الشباب للشيوخ وتكافلهم معهم ليس نوعا من الإحسان من طرف قوى إلى طرف ضعيف، وليس عملا اختياريا يمكن أن يضطلع به الشباب ويمكن أن يغضوا النظر عنه ، أو أن يضطلعوا به كنوع من التطوع الممض فى عمل يبعث على السأم، بل هو دين يجب الوفاء به ، بل ويجب تقديمه بروح الشكر والامتنان وبرغبة غير مشوبة بالنفور والمضايقة. ويجب أن يعلم الشباب أنهم بهذا التكافل سوف تكون لديهم الفرصة للاغتراف من حكمة الشيوخ والحصول على خلاصة تجاربهم ، وأنهم يقدمون بذلك نموذجا من التصرف يمكن أن يؤخذ به كقياس لما يحب أن يعمل معهم فى المستقبل.

والواقع أن التكافل بين جيل الشباب وجيل الشيوخ لعلى جانب كبير من الأهمية بالنسبة لاستمرار الحضارة وازدهارها.. ذلك أن الشيخوخة تستطيع العطاء والفيض بما لديها من خبرة إذا هى لاقت الفرص المناسبة وإذا ما أتيح لها الجو المناسب للعطاء الخبري. وليس من شك فى أن العطاء الخبرى متعدد الأنواع، فثمة عطاء خبرى مباشر ، وثمة من جهة أخرى عطاء خبرى غير مباشر. ومن أمثلة العطاء الخبرى المباشر قيام الطبيب بتوقيع الكشف على المريض ، ومن أمثلة العطاء الخبرى غير المباشر الذى يمكن أن يقدمه نفس ذلك الطبيب بعد انخراطه فى الشيخوخة تقديم آرائه ومقترحاته بإزاء أحد الأمراض التى سبق له أن تخصص فيها، وذلك إذا ما عقدت ندوة أو إذا ما أخذ رأيه فى مقابلة تليفزيونية أو إذاعية أو صحفية. فالكنوز الحضارية المكتنزة فى صدور الشيخ يمكن أن تستثمر وأن تضاف إلى الحصيلة الحضارية. ولقد سبق أن قلنا إن الملايين بل والبلايين من الخبرات المفيدة جدا تدفن مع الشيوخ بعد تزايلهم عن هذه البسيطة

بسبب عدم اهتمام جيل الشباب القائم باستخراجها من أصحابها وتركها هملا للضياع.

ومن الملاحظ أن الوعى بضرورة تكافل الشباب للشيوخ ما يزال وعيا خافتا أو يكاد يكون منعدما فى نفوس الشباب . وحتى بالنسبة لعيد الأم فإن المغزى الذى خرج به الشباب منه لا يعدو أن يكون مغزى وجدانيا محصورا فى نطاق الأم. ولكن الأم لا تمثل جيل الكبار وحده، بل إنها لا تمثل الشيخوخة بالضرورة، إذ إن الكثير من الأمهات ما يزلن فى شرخ الشباب . فعيد الأم لم يحقق ما ترمى إليه من وفاء من جانب جيل الشباب بالدين الذى عليه لجيل الشيوخ. فالمطلوب إذن هو إشاعة الوعى لدى الناشئة والشباب بضرورة الإحساس بالدين تجاه جيل الشيخوخة.

ولعل الأساس فى مثل هذا الإحساس يجب أن يبدأ غرسه منذ الطفولة. ويتأتى ذلك عن طريق التربية الأسرية من جهة ، وعن طريق التربية المدرسية من جهة أخرى. ففى الأسرة يجب أن يشارك جميع أفرادها فى الاحتفال بعيد العمر الثانى (عيد الشيخوخة) وهو العيد السنوى الذى لا وجود له عندنا والذى يجب أن يتقرر وأن تهتم به الدولة والمؤسسات التربوية حتى يتسنى للطفولة والمراهقة والشباب الاحتفال به فى كل عام والتعبير فى تلك المناسبة عن الشعور بالوفاء لجيل أدى واجبه بحيث صار يستحق الشكر كما يجب الوفاء له بما يجب على الجيل القائم بتجاهه، بحيث يحس بأن ارتماء الشيوخ فى أحضان الشيخوخة لم ينس أبناء الجيل القائم ذكر مآثرهم والاعتراف بأفضالهم عليهم.

ولسنا نشك فى أن على المدرسة تقع المسئولية الكبرى فى بث روح الاحترام للشيخوخة وحمل الناشئة على الاعتراف بضرورة تكريم الشيوخ ورعايتهم وإقامة الصلات بهم سواء كانوا فى بيوتهم أم كانوا فى مؤسسات اجتماعية كمؤسسة نادى العمر الثانى . ذلك أن الرعاية الاجتماعية للشيخوخة يجب أن تجد لها بذورا تزرع منذ الطفولة فى الناشئة ثم تروى وتغذى باستمرار سواء بواسطة المناهج المدرسية أم بواسطة المناشط الخارجية كالإذاعة المدرسية أو الصحافة المدرسية الحائطية والمطبوعة.

وثمة دور هام منوط بوسائل الإعلام فى هذا الصدد . والواقع أن وسائل الإعلام صارت اليوم أداة تربوية خطيرة الأثر فى الناس عموما وفى الناشئة خصوصا. فعلى الصحافة والإذاعة والتليفزيون مسئولية كبيرة فى إشاعة روح الوفاء للشيخوخة والعمل على تكريمها والاعتراف بفضلها والحث على رعايتها والقيام بمساعدتها فيما تحتاج إليه من مساعدة . ولسنا نشك فى أن وسائل الإعلام هى التى تستطيع أن تدعو إلى إنشاء مؤسسات الشيخوخة على نطاق واسع ، وأنها تستطيع أن تحث وزارة الشئون الاجتماعية وغيرها من الوزارات التى تناط بها مسئولية رعاية الشيوخ على البدء فورا فى احتضان مشروعات رعاية الشيخوخة ، بل إن الندوات والمقالات والبحوث التى تعرض من خلال تلك الوسائل سوف تقدم الكثير جدا من المشروعات القيمة والأفكار المثمرة المتعلقة بتلك الرعاية ، بل إن المسئولين عن التنفيذ أنفسهم والذين بأيديهم مفاتيح العمل كالوزراء ووكلاء الوزارات المعنية سوف يعرضون آراءهم وما يعتزمون عمله بإزاء ذلك من خلال تلك الوسائل الإعلامية.

ولا تقل دور العبادة – أعنى الكنائس والجوامع – أهمية فى هذا العدد. فمن المعروف أن المستمع إلى الموعظة بالكنيسة أو بالجامع يكون مسلما قياد نفسه فى الغالب لمن يقوم بإلقاء الموعظة عليه . فهو يهفو بقلبه نحو ما يقال أكثر من إعماله لعقله بالتفكير النقدى الذى لا يتقبل ولا يؤمن إلا بعد الشك فيما يقال . ومعنى هذا أن دور الإيمان أكبر وأعظم شأنا فى الكنيسة أو فى الجامع من دور الفكر النقدي، وبذا يمكن أن يبث فى المجتمعين بالكنيسة أو بالجامع مثل تلك الدعوة إلى رعاية الشيخوخة والعناية بشئونها . وليس من شك فى أن الإيمان بالفكرة يعد الركيزة الأساسية التى يقوم عليها العمل والتصرفات والتقاليد الاجتماعية.

وأمام الشباب الكثير من متطلبات الرعاية الاجتماعية التى يمكن أن يضطلعوا بها سواء فى نطاق نادى العمر الثانى أم خارجه. فهناك أولا وقبل كل شىء الأعمال التى يعجز بعض الشيوخ عن القيام بها أو عدم النهوض بها على خير وجه. ولسوف يضم نادى العمر الثانى شيوخا يعجزون حتى عن مجرد قضاء الكثير من شئونهم الخاصة ، فيكونون بحاجة إذن إلى عون خارجى. وقد لا نجد فى

نطاق الشيوخ الموجودين بالنادى من يستطيع أن يواظب على خدمة أولئك العاجزين من رفاقة، فلا يكون إذن مناص من أن يتقدم الشباب بيد العون إلى أولئك الشيوخ العاجزين ، مقدمين إليهم الخدمة بصفة مستمرة وبتناوب . ولعلنا نجد مجموعات من الشباب وقد اختصت كل مجموعة منهم نفسها بنوع معين من الأعمال التى يجد أفرادها لديهم رغبة أو قدرة أو ميلا إلى أدائه ، فيختصون فيه ويكرسون أنفسهم للنهوض به . ومن بين تلك الأعمال ما قد ينبو عنه بعض الشباب وما قد يتقبل بعض الشباب الآخرين قيامهم به بترحاب. ولذا فيجب أن يناط بكل شاب من الشباب المتطوعين ما يناسبه وما يتقبل القيام به وينتظم عليه . المهم أن يستمر الشاب المتطوع فى النهوض بما تطوع له . وهذا لا يمكن أن يتوافر إلا إذا كانت هناك زعامة حصيفة للشباب ومن الشباب تبصرهم بأهمية ما يضطلعون به، وتحثهم على المزيد وعلى الاستمرار وعلى ضم غيرهم إليهم من الشباب وإشعارهم بأن العمل الذى يقومون به لهو عمل بطولى وإنسانى وأنه يستحق منهم التكريس والتضحية وقضاء الوقت الثمين فيه بغير ندم أو تضرر.

الإرشاد الأسرى وحل مشكلات الشيوخ :

يخطئ من يعتقد أن العلاقات الاجتماعية فى نطاق الأسرة تظل على حالها مادام الأفراد المكونون لها باقين بغير تغير فى الأفراد . فالأسرة التى تتكون من الزوج والزوجة وثلاثة أبناء مثلا لا تظل فيها العلاقة الاجتماعية كما هى منذ ميلاد الأبناء أو منذ عقد القران بين الأب والأم . فالواقع أن كل فرد من أفراد تلك الأسرة يخضع لسلسلة من التطورات التى تتعلق بشخصيته وقيمه ونظام حياته، بل إن موقعه ومكانته فى نطاق الأسرة وخارجها يتغيران بحيث لا يظل على حال واحد مع اختلاف سنه وتطور حياته الاجتماعية . ذلك أن الفرد من الناس خاضع لسلسلة من التغيرات ابتداء من ميلاده حتى وفاته بعد الشيخوخة إذا ما قيض له أن يعيش حتى الشيخوخة . والتغيرات التى تعتور الفرد متعددة الأنواع منها تلك التغيرات الفسيولوجية المعروفة التى يتأتى عنها النمو الجسمى ومنها التغيرات النفسية المتأتية عن النمو الجسمى من جهة وعن العلاقات الاجتماعية التى يصادفها الفرد والخبرات النفسية التى تقع له من جهة أخرى ، ومنها التغيرات

الاجتماعية التى تتبدى بصفة خاصة فى اللغة والخبرات والمهارات والعادات والتقاليد والقيم التى يحصلها الفرد.

والواقع أن التغيرات التى يخضع لها الفرد فى الأسرة تكون بمثابة زلزلة لمكانته القديمة وترسيخ لمكانته الجديدة. وفى الفترة البينية التى تقع بين المكانة القديمة والمكانة الجديدة تعانى الشخصية من أزمة فى الثقة بالنفس من جهة ، ومن أزمة فى الثقة فى الآخرين من جهة أخرى. وقد تجد هاتان الأزمتان صدى لهما فى موقف الشخص من نفسه وفى موقفه من الآخرين . فقد يحتقر الشخص نفسه أو ينتابه الغرور الشديد، كما أنه قد يثور ضد علاقاته بالناس الذين كان يبدى لهم الحب قبلا ، كما قد يغالى فى الخضوع لهم والتقرب منهم ، وقد يتخذ موقفا لا يتسم بالاستقرار. فبينما يكون شديد الثقة بالنفس فى لحظة ما تجده فى لحظة تالية خائر النفس مفتقرا لكل ثقة بالنفس . وبينما تجده فى إحدى اللحظات شديد الانتماء إلى المجموعة التى ينتسب إليها ، تجده فى لحظة أخرى شديد النفور من نفس تلك المجموعة التى ظل قبل ذلك يبدى لها الوفاء.

وإذا كان هذا هو حال الشخص فى الأسرة ، فإنه يكون إذن بحاجة إلى إرشاد نفسى من جهة وإلى ارشاد اجتماعى من جهة أخرى. وهدف الإرشاد النفسى فى هذه الحالة هو إعادة التوازن النفسى إلى الشخص وحمله على استرداد ثقته بنفسه، بعد تفهمه لوضعه الجديد واستيعابه له . أما هدف الإرشاد الاجتماعى فى هذه الحالة فهو العمل على تكيفه للواقع الاجتماعى الذى يحيط به وتقبله للأوضاع الاجتماعية الخاصة به وبغيره فى الأسرة على السواء. والواقع أن الحاجة ملحة إلى هذين النوعين من الإرشاد النفسى : النوع النفسى والنوع الاجتماعى، لأن الشخص عندما تغمره تلك التغيرات النفسية والاجتماعية يكون فى حالة من الضياع والارتباك بحيث يكون فى حاجة ماسة إلى من يأخذ بيده ويبصره بواقعه الداخلى من جهة وبالواقع الاجتماعى المتغير من جهة أخرى.

وإذا كان الشخص بحاجة إلى توجيه نفسى عندما ينتقل من الطفولة إلى المراهقة، ومن المراهقة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكهولة، فإنه يكون أكثر حاجة

إلى ذلك لدى انتقاله من الكهولة التى تنتهى قرابة الستين إلى الشيخوخة التى تبدأ من تلك السن إلى نهاية العمر. ذلك أن هناك مؤسسات تربوية ووسائل إعلامية تهتم بجميع الأعمار لدى الجنسين، ولكنك لا تجد من بين المؤسسات التربوية أو الإعلامية ما يكاد يهتم أو يلتفت إلى الشيخوخة إلا بإشارات عابرة لا تسبر الغور ولا تعرض لأى من مشكلات الشيخوخة.

والواقع أن المرأة تبدأ لأول مرة فى الإحساس بالشيخوخة لدى انقطاع الدورة الشهرية . فانقطاع الطمث لديها يعد بمثابة ناقوس الخطر بأن الشيخوخة بدأت تدب فى أوصالها وبأنها قد بدأت تدخل فى مرحلة الشيخوخة . أما الرجل فإنه يبدأ فى الإحساس بالشيخوخة فى سن الستين ، أعنى وقت بلوغه سن المعاش إذا كان موظفا. ولعل هذا الشعور لا يواتى الكثيرين ممن يعملون فى الأعمال الحرة ، ومن ثم فإنهم لا يتعرضون لما يترتب على الأحاسيس النفسية الممضة من نتائج صحية ومن علامات ترتسم على الوجه.

والمشكلة بالنسبة لكل من المرأة والرجل لدى إحساسهما بالدخول فى مرحلة الشيخوخة هى عدم قدرتهما على تقبل الواقع الجسمى والنفسى والاجتماعى الذى بدأ ينخرطان فيه. وإذا قمنا بإلقاء الضوء على دخيلة الإنسان، إذن لوجدنا أن خياله يستطيع أن يغير الواقع . فالفقير يستطيع بالخيال أن يتوهم أنه أغنى أغنياء العالم، والمرأة الشمطاء تستطيع بالخيال أن تدخل فى روعها أنها ملكة جمال العالم. ولقد تظن الحماة أنها أكثر نضارة من كنتها وتقنع نفسها بخيالها أنها أروع جمالا وأكثر بضاضة منها. ونفس الشىء بالنسبة للرجل ولكن من زاوية أخرى. فمعظم الشيوخ يرون أنهم أكثر خبرة من الشبان وأنهم يستطيعون مواصلة الأعمال التى تمرسوا بها على نحو أفضل مما يستطيعه الشباب . بل إنهم كثيرا ما يتهمون المجتمع بأنه مجتمع ظالم ، وأن العمل أو الوظيفة التى كانوا يعملون بها قد فسدت بتركهم لها واحتلال الشباب لها بما يتسمون به من جهل وخرق فى نظرهم.

والمطلوب من الإرشاد النفسى أن يقنع المرأة والرجل وقد بدآ فى الشيخوخة بأن يتقبلا وضعهما بارتياح وأن يتكيفا لذلك الواقع بصيغ سلوكية مناسبة . فيتحاشيا السلوك المنحرف عن ذلك الواقع ، لأن المفروض أن يسير السلوك فى

خط متواز مع خط الواقع الجسمى البيولوجى . وتعريفنا للسلوك بأنه الفكر والوجدان والتصرف وليس التصرف فقط كما قد يحسب البعض . فلقد يحدث فى كثير من الأحيان أن يتشبث الشخص بالسلوك المتعلق بسن سابقة على سنه الحالية. وأكثر من هذا فلقد يعمد أحد الشيوخ إلى النكوص فيسلك سلوكا خاصا بسن بعيدة عن سنه، فلقد تهيم امرأة فى الخمسين بحب شاب فى سن العشرين كما قد تجد شيخا يفتعل مشية شاب فى سن المراهقة مع أن حالته الصحية وتكوينه الجسمى لا يسمحان له بالإتيان بتلك المشية. وطبيعى أننا نرجو للشيوخ أن يسيروا معتدلى القوام وفى خفة ورشاقة ولكن ما نقصد إلى التأكيد عليه هو تحقيق التوازى بين الإمكانية الجسمية وبين السلوك البادى للعيان. فخائر القوى يجب ألا يتقمص صيغة الشاب فى المشية ، بل يجب أن يسير كأحسن ما يجب أن يسير الشيوخ وأن تعتدل قامته كأحسن ما تعتدل قامة الشيخ فى سنه . فالشيخ المتصابى بينما هو فى حقيقته الجسمية محطم البنيان ، يختلف عن الشيخ المعتنى بصحته والمفعم بالحيوية بحيث يكون سلوكه الخارجى من مشى أو وقوف أو جلسة معبرا عن حقيقته الحيوية وانعكاسا صادقًا لما يعتمل بين أضلعه من حيوية ونبض بالحياة والقوة.

وإذا كان الإرشاد النفسى يستهدف تحقيق الاتساق بين الكيان العضوى للشخص وبين السلوك بأضلاعه الثلاثة ، أعنى الفكر والوجدان والتصرف ، فإن الإرشاد الاجتماعى يستهدف تحقيق الاتساق بين سلوك الشخص بأضلاعه الثلاثة وبين الواقع الاجتماعى من حوله . ذلك أن السلوك ينبعث عن ناحيتين: ناحية الكيان الحيوى الجسمى ، وناحية البيئة الاجتماعية التى يوجد بها الشخص وما يشيع فيها من قيم ومفاهيم وأوضاع واتجاهات. ومن هنا فلابد أن يأخذ الإرشاد الاجتماعى فى اعتباره تلك الأوضاع كما يفعل الإرشاد النفسى عندما يأخذ فى اعتباره القوام الحيوى للشخص.

فلابد إذن للإرشاد الاجتماعى أن يقوم بتبصير الشيخ بموقفه الحالى فى المجتمع سواء تمثل المجتمع فى النطاق الضيق للأسرة أم تمثل فى المجتمع الخارجى بمؤسساته المتباينة. ومن أهم ما يجب أن يستهدفه الإرشاد الاجتماعى

هو إقناع الشيخ بأنه ليس مرذولا من جانب المجتمع المحيط به وأن المؤسسة أو الدولة عندما أحالته إلى التقاعد لم تكن تقصد إلى نبذه أو إلى التحقير من شأنه أو إلى أنه لم يعد صالحا للإنتاج، بل لكى تتيح لأجيال جديدة من الشباب الفرصة للقيادة ضمانا لتوفير الفرصة لهم للمشاركة فى جميع درجات العمل بغير أن تحرمهم من أية وظيفة ، وأنها تريد توفير الراحة له حتى يستطيع أن يدخر قوته لكى يحيا شيخوخة غير مرهقة.

وإلى جانب تقبل الشيخ لوضعه الجديد، يجب أيضًا أن يعمد الإرشاد الاجتماعى إلى إقناع الشيخ بتقبل أوضاع الآخرين من حوله وما صارت إليه تلك الأوضاع . فالأب فى أسرته يجب أن يتقبل الأوضاع الاجتماعية التى نشأت فى أسرته نتيجة بلوغ أبنائه سن الرجولة وبناته سن الأنوثة، بل يجب أن يفهم ويهضم وضع أبنائه بعد زواجهم واستقلالهم عن أسرته وأيضًا الوضع الذى صارت إليه بناته بعد الزواج أو بعد الانتهاء من الدراسة والحصول على مرتب. ويجب أن يفهم ويهضم المكانة التى تحتلها زوجة الابن أو زوج البنت . أما الشيخ الذى يتشبث بالأوضاع التى كانت قائمة وقتما كان أبناؤه وبناته صغارا، فيعاملهم بنفس المعاملة التى كان يمارسها فى مطلع حياته الزوجية أو عندما كان أولئك الأبناء والبنات أطفالا، فإنه لا يستطيع أن يمارس شيخوخة سعيدة مع أولئك الأبناء والبنات ، بل إنه سيقابل من جانبهم بالثورة عليه أو باللامبالاة أو بالنبو عنه، فيأخذ هو بدوره فى التشكى منهم لكل من يقابلهم . والواقع أنه هو الذى لم يستطع مجابهة الواقع الاجتماعى الجديد بعد أن كبر أبناؤه وبناته ويلقى باللائمة عليهم مع أن اللوم كل اللوم يقع عليه هو لأنه لم يفهم واقعهم من جهة وبالتالى لم يكيف سلوكه لذلك الواقع الجديد الذى بزغ فى ربوع أسرته.

بيد أن الإرشاد الاجتماعى للأسرة لا يقتصر على إرشاد الشيخ وتبصيره بما يدور حوله من متغيرات ثم مطالبته بالتكيف لذلك الواقع الجديد وأن يعدل سلوكه فى ضوء تلك المتغيرات، بل يستهدف أيضًا التأثير فى سلوك المحيطين بالشيخ لتغيير سلوكهم وتعديله فى ضوء المتغيرات النفسية التى طرأت على نفسية شيخهم أو شيختهم ، ثم فى ضوء المتغيرات الاجتماعية التى حدثت لهما. فالأب

بعد إحالته إلى المعاش يكون مرهف الحس إلى حد بعيد بحيث يكون بحاجة إلى معاملة خاصة يشيع فيها التعاطف وروح المرح والترفيه وعدم تركه وحده بل العمل على ملء حياته بكافة الوسائل بحيث لا يشعر بأنه صار إلى فراغ قاتل أو ممض.

وبالنسبة للأبناء والبنات الذين كبروا وتخرجوا فى كلياتهم أو معاهدهم وصاروا يتقاضون المرتبات أو الذين تزوجوا واستقلوا عن البيت الأصلى الذى كان الأب سيدا عليه ، ينبغى عليهم أن يعوضوه بالاحترام والحب عما فقده من سلطة عليهم، وألا يحرموه من بعض الإرشادات يسألونها منه وأن يعرضوا عليه بعض شئونهم يطلبون مشورته بإزائها كما سبق أن ألمحنا، وأن يرفقوا به إذا هو تهور عليهم بالكلام الصعب و بالعتاب المر الذى قد يقصد من ورائه فرض سلطانه عليهم من جديد كما كان شأنه وهم بعد صغار . وهناك ما يشبه النغم الموسيقى فى التعامل بين الناس. فالمطلوب من الأبناء والبنات ألا تعلو نغماتهم فى التعامل على النغمة التى تصدر عن أبيهم الشيخ أو عن أمهم الشيخة. ومفهوم أننا لا نقصد هنا تلك النغمات المسموعة بل نقصد نوعا آخر من النغمات يحس بالوجدان فى سياق التعامل . فالمطلوب ألا يحس الشيخ أو الشيخة بأنهما قد صارا إلى الضعف وأن أبناءهما وبناتهما قد صاروا إلى القوة والسيطرة بحيث تكون قد انقلبت الآية أو اختل الميزان الذى دأبوا على الاعتياد عليه. فثمة نوع من الرضى يجب أن يتوافر . وذلك بألا يحتل الأبناء والبنات الأرض قوة واقتدارا بل يجب أن يتم لهم احتلالها بالتراضى بينهم وبين الشيخ أو الشيخة.

ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر أن هناك الكثير من الأشياء التى يجب أن يتم تكييفها لواقع الشيخ . من ذلك مثلا نوع المأكولات التى يتم إعدادها للأسرة. صحيح أننا لا نطالب بأن تسير الأسرة كلها على منوال الشيخ ولكننا نعنى فقط أن يعمل حسابه فى هذا الصدد وفى غيره من أمور.

شغل الوقت ومحاربة الفراغ :

من المشكلات النفسية الكبرى التى تجابه الشيوخ إحساسهم الممض بأنهم قد صاروا أناسا غير مرغوب فيهم ولا فائدة منهم ، بل شخصيات منبوذة من جهة

وضارة من جهة أخري. ولقد سبق أن أكدنا أن الإرشاد النفسى والاجتماعى للشيوخ يرتكز بصفة خاصة على إقناع الشيوخ بأنهم شخصيات مرغوب فيها وأن من الممكن أن يكونوا إيجابيين بحيث يفيدون غيرهم ويقدمون إليهم أجل الخدمات ومن ثم يحسون بهم ويعترفون لهم بالوجود والأهمية.

والواقع أن الإحالة إلى المعاش بالنسبة للموظفين والعاملين لا تعنى بالضرورة الامتناع عن مزاولة أى نشاط والتحول إلى صفر فى المجتمع أو إلى قيمة سالبة تأخذ ولا تعطى وتضر ولا تنفع ، وإنما تعنى انتهاء النشاط فى ناحية واحدة من نواحى الحياة المتعددة والخصبة والبدء بصفحة بيضاء جديدة فى ممارسة ألوان أخرى من النشاط قد تكون ذات صلة بنوعية المهنة أو الوظيفة أو الحرفة التى دأب الشخص على ممارستها أو لا يكون لها أية صلة بماضى الشخص المهنى أو الوظيفى أو الحرفي. ذلك أن التوقف عن ممارسة أى نشاط والامتناع عن الإيجابية تماما لا يعنى إلا الموت حتى وإن ظلت نسمة الحياة دابة بل ومتأجحة فى جسم الشخص ، إذ إن حياة الإنسان تختلف فى تقييمها عن حياة الكائنات الحية الدنيا ، حيث تقاس تلك الحياة بما يقدمه الشخص من إيجابيات إلى نفسه وإلى غيره وعدم اقتصاره على ممارسة الوظائف الحيوانية التى يعتمد عليها الكائن الدنىء من الكائنات الحية دون سواها من وظائف عليا.

ويجب أن نضع نصب أعيننا أن النشاط الإنسانى لا يقتصر على نطاق الكسب. فالاعتقاد القائل إن نشاط الشخص يجب أن ينحصر فى نطاق العمل الذى يدر عليه ربحا إنما هو مفهوم مبتور يضرب الشخصية الإنسانية بالحقارة والضعة والأنانية . فنحن إذا ما تصفحنا تاريخ العظماء، فإننا نجد أن الغالبية العظمى منهم لم يكونوا يبتغون من المنجزات العظيمة التى سعوا لتحقيقها إلى الحصول على الربح يملأون به جيوبهم أو يفعمون به حساباتهم فى البنوك ، بل إن الكثيرين منهم كانوا يتخذون من مناشطهم هوايات ورسائل يؤمنون بها وينفقون عليها من أموالهم ، أو يتحملون فى سبيلها المشقات بل والاضطهادات التى كانت تصل فى بعض الأحيان إلى حد الموت كشهداء من أجل استمساكهم بالمبادئ أو

بالقيم أو بالاتجاه الذى اختاروه لأنفسهم بغير أن يغضوا أنظارهم عنه أو أن يغفلوا عنه ولو لحظة واحدة.

ومما لاشك فيه أن هناك طريقتين يمكن أن ننظر بأى منهما إلى حياة الإنسان : طريقة زمنية وأخرى إجرائية . أما الطريقة الزمنية فإنها تعتمد على حساب عمر الشخص بالسنوات التى عاشها على الأرض ، بينما تعتمد الطريقة الإجرائية على حساب حياة الشخص بعدد العمليات التى اضطلع بها ونوعيتها. والفرق بين الطريقتين للنظر إلى حياة الإنسان هو فرق فى الزاوية التى ينظر منها إلى الشخص . فالزاوية الأولى تصب الناس جميعا فى قالب واحد هو الزمن المقضى منذ الميلاد حتى الوفاة . وذلك القالب الزمانى ثابت ومطلق وغير متغير من شخص لآخر، أما الطريقة الثانية فهى تنظر من زاوية الإنجاز إذ إنها تفسر الحياة بالعمليات الممارسة وليس بالزمن المقضى فى الممارسة أو عدم الممارسة. ففى ضوء النظرة الثانية لا يهمنا كم سنة عاشها أفلاطون أو طه حسين مثلا، بل يهمنا ما اضطلع به أفلاطون من أعمال وما أنجزه طه حسين من عمليات عقلية تجسدت على يده فى أقوال منطوقة أو كتابات مكتوبة أو منشورة أو مقالات صحفية أو منجزات سياسية كوزير للتربية والتعليم أو كعميد لكلية الآداب أو غير ذلك من وظائف أو مواقف أو مهام أتمها أو حاول إتمامها . ونحن لا نقيس أعمال أفلاطون وطه حسين وغيرهما من مشاهير الرجال فى شتى مجالات الحياة الفلسفية والأدبية بل والسياسية والاقتصادية والعملية بقدر ما حصله أولئك المشاهير من أموال وما كوفئوا به من مرتبات قبالة ما أنجزوا أو قدموا أو اكتشفوا، وإنما نوط بأعمالهم قيمة ذاتية خارجة عن الحدود الضيقة للمادة والمكافآت المالية ومركزين أنظارنا إلى دخيلة الشخصية وإلى المعاناة العقلية والنفسية والجهد الذهنى المبذول من جهتهم فيما قاموا به أو فيما حاولوا القيام به فالتقدير هنا ينصب على العملية المؤداة وليس على النتائج المتحصلة.

فإذا ما اقتنع الشيوخ بهذه النظرة الإجرائية النفسية ، وصرفوا النظر عن الربط بين العمل وبين الحصيلة النقدية المادية المترتبة على القيام به ، فإنهم سيجدون الحياة إذن رحبة أمامهم، وسوف يغيرون طريقة تقييمهم لأنفسهم، إذ

يجـدون أن الكثـيـر جـدا من الأعـمـال التى يمكن أن ينهـضـوا بهـا بعد خـروجـهم إلى المعـاش تحظى بقيـمة كبيرة جدا على الرغم من تجـردها عن الفائدة المادية يجنونها نتـيـجة قـيـامـهم بهـا. ولسنا نبـالـغ إذا قلنا إن العـمل الذى تشارك فيـه الشـخـصيـة تطوعـا ونتـيـجة باعث نفـسى بحت ولا صـلة له بالكسب المادى لهـو أكثـر قـيـمـة من العمل الذى يؤجر عليه الشخص لممارسته حتى ولو كان العملان من نوعية واحدة . ذلك أن الشـخص الذى يصدر فى العمل عن باعث نفسى متجرد عن باعث الكسب يكون مـتـحـمـسًا للعمل الذى استـؤجـر لإتمامـه. فـشتان مـا بين الرسـالة النابعـة عن القلب وبين الحـماس النـاشئ عن الحـافز المصلحى. ولسنا بهـذا نهاجم الذين يعـملون سـعـيـا للحـصـول على الكسب ، ولكنـا نرمى فـقـط إلـى إظهـار أن هناك نوعـين من النشـاط: نشـاط مصلحى يـرتكز على اسـتـهـداف الحـصـول على المقـابل أو النظيـر، ونشاط آخر نفسى يقوم على أساس من دافع داخلى يلح على الشخص بأن يضطلع به لما له من قيمة ذاتية فى نظر صاحبه.

وثمة الكثير جدا من المناشط التطوعية التى يستطيع الشيوخ المشاركة فيها. ولعل الـكثـيـرين منهم لا يجـدون من يشـجـعـهم على ذلك ، أو لا يعـرفـون نوعـيـاتهـا وكيفية البدء فى ممارستها ، كما أن تنظيم العمليات التطوعية والإعلان عنها غير متبلور وغير منظم حتى الآن. فلقد اهتمت الجهات المختلفة بالتركيز على الأعمال التى يتقاضى الناس عنها أجرا اعتقادا منها أن الأعمال التطوعية المجانية لا تلقى رواجـا أو إقـبـالا إذا مـا أعلن عنهـا. ولكن الواقع مـبـاين لذلك تمامـا . ولو أن تلك الجهات الاجتماعية أو المؤسسات أو الوزارات قد أعلنت ودعت إلى النهوض بتلك الأعمـال التطوعـيـة لوجـدت إذن الكثـيـر من الشـيـوخ بل والشبـان يقبلون عليهـا فى تزاحم ، لأن الكثـيـر من الناس يحـسـون بدافـع إنسـانى يدفـعـهم إلى المشـاركـة فى الأعمـال الإنسـانيـة ويعتبـرون أن المكافـأة الكبرى التـى يحظون بهـا هـى التذاذهم بما يضطلعون به وقدرتهم على الإنجاز والنهوض بالمطلوب أداؤه.

وهنـاك أولا أولئك الشـيـوخ الذين يحـتـاجـون إلـى من يوجـهـهم إلى مـا يجب انتهاجه من أعمال أو مـا يملأون به وقت فراغهم - وهو كل الوقت لديهم - ولكنهم لا يعـرفـون السـبـيل إلى ذلك . فـمن المنجـزات العظيـمـة التى يتـسنى للشـيـوخ

المستنيرين القيام بها المشاركة فى تلك العملية التوجيهية . صحيح أنه قبل الإقدام على مثل ذلك العمل يجب أن يكون الشيخ الذى يشارك فى توجيه غيره من شيوخ بهذا الصدد قد استطاع هو شخصيا أن يحل مشكلة الوقت والقضاء على الفراغ لديه ، ويكون قد استطاع أن يفهم واقع حياة الشيوخ ، وأن يكون قد وقف على المشاعر التى تنتابهم ، بل ويكون على بصيرة بما يجب القيام به فى سبيل القضاء على تلك المشاعر الممضة، وأن يكون قد بصر بالمناحى التى يتسنى للشيخ قضاء الوقت فيها والجهات التى يستطيع الرجوع إليها أو الالتحاق بها أو تسجيل اسمه لديها .

أضف إلى هذا ما يستطيع الشيخ القيام به بإزاء الشباب وهو كثير . فهناك أولا ما يمكن أن يقوم به الشيخ من أعمال يساعد بها أقرباءه من الشباب . فهناك شيخ يمكن أن يساعد الشباب الجامعيين فى نقل المحاضرات لهم بخط جميل فى كشاكيلهم التى خصصوها لنقل المحاضرات . وهناك من الشيوخ من يستطيعون جمع المعلومات من المراجع للشباب الذين يقبلون على القيام بالبحوث. فعملهم هو نقل المعلومات التى يحددها لهم الشباب من الكتاب أو المرجع أو دائرة المعارف ، وتنحصر مهمتهم فى نقل الفقرات أو الصفحات التى يحددها الطلبة لهم.

ولسنا نشك لحظة واحدة فى أن المدارس الابتدائية ودور الحضانة تستطيع أن تجنى الكثير من الفوائد إذا هى أخذت بنظام المتطوعين من الشيوخ . فبالنسبة لدور الحضانة سيجد فيها الشيوخ من الجنسين متعا كبيرة عندما يقومون برعاية الأطفال سواء فى داخل المبنى أم فى الحديقة. ومن الممكن أيضًا تقديم تدريب لأولئك الشيوخ المتطوعين لمدة أسبوع واحد قبل انخراطهم فى هذا العمل التطوعى بحيث يكونون على بصر كاف بطبيعة الطفولة فى تلك المرحلة وبالمهام التى يطلب إليهم النهوض بها والواجبات التى يجب عليهم الالتزام بمراعاتها والمحظورات التى ينبغى عليهم تحاشيها . أما فى المدارس الابتدائية فيمكن الإفادة من الشيوخ فى وقت يخصص للاستذكار بعد انصرام اليوم المدرسى حيث تخصص بعض الفصول ليقوم التلاميذ بالاستذكار فيها تحت إشراف أولئك المتطوعين. وفى هذه الفرصة

يستطيع المتطوع تذليل بعض الصعاب أمام التلاميذ الذين يجدون صعوبة فى الحفظ أو الفهم أو فى التدرب على بعض المسائل الحسابية.

وهناك بعض الشيوخ يستطيعون النهوض ببعض الأعمال كإتمام الأوراق المتعلقة بالسفر أو بالجمارك أو بشراء بعض المنقولات أو اللوازم الخاصة بالآخرين أو إيصال بعض الرسائل الهامة أو صرف أحد الشيكات من البنك أو غير ذلك من مهام نيابة عن الشباب المرتبطين غالبًا بأعمالهم فى فترة عمل البنك أو الوزارة أو الشركة.

وبمقدور الكثير من الشيوخ المشاركة فى توجيه الشباب فى مسائل الزواج. صحيح أن المساهمة فى التوجيه المتعلق بالزواج قد يؤثر على سمعة الشخص، ولكن إذا ما اضطلع الشيخ بذلك بغير طمع فى الحصول على مال ، فإن عمله يكون عظيما بل واجتماعيا من الطراز الأول . وطبيعى أن الشيخ الذى يتمتع بثقة الآخرين والذى تكون سمعته الشخصية على ما يرام يستطيع أن ينجح فى هذا الأمر نجاحا منقطع النظير . وأكثر من هذا فإنه يستطيع أن يساهم بقدر كبير وبجهد مشكور فى حل الكثير من المشكلات الأسرية إذا كانت لديه الموهبة والقدرة على التأثير فى نفوس وعقول أصحاب المشكلات الأسرية.

وبالنسبة للمراهقين فإن الشيخ الحصيف فى المسائل النفسية والاجتماعية يستطيع أن يدلى بدلوه فى توجيه المراهقين والمراهقات ، وبخاصة إذا ما انخرط فى الأوساط الدينية حيث يستطيع أن يلتقى بالمراهقين وحيث يستطيع أن يحظى بثقتهم فيه . ولكن الخوف هنا من الشيوخ المتزمتين أو الخاضعين لأفكار سقيمة أو غير علمية حول المسائل الجنسية فيكون ضرر هؤلاء أكثر من فائدتهم فيما يؤثرون به فى المراهقين والمراهقات . من هنا فلابد من الحرص على أن توكل إلى الشيوخ العمليات المناسبة لهم دون العمليات أو المهام التى لا تناسب طبيعتهم أو ثقافتهم أو قيمهم أو وضعهم الاجتماعى أو أخلاقهم.

وإذا كان الشيخ على جانب كبير من الثقافة والوعى ، فإنه يستطيع أن يخدم الشباب عن طريق المحاضرات التى يقدمها إلى الشباب فى اجتماعات الشباب

بالجوامع (إذا كان مسلما) وبالكنائس (إذا كان مسيحيا)، وذلك لأن الشباب لا يمكن أن يستغنوا عن الكلمة المنطوقة ولا يمكن أن يكتفوا بالكلام المدون بالكتب والجرائد والمجلات، لأنهم يرغبون دائماً فى مناقشة المتحدث فيما يعرض له من آراء واتجاهات. وهذا أمر لا يتوافر لهم فيما يقرأونه بالكتب والجرائد والمجلات.

ولسنا بذلك نغمط قيمة ما يمكن أن يدونه الشيوخ المثقفون من مذكرات شخصية أو ما يسجلونه من خبرات مروا بها يمكن أن ينتفع بها الشباب . ولقد سبق أن قلنا إن خبرات الشيوخ بمثابة كنوز يجب العمل على الحفاظ عليها وعدم دفنها مع الشيخ فى عزلته بعيدا عن آذان وعيون المجتمع وبخاصة مجتمع الشباب والمراهقين الذين يستلهمون الشيوخ فيما ضربوا فيه من سبل، وما دأبوا عليه من مناشط، وما برزوا فيه من إنجازات وما تمرسوا به من أفكار ، وما استهدوا به من مثل عليا، وما استمسكوا به من قيم ومقدسات.



الفصل العاشر

الرعاية الاقتصادية

الزيادة المطردة فى المعاش:

سبق أن قلنا أن المعاش الثابت الذي لا يقبل الزيادة المطردة سنويا كما هو الحال بالنسبة للمرتبات يؤدي إلى انخفاض مستوي معيشة الشيخ ، وذلك في ضوء الزيادة المطردة في الأسعار علي المستوي المحلي والمستوي العالمي . فثمة النقص الشديد الذي يحدث في صلب ما يتقاضاه الشخص لدى إحالته إلي المعاش، إذ يجد أن مرتبه قد نقص بما لا يقل عن عشرة جنيهات عما كان يتقاضاه قبلا، مما يتسبب عنه إرتباك مالي شديد تكون وطأته شديدة علي صحته وعلى حالته المعنوية. وهذا يبدو أكثر ما يبدو بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين كانوا يتقاضون بدل طبيعة عمل وبدل تمثيل وغير ذلك من مبالغ تضاف شهريا إلي مرتباتهم وصارت بمرور الوقت داخلة في ميزانية الأسرة التي يقوم بإعالتها ومشكلة الإطار الاقتصادي الذي ينظم الشخص معيشته وفقه (*).

ولا يخفي علي أحد أن الإنسان أسير ما أخذ به نفسه من عادات معيشية فذلك الشخص الذي ضربنا مثلا به وهو الشخص الذي كان يتقاضي مرتبا ضخما بالإضافة إلى بدلات مالية منتظمة ثم وجد نفسه فجأة بعد بلوغه الستين وقد نقص مرتبه شهريا بما لا يقل عن ثلاثين جنيها (عشرة جنيهات مثلا من مرتبه + جميع البدلات) عما كان يتقاضاه ، فإنه لا يستطيع أن يكيف حياته الاقتصادية

(*) هذا الوضع تغير إذ تتزايد المعاشات من حين لآخر.

طفرة واحدة ، فينقص من أوجه الإنفاق المتباينة . ولقد يجد نفسه عاجزا عن تغيير مسكنه الفاخر الذى يدفع فيه إيجارا قدره ثلاثون جنيها كل شهر على سبيل المثال . كما أنه لا يستطيع أن يستغنى عن سيارته التى اعتاد التنقل بها وأن يخوض غمار وسائل المواصلات العادية فيتزاحم مع المتزاحمين في الأوتوبيسات والترام، كم لا يستطيع أن يخاصم الجزار الذي يوصل اللحم كل أسبوع إلي شقته لتأخذ مكانها بالثلاجة، ولا يستطيع أن يقول لبائع اللبن إن مرتبه قد نقص بسبب إحالته إلى المعاش وأنه لم يعد يستطيع المواظبة على شراء اللبن، ولا يستطيع أن ينقطع عن الترزي الذي اعتاد تفصيل « بدلة » أو أكثر له كل سنة بانتظام، وأن يعتذر بأنه صار من غير القادرين علي ارتداء الملابس المتجددة باستمرار. وهذه في الواقع أمثلة من الكثير جدا من وسائل الإنفاق التي لا يستطيع مثل هذا الشخص أن يستغني عن الإنفاق فيها . صحيح أنه قد يضطر في نهاية المطاف إلي التحكم في وضعه وأن يخضع للظروف التي طرأت عليه وأن يطأطئ الرأس للواقع المالي المؤلم الذي انتابه بسبب إحالته إلى المعاش.

ولكن الأكثر إيلاما والذي يشكل مأساة في حياة مثل هذا الشخص أو غيره من أترابه هو أن معاشه الثابت يأخذ في الاضمحلال بسبب ارتفاع مستوى الأسعار. ولسنا هنا لكي نشكو من حدوث ارتفاع مستمر في الأسعار. ذلك لأن هذه المسألة – أو بتعبير أصح هذه المشكلة – هي مشكلة عالمية لا قبل لمصر أن تتحكم فيها لأن بلدنا بمثابة فرد بين أفراد متعددين هي الدول المتعددة التي تواجه جميعا ظروفا مشتركة تتعلق بالموارد العالمية والتضخم السكاني وطموح الإنسان الحديث نحو مستوي أعلي من المعيشة وارتفاع أسعار العمالة والنقل إلي غير ذلك من أسباب لعل أهمها جميعا زيادة الخدمات علي المستوي العالمي عن الإنتاج أو منافسة الخدمات للإنتاج في الاستحواذ على جهد العاملين نقول إننا لا نشتكي من ازدياد ارتفاع الأسعار بصفة مستمرة ، ولكننا نصف حال شيخ خرج إلي المعاش ولم يكتف القدر بأن يحمله على أن يتقاضي معاشًا أقل بكثير من مرتبه الذي نظم معيشته علي أساسه، بل إنه يجد بالإضافة إلى نكبته المالية نكبة أخرى هي التآكل المستمر لذلك المعاش الضئيل بحيث يتزايد تدهوره المالي شهرا بعد شهر إن لم يكن أسبوعا بعد أسبوع.

والأدهي والأنكب أن يكون صاحب ذلك المعاش ممن رزق أطفالا وهو في سن متأخرة إذ يكون قد تزوج بعد بلوغه الأربعين. فهو لا يزال يعول أبناء وبنات في الجامعة، وعليه أن يستمر في تعليمهم ثم يتكفل بتجهيز البنات حسب عاداتنا الشرقية. ناهيك عن أن الغالبية العظمي من المحالين إلي المعاش حاليا لم تكن الزوجة لعهدهم من العاملات بل كانت من ربات البيوت . وبالتالي فإن الرجل يشكل العمود الفقارى الوحيد في الأسرة الذي يقوم بإعالتها . فمثل هذا الأب يجد نفسه في مواقف حرجة مستمرة إذ إنه لا يستطيع تلبية معظم نفقات أبنائه ومجابهة المطالب المتعلقة بالكتب والرسوم الجامعية وما يحتاج إليه الشاب والشابة من ملبس واشتراكات في المواصلات وغير ذلك من أوجه إنفاق يجب على الأب توفيرها وإلا تهدد مستقبل الأبناء والبنات بالخطر وتعثروا في حياتهم الدراسية وضاع مستقبلهم كله وتشردوا في الشوارع شر تشرد.

وهناك عبء إنفاقي جديد ينضاف إلى ما يتحمله الشيخ المحال إلى المعاش هو عبء العلاج والدواء. ففي الشباب لا يكاد الشخص العادي يتردد على الأطباء إلا لماما ويكاد ينقطع عن الصيدلية. ولكن ما أن تدب الشيخوخة في أوصاله حتى يجد أن تردده على الطبيب صار شيئا ثابتا لا يتغير . أما الدواء فهو شيء لابد منه أو قل إنه شيء متزايد. فهذه أدوية للضغط، وتلك خاصة بالسكر، وثالثة خاصة بتصلب الشرايين إلى غير ذلك من أدوية. ولقد يصر الطبيب علي أن الشيخ في حاجة ماسة إلى إجراء عملية لاستئصال إحدي الكليتين أو لاستئصال المرارة وأن العملية بحاجة إلي مائتي جنيه لا يوجد منها جنيه واحد في حافظة الشيخ المسكين . فينضاف ألم العوز والعجز عن دفع ثمن إجراء العملية إلى آلام المرض والوقوع تحت وطأته. فلا يكون أمامه إلا أن يمتنع عن طاعة أمر الطبيب أو الارتماء في أحضان المستشفيات المجانية المزدحمة بطالبي العلاج ممن لا يقدرون علي التردد علي المستشفيات الخاصة ذات الخدمة الممتازة أو المقبولة . والواقع أن الكثير من أصحاب المعاشات ينفقون ما لا يقل عن عشرين جنيها شهريا من معاشهم الضئيل ثمنا للأدوية التي إن انقطعوا عن تناولها فإنهم يكونون عرضة للموت الأكيد.

ومما يزيد الطين بلة انغلاق أبواب الاستدانة أمام صاحب المعاش. فالكل من حوله يترقب وفاته إن عاجلا أو آجلاً . ومن أين له أن يسدد ومعاشه ثابت وأخذ في الاضمحلال بسبب ارتفاع الأسعار المستمر؟ لا يبقى إذن أمامه إلا طريقة واحدة هى أن يطلب الاستبدال من معاشه . وهذا يتطلب توقيع كشف طبي عليه حتى يتنبأ الأطباء بالمدة المحتملة لبقائه على قيد الحياة . وتقدر قيمة الاستبدال فى ضوء تلك المدة الافتراضية . فقد يحصل على ستين جنيها دفعة واحدة في مقابل نقص معاشه جنيها كل شهر هو في أشد الحاجة إليه لاستكمال متطلبات معيشته . ولكن المضطر يركب الصعب وينزلق إلى الخطر هربا مما هو أخطر.

والواقع أن أصحاب المعاشات كما قلنا يكونون غالبا شخصيات معتدة بنفسها، ولا يحب الواحد منهم أن يبدي حاجته إلي أحد وبخاصة أبناؤه وبناته. فهو يريد – وقد بلغ تلك السن – وقد كان مرموقا في وظيفته أن يظل شامخ الرأس. إنه يريد أن يستمر أبناؤه وبناته في النظر إليه علي أنه الشخص القادر علي الإنفاق . فعندما ينزلون ضيوفا عليه هم وزوجاتهم وأزواجهم، فلابد أن يقوم هو بالإنفاق على ضيوفه ولا يحمل أبناءه وبناته شيئا من مصاريف الإقامة لديه. وكيف يحملهم ذلك وقد تكلفوا نفقات السفر وحملوا الهدايا وهم قادمون إليه وإلى زوجته التي هي أمهم . لابد إذن من التصرف من أي مورد بعيد عن جيوب الأبناء والبنات، وهي جيوب خاوية في الغالب على أى حال، بل لقد يكون كل واحد منهم طامعا في أن يحظى بشىء من معاش ذلك الوالد الثري في نظرهم ويتوقع أن يرحل هو وزوجته أو أن ترحل هي (ابنته) وزوجها وقد حملوا جميعا الهدايا الثمينة لكي يقوموا بتوزيعها على الجيران لدي رجوعهم إلي بلدهم التي يعملون فيها.

وحتى بالنسبة للأبناء والبنات الذين يعملون ويعيشون مع الأب والأم في نفس الشقة ، فإن ما يتقاضونه من مرتبات شهرية لا تكاد تكفيهم ، وكل واحد منهم يتطلع إلي مستقبل بحاجة إلى كل قرش يوفره لذلك المستقبل الحافل بالمصروفات والمكدس بالمطالب حتى يستطيع إعداد نفسه لحياة زوجية ميسرة ومفعة بالرخاء.

ولقد يكون بعض الأبناء وبعض البنات في حاجة إلي مساعدة منتظمة من جانب صاحب المعاش. لقد يموت زوج البنت وقد ترك أطفالا صغارا ولم يترك لزوجته الشابة سوى معاش ضئيل أو لم يترك لها شيئا على الإطلاق لأنه كان حديث التخرج ولا يستحق معاشا. فلا يكون هناك بد من أن تزحف تلك البنت بأبنائها إلي عش أبيها الهش تحتمي فيه من غائلة الدهر. وطبيعي أن يرحب الأب المسكين بابنته المكلومة وقد انضاف إليه عبء جديد وفتحت أفواه تطلب الغذاء وتعرت أبدان تطلب الكساء ونمت شخصيات بحاجة إلي مدارس وكتب ومصروفات لا نهاية لها. ولابد لهذا الشيخ من النهوض بذلك العبء الجديد بغير تبرم. ولكن أنّى له أن ينفق ويسد المطالب والحاجات الملحة؟

لابد إذن من مخرج من هذه الأزمة المحتدمة التي يجابهها مثل هذا الرجل وغيره من أصحاب المعاشات . وطبيعي أن الأمثلة التي سقناها هنا لا تغطي جميع الحالات الكثيرة الواقعية التي تشتد وطأتها على أصحاب المعاشات والتي يكتمونها في الصدور ويقتلون حسرة أو يكادون من شدة وقعها علي قلوبهم المجروحة، ومن مستقبل مكلل بالسواد يقف غير بعيد عنهم. فحياتهم صارت مظلمة والأمل قد تزايل من وجودهم حتي لا تكاد الابتسامة تجد طريقها إلي شفاههم. إنك ترى الواحد منهم يسير في الشارع وهو شارد الذهن لا يكاد يستبينك وأنت قادم نحوه تحييه فيرد عليك التحية وكأنه قد خرج من جب عميق لكي يطل برأسه إليك ليرد تحيتك ثم يغوص من جديد في ذلك الجب الموحش. والمؤلم بالنسبة لهذه الفئة من الناس أن أحدا لا يلتفت إليهم ، وهم بدورهم لا يستطيعون رفع صوتهم الخافت يطالبون الدولة برفع معاشهم وتزايده باطراد في كل عام (*).

فليس من المغالاة إذن أن نطالب نحن في هذا المقام بمثل تلك الزيادة بحيث يظل المواطن كريما حتى بعد أن تدق الشيخوخة بابه . ولا نريد من شبابنا الذين يمسكون اليوم بزمام الأمور - مهما علت مكانتهم وكانوا من المرموقين - أن ينسوا لحظة واحدة أن القضية التى نحن بصددها الآن هي قضيتهم المستقبلية. فلسوف

(*) شكرا للدولة لأنها استجابت لنداء المؤلف وغيره بهذا الخصوص.

يأتي اليوم الذي يجدون أنفسهم فيه في حاجة ماسة إلي رفع صوتهم بالأسى والألم إن استطاعوا عندئذ إلي رفعه من سبيل . ولعل الكثير من الشيوخ الموجودين اليوم قد صموا آذانهم أيام كانوا شبابا وقد كانت بأيديهم مقاليد الأمور أو كان في مقدورهم أن يؤثروا فيمن لديهم الحل والربط ، ولكنهم لم يشاءوا وقتئذ أن يحملوا أنفسهم بما لم يكن يهمهم آنذاك كأنه شيء لا يحدث إلا لحثالة القوم. ولعلهم الآن يندمون لأنهم لم يثيروا مثل تلك القضية الحيوية التى تهم كل موظف وكل عامل وكل شخص يعيش إلى أن يتحمل مسئوليات الشيخوخة التي لا تقل ثقلا وعنتا عن مسئوليات الشباب.

ولقد سبق أن قلنا إن الدولة مسئولة عن جميع الفئات العمرية لهذا الشعب . فكما أن الدولة مسئولة عن رعاية الطفولة ، فهى مسئولة بنفس القدر عن رعاية الشيخوخة . ويجب ألا ينسي المسئول في الدولة أن الشيخ الذي أحيل إلي المعاش قد أدي واجبه وساهم في بناء صرح الدولة ، لابد أنه أيضًا شارك في دفع عجلة التقدم إلي الأمام. فلا أقل من أن نحافظ على كيانه خلال تلك الفترة القصيرة من عمره، حتي لا يودع دنيانا وهو يشير بأصبع الاتهام إلينا نحن الجيل القائم لأنه أخلص لبلدنا ولم تخلص بلدنا له . ولا نريد أن يسخط علينا جيل الشيوخ ويرمونا بالخيانة أو بالعقوق . فهم الذين قاموا بتربيتنا وإيصال خبرات الجيل الماضي إلينا. فلابد من النظر إليهم بنظرة تعاطف- ولا نقول بنظرة عطف لأننا نأبى أن نجعلهم في موقف الضعيف ونحن في موقف القوي - وأن نكرمهم بألا نعرضهم للعوز بعد العزة، وللفاقة بعد الوفر، ولطأطأة الرأس بعد ارتفاع الهامة.

المساعدات العينية والخدمات المجانية :

مادام هذا هو حال الغالبية العظمي من الشيوخ ، فلابد أن يولي الجميع عنايتهم بهم ، ولابد من أن تتحرك المؤسسات بوازع من نفسها وبتشجيع وحث من المسئولين عن الخدمات الاجتماعية في بلدنا وعلي رأسهم وزارة الشئون الاجتماعية لمساعدة الشيوخ بكافة الطرق والوسائل . من ذلك بالدرجة الأولى المساعدات العينية والخدمات المجانية التى يمكن أن يحظى بها الشيوخ فتخفف

عن كواهلهم المثقلة ومن همومهم المضنية وآلامهم النفسية الممضة ولسوف نخصص في هذا الفصل موضوعا لجمعية نقترح قيامها تسمى بجمعية أصدقاء الشيخوخة تتولى القيادة والتحرك في هذا المجال بحيث يمكن تقديم أكبر قدر ممكن من الخدمات المجانية ومن المساعدات العينية للمحتاجين من الشيوخ.

فمن الممكن أن يقدم إلى الشيوخ الكثير من الأشياء في المناسبات المختلفة وبخاصة في مناسبة عيد العمر الثاني الذي سنعقد له موضوعا أيضًا بهذا الفصل والذي سبق أن اقترحناه في هذا الكتاب . فالكثير من مطالب الشيوخ يمكن أن تسدي لهم في صيغة كريمة لا تخدش كبرياءهم ولا تحط من كرامتهم. ومن الممكن أن يفتح نادي العمر الثاني ذراعيه لاستقبال التبرعات العينية التى يقدمها المواطنون للمحتاجين من الشيوخ ، بل ويمكن الإعلان عن الأصناف والنوعيات التي يتسنى للمحسن المشاركة في تقديمها للنادي. ولقد يتلقى النادي التبرعات النقدية ثم يتولى المسئولون به شراء تلك اللوازم بنفسه.

وهناك الكثير من الأشياء المستخدمة التى يمكن أن يتبرع بها المواطنون للشيوخ المعوزين سواء بالطريق المباشر حيث يقدمونها إليهم بأيديهم، أم بالطريق غير المباشر عن طريق نادي العمر الثاني أو جمعية أصدقاء الشيخوخة إذ يقومان من جانبهما بالتوزيع بناء على وقوف المسئولين فيهما على احتياجات الشيوخ سواء كانوا في نطاق نادي العمر الثاني أم كانوا بمنازلهم.

وقد يتسني الافاق مع الكثير من المؤسسات التجارية على التبرع للشيوخ بكمية كبيرة من إنتاجها ، ويتم التوزيع بالبونات حيث تسلم مجموع البونات لجمعية أصدقاء الشيخوخة أو لإدارة نادي العمر الثاني حيث يتم التوزيع بأن يعطي الشيخ بونا ثم يقوم هو بصرفه من الجهة المتبرعة بغير أن يكون في حرج أو في وجل وبغير أن يصده أحد.

ونفس الشىء يمكن أن يتبع بإزاء السلع الغذائية كالجزارة والبقالة . ولقد يعفى الشيخ من جزء من الثمن بناء على بون يحصل عليه من النادي أو الجمعية ويتوجه به لشراء السلعة بالتخفيض . ولسنا نشك في أن الكثير من أصحاب

المحلات التجارية على استعداد للمساهمة فى مثل تلك الخدمات الاجتماعية إذا هم وجدوا من يطالبهم بالمشاركة فيها ويحثهم على أن تقديم مثل تلك الخدمات سيكفل لهم الكثير من الخير في الدنيا والآخرة. وغني عن القول أن شعبنا يسارع إلي الخير، ولكن ينقصه القيادات التي ترفع العلم في كثير من مجالات الرعاية الاجتماعية وخاصة مجال رعاية الشيخوخة.

ولقد يتسنى لقيادات الخير في بلدنا أن تستخرج من الكثير من المؤسسات ما يكفل التخفيف إلى حد بعيد مما يرزح تحته الشيوخ حاليًا من متاعب اقتصادية. فلقد يمكن مثلا لجمعية أصدقاء الشيخوخة عمل كارنيهات لأعضائها من الشيوخ الذين تقوم برعايتهم بحيث يستطيعون استخدامها للحصول علي تخفيضات كبيرة من بعض المؤسسات التي تكون الجمعية قد اتفقت معها على تلك التخفيضات أو علي المجانية الكاملة لحامل الكارنيه، فيكون من حقه التمتع بميزات التخفيض أو المجانية إذا هو توجه إلي المؤسسة أو الشركة وأبرز الكارنية، فيحصل على السلعة أو على الخدمة بالتخفيض أو بالمجان. وطبيعي أنه سوف يكون من السهل أن يعمل نوعان من الكارنيهات بلونين مختلفين : أحمر وأخضر مثلا. فاللون الأحمر للحالات الصارخة التي تستحق كل العون والمجانية الكاملة ، واللون الأخضر للمعاونة النصفية إذ يحظى حامله بتخفيض يصل إلى نصف الثمن أو تخفيض ثمن الخدمة إلي النصف. ولاشك أن هناك الكثير من المقترحات التي يمكن تقديمها بهذا الصدد والتي سيتفتق عنها الذهن إذا ما شرع قادة أصدقاء الشيخوخة في الاهتمام بهذا الموضوع المتعلق بالمساعدات العينية والخدمات المجانية.

ومن أهم ما يمكن أن يتفتق عنه التفكير في هذا الصدد ما يتعلق بالعلاج والدواء. فلقد يتسنى الاتفاق مع الكثير من الأطباء في شتى التخصصات على توقيع الكشف بالمجان علي عدد معين من الشيوخ يتم الاتفاق عليه ثم علي عدد آخر منهم يتم توقيع الكشف عليهم بنصف ثمن الكشف. وبعملية تنظيم بسيطة تقوم بها جمعية أصدقاء الشيخوخة يمكن توفير فرص كثيرة من العلاج لعدد كبير من الشيوخ ، بل إن نفس الشيء يمكن أن يتم الاتفاق عليه بإزاء إجراء العمليات

الجراحية . وكما قلنا فإن المسألة بحاجة إلي حث ومطالبة الضمير الإنساني بتقديم ما يجب تقديمه للشيخوخة والتخفيف من أعباء الشيخ المالية حتى يقضي البقية الباقية من حياته ناعم البال رضي النفس غير ناقم على المجتمع والناس والعالم جميعا.

ومن أبسط ما يمكن أن تقدمه الدولة إلى الشيوخ الترحيب بهم للركوب في وسائل النقل بالمجان أو بتخفيضات كبيرة على الأقل. والواقع أن مثل هذا الامتياز سوف لا يكلف الدولة كثيرًا، وذلك لأن الواقع أن الغالبية العظمى من الشيوخ تركن إلى البيت ولا تستخدم المواصلات. والذين يستخدمون منهم المواصلات لا يستخدمونها إلا للضرورة التى تحوجهم إلى إستخدامها. ومن المؤسف أن يدفع الشيخ المحتاج إلى كل قرش ثمن التذكرة في الانتقال من بيته إلي حيث يريد قضاء مصالحه المعطلة بالمصلحة أو الشركة وإذ ربما يكون اسمه قد سقط سهوا أو إهمالا من كشف المعاشات، أو تكون له مكافآت متأخرة لم يحصل عليها قبل إحالته إلى المعاش بالمصلحة أو الشركة التي كان يعمل بها إلى غير ذلك من مشاوير يتحتم عليه قضاؤها. وحتى إذا كان الشيخ خارجا في نزهة أو في رحلة، فالواجب على الدولة التي أفنى عمره من أجلها وبذل كل رخيص وغال في سبيل أبنائها أن ترحب به للركوب في وسائل المواصلات التى تمتلكها بالمجان حتى ولو كان ذلك من القاهرة إلى أسوان بقطارات الدولة.

ومن الواجب أن تنحو وزارة النقل إلى تخصيص أماكن في الأوتوبيسات والترام والقطارات للشيوخ بدلا من تخصيصها للسيدات. ذلك أن المرأة صارت من الناحية العملية تزاحم الرجل وتقوي عليه بحيث لم تعد بحاجة إلى من يقوم بحمايتها وتخصيص أماكن لها في وسائل المواصلات . إنك ترى اليوم الشابات يتفوقن على نظرائهن من الشبان في احتلال الأماكن بل وفي حجز المقاعد لزميلاتهن حيثما يجب الحجز أو لا يجب في الأوتوبيسات وعربات الترام والقطارات بل وحتى في مدرجات الجامعة. ونخشى أن نقول إن الأحرى بوزارة النقل أن تقوم بتخصيص بعض الأماكن للرجال بدلاً من تخصيصها للسيدات، لأن السيدات فزن بنصيب الأسد ولم يبق للرجال سوى ما يفضل عن الأسد من بقايا

ما فريسته. ولكن المسكين حقًا هو ذلك المتهالك أو تلك المتهالكة التي لا تستطيع صعود سلم الأوتوبيس وحدها بل تنتظر يدا قوية تدفع بها إلى أعلى السلم ، ثم لا تجد بعد ذلك أحدًا يفسح لها مقعدًا ترتمي عليه لا انتجاعًا للراحة بل لكي تتخفف من الآلام المبرحة التي تستبد بمفاصلها وعضلاتها وظهرها. فهي تقف تتلوى ألما بغير أن تجد قلبا شفيقًا يحنو عليها أو نخوة في أحد الرجال الجالسين تدفع به إلى التنازل عن مقعده للارتماء عليه. ولكن إذا ما خصصت أماكن للشيخوخة في تلك السيارات ووسائل النقل الأخرى لما جرؤ أحد على الإغارة على حق الشيوخ من الرجال والنساء في الإنتقال في راحة من مكان إلى مكان.

وحيث إن قضية الشيخوخة عادلة في اكتساب حق المحانية أو التخفيض في وسائل النقل الأرضية ، فلابد أن يكون لها نفس الحق في المواصلات البحرية والجوية . فلماذا لا يتمتع الشيخ بالمجانية أو على الأقل بالتخفيض في ركوب البواخر والطائرات؟. يجب أن ينظر أيضاً في هذا الموضوع بحيث يحد الشيوخ فرصة كافية لهم للانتقال في رحلات حول العالم. ويمكن أيضًا وضع القواعد المنظمة لذلك كأن يخصص خمسة مقاعد مثلا بكل طائرة للشيوخ بالمجان أو بالتخفيض.

والواقع أن هناك الكثير من الأبناء والبنات الذين هاجروا إلى أمريكا وأستراليا وغيرهما من بلاد أجنبية بعيدة. أضف أيضا أن هناك الكثير جدًا من المصريين الذين يعملون بالخارج وبخاصة بالأقطار العربية والإفريقية. فلماذا إذن والحال هذه لا تيسر أمامهم مشقات السفر وتخفف عنهم تكاليف النقل الباهظة؟ ألا يجب أن يمنح الأب الشيخ والأم الشيخة فرصة مشاهدة الأبناء والبنات المغتربين وذلك بأن يسمح بنقلهم بالطائرات والبواخر بالمجان أو بالتخفيض؟ إننا نري أن هذا سوف لا يكلف كثيرا، وأن بمقدور وزارة الشئون الاجتماعية عندنا أن تقنع ذوي الشأن بعدالة قضية الشيخوخة بإزاء ذلك الأمر، بل وتستطيع أن تقنع الشركات الأجنبية الخاصة بالنقل الجوي بنفس الشيء. وما لا يدرك كله لا يترك جله . فإذا لم تستطع إقناعها بالمجانية الكاملة في نقل الشيوخ علي بواخرها

وطائراتها ، فلا أقل من أن تنجح في إقناعها بمنحهم التخفيضات الممكنة (★).

وأكثر من هذا يجب أن تحجز بعض المقاعد في المسارح ودور السينما للشيوخ لكي يحتلوها بأسعار مخفضة، كما يجب أن تنشأ الحدائق والمتنزهات قريبًا من العمائر الجديدة بحيث يقتصر ارتيادها على الأطفال والشيوخ فحسب حتى تتوافر فيها الراحة والأمان لهاتين الفئتين من الناس الذين يحتاجون إلى رعاية خاصة بعيداً عن الصخب أو العنف.

وحري بالإذاعة والتليفزيون أن ينتظما في تقديم البرامج الإذاعية الصباحية المناسبة للشيخوخة، وذلك لأن الشيوخ يجدون أنفسهم في صبيحة كل يوم بحاجة إلي ما يملأ وقتهم ويخفف من حدة وحدتهم وعزلتهم عن الناس، وقد انصرف الجميع إلي أعمالهم وإلى شواغلهم اليومية وظلوا هم بين الجدران لا يجدون أمامهم سوى الراديو والتليفزيون يستوحيانهما علَّهم يجدون فيهما برامج مناسبة، فلا يجدون أحدًا من معدي البرامج قد تذكرهم وهو يقوم بإعداد برنامجه.

والواقع أن الدولة تستطيع أن تقدم الكثير إلى الشيوخ بطريق غير مباشر، فيكفي مثلا إعفاء الشقق التى يقطنها الشيوخ من العوائد أو الضرائب. صحيح أن المبلغ الذي يعفى منه الشيخ مبلغ زهيد ولكن هذا يشعره بأن الدولة لم تغمض عينيها عنه. وتستطيع الدولة أيضا أن تصدر قانونا بإعفاء الشيوخ المستأجرين للشقق من ثمن النور والمياه مادامو يشغلون العقار. فإذا ما وافتهم المنية فإن تلك الميزة تسقط عن أبنائهم ويسددون ثمن النور والمياه كاملا.

أما وزارة التعليم التي تجمع في نطاقها وزارتي التربية والتعليم ووزارة التعليم العالى فلابد لها أن تقوم بواجبها تجاه الشيوخ، وذلك بأن تقوم بإعفاء أبناء وبنات الشيوخ الذين بلغوا الستين فما بعدها من كافة الرسوم المدرسية والجامعية، حتى يستطيعوا الاستمرار في التعليم بغير عنت أو تأزم. أضف إلى هذا أن المبالغ المتحصلة من رسوم مجالس الآباء أو من مثيلاتها في الجامعة يجب أن يوجه منها جزء كبير إلى مستلزمات أبناء وبنات الشيوخ وذلك إما بطريق

(★) شكرا للمسئولين عن النقل لأنهم استمعوا إلى ما نادينا به هنا .

الإعفاءات والتسديد عنهم، وإما بأن تقدم إليهم الكتب والكراسات بالمجان أو بالتخفيض، وأن يكون لهم الحق في الحصول علي وجبات غذاء مجانية أو مخفضة من كافيتريا الكلية أو من مقصف المدرسة.

وأخيرًا فإننا نهيب بوزارة الشئون الاجتماعية - التي نحس بأننا أثقلنا عليها كثيرا في هذا الكتاب - بأن تصرف مبلغ خمسين جنيها على سبيل المثال أو التقريب لذوي كل شيخ كان يعمل موظفًا أو عاملا وكان معاشه أقل من خمسين جنيها لدى وفاته، وذلك مساعدة لدفنه والنهوض بتكاليف الجنازة والعزاء. ذلك أن الشيوخ يجب أن يكرموا في حياتهم وفي مماتهم. ونحن نطالب لهم بحقوقهم بباعث من قيم شرقية لدينا مغروسة في دمائنا. فنحن أولي الشعوب احترامًا وتقديرًا للشيوخ والشيخوخة.

التكافل الاقتصادى بين الشيوخ:

لقد سبق أن أشرنا إلي التكافل بين الشيوخ وذكرنا أن للتكافل جوانب متعددة أهمها التكافل الاجتماعي والتكافل النفسي والتكافل الاقتصادي، وقد ألمحنا إلي جميع تلك الأنواع ثم عرضنا للتكافل الاجتماعي بشيء من التفصيل في الفصل السابق، وقلنا إنه سوف تكون لدينا الفرصة لتناول التكافل الاقتصادي بين الشيوخ بالتفصيل في هذا الفصل الخاص بالرعاية الاقتصادية. والواقع أننا لا نستطيع أن نتصور تحقيق النجاح للرعاية المادية بغير أن يتكافل الشيوخ بعضهم مع بعض في الجانب الاقتصادي بحيث يساند الغني منهم الفقير، وبحيث يتحمس كل واحد منهم لسواه من الشيوخ ويضع نصب عينيه أن الشيخوخة تشكل إطارًا مشتركا ينخرط جميع الشيوخ في نطاقه، ومن ثم فيجب أن يحس جميع الشيوخ بالانتماء إلى فئة الشيوخ وبحيث يجد هذا الانتماء ترجمة صحيحة له في النطاق العملي، وذلك بالتكافل باضلاعه المختلفة التي تشكل الأنواع الثلاثة التي ذكرناها وشبهناها بمثلث يمثل التكافل الاقتصادى أهم أضلاعه.

ومما لاشك فيه أن تعاون الشيوخ بعضهم مع بعض يجعل منهم قوة لا يستهان بها بحيث يكون من السهل عليهم كمجموعة متآزرة ومتحدة أن يتغلبوا

على الكثير من المشكلات التي تجابه الشيخوخة. وعلى العكس من ذلك فإذا ما تقاعس الشيوخ عن التعاون والتآزر بعضهم مع بعض، وإذا ما تفرقوا، أشتاتًا أو إذا استكبر الأغنياء منهم على الفقراء، فإن جميع تلك الفئة سوف تكون عرضة للضياع، بل إن الأغنياء أنفسهم من الشيوخ الذين يظنون أنهم بأموالهم يستطيعون شراء كل شيء سوف يكتشفون بعد ضياع الفرصة منهم أنهم لم يستطيعوا شراء التعاطف بينهم وبين أقرب الناس إليهم، بل إن أقرب الناس إليهم قد يظهرون لهم اللامبالاة، وقد يتوقع كل واحد من المحيطين بهم لحظة موتهم لكي يرث عنهم الأموال الطائلة التي كانوا يحبسونها دونه.

إذن فتكافل الشيوخ بعضهم مع بعض من الناحية المادية، وإضفاء الثري على غيره من أترابه الشيوخ من ماله ليس من قبيل الإحسان، بل إنه في الواقع لا يعدو أن يكون حلقة واحدة في سلسلة يجب أن تكتمل حلقاتها حتي يتسني تحقيق السعادة والطمأنينة لجميع الشيوخ. ذلك أن التكافل في حقيقته هو تكافل تبادلي وليس كفالة من طرف واحد. فإذا كان أحد الشيوخ يقدم من ماله بحيث يكون تكافله اقتصاديًا، فإن غيره من الشيوخ يقدم إليه خدمة فيكون تكافله صحيًا أو اجتماعيًا أو نفسيًا أو روحيًا أو غير ذلك من أنواع التكافل الممكنة.

ومما لا شك فيه أن تكافل الشيوخ بعضهم مع بعض فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية يضمن لفئة الشيوخ الكرامة والاعتداد بالنفس إلي آخر لحظة من لحظات العمر. ذلك أن الشيوخ عندما يلتئمون بعضهم مع بعض في مجموعة واحدة متناسقة ومتآزرة ومتعاونة ومتكافلة، فإنهم يحسون عندئذ بأنهم يشكلون أسرة واحدة يتعاطف أعضاؤها بعضهم مع بعض بحيث لا يجد أحد منهم غضاضة في الأخذ من سواه، وذلك لأن مسألة الأخذ والعطاء مسألة نسبية. فهو – أي الشيخ – إذا أخذ ما يسانده من الناحية المالية من غيره، فإن ذلك الغير يستطيع أن يأخذ منه بدوره أشياء أو خدمات في مقابل ما قدم. وكلما كان التآزر والتماسك قويًا بين أفراد فئة الشيوخ، فإن الإحساس بالفضل يجزل للغير يتزايل، ولا يبقي إلا الشعور بالحب وبأن الجميع أسرة واحدة متكافلة وأن الإحساس «بالنحن» قد صار أقوي من الإحساس «بالأنا». فكلما تغلب الإحساس بالجماعية

علي الإحساس بالفردية، كانت المجموعة إذن أكثر عضوية وأكثر تكافلا بعضها مع بعض.

ولا يخفى على أحد أن مشروعات رعاية الشيخوخة مثل إنشاء أندية العمر الثاني أو اقامة جمعيات أصدقاء الشيخوخة، لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا تكاتف الشيوخ بعضهم مع بعض وكونوا جبهة قوية متماسكة لا تألو جهدًا إلا وبذلته في سبيل تماسكها والحفاظ على أفرادها من الفاقة أو الذل والمهانة. فتكاتف الشيوخ بعضهم مع بعض يضمن لهم الكثير جدًا من الراحة والطمأنينة فى المستقبل كما يسمح لهم بالتغلب على العقبات التى يمكن أن تشكل أمامهم حاجزًا يحول بينهم وبين السعادة والتمتع بقضاء مرحلة عمرية هامة فى سعادة ووفر وعزة .

ويتخذ التكافل الاقتصادى بين الشيوخ أشكالاً وصيغا متنوعة كثيرة يجدر بنا أن نذكر بعضا منها ، فثمة أولاً العطاء النقدى المباشر ، وذلك بأن يقدم الشيخ الغنى لرفيقه الشيخ الفقير شيئًا من ماله . ونحن لا نميل إلى هذا النوع من العطاء لأنه مهما كانت الروح الطيبة سائدة بين الشيوخ فى نادى العمر الثانى أو بالخارج ، فإن الذى يقدم العطاء سوف يحس بالتعالى والتعاظم ، كما أن المتقبل للعطاء قد يحس بالاستذلال أو قد يعتاد الأخذ ولكأنه يتدرب على التسول . من هنا فإننا نميل إلى أن يقدم المتبرع من الشيوخ تبرعاته إلى إدارة نادى العمر الثانى التى تقوم بدورها بالتنظيم والتنسيق بين مطالب الشيوخ المحتاجين . وجدير بتلك الإدارة أن تحيل المال الذى تم التبرع به إلى أشياء عينية تقوم بتوزيعها على الشيوخ المعوزين بغير أن يحس أحد بعملية التوزيع حفاظا على كرامة القيمين بالنادى .

وهناك طريقة أخرى لتقديم التبرعات وهى التطوع للعمل بالمجان . فالطبيب من الشيوخ المقيمين بالنادى يستطيع أن يضطلع بتوقيع الكشوف على المرضى من الشيوخ والقيام بعلاجهم بغير أن ينال مقابلاً عن ذلك . وفى هذه الحالة يقوم النادى برصد مستحقات ذلك الطبيب فى حساب التبرعات لصالح الفقراء من شيوخ النادى. وما يقال عن ذلك الطبيب ينسحب بإزاء الكثير جدا من الخدمات

التطوعية التى يقوم بها بعض الشيوخ فى سبيل نادى العمر الثانى . فالمفروض ألا تغض إدارة النادى النظر عن المقابل الذى كان يجب أن يحصل عليه المتطوع أو أن تسقطه من الحساب ، بل يجب أن يحسب حسابه ثم يحول إلى حساب التكافل الاقتصادى للنادي. ومن الطبيعى أن الشيخ الموسر المقيم بالنادى والذى يوقع عليه الكشف الطبى من قبل الطبيب المتطوع يجب أن يدفع ثمن الكشف وثمن العلاج لإدارة النادي. وتستطيع تلك الإدارة تحويل نسبة مئوية من النقود المتحصلة إلى رصيد التكافل الاقتصادى .

وثمة شيوخ لا يلتحقون بنادى العمر الثانى ويفضلون البقاء فى بيوتهم أو قصورهم فى استقلال عن النادى أو ينتسبون إليه فحسب. فمثل أولئك الشيوخ يمكن أن يقدموا من أموالهم بالإضافة إلى الاشتراك الذى يسددونه عن انتسابهم بعض التبرعات فى المناسبات التى تتضاف إلى حصيلة التكافل الاقتصادى. وليس ما يمنع أيضا من أن يشارك بعض الشباب فى تلك التبرعات سواء فى تسديدها أم فى المساهمة فى جمعها لصالح النادى .

وبمناسبة الشباب فيمكن كماسبق أن قلنا اشتراك الشاب فى نادى العمر الثانى مسبقا قبل حلول الشيخوخة . فإذا ما وافته منيته قبل بلوغ تلك السن ، فيمكن أن يفيد أحد أقربائه باشتراكه ، ولكن من الممكن أيضا أن يوصى ذلك الشاب بأن يحل محله أى شيخ يقع اختيار النادى عليه من المحتاجين بحيث يكون من حقه أن يقيم بالنادى بغير أن يدفع شيئا، لأن ذلك الشاب المنتسب والذى وافقته منيته قد قام بتسديد مستحقاته مقدما خلال العديد من السنين. والواقع أن مثل هذه الفكرة إذا ما عرضت على الكثير من الشباب فإنهم سيتقبلونها بصدر رحب لأنهم سيؤمنون بأن إحلال شيخ فقير محلهم فى نادى العمر الثانى بسبب الموت قبل الشيخوخة سيحظى بمثوبة إلهية كبيرة فى الآخرة، إذ ما دام ذلك الشيخ البديل يعيش فى نطاق نادى العمر الثانى ، فإن بركات ذلك الإحسان المسدى إليه ستتضاف إلى الخير الذى سبق أن أسداه ذلك الشاب قبل وفاته . ذلك أن ما يقدمه الإنسان من خير إلى بنى جنسه يرصد له خيرا فى الآخرة .

ولا يمكن أن نغضى عن الأوقاف التى يمكن أن يوقفها بعض الأغنياء من الشيوخ الذين يجدون لديهم رغبة فى ضمان إيراد ثابت لأحد أندية العمر الثانى وقد تحمسوا لفكرته . والواقع أن مثل تلك الأوقاف ستكون درعا حصينا يحمى الكثير من الشيوخ من شر العوز ، بل إنها ستكون ملجأ للكثير من الشيوخ يحتمون فيه من شر الفاقة، على أنه سوف توضع بالتأكيد بضع شروط لتلك الأوقاف تقوم وزارة الشئون الاجتماعية بتنظيمها ، ذلك أنها ستكون هى الجهة الأولى والأخيرة المسئولة عن أندية العمر الثانى ، بل وعن جميع المناشط المتعلقة برعاية الشيوخ .

ولقد سبق أن قلنا إن الشيوخ بنادى العمر الثانى سيقومون بمراسلة أقرانهم من الشيوخ بالداخل والخارج . ولسوف يتم التراسل بين شيوخنا فى الأندية الخاصة بهم وبين شيوخ الأندية المماثلة بالبلاد الأجنبية . ولسوف تنشأ عن ذلك علاقات مودة بحيث يستطيع بعض شيوخنا اجتلاب بعض الهبات من الأندية الغنية بتلك البلاد قد تتمثل فى أشياء عينية كالملابس وغيرهالسد احتياجات بعض الشيوخ المحتاجين ، سواء كانوا من المقيمين بالنادى أم من المنتسبين إليه ، من المقيمين فى نطاق أسرهم ولم يتسن للنادى استيعابهم أوقبولهم كأعضاء منتسبين إليه .

ومن الواجب ألا نغمض أعيننا عن العقبات التى تقف حائلاً دون التكافل الاقتصادى وسيره بطريقة سليمة أو فى الخط السليم . ذلك أن الوقوف على تلك العقبات هو الطريق الكفيلة بالتغلب عليها قبل وقوعها والارتطام بها . فهناك أولاً تلك الأنانية المتفشية بين الناس، والتى تتزايد حدة لدى كثير من الشيوخ . فكلما ضرب البخيل فى العمر ازداد بخلاً وحرصا على أمواله .

فمن الصعب عليك أن تقنع الشيخ الغنى البخيل بوجوب الفيض والتكافل الاقتصادى مع الفقراء . ولا شك أن تلك الأنانية ناجمة فى غالبيتها عن ضعف القيم الروحية لدى الكثير من الناس بصفة عامة- ، ولدى غالبية الأغنياء الشيوخ بصفة خاصة. وأكثر من هذا فإنك تجد أن الأغنياء يغلب ترفعهم على الفقراء، بل إننا نخشى أن نقول إن الكثير من الأغنياء الشيوخ إذا ما علموا أن نادى العمر الثانى سوف يضم فى نطاقه بعض الفقراء من أقربائهم الشيوخ ، فإنهم سيقررون

على الفور بأنهم سوف لا ينضمون إلى مثل ذلك النادي، ويشترطون انتماءهم إلى ناد خاص بالأغنياء وحدهم دون الفقراء .

أضف إلى هذا أن الكثير من الشيوخ يفضلون قصورهم على أى مكان آخر . وربما يعزى هذا إلى أن الشيخ يرتبط بالمكان الذي ألفه ولا يرضى عنه بديلا . ومن هنا فإنه سيظل لا يحس بوجود غيره من الشيوخ الفقراء لأنه لم ينخرط فى نادى العمر الثانى ولم تواته تلك المشاعر بالنحن، أعنى أن الشيوخ جميعا يشكلون فئة متكاملة ومتآزرة ومتناغمة بعضها مع بعض .

ولا يخفى على أحد أن أقرباء الشيخ يكون لهم فى الغالب اليد الطولى فى القرارات التى يتخذها الشيخ. فما لم يقتنع ذوو الشيخ بجدوى تلك الكفالة مع الشيوخ الآخرين ، فإنهم سيؤثرون على شيخهم أو يضطرونه إلى حبس أمواله عن غيره من شيوخ محتاجين وعدم مد يد العون إلى الفقراء منهم أو التعاون فى إنشاء المؤسسات الاجتماعية التى تقوم برعاية الشيوخ المحتاجين إلى الرعاية المادية المباشرة .

ومن العقبات التى تقف أيضا حائلاً دون التكافل الاقتصادى بين الشيوخ عدم ثقة الكثير من الأغنياء من الشيوخ فى أن ما يتم التبرع به سوف يفيد منه الشيوخ المعوزون بالفعل، بل قد يشكون فى أنه قد ينهب ويجد طريقه إلى جيوب المختلسين من جانب بعض ضعاف النفوس الذى يندسون بين الموظفين لنهب ما يمكن نهبه وحرمان أصحاب الحقوق من حقوقهم .

أضف إلى هذا أن الكثير من الشيوخ المعوزين حقا ينزوون بعيداً عن الناس ولا يشكون أمرهم لأحد ، بل إن كثيرى الشكوى من الشيوخ ومداومى الإقبال على المسألة والتسول لايكونون غالباً بحاجة إلى المال بقدر طمعهم فى ابتزاز الأموال وحشدها لأنفسهم .

وفى نهاية حديثنا هذا عن العقبات التى تقف حائلا دون التكافل الاقتصادى نذكر أن صورة التكافل الاقتصادى وترتيباته وإجراءاته ما تزال غير واضحة ولا يمكن تحديدها على الورق بطريقة مسبقة .

جمعية أصدقاء الشيخوخة :

سبق أن ألمحنا إلى ضرورة إقامة جمعية أصدقاء الشيخوخة. ولسوف تكون هذه الجمعية بمثابة اعتراف من جانب الدولة بأهمية هذه المرحلة ، وبضرورة قيامها برعاية الواقعين فى نطاقها ، كما أن هذه الجمعية التى ندعو إلى إنشائها ستكون البديل للمجلس الأعلى لرعاية الشباب والمجلس الأعلى لرعاية الأسرة وغيرهما من مجالس خدمية متخصصة، فبدلاً من إقامة مثل هذا المجلس لرعاية الشيخوخة نقترح بأن يصدر قرار جمهورى بانشاء جمعية أصدقاء الشيخوخة ضماناً لجدية وجدوى الجهود التى تبذل للدفاع عن مصالح الشيوخ من جميع فئات الشعب وبكافة أنواع الرعاية التى تعرضنا لغالبيتها فى هذا الكتاب، وهى الرعاية الصحية والرعاية النفسية والرعاية الاجتماعية والرعاية المادية أو الاقتصادية .

ونقترح أن تضم جمعية أصدقاء الشيخوخة (أو المجلس الأعلى لرعاية الشيخوخة) صنفين من العاملين : موظفين ومتطوعين ثابتين. ويقتصر عمل الموظفين على الإدارة والشئون المالية ، بينما يستأثر المتطوعون بالعمل الميدانى والخدمات . ويتشكل منهم مجلس استشارى إشرافى تكون له الهيمنة على مجلس إدارة الجمعية من الناحية الأدبية ، بحيث نضمن حسن سير العمل الإدارى والمالى ويكون المجلس الاستشارى مجلس نقد وتوجيه كما هو الحال بالنسبة لنظيره فى نادى العمر الثانى . ومعنى هذا فى الواقع أن العبء الأكبر من أهداف الجمعية سوف يناط بالمتطوعين وليس بالموظفين . ذلك أن مثل تلك الجمعية تعتمد فى ديناميتها على مدى حماس المتطوعين للدفع بها إلى الأمام وجعلها تنبض بالحياة وتتدفق بالحيوية والنشاط والتجدد . ومن المعروف أن المؤسسات التى توكل إلى مجموعة من الموظفين يكون مآلها إلى الفشل أو على الأكثر فإنها لا تتفتق عن مجالات عمل جديدة ولا تسبق الأهداف التى جعلت لها. ذلك أن الموظف يكون محدودا بحدود الأهداف التى ترسم له، ويكون نشاطه محصوراً فى نطاق لا يتعداه. أما المتطوع فإنه يندفع من دخيلته ويتدفق فى تصرفاته عن حماس يملأ صدره ويعمر فؤاده ويلهب وجدانه. من هنا فإن المتطوعين فى أى عمل يكون

ديدنهم التضحية والبذل . فهم لا يحسبون جهودهم بالوقت الذى يقضونه فى العمل التطوعي، كما أنهم لا يحسبون انتاجهم بعدد القطع التى يتم لهم إنتاجها، بل يقيسون جهودهم فى ضوء مدى رضائهم عن جهودهم التى بذلوها، كما أنهم يقيسون النتائج التى تم لهم إحرازها فى ضوء ما ترسموه من مثل عليا تعلقت بها قلوبهم ، وهفت إليها نفوسهم، ورنت إليها آمالهم، وتبلورت حولها أحلام يقظتهم.

ولعل القرار الجمهورى الذى نقترحه يتضمن التنظيم الهيكلى الذى تكون وزارة الشئون الاجتماعية قد درسته بواسطة لجنة تأسيسية تكون مهمتها تناول هذا الموضوع وبحثه من زاويتين: زاوية محلية واقعية وزاوية علمية مقارنة. فبالنسبة للزاوية الأولى يكون الفكر مركزا على ما يجب أن يتم عمله فى ضوء الامكانيات المتاحة، وبالنسبة للزاوية الثانية يؤخذ فى الاعتبار ما كتب فى هذا الموضوع سواء فى الكتب التى تعرضت للشيخوخة مثل كتابنا هذا، أم فى المجلات والبحوث العربية والأجنبية، بالإضافة إلى استطلاع آراء ذوى الرأى والمختصين فى الخدمة الاجتماعية. وبتفاعل الفكر الواقعى مع الفكر النظرى التأملى يتسنى لتلك اللجنة التأسيسية وضع تخطيط هيكلى لجميعة أصدقاء الشيخوخة بحيث تضم كما قلنا موظفين إداريين وماليين من جهة ، كما تضم عددا من المتطوعين وتحدد شروط قبولهم بالجمعية من جهة أخرى . وطبيعى أن ذلك القرار الجمهورى سوف يحدد مهام كل من الإداريين والميزانية وعلاقات الموظفين بعضهم ببعض ، كما يحدد علاقة هيئة الموظفين بالهيئة المتطوعة إلى غير ذلك من تنظيم للعلاقات التى تقوم بين المشتركين فى جمعية أصدقاء الشيخوخة .

ولابد أن يتضمن القرار الجمهورى أهداف جمعية أصدقاء الشيخوخة بالتفصيل . ولعلنا نقترح هنا أهم تلك الأهداف التى يجب ذكرها فى القرار الجمهورى بهذا الشأن .

أولا - حماية الشيوخ من الفاقة وذلك بأن يوفر لهم حد أدنى من المعيشة لايهبطون عنه. ويتطلب هذا أولاً منح معاش شيخوخة لكل شيخ يقل دخله الشخصى عن حد معين سواء كان دخله الأصلى عن طريق تجارة أو عن ريع عقار أومن معاش .

ثانياً - توفير فرص العمل المناسب غير المرهق وغير المجحف للشيوخ المحتاجين إلى الاشتغال بسبب مسئوليات لابد من نهوضهم بها على الرغم من شيخوختهم. وبهذه المناسبة يكون من الضرورى عمل مسح شامل لجميع الأعمال بالمؤسسات والشركات والمصالح الحكومية بل وبالقطاع الخاص وفرز ما يصلح منها للشيخوخة وحبسها عليهم دون الشبان مادام هناك شيوخ يطلبون شغلها .

ثالثا - ضمان مستقبل أولئك الذين يقوم الشيخ بإعالتهم ولكن لا تسمح له صحته بالاستمرار فى النهوض بمسئوليته قبالتهم أو موته قبل إتمام رسالته.

رابعا - تبنى قضايا الشيوخ والدفاع عنها وذلك كقضية العلاوات بعد أخذ المعاش التى أثرناها فى أول هذا الفصل والتحدث باسمهم فى المنظمات المحلية والدولية .

خامساً - التخطيط والتنظيم للمناشط الخاصة بالشيوخ على المستوى المحلى والدولى ، وعدم إسقاطهم من حساب المخطط لمناشط الأفراد والجماعات. ويجب أيضا عدم الاكتفاء بالتخطيط والتنظيم بل يجب أيضا حث الشيوخ على الانخراط فى تلك المناشط والتحمس لها ثم متابعة الشيوخ فى ذلك وتذليل الصعوبات أو رفع المضايقات من طريقهم .

سادسا - توجيه نشاط الشيوخ والعمل على تخليصهم من العادات الرديئة ومن حالة الضياع التى يجدون أنفسهم فيها بعد الإحالة إلى المعاش .

سابعًا - المساهمة فى حل المشكلات الأسرية التى يجد الشيوخ أنفسهم متخبطين فيها وحائرين بإزائها أو التى يجد المحيطون بالشيوخ أنفسهم فى حَيْص بَيْص وقد ارتطموا بها، بحيث تأتى الحلول لصالح الشيوخ ولصالح أسرهم على السواء .

ثامنا - تحقيق الرعاية الصحية للشيوخ وذلك بمداومة الكشف عليهم فتريا وإنشاء الأقسام الخاصة بهم بالعيادات الخارجية بالمستشفيات الحكومية والخاصة بأمراض الشيخوخة وتخصيص أطباء يسبرون أغوار تلك الأمراض ويقفون على طرائق علاجها كما سبق أن اقترحنا بالفصل الخاص بالرعاية الصحية .

تاسعاً – ضمان مناخ بيئى مستقر وصحى للشيوخ، وذلك بإنشاء أندية العمر الثانى وهى الأندية التى لانستطيع أن نتصور لها بديلا يغنى عنها.

عاشراً – وحتى بالنسبة للشيوخ الذين لا يلتحقون بأندية العمر الثانى لعدم رغبتهم فى الالتحاق بها أو لعدم اتساع تلك الأندية لقبولهم ، فيجب أداء الخدمات الصحية والنفسية والاجتماعية لهم فى بيوتهم أو حيث يكونون .

ولعلنا بعد أن عرضنا للأهداف التى يجب أن تترسمها جمعية أصدقاء الشيخوخة نبدأ فى استعراض بعض مجالات العمل والمناشط التي يستطيع أعضاء الجمعية المساهمة فيها. فثمة أولا إعداد الرأى العام لتقبل نشاط الجمعية وذلك بالتوجه إلى وسائل الإعلام بالمقالات أو بالإذاعات والمقابلات وعقد الندوات التى تدور حول رعاية الشيخوخة. وتستطيع الجمعية -أو يجب عليها- أن تفتح مجال الانتساب إليها للجميع ، ويكون ذلك نظير اشتراك رمزى يحمل المنتسب بمقتضاه شارة تعلق على صدره تحمل اسم الجمعية . وتكون هناك اجتماعات موسعة لجميع الأعضاء المنتسبين تبدأ باجتماع الالتحاق أو التدشين حيث يتلو المنتسب قسما خاصا بالجمعية يتعهدفيه بمساعدة الشيوخ فى جميع الظروف والعمل على راحتهم وتذليل الصعوبات التى قد تكتنف طريقهم . ويحسن أن تخصص شارة للجمعية بحجم كبير تحتل مكان الصدارة على العربات الخاصة بالمنتسبين ويعنى وضعها فى مقدم السيارة وتثبيتها فوق زجاجها أن صاحب السيارة على استعداد لتوصيل أى شيخ يقابله فى طريق سيره إلى أقرب مكان من الهدف الذى يرغب الوصول إليه . وفى ذلك المكان القريب سوف يجد الشيخ صاحب سيارة آخر من المنتسبين إلى الجمعية فى الغالب لكى يوصله إلى المكان الذى يستهدفه .

وحامل شارة الجمعية من المترجلين يكون عليه خدمة الشيوخ الذين يقابلهم فى الطريق أو فى وسائل المواصلات ، ويساعدهم على إن يجدوا المقاعد يجلسون عليها بالأوتوبيسات ووسائل المواصلات الأخري، بل وبساعدهم فى أى شىء يتسنى له مساعدتهم بإزائه. وأكثر من هذا فإن المتطوع قد يعرض على الشيوخ استعداده لمساعدتهم فى تذليل الصعوبات وقضاء الأعمال والمهام التى يرغبون في إنجازها بالمصالح والشركات والمؤسسات.

ولسوف يكون من مهام أعضاء جمعية أصدقاء الشيخوخة البحث فى توزيع الشيوخ على أندية العمر الثانى والبت فى قبولهم بالاشتراك مع مجالس إدارات تلك الأندية. ولقد يكون من مهام تلك الجمعية وضع شىء يشبه التنسيق الذى تسير عليه الجامعات بإزاء قبول الطلاب بها، وذلك عندما يشتد الضغط على أندية العمر الثانى ويكون من الضرورى وضع قواعد للقبول بها بحيث تتحقق العدالة فى ذلك .

ومن مهام الجمعية أيضاً تحقيق التعاون بينها وبين أندية العمر الثانى فى مجالات متباينة، فهى لديها المتطوعون الذين يمكن مد تلك الأندية بهم إذا ما احتاجت إلى خدماتها وبخاصة فى أثناء المؤتمرات والحفلات والندوات والرحلات وغير ذلك من مناسبات تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة طارئة .

والواقع أن القيام بعمل الإحصاءات والبحوث الميدانية التى تعتبر حجر الزاوية فى الخدمة وفى رعاية الشيخوخة على أسس علمية إحصائية سليمة. ذلك لأن الحماس وحده لا يكفى ، بل يجب أن ينضاف إليه تخطيط قائم على أسس إحصائية وعلى استقراء الواقع بكل أبعاده الفردية والجماعية بالنسبة للشيوخ والمحيطين بهم على السواء .

ومن مهام أعضاء الجمعية أيضاً سواء كانوا أساسيين أم منتسبين متطوعين القيام بجمع التبرعات والمساعدات من الأفراد والجماعات والمؤسسات على السواء، وذلك حتى يتسنى توفير فرص الرعاية المتكاملة للشيخوخة .

ثم هناك المشاركة فى مساعدة الشيوخ على الالتحاق بالمستشفيات ومتابعة العلاج وتوفير الأدوية والإعداد لإجراء العمليات الجراحية لهم، بل والمشاركة أيضا فى دفن من توافيه منيته من الشيوخ، وذلك بمساعدة ذويه فى استخراج شهادة الوفاة وتوفير محل الدفن لمن ليس لهم مدافن خاصة، بل إن الجمعية يمكن أن تتبنى مشروع إقامة مدفن عام للشيخوخة بحيث يضمن أهل الشيخ الفقير أن يوارى شيخهم الثرى فيه بالمجان ، بل ولكى يتسع أيضا للشيوخ المقتدرين الذين لا يملكون مقابر خاصة بهم وذلك نظير رسم تحدده الجمعية يقوم ذووه بتسديده .

وعلى أفراد جمعية أصدقاء الشيخوخة أن تعمد أيضا إلى بث الوعى التربوى لاحترام وإجلال الشيخوخة من خلال المناهج المدرسية بحيث تدور بعض موضوعات القراءة حول فضل الشيوخ على أبناء الأجيال التالية، وذلك حتى تضمن قيام جيل يقدر الشيخوخة حق قدرها ولا يستهين بمكانة الشيوخ وفضلهم .

أخيرا فإن على جمعية أصدقاء الشيخوخة أن تشارك فى تنظيم احتفالات عيد العمر الثانى الذى يجب أن يقام فى كل عام بحيث يسبقه أسبوع يسمى أسبوع الشيخوخة . وفى ذلك الأسبوع ينشط أعضاء الجمعية الأساسيون والمنتسبون والمتطوعون على السواء بنشر الوعى الاجتماعى بقيمة الشيوخ وذلك بالإعلانات تعلق فى كل مكان كما تجند وسائل الإعلام لصالح الشيوخ كما ينتشر أعضاء الجمعية فى الشوارع لمد يد العون إلى كل شيخ بحاجة إلى عون وحث الآخرين على ذلك أيضا، بل وضم الكثير من الشبان والشابات إلى صفوف الجمعية كأعضاء منتسبين لخدمة الشيخوخة .

أسبوع الشيخوخة وعيد العمر الثاني :

سبق أن اقترحنا تخصيص أسبوع للشيخوخة يتبعه يوم يحدد تاريخه ويلتزم به سنويا يطلق عليه اسم «عيد العمر الثاني» . والمقصود من أسبوع الشيخوخة ومن عيد العمر الثانى تركيز الانتباه على المشكلات المتباينة المتعلقة بالشيخوخة وفى مقدمتها المشكلات الاقتصادية . والواقع أن تركيز الاهتمام على جانب واحد خلال فترة طويلة نسبيا سوف يؤدى بالضرورة إلى التلبس بعادة وجدانية معينة وباتجاه ثابت بتجاه الشىء الذى يركز الانتباه عليه . وليست هذه بدعة جديدة ابتدعتها الأجيال الحديثة ، بل إن ذلك تقليد راسخ فى لحم الإنسانية منذ بواكير إحساسها بنفسها . فالقبائل البدائية ذاتها تخصص مواسم معينة لمناسبات خاصة ترغب فى التأكيد عليها . وكذا فإن الأديان على تباينها وبضمنها الأديان السماوية قد عمدت وتعمد إلى تخصيص أيام معينة خلال كل عام لمناسبات معينة تحض أتباعها فى خلالها على تركيز الانتباه على جانب معين أو على واقعة تاريخية معينة. فنجد فى المسيحية عيد الميلاد لتذكرة المسيحيين بميلاد السيد المسيح

وعيد القيامة- للتأكيد على وقائع أخرى فى حياة المسيح. وفى الإسلام نجد مناسبات سنوية كشهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى وليلة الإسراء والمعراج وغير ذلك من مناسبات عديدة ترتبط بوقائع تاريخية يراد من المسلمين المعاصرين تركيز الذهن والوجدان عليها حتى ترسخ فى النفس . وما يقال عن المسيحية والإسلام ينسحب أيضا على الديانة اليهودية وغيرها .

فالمفروض أن تركز وسائل الإعلام خلال ذلك الأسبوع على مشكلات الشيخوخة وأن تقوم بقتلها بحثا ودراسة وتحليلاً ، بل وأن تسارع بتقديم الحلول وأن تنقد الجهات التى تهمل فى حق الشيخوخة، وأن تعقد الندوات لمناقشة المسئولين عن الإهمال الذى وقع والكشف عن أسبابه وطرائق العلاج ونحو ذلك من مداخل إلى موضوعات ومشكلات الشيخوخة. ومن الطبيعى أن تبدأ وسائل الإعلام بالمسائل الاقتصادية التى تعرقل سعادة وطمأنينة الشيوخ، وأن تكون فاتحة صدرها لشكاوى الشيوخ وتقوم بنشرها أو إذاعتها على الملأ حتى تصل أصوات الشيوخ إلى المسئولين عن رعاية مصالحهم .

وفى ذلك الأسبوع من كل عام تكون جميع المرافق المهتمة بخدمة الشيوخ قد أعلنت حالة الطوارئ فى ربوعها. صحيح أن الواجب على تلك المرافق أن تخدم الشيوخ طوال العام كأحسن ما تكون الخدمة ، ولكن يحسن أن تخصص تلك المرافق أسبوع الشيخوخة لكى تبدأ صفحة بيضاء فى عملها، فتبدأ مثلاً باستخدام الأدوات الجديدة التى اشترتها أو استوردتها فى ذلك الأسبوع، وتستمر بعده فى استخدامها ، كما يجب أن تفتتح المشروعات الخاصة بالشيخوخة خلال ذلك الأسبوع من كل عام ، وأن تحدد مواعيد افتتاحها بحيث تأتى خلال ذلك الأسبوع من كل سنة دون غيره .

ويجب على الدولة أن تولى اهتمامها بالشيخوخة وبمشكلاتها خلال ذلك الأسبوع الخاص بها وذلك بأن تقوم باعتماد مبلغ كبير فى الميزانية لكى يوزع على المحتاجين من الشيوخ خلال ذلك الأسبوع . ويجب ألا تغلق الدولة أذنها عما يعرض بالصحف والإذاعة والتليفزيون من مشكلات تتعلق بالشيوخ كفئة أو كأفراد خلال

أسبوع الشيخوخة ، بل يجب على كل جهة مسئولة أن تتناول المشكلات المعروضة التى تتعلق بها وأن تجرى اللازم بخصوصها سواء كان ذلك بالتحقيق مع المسئول عن الإهمال، أم كان اقتراحاً جديداً بأسلوب جديد فى العمل أم كان توصية عامة تتعلق بسياسة جديدة يجب اتباعها فى العمل فيما يتعلق بالشيخوخة .

والواجب أن يوضع برنامج لأسبوع الشيخوخة بحيث يخصص كل يوم من الأيام السبعة لفئة معينة من فئات الشعب، فيخصص يوم لتكريم المسنين من السياسيين، ويوم للعلماء والمفكرين منهم ، والثالث للفنانين والرابع للمعلمين والخامس لرجال الصحافة والسادس للقادة العسكريين والسابع والأخير للشعراء ورجال الفن . ويتلو تلك الأيام السبعة يوم عيد الشيخوخة الذى آثرنا له اسم عيد العمر الثانى . ونحن نقترح أن يقوم المجلس الأعلى للشيخوخة الذى اقترحنا أن يتخذ له اسما آخر هو جمعية أصدقاء الشيخوخة ، (وكلاهما من نسج الخيال حتى الآن) بترشيح ثلاثة من كل فئة من هذه الفئات للحصول على جوائز الدولة فى اليوم الخاص بها بشرط أن يتم الاختيار على أساس رجلين وامرأة واحدة بالنسبة لكل فئة من هذه الفئات السبع حتى نضمن تقدير الجنسين على السواء فى شتى المجالات . ونأمل أن يقوم رئيس الجمهورية أو من ينوب عنه بتقديم الجوائز إلى مستحقيها من الشيوخ من الجنسين فى يومهم المشهود .. أضف إلى هذا أن تقوم المؤسسات الشعبية بعمل نفس الشىء على المستويات الإقليمية . فلقد يتسنى أن يعمل نفس الشىء فى كل محافظة وأن يقوم المحافظ بتوزيع الجوائز على مستحقيها خلال أيام أسبوع الشيخوخة .

أما عيد الشيخوخة (عيد العمر الثاني) فيجعل كعيد عام لجميع أبناء الشعب حيث يتسنى لكل أسرة أن تكرم شيوخها، بل وأن تجزل لهم العطاء وأن تسد احتياجاتهم وأن تتجاوب معهم ، ولسوف تكون هذه المناسبة فرصة سانحة لتصفية ما قد يكون شاب القلوب من مكدرات ، أو ما قد يكون نشب من منازعات ، أوقام من خلافات ، أو دب من خصومات . ولسوف تكون تلك المناسبة فرصة لتقدير الشيوخ قبل أن يتزايلوا من هذا العالم ثم يبدأ الناس بعد ذلك فى تذكرهم كما حدث ويحدث بالنسبة للكثير من الفنانين والموسيقيين والسياسيين والمصلحين

الاجتماعيين. والواقع أن الإنسان أحوج ما يكون إلى تقدير يناط به ويستمع إليه بأذنيه ، لا أن يقوم مقامه بعض من أقربائه يحصلون على النياشين بدلا منه ويستمعون إلى تقديره بآذانهم هم بعد أن يكون الدود قد أكل أذنيه فى مقبرته .

ونستطيع القول فى الواقع إن أسبوع الشيخوخة وعيد العمر الثانى سوف يكونان التعبير الاجتماعى العملى والناجع بحيث يتسنى لجميع فئات الشعب المشاركة فيه لا بألسنتهم فحسب بل وبالفعل والتصرف والتضحية أيضا، وأكثر من هذا فلسوف تكون هذه مناسبة مواتية يستطيع الجميع أن يعمدوا خلالها إلى حل مشكلات الشيخوخة المعلقة وتنفيذ المقترحات والمشروعات الخاصة برعاية الشيوخ التى كانت راكدة ، بل إن المؤسسات والمصالح والشركات ستكون مقيدة بافتتاح مشروعاتها الخاصة بالشيخوخة خلال ذلك الأسبوع من كل عام .

أما أندية العمر الثانى فإنها بلا شك ستقوم بفتح أبوابها أمام الشعب لكى يتلقى منهم الهدايا والمعونات النقدية والعينية، وسوف لا يقتصر النادى فى توزيع التبرعات التى يتلقاها على المحتاجين من الشيوخ المقيمين فيه ، بل إنه سيوزع قسطا منها أيضا على المنتسبين من الشيوخ إليه بل وعلى غير المنتسبين من الشيوخ المعوزين الذين يسعى إليهم من حين لآخر لرعايتهم أو بحث حالاتهم .

ومن جهة أخرى فإن أقرباء الشيوخ الأغنياء المقيمين بالنادى سيعتبرون أسبوع رعاية الشيخوخة وعيد العمر الثانى فرصة يعبرون خلالها عما تجيش به صدورهم من حب وتقدير لذويهم الشيوخ ، فيترددون عليهم وقد حملوا الهدايا إليهم وهو ما سوف يشرح صدور الشيوخ ويفرحون بما يصلهم من هدايا .

وفى أسبوع الشيخوخة ستقوم الدولة بإصدار التشريعات الجديدة كل عام لصالح قضايا الشيخوخة. ولسوف تنتظر الجهات المسئولة عن الرعاية الاجتماعية هذا الأسبوع من كل عام لكى تعلن خلاله الجديد من التشريعات والنظم التى أعدتها للإصدار. صحيح أن التشريعات واللوائح يمكن أن تصدر فى أى وقت خلال العام، ولكن إذا ما اتفق على قيام الدولة بإصدار تشريعاتها الخاصة بالشيخوخة خلال فترة معينة هى أسبوع الشيخوخة ، فسيكون لتلك التشريعات بعيد الأثر فى

نفوس الشيوخ وسيعتبرونها بمثابة هدية تقدمها الدولة إليهم فى مناسبة أسبوعهم وعيدهم السنوى .

ومن الممكن أيضا - بل ومن المستحسن - أن تقوم وزارة التعليم ، بإفساح جانب من مناهج المرحلة الابتدائية لمناسبة أسبوع الشيخوخة وعيدها، وذلك كأن تخصص بعض الأناشيد لهذا الغرض بكتب القراءة وأن تشارك الطفولة بمناشطها فى التمثيل والصحافة والتربية الرياضية وغير ذلك فى الحفلات التى تقام لهذا الغرض .

ومن الممكن أن تساهم وزارة الثقافة بقسط كبير فى أسبوع الشيخوخة وعيدها وذلك عن طريق معرض الكتاب الدولى الذى يمكن تحديد أسبوع الشيخوخة فى نفس الوقت الذى يقام فيه ذلك المعرض كل عام أى فى شهر يناير ، أو أن يخصص معرض كتاب خاص بالشيخوخة. ويقوم معرض الشيخوخة بعرض الكتب التى تم تأليفها أو ترجمتها حول الشيخوخة ، فتجد رواجا وتباع بأعداد وفيرة خلال تلك المناسبة . وفى هذه المناسبة أيضا سوف تعرض الأفلام التى تدور حول الشيخوخة ، بل إن السينما المصرية سوف تجد أيضا فرصة مواتية خلال هذا الأسبوع لعرض الأفلام حول الشيخوخة، كما أن المؤلفين والمنتجين سوف يهتمون أيضا بهذه المناسبة السنوية ، بحيث نستطيع فى المستقبل القريب أن نجد فى السوق أفلاماً تدور موضوعاتها حول الشيخوخة . وبالمناسبة فإنك سوف تجد فنانينا القدامى الذين اشتهروا فى شبابهم بأدوار الفتى الأول ثم تواروا عن الأنظار لدى بلوغهم الشيخوخة (لأن السينما المصرية لا تهتم إلا بالشباب من الممثلين فى الغالب) وقد ظهروا من جديد واحتلوا الأماكن التى كانوا قد فقدوها بسبب تزايل ملامح الشباب من وجوههم وسريان التجاعيد فيها .

وبمناسبة الفن والفنانين فإن وزارة الثقافة سوف يتسنى لها خلال هذا الأسبوع من كل عام إقامة حفلات يشارك فى إحيائها كبار الفنانين من المغنين والراقصين بحيث يخصص دخلها لمشروعات الشيخوخة كمشروعات أندية العمر الثانى . وبهذا يكون هناك رخاء سنوى يتأتى عن مثل تلك الحفلات ينعش ميزانية الخدمات الخاصة برعاية الشيخوخة بكافة أنواع الخدمة والرعاية .

ولقد تتبرع بعض المؤسسات التجارية بجانب من ربح مبيعاتها لصالح الشيخوخة أو تمنح خصما للشيوخ الذين يترددون على محلاتها خلال أسبوع الشيخوخة وعيدها بالنسبة للسلع التى يقومون بشرائها .

ولقد تجد أندية العمر الثانى فرصة مواتية أمامها لإقامة معارض سنوية يشترك فى إنتاجها الشيوخ الذين لديهم دراية ودربة فى الصناعات اليدوية . ومن الطبيعى أن تأتى مثل تلك المعارض بعائد كبير يمكن أن يعود على الشيوخ المشتركين فى الإنتاج إما نقدًا وإما فى شكل رعاية وخدمة أو الاثنين معا .

ولا ننسى ما سبق أن ذكرناه من أن هناك أبناء وبنات كثيرين قد هاجروا إلى أمريكا وأستراليا وغيرهما من بلاد ، وأن هناك العديد منهم أيضا يعملون بالأقطار العربية والإفريقية. فإذا ما أقيم أسبوع الشيخوخة وعيدها، فمما لا شك فيه أن الأبناء والبنات فى الغربة سوف يسارعون بإرسال الأموال إلى شيوخهم وشيخاتهم تعبيرا عن مشاعر الحنو والتعاطف معهم ، ولسوف تيسر الدولة دخول تلك الأموال أو الهدايا بحيث يحظى الشيوخ برغد فى العيش، بل إن ذلك فى حد ذاته سيكون له أثر بعيد المدى فى الاقتصاد القومى ذاته ، إذ إن الكثير من العملة الصعبة سوف يجد طريقه من البلاد الأجنبية على اختلافها إلى بلدنا .

وأكثر من هذا فإن الكثير من الأبناء والبنات المغتربين سوف يفكرون جديا فى الحضور لرؤية ذويهم فى هذه المناسبة مما سيترتب عليه نشاط الحركة السياحية فى مصر أكثر فأكثر. ذلك أن الغالبية العظمى من المصريين المهاجرين والمسافرين لا يحبون النزول عند ذويهم بل يفضلون النزول بالفنادق لكى يقيموا بها فى حرية وبغير أن يثقلوا على أحد. وطبيعى أن تلك الزيارات ستوفر الكثير من الرخاء لشيوخنا وشيخاتنا .

★ ★ ★

للمؤلف

بدار غريب بالفجالة

١ - الشخصية القوية (طبعة ثانية) .

٢ - الشباب والتوتر النفسى (طبعة ثانية) .

٣ - رعاية المراهقين (طبعة ثانية) .

٤ - العبقرية والجنون .

٥ - قوة الإرادة .

٦ - الحب والكراهية .

٧ - رعاية الشيخوخة .

٨ - الانتماء وتكامل الشخصية.

٩ - الحرية النفسية .

١٠- سيكولوجية الشك.

١١ - استثمر وقت فراغك .

١٢ - بالعزيمة تتحقق آمالك .

١٣ - تعلم فن التفكير والكلام .

١٤ - الحب من أول نظرة .

١٥ - صحتك النفسية في الميزان .

١٦ - الصداقة والحب.

١٧ - الغيرة والحسد.

١٨ - كن شجاعًا ولا تخف .

١٩ – كيف تربي أولادك .

٢٠ – كيف تصلح سلوكك .

٢١ – تذوق الجمال لتعيش سعيدا .

٢٢ – ماذا تعرف عن اللاشعور .

٢٣ – تعلم فن التفاوض .

٢٤– قاموس علم النفس .

٢٥ – المشاكل الزوجية .

٢٦ – الزوجة الناجحة .

٢٧ – كيف تعاملين زوجك .

٢٨ – الكذب وأثره في الإنسان .

٢٩ – الغرور وأثره في الإنسان .

٣٠– الضمير وأثره في الإنسان .

٣١ – الصراحة ما لها وما عليها.

٣٢ – عاداتك عنوان شخصيتك .

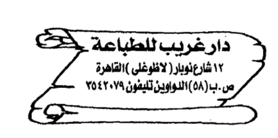
فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩



هذا الكتاب

محاولة رائدة لتقديم تصور علمى إنسانى لكيفية القيام بالرعاية الواجبة لأناس أدوا واجبهم نحو مجتمعهم ودفعوا بعجلة تقدم وطنهم.

ويتصف هذا الكتاب بالواقعية من ناحية وبالمثالية من ناحية أخرى. فهو يصف حال الشيوخ وما يعانونه فى كافة مجالات حياتهم، ثم يقدم صورة مستقبلية ناصعة لما ينبغى الاضطلاع به شعبيا وحكوميا، فيقترح المؤلف: إنشاء ما أسماه بأندية العمر الثانى كبدائل لملاجىء العجائز، كما يقترح إنشاء جمعية أصدقاء الشيخوخة وتخصيص أسبوع للشيخوخة كل عام يكون اخر يوم فيه عيدا للشيخوخة. فيحتفل فيه جيل الشباب وجيل الطفولة بالشيوخ من الجنسين ويدخلون البهجة والأمل فى نفوسهم ويعبرون لهم عن مشاعر الامتنان والعرفان لما قدموه إليهم من خدمات وما بذلوه من أجلهم من تضحيات.

والواقع أن هذا الكتاب يهم جميع المهتمين بالدراسات النفسية والاجتماعية، وكل من يتحمس للقضايا الانسانية. كما أنه يهم المسئولين بالدولة عن الخدمة الاجتماعية وفى مقدمتهم وزارة الشئون الاجتماعية.

هانى أحمد غريب



